فقه التنوع في الشريعة الإسلامية

التأصيل والتطبيق

The jurisprudence of diversity in Islamic law rooting and application

دراسة تأصيلية فقهية مقارنة

تأليف

د. عبد المحمود أبُّو

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
فرع المنصورة
٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ ٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

حقوق الطبع محفوظة

. فقه التنوع في الشريعة الإسلامية ، التأصيل والتطبيـق، دراسة تأصيلية فقهية مقارنة .

تأليف : د. عبد المحمود أبُّو

. ط١. القاهرة : ٢٠٢٤م .

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع ٢٠٢٤م

- ٥٠٨ ص ، ٢٤سم

رقـم الإيداع : / ٢٠٢٤م

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-997- -

- تدمك : - -٩٩٧-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠٢٤م

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
فرع المنصورة
٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٢ ٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

استهلال

قال تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

(١) سورة الروم الآية ٢٢.

إهداء

إلى أبـي وأمـي الحبيبـين اللـذين باعـا سـعادتهما بسعادتنا، رحمهما الله في دار الخلود.

وإلى إخوتي جميعًا إناثا وذكـورا لهـم منـي صـادق المحبة.

وإلى زوجتيَّ الفاضـلتين أم نفحـات وأم يحيـى، اللتين ضحتا بحقوقهما وقامتا بمساعدتي بكل مـا أحتاجه من أجل إنجاز هذا البحث.

وإلى أبنائي وبناتي أهـل محبتـي وصـداقتي، وإلـى أحبابي زملاء العمل.

وإلى كل من له حق عليَّ.

إليكم جميعًا أُهْدِي هذا البحث

شكر وتقدير

أحمدُ ربي -تبارك وتعالى- حمدَ الشاكرين حمدًا يليق بعظيم نعمائه التي لا تعد ولا تحصى، فهو المستحقُ وحده أن يُعبدَ وأن يُوَحَّدَ، وقد يسر لي -سبحانه- إتمام هذا العمل من غير حول مني ولا قوة، أشكره شكر عبد معترف بتقصيره في طاعته، وأسجد بين يديه سجودَ شكرٍ طويلا.. وأسأله ألا يحرمني بركةَ قَبولِ هذا العمل الذي بذلت فيه ما استطعت من جهد مع الاعتراف بقصوري، متطلعا لأجر المجتهد والتجاوز عن الخطأ.

لا بد لي من شكر خاص لجامعة أم درمان الإسلامية، تلك المؤسسة العلمية العريقة التي نالني خيرها وأنا طالب في كل مراحل الدراسات الجامعية، فلها ولكل المنتسبين إليها من الإدارة والأساتذة والعاملين جزيل الشكر والامتنان.

وأسجل جميلَ الشكر وعظيمَ الامتنان لأستاذي وشيخي فضيلة الأستاذ الدكتور/ إبراهيم أحمد محمد الصادق الكاروري، حيث يعجز قلمي عن تسطير أسمى آيات الشكر والتقدير؛ لتفضله بالإشراف على هذا البحث، وأسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء بما قَدَّمَ لي من عون رغم كثرة أعبائه وضيق وقته، فلقد أفادني بملاحظاته العلمية القيمة، ونبهني على المواضع التي تحتاج إلى إحكام الصياغة وتجويد البحث؛ فاللهم أمده بِقُوَّةٍ من عندك، وبارك له في صحته ووقته، واجعل هذا العمل في ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وَارْفَعْ ذِكْرَهُ في العالمين، واجعله ربنا من المقبولين.

وأتقدم بخالص شكري وتقديري إلى العالمين الجليلين مناقشَيْ هذا البحث؛ الأستاذ الدكتور الطاهر ساتي والأستاذ الدكتور أحمد إدريس الصافي؛ لتفضلهما بقبول قراءة هذا البحث وتقييمه وتقويمه، وأسأل الله أن يجزيهما عن البحث وصاحبه وطلاب العلم خير الجزاء.

تقريظ

بقلم الأستاذ الدكتور/ محمد طاهر حكيم

عميد كلية الشريعة والقانون بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد

جمهورية باكستان الإسلامية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وبعد

فإن التنوع في الخلق سنة ربانية كونية تقتضي أن نستوعب اختلاف بعضنا ، واستيعاب الآخر كشركاء في عمارة الأرض ، ونلتزم بآدابه وأخلاقه وقوانينه.

إن مفهوم التنوع يشمل التعدد والاختلاف والتباين والتفريق والمغايرة ، ويشمل الأديان والثقافات والأفكار والأعراف والمناهج والحضارات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر، الأيتان ٢٧ ، ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الروم ، الآية ٢٢].

والحكمة من هذا التنوع الوقوف على القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود فقد خلق الله الناس من أصل واحد وهم مع ذلك مختلفون في ألوانهم وثقافاتهم واهتماماتهم وطبائعهم وأخلاقهم ، وفي ذلك آيات للعالمين كما أن في هذا التنوع دعوة إلى التعارف بين البشر.

لقد حث الإسلام على الإخاء الإنساني ، وتكريم الإنسان ، والحفاظ على حقوقه ، والالتزام بقواعد الأخلاق والآداب ، والمساواة في الحقوق والواجبات، والرحمة في السلم والحرب ، والوفاء بالعهد والميثاق .

ولكن تبدأ المشكلة عندما يتحول هذا التنوع والاختلاف إلى جدل ونزاع وشقاق ، ويصبح الإسلام والمسلمون عرضى للظلم والاضطهاد والسيطرة من قبل الدول الكبرى تحت ذرائع مختلفة ، فلو كانت هذه الدول جادة في البحث عن سبل دعم السلام والأمن وتفادي الصدام والصراع بين الأمم والشعوب وبين الأديان والحضارات لسلكت إلى ذلك طريقا آخر وهو البحث عن القواسم المشتركة بين مختلف الديانات والثقافات ، ولو بحثوا لوجدوا ان المشكلة ليست في الإسلام دينا وحضارة وثقافة ولكنها في الظلم المسلط على الشعوب الضعيفة والشعوب الإسلامية خصوصا، وفي نزعة الاستعلاء والهيمنة والتحكم فيها وإذكاء الصراعات بينها ، وضرب بعضها ببعض وعدم اعترافها بالآخر وديانته وثقافته وقيم حضارته

إذن لابد من استنباط فقه إسلامي يعالج القضايا التي تشكل تحديا للمسلمين في ظل تطور العلاقات بين الشعوب والأمم ، وإبراز رؤية إسلامية لإدارة التنوع وبيان منهج الإسلام في التعامل مع الآخر

وهذا ما قام به الدكتور عبدالمحمود أبّو، في كتابه هذا ، فقد بذل جهودا كبيرة في الاطلاع على كثير من المراجع والمصادر ، وتمكن من استقرائها وسبرها واستخلاص الفوائد والنتائج منها بهمة عالية، وثقافة واسعة يستحق الشكر والتقدير ، فقد أحاط بالموضوع ووضح معالمه ولا سيما في الأمور الآتية:

- أهمية وضرورة التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم .
- أسس التعايش المشترك ومبادئه .
- التنوع الديني والحضاري وخصائصه وآثاره .

- الأصول المؤسسة لفقه التنوع والمقاصد الشرعية للتنوع.
- مطلوبات فقه التنوع في الواقع المعاصر .

هذا والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وينفع به قارئه، وأن يوفق كاتبه لمزيد من الأعمال العلمية النافعة ، والله ولي التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث أحكام فقه التنوع في الشريعة الإسلامية؛ التأصيل والتطبيق «دراسة تأصيلية فقهية مقارنة» وتظهر أهمية البحث باعتبار أن الشريعة الإسلامية جاءت متضمنة أحكامًا، تلبي حاجات الإنسان الفطرية، وتنظم جميع علاقاته الضرورية مثل علاقته بخالقه، وعلاقته ببني جنسه، وعلاقته بالمخلوقات الأخرى، وأهمية وضرورة التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم في ظل ظروف جعلت تداخل العلاقات والمصالح أمرًا ضروريًّا، ولأن التعصب أدى لصدام بين أتباع المذاهب والفرق، ويهدف البحث إلى التعريف بفقه التنوع الديني والحضاري، وتنوع الفرق والمذاهب في الإسلام والتأصيل الشرعي لفقه التنوع، وإدارة التنوع بين الإسلام والغرب، وقسم البحث لخمسة فصول تناولت التعريف بفقه التنوع الديني والحضاري، وتنوع الفرق والمذاهب في الإسلام، والتأصيل الشرعي لفقه التنوع، وإدارة التنوع بين الإسلام والغرب، واتبع الباحث المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي، والمنهج المقارن، والمنهج الاستنباطي، وخلص البحث لعدة نتائج أهمها: أن مفهوم التنوع يشمل التعدد والاختلاف والتباين والتفرق؛ وكل الألفاظ الدالة على المغايرة، وأن التنوع يشمل الأديان، والثقافات، والأفكار، والأعراق، والمناهج، والحضارات، وأن الإسلام أرسى قواعد وأسسًا للتعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن، وأن المسلمين لم يختلفوا في أصول الدين ولا في أمهات الاعتقادات، فلقد كانت حقائق الدين وأركانه وثوابت الشريعة وحدودها هي الجامع المُوحِّد للأمة في الاعتقاد الديني، وأن الحضارة الغربية صارت تشكل تحديًا للمسلمين، فلا بد من استنباط فقه إسلامي يعالج القضايا التي تشكل تحديًا للمسلمين، وعلى رأسها موضوع التعايش السلمي والحرية الدينية واحترام حقوق الإنسان. وأوصى

الباحث بإدراج فقه التنوع والتعايش ضمن مواد التدريس في المؤسسات التعليمية -خاصة المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية، وتشجيع الباحثين على الاهتمام بالدراسات التي تعنى بتطور العلاقة مع الآخر، والاهتمام بدراسة الواقع لمعرفة التحولات التي حدثت في العالم خاصة في مجال العلاقات الإنسانية.

Abstract

This study deals with the provisions of the jurisprudence of diversity in Islamic Sharia Fundamental and Application «A comparative fundamental jurisprudential Study» and the significance of study reveal the fact that the Islamic Sharia included provisions, meet the innate needs of human, and regulate all the necessary relationships such as his relationship with his Creator, and his relationship with his race, and his relationship with other creatures, and the importance and necessity of peaceful coexistence among Muslims and the others under the circumstances that made the overlap of relations and interests necessary, and because intolerance led to a clash between the followers of schools of thought and sects, the study aims to identify the jurisprudence of religious and cultural diversity and diversity of sects and doctrines in Islam and the legalization of jurisprudence of diversity and management of diversity between Islam and the West, and the study section for five chapters dealt with the definition of jurisprudence religious diversity and civilization and diversity of sects and doctrines in Islam and legitimizing the jurisprudence of diversity and management of diversity between Islam and the West, the researcher followed the historical, descriptive and comparative and deductive method, the study concluded for several findings, the most important of which include the concept of diversity The diversity includes religions, cultures, ideas, ethnicities, curricula and civilizations, and that Islam laid the foundations and foundations for coexistence with the other in all circumstances, times and Places, and that Muslims did not differ in the origins of religion or in the mothers of beliefs, has been the facts of religion and its pillars and constants of the law and the limits of the unified mosque of the nation in religious belief, and that Western civilization has become a challenge to Muslims, it must devise Islamic jurisprudence that addresses issues that challenge Muslims The study recommended the inclusion of the jurisprudence of diversity and coexistence in teaching materials in educational institutions, especially the secondary and university levels, and encourage researcher to pay attention to studies that are concerned with the development of the relationship with others, paying attention to study the reality to identify the changes that have taken place in the world, especially in the field of human relationships.

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين؛ سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

الأمة الإسلامية واجهت تحديات كثيرة بعد خضوع بلدانها للاستعمار، فقد حمل المستعمرون معهم مفاهيم وثقافات وقوانين، طبقوها في الدول التي قاموا باستعمارها، مما أدى إلى تباينات في الواقع بين مفاهيم الأمة المستمدة من عقيدتها وتعاليم دينها من جهة، وبين المفاهيم الوافدة من جهة أخرى، وخضعت الأمة - لأول مرة- لقوانين وتعاليم غير مستمدة من دينها، وفي ظل تطور العلاقات بين الشعوب والأمم وإنشاء مؤسسات دولية وإصدار مواثيق عالمية تتعلق بحقوق الإنسان، برزت أهمية رؤية الإسلام للآخر، فجاء البحث محاولًا تقديم رؤية إسلامية لإدارة التنوع.

أسباب اختيار موضوع البحث:

١- رغبة الباحث في معرفة أحكام فقه التنوع في الشريعة الإسلامية.

٢- ملاحظة الباحث لسلوك الطلاب ذوي الميول المتعددة، وما يدور بينهم من نقاش وحوار فيه الكثير من التعصب، بل يصل أحيانًا الصراع السياسي والفكري لدرجة الاشتباك واستعمال العنف.

٣- أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تضمنا نصوصًا كثيرة تحدثت عن التنوع في الخلق والاختلاف بين الناس حول العقائد والأفكار والممارسات.

٤- رغبة الباحث في الوصول إلى رؤية إسلامية أصيلة، تبين منهج الإسلام في التعامل مع الآخر.

٥- رغبة الباحث في إثراء المكتبة العلمية وتقديم جهد علمي يستفيد منه الباحثون وطلاب العلم.

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث من خلال الآتي:

١- أن الشريعة الإسلامية جاءت متضمنة أحكامًا، تلبي حاجات الإنسان الفطرية، وتنظم جميع علاقاته الضرورية مثل علاقته بخالقه، وعلاقته ببني جنسه، وعلاقته بالمخلوقات الأخرى.

٢- أن الله سبحانه وتعالى بحكمته وقدرته جعل الناس متمايزين في أفكارهم واعتقاداتهم وميولهم السياسية والفكرية، فلابد من معرفة أحكام فقه التنوع في الشريعة الإسلامية للتعامل مع هذا الاختلاف.

٣- أهمية وضرورة التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم في ظل ظروف جعلت تداخل العلاقات والمصالح أمرًا ضروريًّا، فكثير من غير المسلمين يعيشون مع المسلمين في وطن واحد يحكمه عهد المواطنة، كما أن كثيرًا من المسلمين يعيشون في بلدان غير مسلمة -مواطنين ومهاجرين- مما يتطلب رؤية واضحة لأساس التعامل بين المسلمين وغيرهم.

٤- أن التعصب أدى لصدام بين أتباع المذاهب والفرق، فعمق الأزمة وأحال الاختلاف من اختلاف تنوع إلى اختلاف تصادم، فلابد من إبراز منهج الإسلام في التعامل مع الآخر المِلِّي، ومنهج التعامل مع الآخر الاجتهادي.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في الإجابة على التساؤلات الآتية:

١- ما هي العوامل التي تغذي القطيعة بين المسلمين وغيرهم؟

٢- هل أثرت مواقف الآخر من الإسلام على علاقات التسامح بين الطرفين؟

٣- كيف يتعامل المسلمون في البلدان التي يقيمون فيها مع غير المسلمين وهم ضيوف في تلك البلدان؟

٤- ما هو منهج الإسلام للتعامل مع التحولات الكبيرة التي طرأت على الحياة الإنسانية والتي بموجبها صار المختلفون في العقائد والأفكار يجمعهم وطن واحد تُكتَسَب فيه الحقوق والواجبات على أساس المواطنة، وليس على أساس الدين؟

٥- ما هو منهج الإسلام للتعامل مع المواثيق الدولية التي تحكم علاقات الدول، والقواعد المتوافق عليها دوليا للتعامل مع التصرفات التي تهدد الأمن والسلم الدوليين؟

٦- كيف يتم التعامل مع تنوع الاجتهاد في الفقه والفكر والتنظيمات العاملة في مجال الدعوة الإسلامية؟

الدراسات السابقة:

كتبت أبحاث في هذا الموضوع، أذكر منها:

١- **نحن والآخر**: للأستاذ الدكتور علي محيي الدين القرة داغي، وهذه الدراسة اهتمت بالعلاقات بين المسلمين والآخرين في حالات السلم والحرب والمعاهدات الحاكمة على ضوء الكتاب والسنة وسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وآراء الفقهاء في هذا المجال، وتناولت أهم المبادئ التي تحكم العلاقة والقواعد العامة لتأصيل أمهات المسائل، وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة فائدة كبيرة، باعتبار أن صاحب الدراسة من الفقهاء المهتمين بهذا المجال. غير أن الدراسة اهتمت بالتأصيل النظري لعلاقة المسلمين مع غيرهم دون إشارة للتطورات التي حدثت في هذه العلاقة، ولم تتوسع في موضوع الخلافات بين المسلمين أنفسهم وكيف يتم التعامل معها، وقد حاول الباحث استكمال هذا الجانب حسب الاستطاعة.

٢. **شرعية الاختلاف بين المسلمين**: لعمران سميح نزال، وهذه الدراسة اهتمت بالتنازع الداخلي بين المسلمين بسبب الاختلاف، وحاولت تحرير أسباب النزاع والتمييز بين الاختلاف المذموم والاختلاف المحمود وبيان التأسيس المعرفي والشرعي للاختلاف، وتناولت الدراسة تعريف الاختلاف وحكمه، مع التركيز على الاختلاف في الفقه والاختلاف في العقيدة والاختلاف في السياسة، مع تقديم تصور جديد يفرق بين العقيدة والإيمان، ويؤكد أن العقيدة هي فهم المسلم للإيمان، وأما الإيمان فهو التصديق بما نزل به القرآن، وتعتبر الدراسة مهمة في مجال تأصيل شرعية الاختلاف، وقد استفاد منها الباحث فائدة كبيرة في تكييف موضوع الاختلاف بين المسلمين ومنهج التعامل معه.

٣. **الخلافات السياسية بين الصحابة**: لمحمد بن مختار الشنقيطي، وهذه الدراسة اهتمت بالخلافات بين الصحابة باعتبارهم الجيل المؤسس والأقرب للرسول الخاتم ﷺ، والوعي بطبيعة الخلافات بينهم يساعد على الفهم، ويقلل من التعصب، وقد ركزت الدراسة على أهمية وضوح الحدود الفاصلة بين الوحي والتاريخ، وبين المبادئ ووسائل تجسيدها التاريخية، وبين مكانة الأشخاص وقدسية المبادئ، مشيرة إلى أن جيل الصحابة يمثل جيل التأسيس، وأن الخلافات بينهم ألقت بظلالها على جميع مراحل التاريخ الإسلامي، وأن فهم تلك المرحلة التاريخية الحساسة -بدراسة استقصائية تقويمية- يُمكِّن من تجاوز مضاعفاتها التي لا زالت تتحكم في فكر وواقع الأمة، وقد أشارت الدراسة إلى أن كثيرين ممن تصدوا لدراسة تلك الفترة لم يسلكوا منهج العدل والوسط الذي يميز بين قدسية المبادئ ومكانة الأشخاص، بل تحكمت فيهم ردود الأفعال، فوقعوا في الغلو، والدراسة تعتبر مهمة؛ لتناولها موضوعًا حساسًا يتعلق بجيل له مكانته في قلوب المسلمين، ويمسكون في الغالب عن تناول الخلافات التي حدثت بينهم في تأويل خاطئ؛ للحديث الناهي عن ذلك. وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة في تكييف طبيعة تلك الخلافات وآثارها على الواقع في الفترة التي أعقبت عصر الرسالة حتى يومنا هذا.

افتراضات البحث:

استند البحث إلى المرجعية الإسلامية، على أساس أن الإسلام لديه رؤية محددة ومنهجا واضحا للتعامل مع كل ما يحتاجه الإنسان، باعتباره مستخلفا في الأرض لعمارتها، وتحقيق موجبات الأمانة التي حُمِّلَها؛ ويفترض البحث أن للإسلام منهجا متميزا في تحقيق التعايش السلمي بين بني آدم باختلاف عقائدهم وثقافاتهم وألوانهم، وأن منهج الإسلام متفوق على المناهج الوضعية البشرية، باعتبار أنه صادر من الخالق الذي يعلم ما يحتاجه الإنسان وما يحقق مصالحه في الدنيا والآخرة.

الصعوبات التي واجهت الباحث:

غاية البحث إبراز رؤية الإسلام للتعامل مع الآخر، ومكونات هذه الرؤية ومفرداتها مبثوثة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، ومقوماتها النظرية والتطبيقية متناثرة في كتب السيرة وتاريخ الخلفاء وتاريخ البلدان، فضلا عن المراجع الفقهية والفكرية والسياسية الكثيرة، وقد واجهت الباحث صعوبة تجميع هذا الشتات في تصور متماسك يحدد رؤية الإسلام.

مما فرض على الباحث السعي للوصول للمراجع التي يظن أن تساعد في استكمال البحث، وتطلب هذا من الباحث البحث عن المراجع المتوفرة في مظانها في السودان، ومالم يتوفر له اضطر إلى السفر خارج السودان حيث تحصل على بعض المراجع من جمهورية مصر العربية، وبعضها من الأردن، كذلك فإن طبيعة عمل الباحث جعلته يواجه صعوبة في التوفيق بين الزمن المخصص للعمل وبين التفرغ للبحث، ولكن بفضل من الله ثم بتعاون زملائه استطاع أن يوفق بين واجبات عمله وبين متطلبات البحث حتى توصل إلى هذه النتيجة التي أمامكم.

استنادا إلى ما سبق فإن الباحث سعى لامتلاك المراجع التي يعتمد عليها في بحثه وذلك بسبب الصعوبة التي يواجهها في الذهاب إلى المكتبات العامة التابعة لمؤسسات أكاديمية لتعارض برنامج وقت الباحث مع الوقت المخصص

للباحثين في تلك المكتبات، مما تطلب إنفاق مال غير قليل لامتلاك تلك المراجع.

مصطلحات البحث:

التعايش السلمي، ومبدأ قبول الآخر، وإدارة التنوع؛ كلها معاني تعززها مفاهيم كثيرة، منها:

الكرامة: الكرامة الإنسانية مبدء إسلامي أصيل، مكفول لجميع بني آدم، بتواتر النصوص القطعية، وهي منحة إلهية اختص بها الإنسان، لا يجوز التعدي عليها مهما كانت المبررات، وهي إطار جامع لكل القيم التي تتحقق بها إنسانية الإنسان.

البر: كلمة جامعة لكل أعمال الخير، فبر الإنسان بنفسه تزكية لها، وتغذية الإنسان لنفسه بر ببدنه، وحسن معاملة الوالدين والتوسع في الإحسان إليهما بر بهما، والبر ثلاثة أنواع جامعة لكل خير: بر في العقيدة، وبر في العمل، وبر في الخلق، والبر اسم للخير ولكل فعل مرضي، وبر الخلق هو الذي يتعلق بمعاملة الآخر على أساس أخلاقي.

الإحسان: الإحسان خلق لا يكون معه تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان مجرد تحصيل خدمات منه أو توصيلها إليه، وإنما جلب صلاح له أو استجلابه منه ودفع فساد عنه أو استدفاعه به، وهذا مقتضى قول النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[1].

فالإحسان في التعامل يؤسس لفقه شغوف باصطناع المعروف بوجه عام، ويؤسس لفقه شغوف بأخلاق الإيثار، وهو فقه يقوم على وجهين، ذكرهما الإمام

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان القتل والذبح، برقم (١٩٥٥) (٣/ ١٥٤٨).

الشاطبي[1]:

الوجه الأول: إسقاط الاستبداد والدخول في المواساة على سواء، وذلك بأن يرى العبد غيره مثل نفسه، وكأنه أخوه أو ابنه أو قريبه أو يتيمه، أو غير ذلك ممن طلب بالقيام عليه ندبًا أو وجوبًا، وأنه قائم في خلق الله بالإصلاح والنظر والتسديد، فهو على ذلك كواحد منهم.

الثاني: مقت الشح؛ فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار.

العدل: العدل اسم من أسماء الله، وهو المبدأ الذي يتحقق به صلاح الدنيا، وهو مطلوب مع النفس ومع الصديق ومع العدو، وقد تواترت النصوص على مركزية العدل في الإسلام، ويكفي أن الله حرَّم الظلم على نفسه وجعله محرَّمًا بين العباد، إن مبدأ العدل شدد عليه الإسلام، وخاصة مع المخالف؛ لأن مخالفته قد تدعو إلى حرمانه من حقوقه، ولذلك شدد القرآن على مراعاة العدل معه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

الحرية: الإنسان الحر هو المخاطب بالحكم الشرعي، ويترتب الجزاء على أساس أن المكلف حر في اختياره؛ ليكون الحساب عادلًا، فالحرية مفهوم مقترن بالعدل وبوظيفة الإنسان في الأرض، ولذلك أجاب الله - على تساؤل الملائكة المشفق عن خلق الإنسان وما يتوقع أن يصدر منه من فساد-بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3].

(١) الشاطبي: هو الحافظ أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى بن محمد، اللخمي الشاطبي الغرناطي، المالكي، وهو إمام حافظ مجتهد محقق، كان متقنًا في الفقه والأصول والعربية من مؤلفاته (الموافقات) و(الاعتصام) توفى سنة ٧٩٠هـ توفى سنة ٧٩٠هـ، هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي، مكتبة المثنى، ١٩٥١م، ١/ ١٨.

(٢) سورة المائدة، الآية (٨).

(٣) سورة البقرة، الآية (٣٠).

التعارف: التعارف بين الناس مجالاته متعددة، فهو ليس مقتصرًا على المعرفة الشكلية، وإنما يتسع باتساع مقدرات الإنسان ومعارفه ومعتقداته وثقافاته والمؤثرات التي تشكل مفاهيمه وطبائعه، وما يهمنا في مجال البحث التعرف على العقائد والثقافات والأفكار، التي لها أثر مباشر في العلاقات بين الناس سلبًا وإيجابًا.

ومبدأ التعارف مبدأ إسلامي أصيل، وهو -بمفهومه الواسع- بديل لمفهوم صدام الحضارات.

مصادر البحث ومراجعه :

قام الباحث بتجميع المادة العلمية من المصادر والمراجع الأصلية، مع الاعتماد في التأصيل على المصدرين الرئيسين للتشريع: الكتاب والسنة، وما يفهم منهما من دلالات وإشارات واستنباط؛ التزامًا بقواعد الاستنباط المعروفة في أصول الفقه.

كما اعتمد على كتب التراث الإسلامي وكتب فقهاء العصر الحديث وأعلام الفكر الإسلامي.

واستفاد الباحث كثيرًا من المؤلفات الآتية:

(المشترك الإنساني) للدكتور راغب السرجاني، و(نحن والآخر) للدكتور علي محي الدين القرة داغي، و(فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) و(ظهر الإسلام) لأحمد أمين، و(الحق الإسلامي في الاختلاف) لطه عبد الرحمن، و(القيم الحضارية في الإسلام) للدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب، و(النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف) لمحماد بن محمد رفيع، و(تعارف الحضارات) لزكي الميلاد.

منهج البحث:

الموضوع الذي اختاره الباحث موضوع معقد ومتشعب، وله آثاره على الواقع، وعليه فإن المنهج الذي اختاره الباحث في هذا البحث منهج مركب، يجمع بين المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي، والمنهج المقارن، والمنهج الاستنباطي؛ ومنهجي الذي اتبعته في هذا البحث هو الاستفادة من المنهج التاريخي في تتبع الوقائع التاريخية من مصادرها الموثوقة وتحليلها وفهمها وفق الظروف التي أحاطت بها وتفهم آثارها على الواقع، كذلك الاستفادة من المنهج الوصفي في النظر إلى الوقائع والأحداث من أكثر من زاوية توخيا للموضوعية وتجنبا للانحياز، وفي الاستفادة من منهج المقارنة حاولت المقارنة بين المبادئ والقواعد المتشابهة والمختلفة في الأديان والحضارات والثقافات والأفكار الواردة في هذا البحث وبين ما جاء به الإسلام، لإبراز مبادئ القضية المحورية التي يتغياها البحث ؛ وفي الجملة حاولت توظيف ما تقدم لاستنباط المبادئ والقيم التي يقوم عليها البحث والمتمثلة في التعايش السلمي وثقافة قبول الآخر. فموضوع البحث يتطلب كل هذه المناهج للوصول إلى النتائج التي تحقق الفروض وتبرز منهج التعايش السلمي.

مكونات البحث:

يتكون البحث من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة وفهارس.

المقدمة: تناولت الإطار النظري للبحث، وأهمية موضوع البحث وافتراضاته ودوافع اختياره، والصعوبات التي واجهت الباحث، والمفاهيم الأساسية في البحث، ومصادر البحث ومراجعه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث ومكوناته.

الفصل الأول: تعريف الفقه، والتنوع، والخلاف، والتعدد، وأسس العيش المشترك ومبادئه، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في التعريف بالفقه، والتنوع، والخلاف، والتعـدد، وفيـه ثلاثـة مطالب:

المطلب الأول: في حقيقة الفقه لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: تعريف التنوع والخلاف والتعدد.

المطلب الثالث: التنوع والتعدد والاختلاف: المصطلح والمفهـوم، والعلاقـة بينها.

المبحث الثاني: فقه التنوع وعناصره، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: فقه التنوع.

المطلب الثاني: عناصر فقه التنوع.

المطلب الثالث: مجالات فقه التنوع.

المبحث الثالث: أسس العيش المشترك ومبادئه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التعايش، وأسس العيش المشترك ومبادئه.

المطلب الثاني: تأصيل مفهوم العيش المشترك في الإسلام.

المطلب الثالث: مبادئ العيش المشترك.

الفصل الثاني: التنوع الديني والحضاري، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التنوع الديني، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإنسان والعقائد.

المطلب الثاني: أهل الكتاب.

المطلب الثالث: موقف الإسلام الإيجابي من اليهودية والنصرانية.

المبحث الثاني: الأديان الوضعية والحضارات الإنسانية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: طبيعة الأديان الوضعية.

المطلب الثاني: الحضارات.

الفصل الثالث: تنوع الفرق والمذاهب في الإسلام، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الفرق الإسلامية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نشأة الفرق الإسلامية.

المطلب الثاني: المبادئ التي اختلفت فيها الفرق الإسلامية.

المطلب الثالث: تطور العلاقة بين الفرق الإسلامية.

المبحث الثاني: التنوع الفقهي والفكري، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المذاهب الفقهية.

المطلب الثاني: التيارات والجماعات الإسلامية.

المطلب الثالث: التيارات السياسية.

الفصل الرابع: التأصيل الشرعي لفقه التنوع، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأصول المؤسِّسة لفقه التنوع، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأصول العقدية.

المطلب الثاني: الأصول الفقهية.

المطلب الثالث: الأصول الأخلاقية.

المبحث الثاني: المقاصد الشرعية للتنوع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعارف.

المطلب الثاني: التعاون.

المبحث الثالث: القيم الضابطة للتعامل مع الآخر في الإسلام، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم القيم الحضارية في الإسلام وخصائصها.

المطلب الثاني: القيم والعلاقات الإنسانية.

الفصل الخامس: إدارة التنوع بين الإسلام والغرب، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إدارة التنوع في الغرب، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المفاهيم المؤسسة للتعامل مع الآخر في الحضارة الغربية.

المطلب الثاني: المواثيق الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان.

المبحث الثاني: إدارة التنوع في واقع المسلمين، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: العوامل التاريخية المؤثرة في العلاقة مع الآخر.

المطلب الثاني: العوامل الثقافية الرافضة للتعامل مع الآخر.

المطلب الثالث: عوامل تعميق الخلاف في مجتمعات المسلمين.

المبحث الثالث: مطلوبات فقه التنوع في الواقع المعاصر، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إدراك الواقع والتحولات التي طرأت عليه.

المطلب الثاني: فقه معاملة الآخر من خلال المقاصد.

المطلب الثالث: فقه الأصل والعصر.

الخاتمة: فيها النتائج والتوصيات.

الفهارس: فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث والآثار، وفهرس الأعلام، وفهرس الكلمات الغريبة والمصطلحات، وفهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وبعد فقد اجتهدت ما وسعني الاجتهاد في هذه الرسالة، والله وحده يعلم مقدار ما عانيت من أجل أن تخرج الرسالة في أحسن حلة، ولكن الكمال لله ﷻ

وحده، والمعصومون هم أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يغفر لصاحب هذا البحث زلاتِهِ وأخطاءَهُ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله في ميزان حسنات صاحبه ومشرفه وَمُنَاقِشِيهِ، وقارئيه وَكُلِّ مَنْ قَدَّمَ لصاحبه نصحا، أو دعا له بظهر الغيب، أو تَمَنَّى له خيرًا.

الفصل الأول

تعريف الفقه، والتنوع، والخلاف، والتعدد، وأسس العيش المشترك ومبادؤه.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في التعريف بالفقه، والتنوع، والخلاف والتعدد.

المبحث الثاني: فقه التنوع وعناصره.

المبحث الثالث: أسس العيش المشترك ومبادؤه.

المبحث الأول

في التعريف بالفقه، والحكم، والتنوع، والخلاف، والتعدد.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في حقيقة الفقه لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: تعريف التنوع والخلاف والتعدد.

المطلب الثالث: التنوع والتعدد والاختلاف: المصطلح والمفهوم، والعلاقة بينها.

المطلب الأول
في حقيقة الفقه لغة واصطلاحًا

الفرع الأول: الفقه في اللغة:

يُستعمل الفقه -لغةً- في معنيين:

أولهما: مطلق الفهم، يقال: «فَقِه الشيء أو الأمر» أي: فهمه، والفِقْه -بالكسر- العلم بالشيء والفهم له[1].

ويقال: «فلان لا يفقه قولي»، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2] أي: لا تفهمونه، ثم يقال للعلم الفِقْه؛ لأنه عن الفهم يكون، وللعالم فقيه؛ لأنه إنما يعلم بفهمه، على مذهب العرب في تسمية الشيء بما كان له سببًا[3].

ثانيهما: فهم غرض المتكلم من كلامه، وهو معنى زائد على مطلق الفهم[4] وقولهم: «رجل فقيه» معناه عالم، وكل عالم بشيء فهو فقيه فيه، ومن الفقه قولهم: «قال فقيه العرب»، معناه عالم العرب، وقد استعمل الفقه في القرآن الكريم بمعنى الفهم الدقيق[5]، وجاء ذلك في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار الفكر- بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، (ص٢١٩).

(٢) سورة الإسراء، الآية (٤٤).

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، (٢/ ٥٧).

(٤) التعريفات للجرجاني، صححه وضبطه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط(١) ١٩٨٣م، (ص ١٦٨).

(٥) معجم لغة الفقهاء للدكتور محمد رواس قلعة جي، دار النفائس، ط(١) ١٤١٦هـ، (ص٣١٧).

﴿يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾[3].

وذهب بعض الباحثين إلى أن مادة (فقه) تدل على معان ثلاثة:

١- فهم مراد المتكلم من كلامه.

٢- الفهم المطلق.

٣- فهم الأمر الدقيق[4].

ويختلف معنى كلمة (فقه) تبعا لتغير حركة العين، وهي:

١- فَقِهَ: يقال: فَقِهَ عَني كلاَمِي يَفْقَهُ؛ أي: فَهِمَ.

٢- فَقَهَ: يقال لمن سبق غيره إلى الفهم.

٣- فَقُهَ: من صار الفقه له سجية، ويقال: فَقُهَ يَفْقُهُ فَقَاهَةً، إذا صار فَقِيهًا وساد الفقهاء، وهي من أفعال النعوت والسجايا[5] التي تدل على ملازمة الصفة لصاحبها[6].

وكان للفقه في صدر الإسلام إطلاق واسع يشمل الأحكام الشرعية، سواء تعلقت بالأمور الاعتقادية أو الأخلاقية أو العملية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا

(١) سورة النساء، الآية (٧٨).

(٢) سورة طه، الآيتان (٢٧-٢٨).

(٣) سورة هود، الآية (٩١).

(٤) فقه التنزيل-دراسة أصولية تطبيقية لأحمد مرعي حسن أحمد المعماري ، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت-لبنان، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط(١) ٢٠١٥م، (ص٣٣).

(٥) تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار التراث العربي، بيروت- لبنان، ط(١) ٢٠٠١م،(٥/ ٢٦٣).

(٦) فقه التنزيل (ص٣٣-٣٤).

﴿قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1]، وكذلك قول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[2].

وسئل سعيد بن جبير[3] عن الفقه في الدين، فقال: «العلم بأمر الله، وما نهى الله عنه، وما أمر من العلم بسنة نبي الله ﷺ، والمحافظة على ما علمت، فذلك الفقه في الدين».

وأما الفقه في الشرع فهو « معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد، والأحكام الشرعية هي: الواجب والمندوب والمباح والمحظور والمكروه والصحيح والباطل»[4].

وقال الراغب الأصفهاني[5]: «الفقه: التوصل إلى علم الغائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم، والفقه: العلم بأحكام الشريعة، من (تَفَقَّه) أي: طلب فهم الدليل

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط(١) ١٤٢٢هـ، كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، برقم (٧١)، (١/ ٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، برقم (١٠٣٧)، (٢/ ٧١٨).

(٣) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، بالولاء . الإمام التابعي الجليل، ومن أعلاهم شأنا في العلم والمعرفة قتل بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٩٥هـ ولم يتجاوز من العمر ٥٠ سنة وكان مولده سنة ٤٥هـ . انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، المحقق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٩٩٤م، ٢/ ٣٧١-٣٧٤.

(٤) أثر الاختلاف الفقهي في القواعد المختلف فيها (ص ٥٧-٥٨).

(٥) الحسين بن محمد أبو القاسم الراغب الأصفهاني، وأحد أعلام العلم ومشاهير الفضل، متحقق بغير فن من العلم، وله تصانيف تدل على تحقيقه، وسعة دائرته في العلوم وتمكنه منها من الحكماء العلماء من أهل أصبهان وسكن بغداد وأشتهر حتى كان يقرن: الغزالي وله كتب منها محاضرات الأدباء ومفردات القرآن. انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبوعبدالله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة التاسعة، تحقيق شعيب الأرناؤوط محمد نعيم المرقسوسي، ج١٨، ص١٢١، الأعلام الزركلي، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٥.

لاستخراج الحكم فأصبح متخصصًا فيه»[1].

وقيل: «الفقه مشتق من (الفقء)، وهو الشق والفتح»؛ لأن الهمزة تتعاقب مع الهاء لاتحاد مخرجهما، والفقه هو معرفة بواطن الأمور والوصول إلى أعماقها، فمن لم يعرف من الأمور إلا ظواهرها لا يسمى فقيها، حيث قال: «والفقه مشتق من تفقؤ الشيء، يقال في اللغة: (فقأ الشيء) إذا انفتح، و(فقأ الجرح) إذا انفرج عما اندمل، والاسم فقء، والهاء والهمزة تتبادلان، تجزي إحداهما عن الأخرى، فقيل (فقيء وفقيه).

والفهم هو العارض الذي يعرض في القلب من النور، فإذا عرض انفتح بصر القلب فرأى صورة ذلك الشيء، فالانفتاح هو الفقه، والعارض هو الفهم، ولا مانع من اعتبار الاشتقاقين؛ لما في الثاني من أثر في الالتزام بالأحكام الشرعية.

ومما يؤكد الأخذ بالاشتقاقين أن عمل الفقيه لا يقتصر على العلم بالأحكام الفقهية وفهمها، وإنما يتعدى ذلك إلى الكشف عن علل الأحكام ومآخذها ومقاصدها وغير ذلك مما يساعد في عملية استنباط الأحكام الشرعية؛ ولذلك عُرِّف الفقه بأنه: الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي تعلق به الحكم[2].

الفرع الثاني: الفقه في اصطلاح الأصوليين

عندما التفت العلماء لتعريف الفقه لم يتم ذلك فجأة، وإنما تطور عبر مراحل لخصها أهل الاختصاص في مرحلتين، فأول تعريف اصطلاحي له هو الذي نقل عن أبي حنيفة ﷺ وهو: «معرفة النفس ما لها وما عليها»[3].

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم - دمشق، ط(١) ١٤١٢هـ، (١/ ٦٤٢).

(٢) صناعة الفقيه لرأفت فريد سويلم، مكتبة الرضا، الزقازيق - مصر، ط(١) ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، (ص٨٣).

(٣) شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط(١)، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، (١/ ١٠، ١١).

وهذا التعريف يمثل المرحلة الأولى من مراحل الفقه وطور اتسامه بالعمومية، وبيانه: أن «ما لها وما عليها» يتناول ما يلي:

الاعتقادات: كوجوب الإيمان وحرمة الكفر، فإن شمول «ما لها» للإيمان، وشمول «ما عليها» للكفر من الوضوح بمكان.

الوجدانيات: وهي الأخلاق والحالات النفسانية وملكاتها كالمحبة والبغض والعلم والجهل والشجاعة والجبن وغيرها، فإن تناول «ما لها» للمحبة والعلم والشجاعة، وتناول «ما عليها» للبغض والجهل والجبن مما هو واضح لا يخفى.

العمليات: وهي المتعلقة بفعل المكلف؛ كوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج، وحرمة القتل والزنا وشرب الخمر فإن تناول «ما لها» للواجبات المذكورة، وتناول «ما عليها» للمحرمات المذكورة مما هو معلوم وواضح تمام الوضوح[1].

هذا التعريف الذي يحمل صفة العموم والشمول يؤكد عمق النظر إلى معنى الفقه الذي من خلاله يحصل تطبيق أحكام الشريعة، وسواء أريد بالنفس العبدُ نفسه؛ لتعلق أكثر الأحكام بأعمال البدن، أو أريد بالنفس النفسُ الإنسانية؛ إذ بها الأفعال ومعها الخطاب، وإنما البدن آلة[2]، فهو شامل لهما.

إنّ من أهم المطالب في الفقه التَّدَرُّب في مآخذ الظنون في مجال الأحكام، وهو الذي يسمى فقه النفس، وهو أنفس صفات علماء الشريعة[3].

(١) أثر الخلاف الفقهي في القواعد المختلف فيها ومدى تطبيقها في الفروع المعاصرة لمحمود إسماعيل محمد مشعل، دار السلام- مصر، ط(١)، ١٤٢٨هـ، (ص٣٧).

(٢) شرح التلويح على التوضيح (١/ ٢٠).

(٣) المنثور في القواعد للزركشي، تحقيق: د. تيسير فائق أحمد محمود، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية-الكويت، ط(١) ١٤٠٥هـ، (١/ ٦٨).

ولعل هذا هو ما أراده ابن القيم[1] بكلامه عن المجتهد، وعبر عنه بفقيه النفس، فقال: «فقيه النفس يقول ما أَرَدْتَ، ونصف الفقيه يقول ما قُلْتَ»[2].

وبعد ما توسعت العلوم الشرعية احتاج كل علم إلى استقلاليته عن العلوم الأخرى، ومن خلال التعريف والمضمون انتقل تعريف الفقه الاصطلاحي إلى معنى أخص من التعريف الأول، فصار الفقه العلمَ بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية[3].

وهذا التعريف أخص من سابقه، ويتضح من ذلك أن الفقه هو معرفة الفقيه حكم الواقعة من دليل من الأدلة التفصيلية الجزئية التي نصبها الشارع للدلالة على أحكامه؛ من آيات الكتاب وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد يصيب الفقيه حكم الشارع، وقد لا يوافق ذلك، ولكنه في الحالتين غير مطالب بأكثر من بذل قصارى طاقته العقلية والذهنية للوصول إلى حكم، فإن لم يكن ما وصل إليه حكمَ الشارع، فهو أقرب ما يكون إليه في حقيقته وغاياته وآثاره[4].

(١) ابن القيم: هو شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب. إمام الجوزية وابن قيمها، ولد في سنة ٦٩١هـ. سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة، لاسيما علم التفسير والحديث، ولازم الشيخ ابن تيمية بعد عودته من مصر إلى أن توفي وأخذ عنه علمًا جمًا. توفي في ليلة الخميس ١٣ رجب. ومن آثاره أعلام الموقعين عن رب العالمين، وزاد المعاد في هدي خير العباد، البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت-لبنان، ط/ ٢، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م، ج/ ١٣، ص٢٣٤.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، ١٤٢٥هـ، (٣/ ٦٧).

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج للسبكي، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، (١/ ٢٨)، والتمهيد في تخريج الفروع على الأصول للأسنوي، تحقيق: د. محمد حسن هيت، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١) ١٤٠٠هـ، (١/ ٥٠).

(٤) من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف لطه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن- فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية، ط(١) ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، (ص٤٥).

وعلماء الفقه بالممارسة أدركوا أهمية مراعاة المقاصد والواقع في استنباط الحكم الشرعي، وهو ما عليه معظم المتأخرين من العلماء فضلا عن المجامع الفقهية.

الفرع الثالث: تعريف الحكم

الحكم -لغة-: القضاء، وأصله المنع، يقال: «حكمت عليه بكذا»، إذا منعته من خلافه، فلم يقدر على الخروج من ذلك، و«حكمتُ بين القوم» فصلت بينهم فأنا حاكم وحَكَم، والجمع حُكَّام، ومنه اشتقاق الحكمة؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل، و«حَكَّمت الرجل» فوضت الحكم إليه، و«تحكم في كذا» فعل ما رآه، و«أحكمت الشيءَ» أتقنته[1].

وبهذا يكون أصل الحكم ومشتقاته تدور بين أربعة معانٍ، هي: المنع، والقضاء، والفصل، والإتقان.

والحكم -اصطلاحًا-: هو إسناد أمر إلى آخر إيجابًا أو سلبًا[2] أو نفيه عنه، وجاء كذلك أن الحكم: أثر الشيء المترتب عليه، وكلاهما معتبر؛ فكما أن الحكم إسنادُ الأمر، كأن يقول القائل: «الشمس محرقة»، أي: أنه حكم بذلك، وهو أيضًا الأثر المترتب على الشيء، فهذا الحكم أثر ترتب على ذلك الحس بحرارة الشمس، فيطلق الحكم بمعنى الأثر باعتبار التطبيق[3].

والحكم الشرعي: مأخوذ من الشرع، والشرع هو ما وضعه الله ﷻ لعباده من الأحكام[4]، وقد اختلفت عبارات الأصوليين اختلافا متقاربًا في بيان حد الحكم الشرعي اصطلاحًا، مع اتفاقهم في المضمون.

(١) فقه التنزيل (ص١٣١).

(٢) التعريفات (ص٩٢)، وبعضهم جعل هذا التعريف تعريفا لغويًّا، ينظر: أثر الاختلاف الفقهي في القواعد المختلف فيها ومدى تطبيقها في الفروع المعاصرة (ص٣٨).

(٣) فقه التنزيل (ص١٣٢).

(٤) أثر الاختلاف الفقهي في القواعد المختلف فيها (ص٣٩).

فقد عرفه الإمام الآمدي[1] بأنه خطاب الشارع المفيد فائدة شرعية[2].

وعرفه الزركشي[3] بأنه خطاب الشرع المتعلق بفعل المكلف بالاقتضاء أو التخيير[4].

وهو عند الإمام الرازي[5] الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير[6].

وعرفه البيضاوي[7] فقال: «الحكم خطاب الله القديم المتعلق بأفعال

(١) الآمدي: ٥٥١- ٦٣١هـ، سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي الحنبلي الشافعي ولد بآمل وأقام ببغداد ثم انتقل إلى الشام ثم إلى الديار المصرية وتوفي بدمشق ٦٣١هـ، من آثاره : الأحكام في أصول الأحكام، وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق يوسف علي طويل ، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ٣/ ٢٥٦.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي- بيروت، (١/ ٩٥).

(٣) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والأصول، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » و«لقطة العجلان» في أصول الفقه، و«البحر المحيط» ثلاث مجلدات في أصول الفقه، و«المنثور» يعرف بقواعد الزركشي في أصول الفقه، توفي نحو:٩٥٢هـ، الأعلام للزركلي، ج٦، ص٦٠-٦١.

(٤) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، دار الكتبي، ط(١)، ١٤١٤هـ، (١/ ١٥٦).

(٥) محمد بن عمر بن الحسين الرازي فخر الدين، فقيه، أصولي، شافعي، متكلم، ومفسر، شارك في أنواع من العلوم، من تصانيفه: «معالم الأصول، والمحصول من أصول الفقه، توفى سنة ٦٠٦هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبدالوهاب بن على السبكي، ط دار المعارف، بيروت، لبنان ٥/ ٣٣، ٣٥، ٣٩.

(٦) المحصول للرازي، تحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط(٢) ١٤١٨هـ، (١/ ٨٩).

(٧) البيضاوي هو عبدالله بن عمر بن محمد بن على الشيرازي أبو سعيد أو أبو الخير ناصر الدين البيضاوي قاضى ـ مفسر ولد في المدنية البيضاء بفاس ـ قرب شيراز وولى قضاء شيراز مدة وحل إلى تبريز ـ توفي في بهاسنه ٦٨٥هـ من آثاره أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ طبقات المفسرين العشرين، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) ، المحقق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦ ج١/ ٢٤٢.

المكلفين بالاقتضاء أو التخيير[1].

والإسنوي[2] لم يخرج عما صرح به الرازي[3].

وقال الشوكاني[4]: «إن الحكم هو الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع»[5].

تضمن التعريف السابق النقاط التالية:

١/ أن الحكم هو ذات الخطاب، والمراد به كلام الله المتمثل بالوحي، أو ما

(١) الإبهاج للسبكي (١/ ٤٣).

(٢) عبد الرحيم بن الحسن بن على الإسنوي (٧٠٤-٧٧٢هـ) أبو محمد، جمال الدين، فقيه أصولي، شافعي، مفسر مؤرخ، ولد بإسنا من صعيد مصر سمع الحديث واشتغل بأنواع العلوم، وأخذ الفقه عن المجد الزنكلوني، والقطب السنباطي، والسبكي، والجلال القزويني وغيرهم قدم القاهرة سنة ٧٢١هـ فانتهت إليه رئاسة الشافعية، وانتصب للإقراء والإفادة من سنة ٧٢٧هـ ودرس التفسير بجامعة طولون، وولي الحسبة ووكالة بيت المال، ثم اعتزل الحسبة وعزل من الوكالة وتصدي للتدريس والتصنيف، من تصانيفه: المهمات، والتنقيح فيما يرد على التصحيح، والهداية إلى أوهام الكفاية، والأشباه والنظائر وطراز المحافل، ومطالع الدقائق، وشرح المنهاج للنووي لم يكمل وشرح المنهاج للبيضاوي، [انظر: ابن العماد، شذرات الذهب: ٦/ ٢٢٣-٢٢٤].

(٣) نهاية السول شرح منهاج الأصول للأسنوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط(١) ١٤٢٠هـ، (١/ ٢٨).

(٤) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، فقيه، من كبار العلماء باليمن، من أهل صنعاء، ولد بشوكان، من بلاد فولان باليمن، ومن آثاره فتح القدير في التفسير، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (المتوفى: ١٣٩٩هـ)، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١/ أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان ٢/ ٣٦٥.

(٥) إرشاد الفحول للشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط(١)، ١٤١٩هـ، (١/ ٢٥).

نشأ عنه من الأدلة.

٢/ أن مصدر الحكم هو الله سبحانه وتعالى، فالحكم صفة له.

٣/ أن هذا الخطاب متعلق بأعمال المكلفين الفعلية والقولية تعلقا يبين صفات هذه الأعمال من حيث أنها مطلوبة الفعل كالصلاة والزكاة، أو مطلوبة الترك كالزنا والربا، أو مخير بين فعلها وتركها، كالأكل والشرب.

والمكلف هنا هو: البالغ، العاقل، الخالي من الموانع الشرعية.

٤/ أن الخطاب هنا لا يشمل الخطاب المتعلق بذات الله – تعالى- كقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [١] أو ما تعلق بصفاته كقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [٢] أو ما تعلق بفعله – سبحانه – ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٣] أو ما تعلق بذوات المكلفين كقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ [٤].

٥/ أن التعريف اشتمل على نوعي الأحكام الشرعية (التكليفية والوضعية)[٥].

الفرع الرابع: تحليل التعريفات

أولًا: اتفق الجميع على أن الحكم الشرعي هو خطاب الله تعالى، سواء أكان هذا الخطاب أصالة أم تبعا، فالأول القرآن، والثاني السنة وبقية الأدلة الشرعية؛ لأنها مستمدة من الأول.

واتفقوا على أن المراد هو الحكم الشرعي الذي يخرج غيره من المعقولات

(١) سورة آل عمران الآية (١٨)

(١) سورة البقرة الآية(٥٥)

(٢) سورة الزمر الآية(٦٢)

(٣) سورة الأعراف الآية (١١)

(٤) الحكم الشرعي بين النظرية والتطبيق – دراسة أصولية على ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، لعبد الرقيب صالح محسن الشامي، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط(١) ٢٠١٦م بيروت، ص(٤٦-٤٧)

والمحسوسات.

وفي هذا يقول الإمام الآمدي: «قولنا (خطاب الشارع) احتراز عن خطاب غيره، والقيد الثاني احتراز عن خطابه بما لا يفيد فائدة شرعية، كالإخبار عن المعقولات والمحسوسات ونحوها»[(١)].

واتفقوا -أيضًا- على أن الحكم الشرعي المتعلقُ بفعل المكلف لا المتعلقُ بذاته، قال الزركشي: «فيخرج المتعلق بذات المكلف، نحو: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، والمراد بالفعل جميع أعمال الجوارح»[(٣)].

وكذلك يخرج الحكم المتعلق بذات الله وصفاته تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٤)]، وكذلك خرج خطابه المتعلق بما خلقه من جمادات، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[(٥)]، وكذلك خطابه المتعلق بأفعال المكلفين -لكن ليس على سبيل الاقتضاء والتخيير والوضع- كما في القصص القرآني[(٦)]، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾[(٧)].

ثانيًا: صرح الجميع بأن المراد من الحد الحكمُ الشرعي المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء والتخيير، ما عدا الإمام الآمدي الذي اكتفى بقيد (فائدة

(١) السابق (١/ ٨٩).

(٢) سورة الصافات، الآية (٩٦).

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٩١).

(٤) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

(٥) سورة الأعراف، الآية (٥٤).

(٦) الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة -ناشرون، دمشق-سوريا، ط(١) ١٤٣٥هـ، (٢٤-٢٥).

(٧) سورة الروم، الآيات (١-٣).

شرعية)، وهو قيد عام يندرج فيما ذكر.

والمراد بالاقتضاء ما يفهم من خطاب التكليف من استدعاء الفعل أو الترك، والمراد بالتخيير التسوية بين الفعل والترك[1].

وجعل التخيير من ضمن الأحكام على سبيل التغليب؛ إذ لا تكليف بالمباح، قال الشوكاني: «وتسمية الخمسة تكليفية تغليب؛ إذ لا تكليف في الإباحة»[2].

ثالثًا: صرح الإمام الشوكاني بقيد (الوضع)؛ لأن الحكم الشرعي نوعان: تكليفي ووضعي، والبعض لم يذكر الوضعي؛ لأنه داخل في الاقتضاء أو التخيير؛ لأن المعنى من كون الدلوك سببًا للصلاة أنه إذا وجد الدلوك وجبت الصلاة حينئذ، والوجوب من باب الاقتضاء، لكن الحق هو الأول؛ لأن المفهوم من الحكم الوضعي تعلق شيء بشيء آخر، والمفهوم من الحكم التكليفي ليس هذا[3].

وهنالك تعريفات أخرى لا تخرج عن هذا المعنى، وقد اخترنا هذا التعريف؛ لأنه الأشهر عند أهل الفن، وبهذا يكون معنى الفقه قد انتقل إلى ما يختص بأفعال المكلفين العملية فقط، غير الاعتقادية والوجدانية التي تبحث في علوم أخرى[4].

ويرى بعض الباحثين أن معنى الفقه لحقه التغيير عند المتأخرين، فتحول إلى التقليد، مما أدى إلى توقُّف حركة الاستنباط والاجتهاد، فالفقه عند الأئمة الأولين كان يعني العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها بطريق الاكتساب والنظر في الأدلة، فالفقيه يبحث بنفسه ولا يسلم إلا بما ساقه إليه الدليل، فالفقيه هو المجتهد، وأما المتأخرون فالفقه عندهم حفظ الفروع مطلقا بطريق التلقين لا الاستدلال[5].

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٩١).

(٢) إرشاد الفحول (١/ ٢٢).

(٣) فقه التنزيل (ص١٣٣-١٣٥).

(٤) السابق (ص٣٥-٣٧).

(٥) التجديد والمجددون في أصول الفقه لأبي الفضل عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم، المكتبة الإسلامية، القاهرة، مصر، ط(٣) ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، (ص٢٨).

ولعل هذا الاتهام ينطبق على عصر التقليد وما لحقه من تراجع المسلمين في جميع المجالات، وخاصة في عصر وقوع العالم الإسلامي تحت ظاهرة الاستعمار الأوروبي، والملاحظ الآن -مع بروز المجامع الفقهية في معظم الدول الإسلامية - حدوث تطور محدود في موضوع الاستنباط الفقهي، خاصة مع وجود التحديات الكبيرة التي تواجه الفقهاء، وتحتاج إلى رؤية فقهية واضحة للتعامل معها، وهي تحديات شملت كل المجالات الإنسانية.

المطلب الثاني

تعريف التنوع والخلاف والتعدد

الفرع الأول: تعريف التنوع

أولًا: تعريفه لغة:

قال ابن فارس[(١)]: «النون والواو والعين كلمتان، إحداهما تدل على طائفة من الشيء مماثلة له، والثانية ضرب من الحركة»[(٢)].

«والنوع: الصنف من كل شيء، ويقال: ما أدري على أي نوع هو»[(٣)].

وقال الجرجاني[(٤)]: «النوع: اسم دال على أشياء كثيرة مختلفة بالأشخاص».

---

(١) ابن فارس: هو أحمد بن محمد بن زكريا بن محمد بن حبيب أبو الحسين اللغوي صاحب كتاب المجمل في اللغة وكتاب معجم مقاييس اللغة، كان مقيمًا بهمزان مات سنة ٣٩٥هـ، بالري ، طبقات المفسرين، محمد بن علي بن أحمد الداودي تحقيق علي محمد عمر ط ١ مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م، ج١، ص٥٩.

(٢) معجم المقاييس في اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: شهاب الدين بن عمرو، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٣٣هـ-٢٠١١م، (ص١٠٠٤).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية-الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا، (ص٩٦٤).

(٤) على بن محمد بن على، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف ومن كبار العلماء بالعربية، ولد في تاكو (قرب استر اباد) ودرس في شيراز، له نحو خمسين مصنفا منها (التعريفات) و(مالقيد العلوم) وتوفي سنة ٨١٦هـ . انظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢م، ج٢، ص ٢٧٩.

ثانيًا: تعريفه اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «التنوع: كون الشيء متعددًا ومتفقًا في الحقيقة»[1].

والنَّوْع في اصطلاح المناطقة كُلِّي مَقُول على واحد، أو على كثيرين متفقين في الحقائق.

وفي تعريفات الجرجاني: «النوع الحقيقي: كل مقول على واحد أو على كثيرين متفقين بالحقائق في جواب: ما هو؟

فـ(الكل) جنس، و(المقول على واحد) إشارة إلى النوع المنحصر في الشخص، وقوله (على كثيرين)؛ ليدخل النوع المتعدد الأشخاص، وقوله (متفقين بالحقائق)؛ ليخرج الجنس، فإنه مقول على كثيرين مختلفين بالحقائق، وقوله (في جواب ما هو؟) يخرج الثلاث الباقية، أعني الفصل والخاصة والعرض العام؛ لأنها لا تقال في جواب: ما هو؟، وسمي به؛ لأن نوعيته إنما هي بالنظر إلى حقيقةٍ واحدةٍ في أفراده»[2].

وفي هذا العصر صار للتنوع معنًى أوسعَ، بحيث يشمل الأديان والثقافات والأفكار والأعراق والمناهج والحضارات وكل مظاهر النشاط الإنساني، ويراجع في ذلك تعريف المنظمة الدولية للثقافة والعلوم «اليونسكو».

الفرع الثاني: تعريف الخلاف

أولًا: تعريفه لغة:

قال ابن فارس: «خلف: الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني: خلاف قُدَّام، والثالث: التغير... وأما قولهم: (اختلف الناس في كذا، والناس خلفة) أي مختلفون، فمن الباب الأول؛ لأن كل

(١) التعريفات (ص٢٤٧).

(٢) نفسه.

واحد منهم ينحِّي قول صاحبه، ويقيم نفسه مقام الذي نحاه»[1].

والخلافُ مصدر (خالفَ يخالفُ خِلافًا ومخالفةً)، والاختلاف مصدر (اختلفَ)، والخلاف والاختلاف في اللغة نقيض الاتفاق، يقال: «اختلف الأمران» إن لم يتفقا[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[4]، ومنه قول النبي ﷺ عند تسوية الصفوف في الصلاة: «استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[5]، وذلك أنهم إذا تقدم بعضهم على بعض في الصفوف تأثرت قلوبهم ونشأ بينهم اختلاف في الألفة والمودة[6].

والخلاف: المخالفة، والخلاف: المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافًا، وخالفه إلى الشيء: عصاه إليه أو قصده بعد ما نهاه عنه.

وفي قاموس اللغة: «خالفته مخالفة وخلافًا، وتخالف القوم واختلفوا، إذا ذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضد الاتفاق، والاسم الخُلف بضم الخاء»[7].

وقال الراغب: «والخلاف أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل

(١) معجم مقاييس اللغة (ص٣٢٨).

(٢) لسان العرب لجمال الدين محمد بن منظور، مادة (خلف)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

(٣) سورة النحل، الآية (١٣).

(٤) سورة الروم، الآية (٢٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٤٣٢)، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، (١/ ٣٢٣).

(٦) أثر الخلاف الفقهي في القواعد المختلف فيها (ص٤٣).

(٧) المصباح المنير للفيومي، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢/ ٢٤٥).

مختلفين ضدين»[1].

فالخلاف والاختلاف في اللغة هو مطلق المغايرة في القول والرأي والموقف والحالة، وهذا ما يفيده تعريف الراغب، حيث يذهب إلى عدم التفرقة بينهما، بل يقرر أن معناهما واحد، وهو أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، وهما معا أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين، أما بقية التعاريف اللغوية السابقة، فإنها لا تفرق بين الخلاف والاختلاف، فالخلاف فيه المضادة، والاختلاف مجرد التفاوت وعدم التساوي والاتفاق[2].

الاختلاف في اصطلاح الفقهاء:

هو الكثرة والتعدد المعرفي العقلي والفكري[3]، وقيل: «هو التباين في الرأي بسبب اختلاف الوسائل، وينتج ذلك من تفاوت أفهام الناس أو تباين مداركهم»[4].

قال المناوي: «الاختلاف افتعال من الخلاف، وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه»[5].

وقد ذهب إلى عدم التفرقة بين الخلاف والاختلاف من المعاصرين الدكتورُ محمد الروكى والأستاذُ أحمد بن محمد البوشيخي والأستاذُ محمد أحمد شقرون، وأوضح الدكتور محمد الرُّوكى وجهة الفقهاء في ذلك فقال: «الملحوظ في استعمال الفقهاء أنهم لم يفرقوا بين الخلاف والاختلاف؛ لأن معناهما العام واحد،

(١) المفردات (ص١٥٦).

(٢) أثر الخلاف الفقهي في القواعد المختلف فيها (ص٤٤-٤٥).

(٣) شرعية الاختلاف بين المسلمين لعمران سميح نزال، دار القراء للطباعة والنشر، دمشق - سوريا، ط(١) ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، (ص٣٢-٣٣).

(٤) الاختلاف وأدبه وتدبيره لفاطمة الزهراء، www. StarTimes. com.

(٥) التعاريف للمناوي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق - سوريا، ط(١) ١٤١٠هـ، (١/ ٤٢).

وإنما وضعت كل واحدة من الكلمتين للدلالة على هذا المعنى العام من جهة اعتبار معين، أنه لا تسند كلمة «اختلاف» إلا إلى كافة أطراف الخلاف أو إلى جملة منه، كأن تقول: (اختلف الفقهاء في كذا)، أو (اختلف الأحناف والشافعية في كذا)، أما كلمة (خالف) فلا تسند إلا إلى طرف واحد من أطراف الخلاف، فيقال: (خالف أبو حنيفة الفقهاء في كذا)، أو (خالف الفقهاء الأحناف في كذا) إذا كانوا كلهم طرفا في الخلاف، ولا يصح أن يقال في ذلك: (اختلف الأحناف...)؛ لأن ذلك لا يدل على أن الأحناف طرف في الخلاف، بل يدل على أن الخلاف دائر بينهم»[(١)].

ويؤكد هذا التفريق اللفظي الدقيق استعمال القرآن لمادة الخلاف والاختلاف، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[(٢)].

قال قتادة[(٣)]: «لم أكن لأنهاكم عن أمر أركبه أو آتيه»[(٤)].

فلما كان السياق مرتبطا بطرف واحد من أطراف الخلاف عبر بكلمة (أخالف)، لكن حينما يكون السياق مرتبطا بكافة أطراف الخلاف يعبر حينئذ بكلمة (اختلف)، كقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾[(٥)].

وقد ذهب بعض المتأخرين والمعاصرين إلى التفرقة بين الخلاف والاختلاف،

(١) أثر الخلاف الفقهي (ص٤٦).

(٢) سورة هود، الآية (٨٨).

(٣) قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسي البصري ، مفسر حافظ ضرير أكمه، قال أحمد بن حنبل : كان من أحفظ أهل البصرة ورأسًا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب والحديث ولد سنة ٦١هـ ومات ١١٨هـ بواسط بالطاعون ، انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م: ١/ ١١٥.

(٤) جامع البيان (تفسير الطبري)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط(١) ١٤٢٠هـ، (١٥/ ٤٥٣).

(٥) سورة مريم، الآية (٣٧).

ومن هؤلاء العلماء أبو البقاء الكفوي والتهانوي والشيخ محمد عطية سالم، كما أشارت موسوعة الفقه الإسلامي إلى رأي هؤلاء[١].

«الاختلاف هو أن يكون الطريق مختلفًا والمقصود واحدًا، والخلاف: ما لا يستند إلى دليل... ولو حكم القاضي بالخلاف ورفع لغيره يجوز فسخه بخلاف الاختلاف، فإن الخلاف هو ما وقع في محل لا يجوز فيه الاختلاف»[٢].

وجاء في موسوعة الفقه الإسلامي ما نصه: «تردد لفظ الخلاف والاختلاف على لسان الفقهاء والأصوليين بمعنى واحد، غير أن بعضهم حاول أن يوجد فرقًا بين الخلاف والاختلاف، مريدًا بالخلاف متابعة الهوى وبالاختلاف ما يقع من آراء المجتهدين في المسائل الدائرة بين طرفين واضحين يتعارضان في أنظارهم أو إلى خفاء بعض الأدلة أو عدم الاطلاع عليها»[٣]. والحقيقة أن هذا اختلاف اصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح، وقد قال الشاطبي رحمه الله: «فأقوال أهل الأهواء غير معتد بها في الخلاف المقرر في الشرع»[٤].

ومعنى هذا أنه يعتبر أن من الخلاف ما هو غير مقبول ولا معتد به في الشرع، وهو الصادر عن الهوى المُضِلّ، ومنه ما هو مقرر في الشرع ومعتد به، وهو الناشئ عن تحري قصد الشارع باتباع للأدلة على الجملة والتفصيل[٥].

واعتبر الدكتور طه جابر العلواني الاختلاف طبيعيًّا وله فوائده، أما الخلاف فهو مذموم وممقوت، وألف كتابًا يحمل عنوان (من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف).

(١) أثر الخلاف الفقهي (ص٤٧).

(٢) الكليات للكفوي، تحقيق: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ص١٦).

(٣) موسوعة الفقه الإسلامي الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة (٤/ ٩٢، ٩٣)، مصطلح (اختلاف).

(٤) الموافقات للشاطبي، تحقيق: مشهور حسن سليمان، دار ابن عفان، الأردن، ط(١)، ١٤١٧هـ، (٥/ ٢٢١).

(٥) أثر الاختلاف الفقهي (ص٤٨).

الفرع الثالث: تعريف التعدد:

التعدد في اللغة: مصدر للفعل «تَعَدَّد» يقال: تَعَدَّد يَتَعَدَّد تعدُّدًا: أي صار ذا عدد.

و«**التعددية**» لغة نقيض الأحادية، أي أنها لا تعني أكثر من أن كون الشيء متعددًا، أو قابلية وجود أكثر من شيء واحد عدديًّا[1].

والتَّعَدُّد -**اصطلاحًا**- يدل على اشتراك عدة أطراف في شيء ما، مثل تعدد الآراء حول الموضوع، والشيء متعدد الأغراض هو ما يستفاد منه في عدة أشياء.

والتعددية كمصطلح لم يتداوله علماء المسلمين قديما، ولم يعرف في كتبهم؛ بل إنه مصطلح طارئ وافد، لكن في ظل ثقافة العولمة وتأثر الشرق بالغرب، فإن الإسلام لا بد له من وقفة تحليلية لكل وافد غريب، حتى لا يذوب في ثقافة الغرب، أو يكون مجرد تابع لها[2].

وعند النظر في مصطلح التعددية بنظرة إسلامية -بعيدًا عن تشويشات الغرب- نجده يعني في جوهره التسليم بالاختلاف تسليمًا واقعا لا يسع عاقلا إنكاره، والتسليم به حقًّا للمختلفين لا يملك أحد حرمانهم منه.

وهي توصف بالموضوع الذي يكون الاختلاف حوله، أو ينحصر في نطاقه، فتكون سياسية أو اقتصادية أو دينية أو عرقية أو لغوية أو غير ذلك[3].

فإذا كان الاختلاف والتنوع ضرورة حياتية وسنة كونية، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ**

(١) نقل ذلك عن لسان العرب وغيره من المعاجم كتاب التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية لعلي جابر العبد الشارود، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط(١)، ١٤٣٢هـ، (ص٢٧).

(٢) التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية لعلي جابر العبد الشارود، (ص٣٠).

(٣) التعددية السياسية من منظور إسلامي للدكتور محمد سليم العوا، مجلة العربي-الكويت، العدد(٣٩٥) أكتوبر ١٩٩١م، فيما نقله كتاب: التعددية الحزبية (ص٣١).

﴿شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [1]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [2] فإن التعددية – وهي التسليم بهذا الاختلاف والإذعان لهذه السنة الكونية– أمر لا مفر منه، ولهذا أقره الإسلام، وحرص عليه ووصى به، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [3]، فالتعددية في الاصطلاح الإسلامي تتأتى من ثلاث مراحل:

أولًا: الاعتراف بوجود تنوع واختلاف وتباين بين عامة البشر والتسليم بذلك أيا كان هذا التنوع والتباين، وأيًّا كان مصدره ومنشؤه.

ثانيًا: احترام هذا التنوع وهذا الاختلاف وما يترتب عليهما من تباين، سواء كان في أمور أساسية كالأديان والشرائع والأجناس والألوان، أو أمور فرعية كاللهجات واللكنات وفروع العلوم والمعارف.

ثالثًا: وضع مناهج وأسس تحكم هذا الاختلاف في إطار مناسب، تعتمد على مبادئ كلية جامعة، تجعل المجتمعات تعيش في أمن ووحدة، وترقى عن التمزقات ومساوئ الخلافات[4].

وبناء على ما تقدم فإن مفهوم التنوع في هذا البحث يشمل التعدد والاختلاف والتباين والتفرق وكل الألفاظ الدالة على المغايرة، ولا يقتصر على اختلاف التنوع الذي ذكره الفقهاء عند تمييزهم بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد، وهذا المعنى الواسع يتفق مع تعريف التنوع الذي أقرته منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة، ومنظمة الآيسسكو التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، فالبحث يهدف

(١) سورة هود، الآيتان (١١٨-١١٩).

(٢) سورة الروم، الآية (٢٢).

(٣) سورة الأنعام، الآية (١٠٧).

(٤) التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية (ص٣١).

إلى التوصل إلى الفقه الذي يحكم العلاقات الإنسانية في تجلياتها المختلفة من وجهة النظر الإسلامية، فلا معنى لفقه لا يخاطب قضايا الواقع.

والتنوع والاختلاف والتعددية بهذا الفهم لا تعني القطيعة ولا التشرذم، وإنما تعني أن هنالك جوامع ومشتركات وهنالك اختلافات ينبغي أن تراعى وتدار بحكمة، «التعددية تنوع مؤسس على تميُّز وخصوصية، فهي لا يمكن أن توجد وتتأتى - بل لا تتصور - إلا في مقابلة الوحدة والجامع، ولذلك لا يمكن إطلاقها على التشرذم والقطيعة التي لا جامع لآحادهما، ولا على التمزق الذي انعدمت العلاقة بين وحداته، وأيضا لا يمكن إطلاق التعددية على الواحدية التي لا أجزاء لها أو المقهورة أجزاؤها على التخلي عن المميزات والخصوصيات»[1].

وجاء التشريع الإسلامي منظما للعلاقات الإنسانية، ومبينا منهج التعامل مع الآخر مهما كان لونه أو دينه أو ثقافته، بل اعتبر التنوع والتعدد آية من آيات الله المبثوثة في الكون التي توجب الاعتبار.

لقد أرسى الإسلام قواعد وأسسًا للتعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن، بحيث يصبح المسلمون في تناسق واندماج مع العالم الذي يعيشون فيه بما يضمن تفاعلهم مع الآخر وتواصلهم معه، دون تفريط في الثوابت الإسلامية، وعلى نهج تلك الأسس ووفق تلك الثوابت يمضي المسلمون قدما في رسم الحضارة الإسلامية لمعايشة المستجدات التي تطرأ عبر التاريخ، كما يظل الرسول ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة في كل شيء، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[2][3].

(١) السابق (ص٢٨-٢٩).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٢١).

(٣) النماذج الأربعة من هدي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر: الأسس والمقاصد، للدكتور علي جمعة، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، الجيزة، مصر، ط(١)، ٢٠١٣م، (ص٥).

المطلب الثالث

التنوع والتعدد والاختلاف: المصطلح والمفهوم، والعلاقة بينها

الفرع الأول: العلاقة بين المفهوم والمصطلح

عرفنا في المطلب السابق مصطلح التَّنَـوُّع والاخـتلاف والتعـدد، وأمـا التنـوع بعباراته المتعددة كمفهوم فهو وصف لظاهرة طبيعية محسوسة ومشاهدة[1]، وأما التنوع والتعددية كمصطلح فهو منهج التعامل مع ظاهرة التبـاين والتنـوع في حيـاة الناس.

فالمفهوم وصف لظاهرة طبيعية قائمة وواقعة في كل المجتمعات، والمصطلح نظرية وتصور لحقيقة حدود التباين والتنوع وضوابط الاتفـاق والافتـراق وكيفيـة تنظيم المجتمع على أساس ذلك[2].

ويختلف المفهوم عن المصطلح اختلافا بينًا؛ فالمصطلح عبارة عما يصـطلح عليه قوم بعينهم أو جماعة من الناس تجمعهم حرفة أو صناعة أو علم أو مذهب أو غير ذلك، على إطلاق لفظ بإزاء معنى أو ذات، أما المفهوم فهو معنى كلي أو فكـرة عامة مجردة، تحمل من المعاني والمشاعر التي يستدعيها اللفظ في أذهـان النـاس عندما يقرؤونه أو يسمعونه، ولـذا فـإن المفهـوم -بخـلاف المصـطلح- لا يقبـل تعريفا جامعا مانعا، وإنما يتسم بمرونة مطلقة لا تحدها حـدود ولا تقيـدها قيـود،

(١) التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية (ص٣١).

(٢) رؤية إسلامية لمشكلة التعددية للدكتور بسطامي سعيد، مجلة البيـان، لنـدن المنتـدى الإسـلامي العدد (٢١٦)، شعبان ١٣٢٦هـ، (ص٨).

ومقالة: حول منهج النظر في التعدد والحرية للدكتور وهبـة رؤوف عـز الـدين، مجلـة رؤى- بـاريس، العدد(١٤) ٢٠٠٢م، (ص١١).

فتتسع دلالاته أحيانًا وتضيق أحيانًا أخرى[١].

وعليه فإن مفهوم التعدد مشترك إنساني عام تعرفه كل الثقافات والحضارات والشعوب، أما منهج التعامل مع التعدد والتنوع فيختلف بحسب مرجعيات الأديان والحضارات والثقافات، فهنالك منهج الحضارة الغربية للتعامل مع التنوع، وهنالك منهج الحضارات الشرقية، الصينية والهندية واليابانية، وهنالك منهج الحضارة الإسلامية.

وتبرز أهمية الفصل بين المفهوم والمصطلح هنا بالتفريق بين التباين والاختلاف كأمر طبيعي وفطري في الحياة، وبين المناهج والوسائل التي تنظم هذا الاختلاف والتباين، بحيث يصبح المجتمع كأنه وحدة واحدة، أو على الأقل يكون هناك تقبل للآخر وقبول معايشته[٢].

الفرع الثاني: التنوع والتعددية في المنظور الغربي

ترجع أصول التعددية في الغرب إلى الفلسفة اليونانية، حيث ظهرت الفكرة لمناهضة فلسفة وحدة الوجود ونقضًا لها، ومضمونها أن الوجود ليس واحدا بل متعددا، وحين بدأ الغرب النهوض بإحياء مخلفات التفكير اليوناني بعث فكرة التعددية الفلسفية من جديد في القرن السابع عشر الميلادي، وظلت حبيسة في الإطار الفلسفي دون أن تجد لها سوقا حتى بداية القرن العشرين[٣].

ثم تنامت من جديد على يد المفكرين الإنجليزيين «وليم جيمس»[٤] و«برتراند

(١) التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية (ص٢٨).

(٢) نفسه.

(٣) التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية (ص٢٨).

(٤) وليم جيمس [١١ يناير 26 - 1842 أغسطس1910] فيلسوف أمريكي ومن رواد علم النفس الحديث، كتب كتبًا مؤثرة في علم النفس الحديث وعلم النفس التربوي وعلم النفس الديني والتصوف والفلسفة البراغماتية، وكان شقيق الروائي المعروف هنري جيمس وأليس جيمس كاتب اليوميات، وليم جيمس ولد في مدينة نيويورك، وهو فيلسوف الحرية، له العديد من المؤلفات منها: الإرادة، الاعتقاد، مبادئ علم النفس، البراغماتية.

راسل»[1] اللذين وجدت آراؤهما قبولا فائقا في مناخ اليأس السائد بين العلماء آنذاك، بسبب فشل العلوم التجريبية في حل كثير من المعضلات الكونية، حتى لقد أعلن أحدهم انتصاره قائلا: «لقد تكسرت هيمنة الحقيقة المطلقة»[2] ومن الفلسفة انتقلت الفكرة إلى ميدان السياسة حيث دعا العلماء في أوروبا وأمريكا - ومن أبرزهم هارولد لاسكي[3] إلى تحطيم سلطان الدولة المطلق. وفي الفترة التي تلت انهيار الاستعمار للبلاد الآسيوية والإفريقية ظهرت كثير من النزاعات

(١) برتراند آرثر ويليام راسل [١٨ مايو ١٨٧٢ - ٢ فبراير ١٩٧٠] إيرل راسل الثالث، فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني، في مراحل مختلفة من حياته كان راسل ليبراليًّا واشتراكيًّا وداعية سلام، إلا أنه أقر أنه لم يكن أيًّا من هؤلاء بالمعنى العميق، وعلى الرغم من قضائه معظم حياته في إنجلترا، وُلد راسل في ويلز، وتوفي عن عمر يناهز سبعة وتسعين عامًا.
قاد راسل الثورة البريطانية ضد المثالية في أوائل القرن العشرين، ويعد أحد مؤسسي الفلسفة التحليلية إلى جانب سلفه كوتب فريح وتلميذه لودفيش فيتغنشتاين، كما يعتبر من أهم علماء المنطق في القرن العشرين، ألف بالشراكة مع أي. إن. وايتهيد مبادئ الرياضيات في محاولة لشرح الرياضيات بالمنطق، وتعد مقالته الفلسفية عن التدليل نموذجًا فكريًّا في الفلسفة، وما زال لعمله أثر ظاهر على المنطق والرياضيات ونظرية المجموعات واللغويات والفلسفة، وتحديدًا فلسفة اللغة ونظرية المعرفة والميتافيزيقا.
ينظر: الموسوعة الحرة: https: //ar. Wikipedia. org

(٢) التعددية الحزبية (ص٣٥).

(٣) هارولد جوزيف لاسكي [٣٠ يونيو ١٨٩٣ - ٢٤ مارس ١٩٥٠]. المنظر السياسي البريطاني والاقتصادي والمؤلف والمحاضر، وكان ناشطًا في السياسة ورئيسًا لحزب العمل البريطاني خلال ١٩٤٥-١٩٤٦، وأستاذًا في كلية لندن للاقتصاد من ١٩٢٦ إلى ١٩٥٠، وقد شجع أولًا التعددية، مؤكدًا على أهمية المجتمعات المحلية التطوعية مثل العمل في النقابات، وبعد عام ١٩٣٠ تحول إلى التركيز الماركسي على الصراع الطبقي والحاجة إلى ثورة العمال، التي ألمح إلى أنها قد تكون عنيفة، تعرض موقف لاسكي من الديمقراطية لمزيد من الهجمات من وينستون تشرشل في الانتخابات العامة عام ١٩٤٥، وكان لاسكي المتحدث الفكري الأكثر تأثيرًا في بريطانيا للاشتراكية في السنوات ما بين الحربين، وعلى وجه الخصوص أثر تعليمه تأثيرًا كبيرًا على الرجال الذين أصبحوا فيما بعد قادة دول جديدة في آسيا وأفريقيا مع ظل الإمبراطورية البريطانية.
ينظر: الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org

والحروب الإقليمية والعرقية والدينية، بسبب عوامل داخلية ومكائد خارجية، مما أبرز تفكيرا جديدا في العلوم الاجتماعية عن التعددية وتعايش الجنسيات والثقافات والديانات[1].

لقد خلَّفت النزاعات والحروب التي يغذيها التعصب في أوروبا؛ مظاهر من الأحقاد والكراهية ورفض الآخر، مما حَفَّز المفكرين لبلورة «التعددية» كمصطلح سياسي في علم السياسة الغربي اللبرالي السائد، كنظام سياسي له خلفية تاريخية وفلسفية ترتبط بإدراك دور الدولة وطبيعة المواطنة؛ بل وطبيعة الإنسان، وصيغ العقد الاجتماعي[2] وقضاياه ونظامه الاقتصادي، وللنظام الغربي ملامح مؤسسية ثابتة متفقا عليها، ويقترن بتطور اقتصادي واجتماعي محدد، ومناخ ثقافي يقوم على الفصل بين الدين والدولة، ويهدف إلى إدارة الصراع الاجتماعي الممتد، دون مرجعية فكرية، واحدة تجمع الأفراد والجماعات، سوى مبدأ قبول التعدد ذاته وإجراءات إدارته، مع تنامي الهويات الناشئة والمصطنعة، وليست المكتسبة في مواجهة مرجعيات سائدة أو تاريخية[3].

(١) التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية (ص٣٦).

(٢) العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي كتاب من تأليف جان جاك روسو، حيث وضع نظريته حول أفضل طريقة لإقامة المجتمع السياسي في مواجهة مشاكل المجتمع، وكان الكتاب مصدر إلهام لبعض الإصلاحات السياسية أو الثورات في أوروبا وخاصة في فرنسا، فبعد سقوط الشرعية الملكية والدينية كأساس للحكم في أوروبا أصبح من الضروري البحث عن شرعية بديلة يقوم عليها الحُكم السياسي وتتحدد على أساسها مسئوليات الحاكم والمحكوم والواجبات والحقوق المترتبة على كل منهم، لذلك ظهر العديد من المفكرين والفلاسفة، الذين عملوا على إيجاد ميثاق شرعي جديد يحكم العلاقة بين الطرفين، وكان من بين هؤلاء المفكرين الذين سعوا لإيجاد هذا الميثاق جان جاك روسو الذي طرح فكرة العقد الاجتماعي إلى جانب مجموعة أخرى من المفكرين التنويريين، أمثال توماس هوبز وجون لوك.
الموسوعة الحرة: https: //ar. Wikipedia. org

(٣) التعددية رؤية مقارنة في المنظور الغربي والمنظور الإسلامي لوفاء لطفي عبد الواحد، بحث منشور في موقع الشبكة العربية العالمية: http://www.globalarabnetwork.com/studies

فالتعددية في المصطلح الغربي تعني إدارة التعدد -كما هو- دون رؤية لتوحيد مكوناته، وتحديد المشتركات التي تجمع بينها، ويمكن أن تنشأ في ظل هذه الثقافة السائدة مكونات جديدة توسع مجالات التعدد.

والتعددية في الغرب جاءت لمعالجة أزمات نشأت من سوء إدارة التنوع في الغرب، فالتعددية في الغرب وليدة التجربة بعد صراع دام بين الطوائف الدينية وتمرد على سلطان الكنيسة الذي فرض تصورًا معينًا للحياة وللعلاقات الاجتماعية وللنظام السياسي.

الفرع الثالث: التنوع والتعددية في المنظور الإسلامي

إذا كان الغرب قد توصل للإيمان بالتعددية كنظرية تعالج الاختلاف والتباين والتنوع داخل مجتمعاته، فإنه إنما توصل إليها بعد جهاد عنيف مع مفهوم (الحق المطلق) الذي تبنته الكنيسة ولم تستطع التغلب على هذا المفهوم السائد إلا بعد طول زمان.

فالتعددية لدى الغرب ما هي إلا فكرة مستحدثة مكتسبة فرضتها الحياة عليه، أما بالنسبة للإسلام فالأمر مختلف تماما؛ إذ أن أصل فكرة التعددية نابع أساسا من مصادر الإسلام الأصلية (القرآن والسنة)، فالتعددية في الإسلام منبعها الوحي لا التجربة، والشرع لا الضرورة.

ولا يعارض ذلك أن كلمة التعددية لم تذكر لا في مصادر الإسلام ولا في كتب فقهائه، فالكلمة لا جدال في أنها مستحدثة، لكن جوهرها وأساسها - وهو منهجية التعامل مع المخالف وإدارة مسألة التنوع والتباين - لم يغفله القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[1].

وهذا شأن كثير من المصطلحات المستحدثة التي توصل إليها الفكر الإنساني

(١) التعددية رؤية مقارنة في المنظور الغربي والمنظور الإسلامي لوفاء لطفي عبد الواحد، بحث منشور في موقع الشبكة العربية العالمية: http://www.globalarabnetwork.com/studies

بعد معاناة طويلة وتجارب مريرة، حيث توصل إلى مفاهيم ظنها جديدة، لكن مضمونها في الواقع لم يكن جديدا، ومن أمثلة ذلك حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والمواطنة، بل حتى الديمقراطية كآلية للتبادل السلمي للسلطة، هذه المصطلحات لم يستخدمها الفقه الإسلامي، لكن مضمونها ومقاصدها مبثوثة في التشريع الإسلامي ومقاصده.

فالتعددية والتنوع بمفهومهما المعاصر لم يستخدمهما الإسلام، لكن هناك الكثير من الدلالات المرتبطة بمفهوم التعددية في التشريع الإسلامي، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]، فقد عرف المجتمع المسلم الديانات المتعددة في مكة وفي المدينة، بل إن مجتمع المدينة قام على التعددية الدينية التي نصت على حقوقها صحيفة المدينة، فالتعددية الدينية التي تختص بالتعدد في الدين والعقائد والشرائع والمناهج المتصلة به عرفتها مجتمعات المسلمين منذ عصر التنزيل، كذلك عرفت التشريعات الإسلامية الاعتراف بوجود تنوع في الانتماء الديني في مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعا أو أكثر، مع احترام هذا التنوع وقبول ما يترتب عليه من اختلاف أو خلاف في العقائد، وإيجاد صيغ ملائمة للتعبير عن ذلك في إطار مناسب وبالحسنى دون نشوب صراع ديني يهدد سلامة المجتمع.

ومن يراجع القرآن الكريم والسنة وكتب الأقدمين والمعاصرين يجدها ملأى بالحديث عن كثير من المبادئ والقيم والتوجيهات الخاصة بذلك، ويقوم التاريخ شاهدا على تنزيل هذه المبادئ والقيم إلى واقع ملموس؛ إذ ضم العالم الإسلامي في أراضيه على امتدادها وفساحتها كمًا هائلا من الجنسيات والأعراق واللغات والمذاهب والآراء والمعتقدات والأديان، وتفاعلت فيما بينها وتلاقحت وتحاورت وتجادلت وشاركت كلها في صنع الحضارة الإسلامية، في علومها وفنونها ونظمها ومؤسساتها المختلفة، وإن ظهرت فيما بينها بين الحين والآخر

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).

نزاعات وصراعات وحروب فهي استثناء لا أصل[1].

وهنا يبرز التساؤل المهم: إذا كان الإسلام عرف التنوع والتعددية قبل الغرب وأدار التنوع بمنهج عادل في عصر التنزيل وعصر الخلافة الراشدة، فلماذا تراجع دور المسلمين وانتشرت في مجتمعاتهم الإسلامية ظاهرة الغلو والتطرف والعصبية ورفض الآخر؟ بل في داخل الجسم الإسلامي انتشرت ظاهرة التكفير والحروب بين الطوائف والجماعات، بينما نجد في الغرب إدارة جيدة للتنوع مصانة بمواثيق دولية ومراقبة بمؤسسات عدلية وسياسية وإعلامية، حتى صارت إدارة التنوع وقبول الآخر ثقافة مجتمعية؟

لا شك أن هنالك عوامل تكمن خلف هذا التراجع عند المسلمين والتطور عند الغرب، وهذا ما سنناقشه في مباحث قادمة، ولا يغيب عنا أن الابتعاد عن العصر الذهبي الذي طبق فيه الرسول ﷺ مبادئ الإسلام وأن طولَ الأمد بين عصر التنزيل وعصرنا الحالي، والتطورات الاجتماعية التي سادت العالم، وتعامل الآخر مع المسلمين، وأن طغيان الشعارات على المبادئ، فضلا عن غياب أهم مبادئ تعزيز الكرامة الإنسانية- الحرية والعدالة والشورى- كلها أسهمت في تراجع المسلمين عن ركب الحضارة، ذلك أن التوفيق بين الواقع والنموذج دائما ما يشكل هاجسا كبيرا في المجتمعات، وبسببه يحدث التصادم بين المتحمسين - الذين ينشدون المثال دون إدراك لتعقيدات الواقع- والمجتمع الذين يعيشون فيه؛ لاعتقادهم بانحرافه.

(١) رؤية إسلامية لمشكلة التعددية (ص١٢).

المبحث الثاني

فقه التنوع وعناصره

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: فقه التنوع.

المطلب الثاني: عناصر فقه التنوع.

المطلب الثالث: مجالات فقه التنوع.

المطلب الأول

فقـــه التنـــوع

الفرع الأول: تعريف فقه التنوع

سبق تعريف الفقه بأنه: العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبط من أدلتها التفصيلية، وأن التنوع هو الاعتراف بوجود تنوع واختلاف وتباين بين عامة البشر والتسليم بذلك، واحترام هذا التنوع وما يترتب عليه من تباين.

وفي هذا الفرع سوف نتعرف على فقه التنوع باعتباره لقبًا لنوع معين من أقسام الفقه، هو فقه المعاملات، على أساس أن هذا النوع من الفقه يحكم علاقات المسلم مع الآخر داخل الملة ومع الآخر المختلف دينيًّا وثقافيًّا وحضاريًّا.

ولعلنا لا نجد في كتب الفقه القديمة ذكرًا لهذا الفقه بلقبه المحدد (فقه التنوع)، ولكننا -قطعًا- نجد أنّ الفقهاء تحدثوا عن مضمون هذا الفقه من خلال حديثهم عن أحكام الجهاد، وأحكام أهل الذمة، ومعاملة الإسلام لأهل الكتاب، واختلاف الدارين، وغيرها من الأحكام التي تناولت فقه العلاقة مع المخالف.

وهناك أنواع من الفقه ظهرت على ألسنة المعاصرين لم تكن معروفة بألقابها في عرف الأقدمين، مثل: فقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه المقاصد، وفقه الواقع، وفقه التنزيل، وغيرها من تقسيمات الفقه التي نشأت استجابة لمتطلبات الواقع، والتي يضمها جميعا مصطلح فقه السياسة الشرعية، وعليه فيمكن تعريف فقه التنوع بأنه «الإدراك الكامل لفقه الحكم المتعلق بمعرفة المخالف، وأسباب الاختلاف، وطبيعة الخلاف، والحكم الشرعي في معاملة المختلف داخل الإسلام، ومعاملة المخالف خارج ملة الإسلام، ولفقه المحل، ومن ثم تنزيل

الحكم على الواقع البشري الملائم للحكم الشرعي»[1].

وبصورة أوضح: «هو الفهم الدقيق في تطبيق الكليات الشرعية المجردة على وقائع المكلفين في تعاملهم مع المختلف داخل الملة والمخالف خارج الملة، مع مراعاة تحقيق مقاصدها ومآلاتها»[2].

الفرع الثاني: شرح التعريف

فقه التنوع له علاقة بفقه التنزيل، مثله مثل بقية الأحكام الشرعية عند تنزيلها على الوقائع. ويبين التعريف السابق أنّ تنزيل فقه التنوع يحتاج إلى نظر دقيق وعميق في كليات الشريعة عند تطبيقها، كما بيّن ابن عبد السلام المالكي ذلك عند قوله: «وهو عسير على كثير من الناس»[3]، يعني: عسير على كثير من الناس العوام أو أنصاف الفقهاء أو المقلدين، ولو لم يكن عسيرًا لما احتاج إلى فهم دقيق.

كما أنّ التعريف بَيَّن أنّ طبيعة النص الشرعي عام مجرد، والحوادث معينة ومشخصة، وفقه التنزيل هو من يوائم بينهما، كذلك بيّن التعريف عناصر مهمة في تنزيل الأحكام هي: الحكم والمكلف والواقع، كما بيّن الأسس المنهجية والشروط الأساسية لتنزيل الأحكام على الوقائع، وهي فقه المحل -ويسمى تحقيق المناط- وتحقيق المقاصد الشرعية والنظر في المآلات، وهي أقطاب أساسية في التنزيل سطرها الأصوليون في تنزيل النصوص الشرعية[4].

وفقه التنوع يقتضي معرفة الحكم الشرعي الذي يطبق على العلاقة مع الآخر المختلف داخل الملة والآخر المخالف خارج الملة ومعرفة طبيعة الاختلاف وأنواعه، فالمختلفون والمخالفون ليسوا على درجة واحدة، وقد لفت القرآن الكريم نظر المسلم لضرورة مراعاة هذا التقسيم، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا

(١) فقه التنزيل (ص٤٧-٤٨).

(٢) السابق (ص٤٩).

(٣) فقه التنزيل (ص٤٩).

(٤) نفسه.

﴿تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنۢبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[1]، فالآية أمرت بالعبادة لله وحده وعدم الإشراك به، وأمرت بالإحسان للوالدين ولذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب... إلخ، ومما لا ريب فيه أن حكم الإحسان يختلف بالنسبة للمذكورين؛ فالوالدان الإحسانُ لهما واجبٌ وجوبا مُغَلَّظا، أكدته نصوص كثيرة في القرآن والسنة، وتتفاوت طبيعة الإحسان لبقية المذكورين حسب درجة القرابة والحاجة والاستطاعة، وفيما يتعلق بالجار فإن السنة النبوية بينت أن حقوق الجيران تتفاوت، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **الْجِيرَانُ ثَلاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَدْنَى الْجِيرَانِ حَقًّا، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَجَارٌ مُشْرِكٌ لا رَحِمَ لَهُ، لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَجَارٌ مُسْلِمٌ، لَهُ حَقُّ الإسلام وَحَقُّ الْجِوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ، لَهُ حَقُّ الإسلام، وَحَقُّ الْجِوَارِ، وَحَقُّ الرَّحِمِ**»[2]، وورد في السنة أن الزكاة لذي الرحم صدقة وصلة.

والمخالفون في الملة أيضًا تتفاوت درجاتهم؛ فالمشركون لهم حقوقهم الإنسانية مع الاختلاف الكبير في الدين، فدين التوحيد لا يلتقي مع دين الشرك، وعندما حاول المشركون مساومة رسول الله ﷺ نزلت السورة الحاكمة في هذا الأمر؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ

(١) سورة النساء، الآية (٣٦).

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي برقم (١٨٩٦)، كتاب البر والصلة، باب حق الجار، (٢/ ٣٨٠) من حديث جابر بن عبد الله، وابن عدي في الكامل، ترجمة عثمان بن عطاء الخراساني، رقم (١٣٢٧)، (٦/ ٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو. قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص٦٧٥): «أخرجه الحسن بن سفيان والبزار في مسنديها وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر، وابن عدي من حديث عبد الله بن عمرو، وكلاهما ضعيف».

﴿أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[1]، وأهل الكتاب فهم درجات؛ فالنصارى أقرب إلينا من اليهود؛ قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]، والقرآن الكريم أشار إلى أن أهل الكتاب ليسوا سواءً، فمنهم الملتزمون بأحكام دينهم ومنهم غير ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وهكذا.

(١) سورة الكافرون، الآيات (١-٦).

(٢) سورة المائدة، الآية (٨٢).

(٣) سورة آل عمران، الآيات (١١٣-١١٥).

المطلب الثاني

عناصر فقه التنوع

لكل باب من أبواب الفقه عناصر يتكون منها، وهذه العناصر هي النص والمكلف والواقع، فالحكم الشرعي الصائب يتوقف على معرفة النص وشروط الاستدلال به، ومعرفة المكلف وحاله وكيفية تنزيل الحكم عليه، والواقع وطبيعته والحكم الملائم له، فالعملية الاجتهادية تقوم على ثلاثة عناصر بدهية، هي: النص، والواقع، والمكلف[1].

وذلك بعد وجود عنصر المجتهد، وهذه العناصر مهمة في فقه التنزيل، ولا يتمكن المجتهد من تنزيل الحكم إلا بعد القراءة الصحيحة لهذه العناصر الثلاثة، والنظر إلى ما يعتريها من ملابسات وظروف وقرائن[2].

الفرع الأول: تعريف المجتهد

العنصر الأول من عناصر فقه التنوع هو المجتهد، والمجتهد هو من توفرت فيه ملكة الاجتهاد، أي القدرة على استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، وهو الفقيه عند الأصوليين، فلا يعد الشخص مجتهدا ولا فقيها إلا إذا عرف الأحكام الشرعية بطريق الحفظ والتلقين، أو بتلقيها من الكتب، أو من أفواه العلماء بلا بحث ولا نظر ولا استنباط[3].

(١) الاجتهاد المقاصدي: حقيقته وتأريخه وحجيته وضوابطه ومستلزماته ومجالاته ومعالمه وتطبيقاته المعاصرة لنور الدين مختار الخادمي، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط(١)١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

(٢) فقه التنزيل (ص٧٢).

(٣) الوجيز في أصول الفقه (ص٣٧٥-٣٧٦).

وقد ذكر الأصوليون شروطا كثيرة للمجتهد، تنقسم إلى شروط عامة -وتسمى شروط التكليف-، وهي الإسلام والبلوغ والعقل، وشروط تأهيلية، وهي تنقسم إلى شروط أساسية وشروط تكميلية.

فالشروط الأساسية معرفة القرآن الكريم وعلومه ومعرفة السنة الشريفة وعلومها ومعرفة مواضع الإجماع ومعرفة اللغة العربية ومعرفة وجوه القياس.

والشروط التكميلية معرفة البراءة الأصلية ومعرفة مقاصد الشريعة ومعرفة القواعد الكلية ومعرفة مواضع الخلاف ومعرفة العرف ومعرفة المنطق وعدالةُ المجتهد وصلاحه وحسن الطريقة وسلامة المسلك والورع والعفة والافتقار إلى الله تعالى والتوجه إليه بالدعاء وثقته بنفسه وشهادة الناس له بالأهلية وموافقة عمله مقتضى قوله ورصانة الفكر وجودة الملاحظة[1].

فالمجتهد هو العنصر المنوط به الربط بين العناصر الأخرى والتفاعل معها لاستنباط الحكم الملائم للوقائع والأحداث والعلاقات، وحتى يكون المجتهد المُنَزِّل للشريعة محيطا بتلك العناصر لا بد أن يكون ملمًّا بشروطٍ ذكرها الإمام الشاطبي، وهي تعد ركيزة مهمة تعين المجتهد على الإدراك الكامل والاطلاع الواسع في الشريعة، فقال: «إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن **اتصف بوصفين**:

أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها.

والثاني: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها»[2].

والشاطبي ركز على إبراز فهم المقاصد والتمكن من الاستنباط؛ لأهمية النظر إلى روح التشريع، فمما لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية قد قامت أحكامها على رعاية وحفظ مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم؛ وذلك حتى تتحقق لهم أقصى

(١) اختلاف الاجتهاد وتغيره وأثر ذلك في الفتيا للدكتور محمد عبد الرحمن المرعشلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط(١) ١٤٢٤هـ، (ص ٥٩-٦٣).

(٢) الموافقات (١/ ١٠٥).

درجات الخير في الدنيا وأعلى مراتب السعادة في الآخرة[1].

والله ﷻ جعل رسالة محمد ﷺ رحمة للناس كافة، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [2]، كما أودع في كتاب تلك الشريعة القرآنِ الكريمِ الشفاءَ والهدى والرحمة لكل من آمن به واتبعه، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [3].

وهناك العديد من الفقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم كتبوا في مناهج الشريعة الإسلامية ومقاصدها وفي المصالح والأسباب التي بنيت عليها، ومن هؤلاء العز بن عبد السلام[4] وابن قيم الجوزية وأبو إسحاق الشاطبي وغيرهم[5].

ولقد قسم هؤلاء الفقهاء الأحكام إلى فئتين: فئة العبادات، وفئة المعاملات الدنيوية.

أما الأولى فتبحث في المسائل التعبدية، وأما الثانية فإنها تعود لمصالح الناس

(١) روح التشريع بين الإسلام والغرب للدكتور عوض صلاح علي القوني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة – جمهورية مصر العربية، ط(١)، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، (ص٤٣).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٣) سورة يونس، الآية (٥٧).

(٤) العز بن عبدالسلام بن ابي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي. عزالدين الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ مرتبة الاجتهاد، ولد بدمشق عام ٥٧٧ه ونشأ بها زار بغداد عام ٥٩٩ه وعاد منها بعد شهر واحد. وتولي التدريس بزاوية الغزالي ثم بالجامع الكبير بدمشق.. غادر إلى مصر إثر خلاف مع السلطان الصالح إسماعيل وفي القاهرة ولاه السلطان الصالح بن أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توفي بالقاهرة عام ٦٦٠هـ من مؤلفاته «التفسير الكبير»، «الإلمام في أدلة الأحكام»، «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» «بداية السول في تفضيل الرسول»....وغيرها انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام «التعريف بالمؤلف عزالدين بن عبدالسلام قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م ص ١١٣

(٥) روح التشريع (ص٤٣).

في الدنيا، أو بعبارة العز بن عبد السلام: «التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم، والله غني عن عبادة الكل، ولا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين»[1].

فالمجتهد الفقيه هو من توفرت فيه شروط الاجتهاد واتصف بملكة الاستنباط؛ ليكون قادرا على استنباط الحكم الشرعي الملائم للوقائع والأشخاص والأحوال، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2]، فالنص واضح أن عامة الناس قد يخوضون في أمورٍ دون إدراكٍ لعواقبها، ولو ردوها لأهل الاختصاص لبينوا لهم الحكم الصحيح، ولأرشدوهم إلى الطريق الذي فيه صلاحهم.

والشروط السابقة الذي ذكرها الأصوليون هي شروط المجتهد المطلق، وقد حلت محله في عصرنا الحالي المجامع الفقهية.

الفرع الثاني: تعريف الدليل

الدليل في اللغة: ما فيه دلالة وإرشاد إلى أمر من الأمور.

وفي اصطلاح الأصوليين: ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري[3].

والمراد بالدليل ما يستدل به على الحكم الشرعي، سواء أكان نصًّا من الكتاب والسنة أم قولًا لمجتهد[4].

فمهمة المجتهد تقوم على مبدأ التعرف على مراد الشارع واستنباط الأحكام

(١) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام (١/ ١٦).
(٢) سورة النساء، الآية (٨٣).
(٣) الوجيز في أصول الفقه (ص١٣٧).
(٤) فقه التنزيل (ص٧٧).

الشرعية التي تحكم تصرفات المكلف من الأدلة، ومن ثم تنزيل تلك الأحكام التقريرية على الوقائع المجسدة والمشخصة والمعينة، حتى تكون حياته سائرة على هدى الله وطريق مستقيم.

ولما كان الحاكم الفعلي على تصرفات الناس وأحوالهم هو الشارع الحكيم كان المصدر الذي يكشف المراد الشرعي والذي يجب على المجتهد الاستناد إليه هو الوحي المتمثل في القرآن والسنة؛ لأن البحث هنا إنما هو عن قضايا شرعية يترتب عليها تكليف شرعي بالفعل أو الكف، وما يستلزم ذلك من المدح والثواب أو الذم والعقاب.

أما مرحلة التنزيل على الوقائع فهي جهد بشري محض يقوم على الوصل بين الشرع والواقع والتنسيق بين الأحكام النظرية التجريدية والوقائع العملية في اختيار الأحكام المناسبة للوقائع، ويعتمد على تقدير المصالح والمفاسد وتقييم الأشياء ومدى صلاحيتها للحكم عليها[1].

يقول الإمام القرافي[2] -في الفرق بين قاعدة أدلة مشروعية الأحكام وأدلة وقوع الأحكام-: «إن أدلة مشروعية الأحكام محصورة شرعًا، تتوقف على

(١) الحكم الشرعي بين النظرية والتطبيق: دراسة أصولية على ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الرقيب صالح محسن، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت - لبنان، ط(١) ٢٠١٦م، (ص١١٩).

(٢) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي: من علماء المالكية نسبته إلى قبيلة صنهاجة (من برابرة المغرب) وإلى القرافة (المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي) بالقاهرة، وهو مصري المولد ولد عام:٦٢٦هـ، وَتوفى عام:٦٨٤هـ، برع في الفقه وأصوله والعلوم العقلية، ولازم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي، وأخذ عنه أكثر فنونه، له مصنفات جليلة في الفقه والأصول، منها «أنوار البروق في أنواء الفروق أربعة أجزاء، والذخيرة في فقه المالكية، ست مجلدات، واليواقيت في أحكام المواقيت»، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (المتوفى: ١٣٩٩هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان: ١/ ٩٩-١٠٠.

الشارع، وهي نحو العشرين، وأدلة وقوع الأحكام هي الأدلة الدالة على وقوع الأحكام، أي وقوع أسبابها وحصول شروطها وانتفاء موانعها، فأدلة وقوعها غير منحصرة، وجميع الأسباب والشروط والموانع لا تتوقف على نصب من جهة الشرع، بل المتوقف سببية السبب، وشرطية الشرط، ومانِعِيَّة المانع، أما وقوع هذه الأمور فلا يتوقف على نصب من جهة الشرع، ولا تنحصر تلك الأدلة في عدد، ولا يمكن القضاء عليها بالتناهي»[1].

ويقول ابن القيم: «الفرق بين دليل مشروعية الحكم، وبين دليل وقوع الحكم: الأول متوقف على الشارع، والثاني يعلم بالحس أو الخبر أو الزيادة.

فالأول: الكتاب والسنة ليس إلا، وكل دليل سواهما يستنبط منهما.

والثاني: مثل العلم بسبب الحكم وشروطه وموانعه، فدليل مشروعيته يرجع فيه إلى أهل العلم بالقرآن والحديث، ودليل وقوعه يرجع فيه إلى أهل الخبرة بتلك الأسباب والشروط والموانع»[2].

ولذا فإن الأدلة التي يعتمد عليها المجتهد في عملية التنزيل للتحقق من ماهية الواقعة وتصنيفها ومعرفة مدى صلاحية المحل للتنزيل وتوفر القدرة والاستطاعة للتنفيذ، هذه الأدلة أعم من أدلة ثبوت الأحكام مجردة، فثبوت الأحكام مصدره الشارع فقط عن طريق الأدلة الشرعية فحسب، وهي الكتاب والسنة وما كان راجعا إليهما من الأدلة المساعدة والكاشفة عن مراد الشارع، أما أدلة جهة التطبيق فهي أسباب وشروط وموانع نصبها الشارع أيضا، وعلى المكلف والمجتهد أن يتحقق منها، ومنها أدلة موكولة إلى المكلف ليكشف عنها بما ألهمه الله من الحواس والمدركات وما أنتجته العقول البشرية من العلوم التي تهتم بتفسير الحياة والظواهر الإنسانية في شتى مجالات الحياة[3].

(١) نفسه (ص ١١٩-١٢٠).

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، (٤/ ١٥).

(٣) الحكم الشرعي بين النظرية والتطبيق (ص١٢١).

وهذه الأدلة والمعايير التي يستأنس بها المجتهدُ لتنزيل الأحكام تختلف بحسب الزمان والمكان والإمكانيات وتطور العلوم والمعارف، وهذه الأدلة -في الواقع- جزء مما منَّ الله به على الإنسان؛ ليسترشد ويستهدي في هذه الدنيا، فتسير حياته على أقوم سبيل، ويكون على دراية ودقة متناهية عند تنزيل الأحكام كي تؤتي ثمارها على أحسن حال.

ومن جهة أخرى، فالحكم الشرعي من حيث الاستنباط لا يكون مقبولًا إلا من المسلم، بخلاف الجانب التطبيقي فلا يشترط الإسلام، ويمكن الاستفادة من خبرة غير المسلم في تشخيص الواقعة وتعيين المناط والتحقق منه بصورة دقيقة؛ ليتم تنزيل الحكم بمنهج سليم[1].

يقول ابن القيم: «الحاكم محتاج إلى ثلاثة أشياء لا يصح له الحكم إلا بها: معرفة الأدلة والأسباب والبينات، فالأدلة تعرفه الحكم الشرعي الكلي، والأسباب تعرفه ثبوته في هذا المحل المعين أو انتفاءه عنه، والبينات تعرفه طريق الحكم عند التنازع، ومتى أخطأ في واحد من هذه الثلاثة أخطأ في الحكم، وجميع خطأ الحكَّام مداره على الخطأ فيها، أو في بعضها.

مثال ذلك: إذا تنازع عنده اثنان في رد سلعة مشتراة بعيب، فحكمه موقوف على العلم بالدليل الشرعي الذي يسلط المشتري على الرد، وهو إجماع الأمة المستند إلى حديث الـمُصَرَّاة وغيره، وعلى العلم بالسبب المثبت بحكم الشارع في هذا البيع المعين، وهو كون هذا الوصف عيبًا يسلط على الرد أم ليس بعيب، وهذا لا يتوقف العلم به على الشرع، بل على الحس أو العادة أو العرف أو الخبر ونحو ذلك، وعلى البينة التي هي طريق الحكم بين المتنازعين، وهي كل ما تبين له صدق أحدهما يقينًا أو ظنًّا»[2].

(١) نفسه (ص١٢١-١٢٢).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٣)، كما نقله صاحب كتاب الحكم الشرعي بين النظرية والتطبيق (ص١٢٢).

الفرع الثالث: تعريف المكلف

المكلف هو الشخص الذي تعلق خطاب الشارع بفعله[1]، فهو المخاطب بالتكليف أو من يقع عليه التكليف، وهو ما عبر عنه الأصوليون بالمحكوم عليه، أو هو الشخص الذي تعلق خطاب الشارع بفعله[2].

ولكي تكون التشريعات الدينية صالحة للتطبيق ومهيأة للتنفيذ لا بد من اعتبار معايير التكليف وشروطه التي تجعل المكلف بعد تحققها مسئولا عنها، فالله ﷻ جعل التشريع ملائما لقدرات وطاقات المكلفين؛ ليتسنى لهم تطبيقه بالفعل على مجريات حياتهم.

ولهذا فقد بحث الأصوليون قواعد وضوابط التكليف ومحدداته؛ ليُعرَفَ متى يكون الإنسان مكلفًا تناط به الأحكام الشرعية ويلتزم تنفيذها، ومتى لا يكون كذلك، ومن استقراء موارد الشريعة توصلوا إلى أن مدار التكليف قائم على ثلاثة أمور:

الأول: العلم بالحكم على وجه يمكن تنفيذه.

الثاني: القدرة على القيام بمقتضى التكليف.

الثالث: الخلو من الموانع والعوارض التي تعيق أو تحول دون تنفيذ الحكم الشرعي المعين[3].

فالأصوليون عندما تكلموا عن المكلف تكلموا عن قضية مهمة وهي شروط التكليف وأساسه هو العقل والفهم، واتفق العقلاء على أن شرط المكلف أن يكون عاقلا فاهما للتكليف، ولما كان العقل والفهم فيه خفيًا وظهوره فيه على التدريج، ولم يكن له ضابط يُعرَفُ به، جعل له الشارع ضابطًا وهو البلوغ، وحط عنه

(١) الوجيز في أصول الفقه (ص٨١).

(٢) فقه التنزيل (ص٨٣).

(٣) الحكم الشرعي بين النظرية والتطبيق (ص١٨٢).

التكليف قَبْلَه تخفيفا عليه[1].

أما النظر إلى المكلف من خلال فقه التنزيل فمن عدة اعتبارات؛ باعتباره إنسانًا حرًّا مكلفًا سليمًا، وهذه الحالة الطبيعية التي يتنزل فيها النص عليه ليحصل الامتثال لأمر الشارع، وباعتباره عنصرًا خرج عن حالته الطبيعية، فالعمل من خلال فقه الاستثناء الذي هو جزء من فقه التنزيل؛ لأن المكلف ليس كالحالة الأولى، وباعتبار ضرورة التفريق بين أشخاص المكلفين، فما يجوز لمكلف قد لا يجوز لعموم المكلفين، وما حرم على مكلف قد يجوز لعموم المكلفين، وباعتبار أهليته فقد يكون جنينًا في بطن أمه وقد يكون طفلًا غير مميز، وقد يكون مميزًا، وقد يكون بالغًا وقد يكون رشيدًا.

فالشريعة وضعت لكل مرحلة من المراحل التي تصحب الإنسان أحكاما تناسبه بما لا يشق عليه أو يكلفه ما لا يطيق، فالمجتهد يحدد المرحلة ثم ينزل الحكم، ومن غير التحديد يساء التطبيق الشرعي للأحكام، وباعتبار المكلف إنسانًا سليمًا؛ هل هو من المبتدئين أو من غيرهم أو من الخواص أو العوام، وهذا الفرق معتبر في التربية الإسلامية، حتى يتدرج في تلقي الأحكام[2].

والتكليف له شروط، بعضها يرجع إلى المكلف، وبعضها يرجع إلى الفعل المكلف به، والشروط التي ترجع إلى المكلف تنقسم إلى قسمين: شروط عامة، وشروط خاصة ببعض التكاليف.

فالشروط العامة في كل التكاليف هي: البلوغ والعقل وفهم الخطاب والقدرة على الامتثال والاختيارُ والعلم بالتكليف، والشروط الخاصة ببعض التكاليف منها: الحرية، فهي شرط للتكليف بالجهاد والجمعة، وليست شرطًا للتكليف بالصلاة والصوم، ومنها الذكورة، وهي شرط للتكليف بالجمعة.

(١) فقه التنزيل (ص٨٣).

(٢) نفسه (ص٨٥).

وأما الشروط التي ترجع إلى الفعل المكلف به فهي أن يكون الفعل معلومًا وأن يكون معدومًا وأن يكون ممكنًا، فلا تكليف بالمجهول، ولا تكليف بما حصله المكلف، فمن صلى الفجر مثلًا لا يؤمر به بعد فعله، ولا يكلف بما هو فوق طاقته[1].

الفرع الرابع: تعريف الواقع

الواقع -لغة-: من (وقع يقَعُ وقوعًا)، أصله من السقوط ونزول الشيء على الشيء، ومنه استعمل مجازًا في ثبوت الشيء وتحققه على حالة ما[2].

والواقع -اصطلاحًا-: لم يعرض له الفقهاء، أو بالأحرى لم يكن له دلالة اصطلاحية، مع أن كثيرا من الفقهاء أشار إلى أهمية فهمه[3]، وقد اجتهد بعض المعاصرين في تعريف الواقع، فقد عرفه الدكتور عبد المجيد النجار بقوله: «نعني بالواقع ما تجري عليه حياة الناس في مجالاتها المختلفة، من أنماط في المعيشة، وما تستقر عليه من عادات وتقاليد وأعراف، وما يستجد فيها من نوازل وأحداث»[4].

إن مراعاة الظروف والأحوال والعلاقات والتغيرات تمثل الواقع الذي يعيش فيه مجتمع ما، ويندرج في ذلك عنصر الزمان والمكان والبنية التحتية والبنية الفوقية ومختلف فئات المجتمع ومؤسساته المعنوية والمادية[5].

(١) الحكم الشرعي بين النظرية والتطبيق (ص ٣٨٢-٣٨٦).

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة (وقع).

(٣) فقه الواقع وأثره في الاجتهاد لماهر حسين حصوة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، مكتب التوزيع في العالم العربي (بيروت - لبنان)، ط(١)، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، (ص ١٥).

(٤) فقه التدين فهمًا وتنزيلًا لعبد المجيد النجار، سلسلة كتاب الأمة العددان (٢٢-٢٣) (جزء١)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، ١٩٨٨م، (ص ١١١).

(٥) جدل الأصول والواقع لحمادي ذؤيب، دار المدار الإسلامي-بيروت، ٢٠٠٩م، (ص٢١).

والواقع -بالنسبة لفقه التنزيل- يمثل شرطه الأساس وميدانه الذي ينـزل فيـه؛ لأنه لا يوجد تكليف ينزل على مكلف مجـرد عـن واقعـه، ولا يجـادل أحـد في أن الاجتهاد الأصولي يأخذ بعدين: بعدًا يتجه النظر فيه إلى النص، مـن حيـث ألفاظُـه وعباراته ومعانيه، وبعدًا يتجه النظر فيه إلى الواقع الخارجي وما يتبعه مـن لواحـق وإضافات؛ لتحديد محل الحكـم وتحقيـق مناطـه الـذي يـرتبط بـه، فقـد تكـون الأحكام صحيحة غير أن تطبيقها يقتضي تكييفات معينـة، لا بـد فيهـا مـن اعتبـار السياق والملابسات المرتبطـة بمختلـف القضـايا والأسـئلة والمشـكلات التـي يفرزها الواقع الاجتماعي[1].

إنّ استنباط الحكم وتنزيله عـلى المعـين يقتضـي فهـمَ الواقـع وقراءتَـه قـراءة صحيحة ومتفحصة، ويؤكد ابـن القـيم أهميـة حضـور الواقـع في ذهـن المجتهـد حضورًا عقليًا والعيشِ معه عمليًّـا بقولـه: «ولا يـتمكن المفتـي ولا الحـاكم مـن الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهـم، أحـدهما: فهـم الواقـع والفقـه فيـه واستنباط علم حقيقة ما وَقَعَ بالقرائن والأمارات والعلامات التي يحيط بها علمًـا، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر»[2].

وعلى هذا فالعالم الذي لا يكون له إحاطة بالواقع وبالنص وبالمكلف سـيكون في اجتهاده نظر؛ لأن الأحكام والنظـر فيهـا مـن غيـر النظـر إلى الواقـع فيـه إسـاءة للحكم وإلى الواقع معا؛ «لأن الواجب شيء، والواقع شيء، والفقيه من يوائم بـين الواقع والواجب، وينفذ الواجب بحسـب اسـتطاعته، لا مـن يلقـي العـداوة بـين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبـائهم، وإذا عـم الفسوق وغلب على أهل الأرض، فلو مُنِعَت إمامةُ الفُسَّاق وشهاداتهم وأحكـامهم وفتاواهم وولاياتهم لعُطِّلَت الأحكام وفسد نظام الخلق وبطلـت أكثـر الحقـوق،

(١) فقه التنزيل (ص ٨٩).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٩٥).

ومع هذا فالواجب اعتبار الأصلح فالأصلح، وهذا عند القدرة والاختيار، وأما عند الضرورة والغلبة بالباطل فليس إلا الاصطبار والقيام بأضعف مراتب الإنكار»[1].

فالواقع إذَنْ عنصر مهم في تكييف الحكم الشرعي وتنزيله تنزيلًا يلائم مقاصد التشريع وغاياته، والواقع له خمسة عوالم: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأحداث، وعالم الأفكار، وعالم النظم، وهذه العوالم الخمسة في غاية التركيب والتداخل، وليست منفصلة بأي صورة من الصور، مما يجعل إدراك العلاقات البينية بين كل عالم فيها مع العوالم الأخرى جزءًا لا يتجزأ من فهم الواقع الفهمَ الدقيق الواضح، وأيضا لا بد علينا أن ندرك أن هذه العوالم ليست ثابتة، ولذلك لا بد من تفهمها في تغيرها الدائم المستمر باعتبار أن هذا من سنن الله في كونه[2].

نقل ابن القيم عن الإمام أحمد أنه قال: «لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال، أولها: أن تكون له نية، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور، والثانية: أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة، والثالثة: أن يكون قويًا على ما هو فيه وعلى معرفته، والرابعة: الكفاية، وإلّا مضغه الناس، والخامسة معرفة الناس»[3].

فمن اتصف بالصفات السابقة التي ذكرها الإمام أحمد أصبح مؤهلًا للفتوى وقادرًا على التوفيق بين النص والواقع ومتمكنا من تنزيل الأحكام على الوقائع المشخصة.

والفقهاء تحدثوا عن تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والنيات، وهو يعني تغير الواقع وتاريخ التشريع منذ عهد الرسالة، مرورا بعهد الخلفاء

(١) نفسه.

(٢) سمات العصر.. رؤية مهتم للدكتور علي جمعة، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية-مصر، ط(١)، ٢٠٠٦م، (ص٣٧).

(٣) فقه التنزيل (ص٩١).

الراشدين وعصور أئمة الاجتهاد، ويؤكد أن التشريع راعى تغير الواقع واختلاف الأحوال، مما أكسب الفقه الإسلامي مرونة ملحوظة وقدرة على التعامل مع المستجدات والنوازل في كل العصور، ومما يؤكد مراعاة المصالح أن هذه الشريعة تشتمل على أحكام عامة -هي العزيمة- وأحكام خاصة -هي الرخصة؛ لمراعاة الظروف والأحوال الاستثنائية والأعذار الطارئة دون مشقة أو حرج يقع فيه المسلم عند قيامه بأحكام الإسلام[1].

وعصرنا الحالي تَغَيَّر فيه الواقع تغيُّرًا ملحوظًا عن واقع السلف، فالعقل المسلم لا تشكله النصوص وحدها، وإنما هناك عوامل ثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية لها دور مهم في تَشَكُّل العقل المسلم، بل صار المسلم المعاصر متأثرًا بضغوط العولمة ومنتجاتها، والعلاقات الإنسانية بين الدول وبين الأفراد تتشكل وفقًا للمصالح المشتركة، والأحداث طفرت طفرة نوعية بعوامل التكنولوجيا ووسائل الإعلام... وهكذا فإنّ واقع اليوم يقتضي إلمامًا بطبيعته وعوامل تأثيره وعناصر تشكُّله؛ حتى يكون التَّصَوُّر صحيحا لإنزال الحكم المناسب.

(١) منهج استنباط أحكام النوازل الفقهية المعاصرة: دراسة تأصيلية تطبيقية، للدكتور مسفر بن علي بن محمد القحطاني، دار الأندلس الخضراء، جدة - المملكة العربية السعودية، ط(٢)، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، (ص٢٦).

المطلب الثالث

مجالات فقه التنوع.

الفرع الأول: فقه التنوع في مجال اختلاف الألسن والألوان والقبائل

خلق الله الكون قائمًا على التنوع في كل مظاهره في الجمادات والحيوانات والطيور والطبيعة والمناخات والكواكب، وكل المخلوقات تبدو عليها مظاهر التنوع في أشكالها وألوانها ووظائفها، وطلب الخالق من الإنسان أن يتفكر ويتدبر في هذه الآيات المبثوثة في الكون، وقد سخرها ﷻ لخدمة الإنسان، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)، فسخر الله ﷻ الأرض ليستقر عليها الإنسان ويستغل خيراتها، وجعل السماء سقفًا محفوظًا للمخلوقات، يستفيد الإنسان من ضياء الشمس ونور القمر وحركة الكواكب، كل ذلك موجب للاعتراف لله بالوحدانية وتوجيه العبادة خالصة له، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

وكما خلق الله الكون قائمًا على التنوع خلق الإنسان من أصل واحد، ولكنه مختلف من حيث الشعوب والقبائل والألسن والألوان، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (٣)

(١) سورة البقرة، الآية (٢٢).

(٢) سورة الرعد، الآيتان (٣-٤).

(٣) سورة الروم، الآية (٢٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

فالآيات السابقة تبين -بوضوح- الحكمة من التنوع في الألوان والألسن والقبائل وكل مظاهر التنوع، وبالتدبر نستطيع أن نستنبط منها فقه التنوع في هذا المجال:

أولًا: الوقوف على القدرة الإلهية المطلقة التي لا تحدها حدود، فقد خلق الله الإنسان من أصل واحد، والناس متشابهون في هيكلهم الخارجي من حيث الشكل والأعضاء ووظائفها، ولكنهم -مع ذلك- مختلفون في ألوانهم ولغاتهم وأمزجتهم واهتماماتهم ومستويات تفكيرهم وطبائعهم وأخلاقهم وبصماتهم، وصدق سبحانه فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

ثانيًا: إن هذا التنوع يدعو للتأمل والتفكر لاستكشاف الأسرار التي أودعها الله في الإنسان، ولمعرفة ما اختص الله به بعض عباده من خصائص؛ ليستفيد بعضهم من بعض ويكمل بعضهم نقص بعض، ولعل هذا عامل من عوامل الأمر بالتشاور لمعرفة الصواب.

ثالثًا: الإشارة إلى أنّ في الاختلاف آياتٍ للعالمين وخشيةَ العلماء هذه الإشارة فيها تنبيه لأهمية العلم في حياة الإنسان؛ فالعلماء هم الأجدر بمعرفة وظيفة الخلق ودور الإنسان في القيام بأمر الاستخلاف وربط الأشياء مع بعضها، والغاية معرفة الله والخشية من مخالفة أمره.

(١) سورة فاطر، الآيتان (٢٧-٢٨).

(٢) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٣) سورة الزمر، الآية (٦٧).

رابعًا: الدعوة إلى التعارف بين بني البشر علة اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل والتعارف لا يقف عند الأمور الشكلية في الأسماء والألوان واللهجات، وإنما يتعداه إلى كل مظاهر وأسرار الإنسان الذي جعله الله مستخلفا في الأرض؛ ليطبق منهج الله.

يقول محمد مراح: «ذِكْرُ اللهِ تعالى لمصطلح (التعارف) دون غيره أمر مقصود؛ لأنه أشد ملاءمة لطبيعة المجتمع الإنساني وارتقاء التعارف بين طبقاته شعوبًا وقبائل وأممًا، وأنسب له -أيضًا- من جهة توزيع الأعمال وحصول المنافع»[1].

«... كما تتأكد لدينا أيضًا قصدية وخصوصية اختيار مصطلح (التعارف) لفعالية مفهومه في إدراك الغاية من مستلزماته، كالتعاون وتبادل المنافع ونبذ حب الغلبة والاستئثار والأنانية والاستعلاء والتصادم والصراع»[2].

الفرع الثاني: فقه التنوع في مجال الاختلاف الديني والحضاري

الدين أمرٌ فطري جُبِل عليه الإنسان؛ لعوامل تعود إلى طبيعة تكوينه وتركيبه من المادة والروح، وللوظيفة التي خُلق من أجلها، وللضرورات النفسية والاجتماعية في حياته، ولعلاقته بالكون الذي يحيط به، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3]، فمن النادر أن يعيش الإنسان في هذه الحياة دون اعتقاد في وجود قوة تتمثل فيها القدرة المطلقة والعدل المطلق والرحمة المطلقة، وإذا وجد هذا الإنسان الملحد فلا يكون سويًّا، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[4]

(١) نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات لمحمد مراح، بحث في كتاب تعارف الحضارات لزكي الميلاد، دار الفكر- دمشق، ط(١) ٢٠٠٦م، (ص٨٦).

(٢) تعارف الحضارات (ص٨٧).

(٣) سورة الروم، الآية (٣٠).

(٤) سورة السجدة، الآية (١٨).

فمع وجود النزعة الإيمانية المغروسة في الإنسان تباينت مواقف الناس، فمنهم من تصالح مع فطرته وآمن، ومنهم من كابر وأنكر، والمؤمنون أنفسهم تباينوا في طبيعة إيمانهم فمنهم من اتبع ديانات وضعية، ومنهم من أشرك مع الله إلهًا آخر، ومنهم من آمن بالله الواحد الأحد، وقد ناقش القرآن الكريم كل هؤلاء، ومع رفضه للعقائد الباطلة إلا أنه سماها دينًا، وبيّن فقه التعامل معها، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[1].

والمؤمنون بالله تباينوا في تصورهم للإيمان بالله، وتفاوتوا في عقائدهم بمستلزمات الإيمان، فمنهم من آمن بكل رسل الله، ومنهم من وقف إيمانه عند موسى، ومنهم من وقف بإيمانه عند عيسى، وقد أطلق القرآن على الصنفين الأخيرين مصطلح أهل الكتاب، وهم ليسوا سواء.

وقد انبثقت عن هذه الديانات حضارات لها خصوصياتها وقيمها، والحضارة - مهما كان مصدرها- تنضج باستفادتها من التجارب الإنسانية باختلاف مشاربها، فاستقراء قصة الحضارة الإنسانية والكسب الإنساني بشكل عام يؤكد أنها إنما جاءت نتيجة لمساهمات وتراكمات ومنافع وتبادل خبرات وتجارب ذات موارد وأصول متنوعة، وأنّ الله لم يخص بالإنجاز الحضاري أو بميدان السباق الحضاري شعبًا أو جنسًا أو قومًا أو جغرافيا، وإنما جعل ذلك الانجاز متاحًا للجميع ومجالًا إنسانيًا مشتركًا، يتاح لكل أمة وشعب وفرد نصيب فيها، ولذلك لم تكن الحضارة -تاريخيًا- حكرًا على أمة أو شعب، وإنما كانت رايتها متنقلة بين الأمم والشعوب، وكانت أشبه ببناء أسهم بوضع لبناته التاريخية نبواتٌ وأفرادٌ وأقوامٌ وشعوبٌ حتى انتهى إلينا[2].

(١) سورة الكافرون (١-٦).

(٢) مقدمة كتبها عمر عبيد حسنة لكتاب ضوابط التفاعل الحضاري وسائله وآثاره التربوية، لمؤلفه أ/ عبد الولي محمد يوسف؛ نشر في كتاب الأمة، العدد (١٦٥) سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر، ط(١) المحرم ١٤٣٦هـ - تشرين أول (أكتوبر) - تشرين ثاني (نوفمبر) ٢٠١٤م، (ص٦).

إن فقه التنوع الديني والحضاري يقوم على الآتي:

أولًا: أن الله خلق الإنسان مُكَرّمًا، وزوده بالعقل والحرية والإرادة، وأرسل إليه الرسل؛ ليبينوا له مَنْ خَلَقَهُ؟ ولماذا خُلِقَ؟ وما مصيره؟ وما الخيارات أمامه؟ وَبَيّنوا له أنَّ هنالك طريقان، أحدهما طريق الشر ونهايته الهلاك، والآخر طريق الحق ونهايته الفوز والفلاح.

ثانيًا: الدين الحق خُتم بمحمد ﷺ، ومعالمه ومبادئه ومستلزماته جاء بها القرآن وبينها الرسول الخاتم، والإيمان بهذا الدين يقوم على الحرية والاختيار دون إكراه، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1].

ثالثًا: بموجب التكريم الإلهي للإنسان فإن الإسلام يكفل له حقوقه الإنسانية، مهما كان قراره، فلا يُظلم، ولا يُمنع من ممارسة شعائره الدينية، ولا يُحرم من تمتعه بالحياة والاستفادة من نعم الله المبثوثة في الكون.

رابعًا: مع مراعاة الحقوق الإنسانية العامة فإن أهل الكتاب لهم حقوق إيمانية تتفاوت بين اليهود والنصارى، كما ستتضح في مبحث قادم.

خامسًا: التواصل الحضاري والتلاقح الفكري والاستفادة من التجارب الإنسانية مفاهيم تدخل في مجال التعارف الذي دعا إليه الإسلام، فالمقصود العام من الشعوب والقبائل التجمعات والمجتمعات الصغيرة والكبيرة سهولة التعارف، ويدخل في هذا المعنى الأممُ والحضاراتُ بحسب اصطلاحاتنا الحديثة، أي أن المقصود بالتعارف هنا ليس الأفراد، وإنما التجمعات والمجتمعات، ولهذا جاز لنا استعمال هذا المفهوم على مستوى الحضارات[2].

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

(٢) تعارف الحضارات (ص ١٩).

الفرع الثالث: فقه التنوع في مجال الاختلاف الفكري والفقهي الاجتهادي

طبيعة الإنسان وضروراته يقتضيان اختلاف اهتماماته وتنوعها، ومرجعيته وبيئته وخلفيته الثقافية أمورٌ تشكل معتقداته وأفكاره، قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[1].

والإسلام فرض الشورى للاستفادة من تنوع الآراء والتجارب، وأمر بالاجتهاد لاستنباط الأحكام الشرعية غير المنصوص عليها للتعامل مع النوازل والمستجدات، وبالنظر للخلفيات الثقافية واختلاف البيئات وتفاوت القدرات العقلية فإن المفاهيم الفكرية والاجتهادية الفقهية ستكون مختلفة، فمن المسلم به أن الاختلاف في القضايا الفكرية -التي منها القضايا الفقهية- أمر طبيعي؛ لما فطر عليه الناس من تباين في عقولهم وأفهامهم ومداركهم، وذلك لأن الفقه هو معرفة الفقيه حُكمَ الواقعة من دليل من الأدلة التفصيلية الجزئية التي نصبها الشارع للدلالة على أحكامه من آيات الكتاب وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد يصيب الفقيه حكم الشارع أو يوافقه، وقد لا يوافق ذلك، ولكنه في الحالتين غير مطالب بأكثر من بذل قصارى طاقته العقلية والذهنية للوصول إلى الحكم، ولذلك كان الاختلاف الفقهي مشروعًا لتوفر أمرين، الأول: أن لكلٍّ من المختلفين دليلًا يصح الاحتجاج به، فما لم يكن له دليل يحتج به سقط، والثاني: ألا يؤدي الأخذ بالمذهب المخالف إلى محال أو باطل[2]، وعليه فإن فقه التعامل مع التنوع الفكري والفقهي يقتضي التعرف على أسباب الاختلاف، وهي كثيرة، منها:

أولًا: أسباب تعود إلى اللغة؛ فالألفاظ المشتركة وضعت لمعاني متعددة ومختلفة، فضلًا عن الاستعمال الحقيقي والمجازي، وقد اختلفوا في جواز وقوع المجاز في لفظ الشارع، فأثبته الأكثرون ونفاه الأقلون، ويضاف إلى ذلك الاختلاف في صيغ النهي والأمر، فمن المعروف أن صيغة (افعل) للأمر، و(لا

(١) سورة الزخرف، الآية (١٨).

(٢) من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف (ص٤٥).

تفعل) للنهي، ومطلق الأمر يفيد الوجوب، ومطلق النهي يفيد التحريم، فذلك هو الاستعمال الحقيقي لكل من الصيغتين، ولكن قد يَرِدُ كلٌّ منهما لِمَعَانٍ غير المعنى الذي وضع له أولًا، فقد يرد الأمر للندب أو الإرشاد أو التهديد، وكذلك النهي قد يرد لغير التحريم كالكراهة والتحقير والإرشاد، كما أن الأمر قد يرد بصيغة الخبر، وكذلك النهي قد يرد أيضا بصيغة الخبر والنفي، وكل ذلك له آثار في اختلاف الفقهاء وفي طرائقهم وفي استنباط الأحكام الشرعية من النصوص[1].

ثانيًا: أسباب تعود إلى رواية السنن؛ فأحيانًا لا يصل الحديث إلى مجتهد ما ويصل إلى مجتهد آخر، وأحيانا يصل الحديث إلى المجتهد، ولكنه يرى فيه علة تمنع من العمل بمقتضاه، ويصح عند آخر فيعمل به، وقد تختلف آراء العلماء لاختلافهم في معاني الحديث ودلالته، وقد يصح الحديث عند المجتهد، ولكنه يرى أنه مُعَارَض بأقوى منه أو أصح، فيرجح الأقوى، وقد لا يتضح له أقوى الدليلين فيتوقف عند الأخذ بكل منهما حتى يظهر له مرجح، وقد يعثر المجتهد على ناسخ للحديث أو مخصِّصٍ لعامِّهِ أو مقيد لمطلقه، ولا يطلع مجتهد آخر على شيء من ذلك فتختلف مذاهبهما[2].

ثالثًا: أسباب تتعلق بالوقائع السابقة، والخلاف حول ظروفها، وتحقيق مناط الأحكام النازلة فيها، وعقد وجوه المماثلة بينها وبين ما استجد من الحوادث، وخلاف فيما نقل من أحكامها، وما صح من نقله منها ومالم يصح، وما استقر عليه الأمر وما لم يستقر، وخلاف في تعرُّف مناط الأحكام النازلة وما له من شروط، وما يعرض له من موانع، وخلاف في اتخاذ تلك المماثلة أساسًا شرعيًّا تتعدى بها الأحكام إلى غير محالها النازلة فيها، وفي ربط تلك الأحكام بما استنبط من عللها وحكمها وعدم ربطها[3].

رابعًا: أسباب تعود إلى القواعد الأصولية وضوابط الاستنباط؛ فعلم الأصول

(١) من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف (ص٤٦).

(٢) السابق (ص٤٧).

(٣) أسباب اختلاف الفقهاء للشيخ علي الخفيف، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، بدون تاريخ، (ص ٨).

هو معرفة أدلة الفقه على سبيل الإجمال وكيفية الاستفادة منها وحال المستفيد، فهذا العلم -إذن- عبارة عن مجموع القواعد والضوابط التي وضعها المجتهدون لضبط عملية الاجتهاد واستنباطِ الأحكام الشرعية الفرعية من الأدلة التفصيلية، فيحدد المجتهدون في مناهجهم الأصولية الأدلةَ التي تُستقَى منها الأحكام، ويستدلون لحجية كل منها، ويبينون العوارض الذاتية لتلك الأدلة؛ لتتضح طرائق استفادة الحكم الشرعي من كل دليل من تلك الأدلة، والخطوات التي يسلكونها منذ البداية حتى الوصول إلى الحكم الشرعي، وقد اختلفت مذاهب المجتهدين في هذه القواعد والضوابط، وهو ما ترتب عليه اختلاف المذاهب الفقهية، فقد اختلفوا في حجية فتوى الصحابي، وفي الأخذ بالمصالح المرسلة، وكذلك اختلفوا فيما عرف في كتب أصول الفقه بـ (الأدلة المختلف فيها) كسد الذرائع والاستحسان والأخذ بالأحوط والأخذ بالأخف والأخذ بالأثقل والعرف والعادة وغيرها، كما توجد اختلافات في بعض الأمور المتعلقة بدلالات النصوص[1].

خامسًا: أسباب تعود إلى طبيعة المجتهد واختلاف البيئات؛ فبعض المجتهدين يتصف بحدة الطبع، فينعكس ذلك على أفكاره وفتاواه، ويظهر ذلك واضحًا في منهج سيدنا عمر بن الخطاب والإمام ابن حزم الظاهري[2] وابن تيمية[3]،

(١) من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف (ص٤٧-٤٨).

(٢) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي أبو محمد عالم الأندلس في عصره، ولد ٣٨٤هـ، وتوفى ٤٤٦هـ، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه، يقال لهم « الحزْمية ». ولد بقرطبة. انصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين فقيها حافظا يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، بعيدا عن المصانعة. من آثاره المحلى في الفقه، وكتاب إبطال القياس، انظر: إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ط وكالة المعارف، استانبول، ١٩٥١م، ١/ ٦٩٠.

(٣) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام – أبو العباس الحراني الدمشقي الحنبلي – ولد في حران من قرى حوران بسوريا ٦٦١هـ ، وتوفي ٧٢٨هـ. مجموع الفتاوى ومجموع الرسائل الكبرى، انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغربردي ، ط ذ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٩٣٢م، ج ٢ ، ص ٢٧١.

وبعضهم قد يكون من طبعه اللين والميل إلى الرفق، ويظهر ذلك في منهج سيدنا أبي بكر وسيدنا عثمان وابن عباس[1]، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ عندما فَسَّرَ لِينَ أبي بكر وشِدَّة عمر في موقفهما من التعامل مع أسرى بدر.

إن فقه التعامل مع الاجتهاد الفقهي والتنوع الفكري يقتضي الإلمام بأسباب الاختلاف وإدراكَ مشروعية الاجتهاد بشروطه، وأن المجتهد المصيب له أجران، والمجتهد المخطئ له أجر واحد، واعتبار الاجتهادات المختلفة اختيارات فقهية تؤكد السعة في الشريعة الإسلامية.

(١) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي أبو العباس: حبر الأمة، الصحابي الجليل، ولد بمكة فلازم الرسول ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة وشهد مع علي موقعة الجمل وصفين وكف بصره في آخر عمره، قال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن بن عباس وأخباره كثيرة جدًا. انظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ٤/ ٩٥.

المبحث الثالث

أسس العيش المشترك ومبادئه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التعايش، وأسس العيش المشترك ومبادئه. المطلب الثاني: تأصيل مفهوم العيش المشترك في الإسلام.

المطلب الثالث: مبادئ العيش المشترك.

المطلب الأول

تعريف التعايش، وأسس العيش المشترك ومبادئه

الفرع الأول: تعريف التعايش

معنى التعايش في اللغة:

جاء في المعجم الوسيط: «تَعَايَشَ(فعل) خماسي لازم؛ تَعَايَشْتُ أتَعَايَشُ، تَعَايُشْ مصدر تَعَايَشَ أهل القبيلة على الود والمحبة والأُلفة، تَعايُشًا، فهو مُتَعَايِش؛ تَعَايَشُوا عاشُوا على الأُلْفة والمَوَدَّة، تَعَايَش الناس؛ وُجِدُوا في نفس الزمان والمكان، تَعَايُش (اسم) مصدر، التعايش السلمي: تعبير يراد به خلق جو من التفاهم بين الشعوب بعيدا عن الحرب والعنف، تعايش (اسم) مصدر تعايش، عايش (فعل) عايش يعايش معايشة، فهو معايش والمفعول معايَش، عايش فلانا: عاش معه وعاصره قضى معه جزءا من حياته أو كلها، عايش (فعل) كتب عن تلك الفترة بأمانة شديدة؛ لأنه عايشها»[1].

معنى التعايش في الاصطلاح: هو العيش في كنف المودة والألفة والملاءمة بين النزعات والمذاهب، أي أنه اجتماع مجموعة من الناس في مكان معين تربطهم وسائل العيش من المطعم والمشرب وأساسيات الحياة، بغض النظر عن الدين والانتماءات الأخرى، يعترف كل منهم بحق الآخر دون اندماج وانصهار[2].

(١) المعجم الوسيط، مادة (عيش).

(٢) الوسائل الاقتصادية في التعايش مع غير المسلمين في الفقه الإسلامي لصبحي أفندي الكبيسي وعبد الله حسن الحديثي، مجلة مداد الآداب، العدد (٣)، نقلا عن: التعايش بين الأديان، بحث نشره طارق محمد في موقع (موضوع)، (ص٣٢٤).

والتعايش السلمي: هو حب ضمان العيش في ظل السلم بين معسكرين متنافسين. ومصطلح التعايش السلمي كشعار سياسي يعني البديل عن العلاقات العدائية بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة، ومع هذا فليس هناك أي مانع للتوسع في استخدامه في ساحة العلاقات الاجتماعية بين أتباع الديانات المختلفة، وبالخصوص المقيمين في دولة واحدة[1].

فالتعايش -إذن- علاقة إنسانية بين مكونات المجتمع باختلاف الألوان والأديان والأفكار وأساليب الحياة، تقوم هذه العلاقة على السلم وقبول الآخر، وَفق ما يجمع بين هذه المكونات من مشتركات، وقد ظهر مصطلح التعايش في هذا العصر بصورة مكثفة نتيجة للغلو والتطرف والحروب والصراع بين الجماعات والدول.

والناس في موضوع التعايش طرفان ووسط، فَطَرفٌ يريد أن يُرضي غير المسلمين بما يخالف الشريعة الإسلامية لأجل التعايش، إما جهلًا أو تجاهلًا، وطرف آخر لم يعرف روح الشريعة الإسلامية ومنهجها في التعايش، فيقع في الغُلُو والتَّشَدُّد مع غير المسلمين في القول والفعل، والوسط هو أنّ التَّعايُش مع غير المسلمين من روح الشريعة الإسلامية ومنهجها بضوابطه الشرعية[2].

الفرع الثاني: فقه التنوع في المبادئ العامة التي اتفقت عليها الرسالات السماوية

عندما خلق الله ﷻ الإنسان وحدد وظيفته ومهمته في الحياة الدنيا أرسل إليه الرسل لِيُبَيِّنُوا له الطريق الذي به يهتدي إلى أداء وظيفته، وكل رسل الله اتفقوا على

(١) التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم داخل دولة واحدة، إعداد سُو رَحْمَن هدايات؛ إشراف أ. د/ محمد عبد الرحمن مندور، رسالة ماجستير، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط(٢) ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، (ص٧).

(٢) التعايش الإنساني والتسامح الديني في الإسلام لعبد الفتاح صالح قديش، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-سوريا، ط(١) ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، (ص١٤).

مبادئ عامة في مجال العقيدة والسلوك والمعاملات، وهي تمثل قاسمًا مشتركًا بين كل الرسالات السماوية، وتقرير الإسلام أنّ أول إنسان وعائلته قد اعتنقوا دينا سماويًّا، وآمنوا بوحدانية الله لقي تصديقًا من آخر المذاهب المهتمة بدراسة نشأة الديانة وأصلها، وهو المذهب التعليمي، أو الوحي الذي يرى أن الإنسان لم يصل إلى الدين إلا عن طريق الوحي، وأنه لم يعرف ربه بنور العقل، بل بنور الوحي[(١)].

ومن أهم المبادئ التي اتفقت عليها الرسالات المبادئ الآتية:

المبدأ الأول: الإيمان:

فكل رسل الله عليهم الصلاة والسلام دعوا قومهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، فالإيمان بالله فطرة في النفس الإنسانية، فكل إنسان يجد نفسه مسوقًا إلى قوة أرفع من قوته، ولكن الناس اختلفوا في تحديد تلك القوة، فمنهم من فسرها بالقوى الطبيعية، وبعضهم تَمَثَّلَها بأصنام من صنعه، وآخرون فسَّروها بغير ذلك، فجاء الأنبياء مُصَحِّحِين لهذه الضَّلالات، مُرْشِدِين العقل إلى الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته[(٢)].

ويتبع الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، فهو أيضا من وظائف النبوة؛ لأنه من الأمور الغيبية التي لا يصل إلى إدراك حقيقتها العقل بدون هداية الأنبياء، ففراغ العقل من الاعتقاد بحياة أخرى يؤدي إلى كارثة على الجنس البشري من الناحية النفسية والاجتماعية، فكل إنسان معرض للمصائب من أمراض واضطهاد وظلم وفَقْدِ عزيز، فالاعتقاد بحياة أخرى أفضل من هذه الحياة يكافأ فيها الإنسان بالعدل وتجمع بين الأحباء الصالحين أمر يدخل العزاء والطمأنينة إلى النفوس الملتاعة، كما أن الاعتقاد بحياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما اقترفت يداه يُوَلِّد في الإنسان ضميرًا حَيًّا يدفعه إلى الخير ويلجمه عن الشر[(٣)].

(١) التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم داخل دولة واحدة (ص٤٨).

(٢) مع الأنبياء في القرآن الكريم، قصص ودروس وعبر من حياتهم لعفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (ص١٥).

(٣) نفسه (ص١٦).

وللإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر امتدادات تشمل الإيمان بالرسل والإيمان بالكتب المنزلة والإيمان بالملائكة والإيمان بالقدر خيره وشره.

المبدأ الثاني: العدل بين الناس:

فكل الرسالات السماوية اتفقت على الدعوة إلى العدل ومنع الظلم، فبالعدل تستقيم الحياة وينصف المظلوم ويمنع الظالم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

يقول المفسرون: «المعنى: لقد أرسلنا رسلنا كلهم بالحجج والمعجزات مؤيدين بالبرهان والآيات، وأنزلنا معهم الكتاب، أي: جنسه الشامل لكل كتاب كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وأنزل معهم الميزان، أي العدل في الأحكام... أنزل الكتب من السماء، وأمر بالعدل في كل شيء؛ ليقوم الناس بالقسط في معاشهم ومعادهم، وفي كل أمورهم الدينية والدنيوية»[2].

يقول سيد قطب[3]: «فالرسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرسل، ومعهم البينات عليها، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق، وبعضهم أنزل عليه كتاب، والنص يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ بوصفهم وحدة، وبوصف الكتاب وحدة كذلك، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها، والميزان مع الكتاب، فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانًا ثابتًا ترجع إليه البشرية لتقويم الأعمال

(١) سورة الحديد، الآية (٢٥).

(٢) التفسير الواضح، للدكتور محمد محمود حجازي، دار التفسير للطبع والنشر، الزقازيق-مصر، ط(١٠)، ١٩٩٢م-١٤١٢هـ، (٣/ ٦٢٣).

(٣) سيد قطب: سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم ولد سنة ١٩٠٦م، في قرية من قرى محافظة أسيوط حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره ثم درس الثانوي ثم دار العلوم وكان محبًا للمطالعة من مؤلفاته، معالم الطريق، استشهد رحمه الله سنة ١٩٦٦م، ومن مؤلفاته في ظلال القرآن، انظر: الأعلام، الزركلي، الطبعة الشرعية السابعة والثلاثون، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ج٣، ص١٤٧.

والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة وتصادم المصالح والمنافع، ميزانا لا يحابي أحدًا؛ لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد؛ لأن الله رب الجميع»[1].

المبدأ الثالث: الأخلاق الاجتماعية:

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

هذه الوصايا أجمعت عليها الرسالات السماوية، فصارت قاسما مشتركا بين أتباعها.

فعن ابن مسعود[3] ﷺ قال: «من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط(٥)، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م، (٧/ ٧٣٩).

(٢) سورة الأنعام، الآيات (١٥١-١٥٣).

(٣) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ من بني مخزوم وكان إسلامه في أول الإسلام شهد بدرًا والحديبية وهاجر الهجرتين جميعها- الأولى إلى أرض الحبشة والثانية من مكة إلى المدينة- وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، مات سنة ٣٢هـ بالمدينة، انظر: أبي عمرو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، ط١- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ ١٩٩٥م- ج٣- ص١١٠.

نَعْقِلُونَ ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

وقال كعب الأحبار: «هذه الآية مفتتح التوراة ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ ﴾.

وقال ابن عباس: «هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة (آل عمران) أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملة»، وقد قيل: «إنها العشر كلمات المنزلة على موسى»[3].

جاء في الوصايا العشر في التوراة: «لا تقتل، ولا تزن، ولا تسرق، ولا تشهد على قريبك شهادة زور.. »[4].

ومن الفضائل المشتركة الواردة في المسيحية مفهوم التآخي، ورد في رسالة بطرس: «لتكن محبتكم بعضكم لبعض شديدة؛ لأن المحبة تستر كثرة الخطايا»[5].

فكل رسل الله دعوا قومهم إلى توحيد الله وإلى العدل بين الناس وإلى مكارم الأخلاق وإلى الإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة.

(١) سورة الأنعام، الآية (١٥١).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٥٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط(٢) ١٩٦٤م، (٧/ ١٣٢).

(٤) سفر التثنية (٥/ ١٧-٢٠) وسفر الخروج (٢٠/ ١٣-١٦).

(٥) رسالة بطرس الأولى(٤/ ٨).

وراجع: تقارب الشعوب (موعد الحضارات.. دعوة المفكر الإسلامي التركي فتح الله جولن نموذجًا) للدكتورة هدى درويش، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة-مصر، ط(١) ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، (ص٥٣).

المطلب الثاني

تـأصيل مفهوم العيش المشترك في الإسلام

الفرع الأول: علاقة الإسلام بالرسالات السابقة

يُرجع الإسلام الشرائع السماوية كلها إلى أصل واحد، وهو الوحي الإلهي، فشرائع الله تعالى قد انبثقت من مشكاة نور واحدة؛ ولذلك يدعو الإسلام أتباعه إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل السابقين، والكتب المنزلة السابقة[1]، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[3].

ويبين الله تعالى أنه شرع لهذه الأمة كل الشرائع الأساسية التي شرعها لبقية الأنبياء: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[4]، فالإسلام -حسب نصوص القرآن الكريم- جاء مُصَدِّقًا للكتب السابقة ومُهَيْمِنًا -أي مشتملا على أصول الرسالات السماوية-، ونَبِيُّ الإسلام جاء خاتما للنبيين، فالعلاقة بين رسالة الإسلام والرسالات السماوية السابقة علاقة تصديق وتكامل ووحدة أصل وغاية، ويؤكد ذلك حديث

(١) نحن والآخر لعلي القره داغي، الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين – لجنة التأليف والترجمة (ص٥٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٥).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٣٦).

(٤) سورة الشورى، الآية (١٣).

الرسول ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه، وأجمله إلا موضع لَبِنَة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: (هلا وضعت هذه اللبنة)، قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[(١)].

ورسالة الإسلام تجمع كل خصائص الرسالات السابقة عليها، مع الزيادة بما تقتضيه احتياجات البشر إلى يوم الدين.

وأورد ابن كثير[(٢)] كلامًا جامعًا لأوجه تفسير كلمة «وَمُهَيْمِنًا» فيقول: «اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، وقد جعل الله هذا الكتاب العظيم -الذي أنزله- آخرَ الكتب وخاتمَها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل الله بحفظه بنفسه»[(٣)].

وجملة القول: إن علاقة الإسلام بالشرائع السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديق وتأييد، وعلاقته بها حين طرأ عليها التغيير والتبديل علاقة تصديق لما بقي وسلم من التحريف وتصحيح ما طرأ عليه التغيير والتبديل...»[(٤)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٥٣٥)، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، (٤/ ١٨٦)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٢٨٦)، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، (٤/ ١٧٩١)، وهذا لفظ البخاري.

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصروي، ثم الدمشقي، الشافعي، عماد الدين، أبو الفداء، محدث، مؤرخ، مفسر، فقيه، ولد ببصرى وانتقل إلى دمشق ونشأ بها (ت ٧٧٤هـ) من تصانيفه: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية في التاريخ، ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح وغيرهم، انظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، مكتبة المثنى، بيروت، د.ط، د.ت، ٢/ ٢٨٣-٢٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥)، فيما نقله صاحب كتاب التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم داخل دولة واحدة (ص٢٠).

(٤) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر للنشر- مصر، ط(١٣)، (ص٦٩).

الفرع الثاني: المبادئ التي قررها الإسلام لتكريم الإنسان

لقد أكد الإسلام المبادئ والقيم التي جاءت بها الرسالات السماوية السابقة، وأضاف إليها مبادئ جديدة تراعى في العلاقات الإنسانية -كما سبقت الإشارة إليها، ونضيف هنا المبادئ التي جاء بها الإسلام لترتقي بالإنسانية وتهذب سلوكها الأخلاقي، فالإسلام لا يعتمد على التشريعات الملزمة والقوانين الصارمة في تنفيذ الحقوق والواجبات بين المسلم وغيره فحسب؛ وإنما يعتمد في الأصل على الجانب الأخلاقي والعقدي؛ حيث يغرس في قلب المسلم حسن الخلق، وطيب الكلام، وطلاقة الوجه، وروح التسامح والرحمة، والرفق، والحلم، والشفقة، والمحبة للخير والبر والإحسان إلى الجميع، والعفو والإعراض عن الجاهلين، واحتمال الأذى - بل الدفع بالتي هي أحسن- ومقابلة الإساءة بالإحسان مع القدرة والعزة[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2].

هذه القيم الإنسانية الراقية تجمعها مبادئ كلية جامعة، وهي:

المبدأ الأول: الأمن والسلام: لقد عد الإسلام الأمنَ حقًّا أساسيًّا من حقوق الإنسان، بل هو نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان، وبهذا صار السلم والسلام عنوان الإسلام يلازمه في كل موقع ومناسبة طبيعية، وقد دعا الإسلام إلى السلام العام الدائم، كما في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[3].

إن السلام هو الأصل والمنطلق، وهو الحياة ثم المآل والنهاية؛ فقد علم رسول الله ﷺ الأمة المسلمة دعاء جامعًا لأبعاد السلام؛ حتى تعيش معه على اتصال دائم بمعانيه، فكان يقول عقب المكتوبات: «اللهم أنت السلام، ومنك

(١) نحن والآخر (ص٩٨).

(٢) سورة فصلت، الآيتان (٣٤-٣٥).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٠٨).

السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»[1].

وتكرار هذا الدعاء عقب كل صلاة مكتوبة يؤكد أصالته في حياة المسلم واستمراره[2].

لقد نظر الإسلام إلى هذا الوجود وهذه الحياة نظرة شمولية على أنها وحدة منسجمة بناموس رباني واحد، والعلاقة بين العوالم علاقة تناسق وتكامل، لا علاقة تباغض وعداء، فالكل يتحرك وَفق إرادة الخالق الواحد، ويتجه إلى بارئه الأحد، فيتحدد تعامل الإنسان بسائر المخلوقات في إطار الصداقة لا العداوة أو الغلبة، ومن ثم يحرم عليه الاعتداء على حيوان أو جماد بإفساد في التصرف أو تبذير في الاستعمال أو تجاوز في القتل.

وإذا كان هذا قانون العلاقات بين الإنسان عامة وبين الحيوانات والجمادات فإن العلاقة بين إنسان وإنسان لن تكون بالتأكيد أدنى مستوى منها بين إنسان وسائر المخلوقات[3].

وإذا كان مبدأ التعارف من المبادئ الأساسية في العلاقات بين الناس في الإسلام، فإن السلم يكون هو الحالة الأصلية التي تهيئ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عامة[4]، وليس كما ذهب بعض الفقهاء بأن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو الحرب.

فالله ﷻ جعل الأمن من الخوف نعمة توجب العبادة له وحده، وقد امتن على خلقه بذلك، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٥٩١)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، (١/ ٤١٤).

(٢) التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم (ص٨٠-٨١).

(٣) نفسه.

(٤) السابق (ص٨٠).

﴿خَوْفٍ﴾[1].

المبدأ الثاني: الرحمة: الرحمة عنوان للإسلام، فأول آية نقرؤها في القرآن الكريم تتضمن صفة الرحمة، ويردد المسلم سورة الفاتحة سبع عشرة مرة في صلاته المفروضة كل يوم، ورسولنا ﷺ أرسله الله رحمة للعالمين، وتتجلى هذه الرحمة في كل مجالات الحياة، وقبل ذلك كله فإن من أسماء الله ﷻ الرحمن الرحيم.

عن أبي هريرة[2] عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأَخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[3].

المبدأ الثالث: العفو والإيثار: العفو في اللغة يأتي بمعنى الإسقاط، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾[4]، ويأتي بمعنى الكثرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾[5]، أي كثروا، وغير ذلك، ويستعمل الفقهاء العفو -غالبًا- بمعنى الإسقاط والتجاوز[6]، ومنه قوله تعالى:

(١) سورة قريش، الآيتان (٣-٤).

(٢) أبو هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي، اليماني، الحافظ، الفقيه، صاحب رسول الله ﷺ، أكثر الصحابة راوية لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، روى عنه (٥٣٧٤) حديثًا نقلها عنه أكثر من ثمانمائة رجل بين صحابي وتابعي كان من كبار أئمة الفتوى مع الجلال والعبادة والتواضع، روى له أصحاب الكتب الستة، كان قوي الحفظ، وكان فقيرًا رضي الله عنه، ولاه عمر بن الخطاب على بعد المدن. تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ١/ ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٥٢)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله -تعالى-، (٤/ ٢١٠٨).

(٤) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

(٥) سورة الأعراف، الآية (٩٥).

(٦) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٠/ ١٦٧).

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [1]، أي التاركين مظالمهم عندهم لا يطالبونهم بها، فالعفو الذي يستعمل في ترك الحق مساوٍ للإسقاط في المعنى، إلا أن العفو على إطلاقه أعم؛ لتعدد استعمالاته[2].

وهناك ألفاظ ذات صلة بلفظ العفو، منها:

١. **الصفح**: وهو ترك المؤاخذة، وأصله الإعراض بصفحة الوجه عن التلفت إلى ما كان منه، قال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[3].

٢. **المغفرة**: وأصلها الستر، وفي الاصطلاح: أن يستر القادر القبيح الصادر ممن هو تحت قدرته، والفرق بين العفو والمغفرة أن العفو يقتضي إسقاط اللوم والذم ولا يقتضي إيجاب الثواب، والمغفرة تقتضي إسقاط العقاب وإيجاب الثواب، فلا يستحقها إلا المؤمن المستحق للثواب.

٣. **الإسقاط**: وهو إزالة الملك أو الحق لا إلى مالك، والعفو على إطلاقه أعم من الإسقاط لتعدد استعمالاته.

٤. **الصلح**: وهو عقد يرفع النزاع، والعلاقة بين العفو والصلح العموم والخصوص، فالصلح أعم من العفو.

٥. **الإيثار**: وهو أن يقدم الإنسان غيره على نفسه في النفع له والدفع، والإيثار على النفس مع الحاجة قيمةٌ عليا، وقد بلغ الأنصار فيها مبلغًا لم تشهد البشرية له نظيرًا، وقد كانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديمًا وحديثًا.

فالمبادئ المذكورة مبادئ ترتقي بالإنسان إلى قمة الأخلاق في العلاقات الإنسانية، وقد حث عليها الإسلام، وأمر بمراعاتها مع جميع الناس.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٣٤).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٤/ ٢٢٧).

(٣) سورة الحجر، الآية (٨٥).

المبدأ الرابع: رفع الإصر والأغلال عن البشرية: من خصائص التشريع الإسلامي التخفيف والتيسير ورفع الحرج عن الناس، فالشرائع السابقة كانت متشددة في أحكامها، ونلحظ ذلك في الشريعة اليهودية، فبعض أحكامها تمثل آصارًا وأغلالًا ثقيلة على المكلفين بها أنفسهم، وكان ذلك عقوبة من الله لهم على جرائم اقترفوها، برغم ما أكرمهم الله به من إنزال التوراة عليهم وإرسال موسى إليهم[1]، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2]، وهذه الشدة أو القسوة في أحكام الشريعة اليهودية تتفق مع الشدة والقسوة في طبيعة بني إسرائيل الذين وصفوا في التوراة بالشعب الغليظ الرقبة، وخاطبهم القرآن بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[3]، وهذه الشدة القاسية أو القسوة الشديدة تتجلى أوضح ما تتجلى في تعامل اليهود مع غيرهم، وخاصة في حالة الحرب؛ حيث تبيح لهم توراتهم – المحرفة- من سفك الدماء ونهب الأموال وتدمير البلاد وإذلال العباد واستباحة الحرمات ما لا تبيحه شريعة أخرى سماوية أو وضعية، والعجيب أن يتم ذلك باسم الإله، وأن يكون كل ذلك هبة ومكافأة منه لبني إسرائيل.

وأما في شريعة الإسلام فإن الأحكام جاءت بالتيسير والتخفيف والتدرج، فالتشديد قد يصلح علاجًا في ظروف خاصة لجماعة معينة ولمرحلة مؤقتة، أما الشريعة العامة لكل الناس ولكل الأجيال إلى أن تقوم الساعة فلا يليق بها إلا التخفيف والتيسير ورفع الآصار والأغلال، ولهذا جاء في وصف الرسول ﷺ عند أهل الكتاب- كما ذكر القرآن- أنه ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

(١) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، ط(٥)، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، (ص١٥).

(٢) سورة النساء، الآيتان (١٦٠-١٦١).

(٣) سورة البقرة، الآية (٧٤).

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1]، وكان من الأدعية التي علمها الله للمؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾[2]، وقال النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[3] وقال لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[4]، وجاء في القرآن الكريم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾[6]، وعلى هذا الأساس قامت قاعدة كبيرة من قواعد الفقه الإسلامي، وهي قاعدة (المشقة تجلب التيسير)، قال العلماء: « يتخرج على هذه القاعدة جميع رخص الشرع وتخفيفاته»[7].

وتتجلى مظاهر رفع الإصر عن هذه الأمة في عدة أمور، منها: التدرج في تنزيل الأحكام، وتقليل التكاليف، وتشريع الرخص لأصحاب الأعذار، وعدم التعجيل بالعقوبة، وجعل الحسنات مُذْهِبَة للسيئات، وتوسيع باب التوبة، وهي عوامل تجعل شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان وقادرة على معالجة المستجدات التي تحدث في حياة الناس.

(١) سورة الأعراف، الآية (١٥٧).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

(٣) ذكره البخاري في صحيحه في ترجمة باب: الدين يسر، وقول النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»، (١/ ١٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦١٢٨)، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، (٨/ ٣٠).

(٥) سورة البقرة، الآية (١٨٥).

(٦) سورة البقرة، الآية (١٨٧).

(٧) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية (ص١٢٦).

المطلب الثالث

مبادئ العيش المشترك

الفرع الأول: مبادئ العلاقات الدولية في الإسلام

إن مبدأ التعارف الذي قرره الإسلام في العلاقات بين الشعوب والقبائل يتسع ليشمل العلاقات الدولية بين الدول، فالدول تتكون من قبائل، ومبدأ التعارف مظهر من مظاهر رسالة الإسلام العالمية التي جاء بها نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] والدعوة الإسلامية منذ بداية عهدها اهتمت بالبعد العالمي، ومخاطبة الرسول ﷺ للزعماء والملوك تؤكد ذلك.

لقد أشار القرآن الكريم إلى مفهوم العلاقات الدولية في قصة نبي الله سليمان وملكة سبأ، كما ورد الحديث عن الحرب بين الروم والفرس في سورة الروم.

والمسلمون سبقوا غيرهم في معرفة أحكام العلاقات الدولية بقرون، وقد قال الله تعالى للمسلمين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]، ومن تمام هذه النعم أن يعرفوا أحكام تعاملهم مع غيرهم من الأمم، وهو ما يسمى اليوم بـ (العلاقات الدولية).

إن فقه العلاقات الدولية شأنه كشأن الأحكام الفقهية الأخرى -بل وسائر العلوم الشرعية والعلوم المساندة- تم تدوينه بعد تدوين الكتاب والسنة بقرون،

(١) سورة الأعراف، الآية (١٥٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (٨).

ويعد الإمام محمد بن الحسن الشيباني رائدًا في إفراد فقه العلاقات الدولية في كتابيه (السير الصغير) و(السير الكبير)، حيث استقصى فيهما أحكام العلاقات الدولية، من أحكام الجهاد وآداب الحرب وآثارها، وأحكام الصلح والمعاهدات والأمان، وإرسال الرسل والسفراء، وكل ما يتعلق بما يعرف اليوم بالقانون الدولي العام[1].

إن قواعد التنظيم الدولي في نظام الإسلام تقوم على ركائز، أهمها -بصفة إجمالية- ما يأتي:

أولًا: الإخاء الإنساني: لقد قرر الله ﷻ في كتابه وحدة الإنسانية والإخاء الإنساني الشامل. فالله ﷻ هو الخالق، والناسُ خَلْقُه وصنعه، وقد اقتضت إرادته وحكمته أن يتفاوت الناس في عقولهم وآرائهم وأفكارهم وعقائدهم ومذاهبهم، كما نطقت بذلك النصوص في القرآن والسنة.

ثانيًا: تكريم الإنسان والحفاظ على حقوقه: لقد كرم الله ﷻ الإنسان، وكفل له أصول المعيشة الدائمة من صون حق الحياة والحرية والمساواة والعدل والمشورة والأخلاق، وهي الأصول الجذرية والأساسية التي لا بد من رعايتها والتعامل مع كل إنسان على هديها في جميع الأحوال، فلا يجوز في شرع الله ودينه إلحاق الضرر والأذى بالإنسان بسبب دينه، ولا يلجأ أو يكره على تغيير دينه، ولا تمس كرامته ولا يعذب عذابًا يتجاوز حدود الكرامة، ولا يعتدى على عرضه، ولا يخدش حياؤه.

ثالثًا: الالتزام بقواعد الأخلاق والآداب: الخلق وعاء الدين وقوام الحضارة وأساس المعاملة ومنهج العلاقات الإنسانية والدولية على السواء، فلا يعامل إنسان أو شعب أو دولة بما يعد تجاوزًا لقيم الأخلاق والآداب، ولأجل ذلك وضع النبي ﷺ قواعد المدنية والحضارة وأصول التعامل في الحروب.

(١) المستجدات الفقهية في العلاقات الدولية.. دراسة تأصيلية للدكتور دايرو يوسف، دار النفائس- الأردن، ط(١) ٢٠١٢م، (ص٣٨-٤١).

رابعًا: حق العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات: أمر الله بالعدل مع كل الناس، حتى مع الذين نختلف معهم ونبغضهم لسوء أفعالهم، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وحق المساواة في الحقوق والواجبات والتقاضي حق طبيعي مكمل لحق العدل ومعبر عنه.

خامسًا: الرحمة في السلم والحرب: لقد تعامل الإسلام بالرحمة مع كل الناس، وحتى في وقت الحرب؛ لأن من خصائص الدعوة الإسلامية الرحمة، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]، أي للإنسان والحيوان والجن والجماد وكل شيء.

سادسًا: الوفاء بالعهد والميثاق: الوفاء بالعهد أساس لزرع الثقة في المعاملات، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[3].

سابعًا: المعاملة بالمثل: لقد احتضن الإسلام مبدأ المعاملة بالمثل باعتباره مبدًا عادلًا في التعامل بين الناس في السلم وفي الحرب، إحقاقا للحق وإرساء لمعالم العدل، ما لم يكن هناك مساس بأصول الآداب والأخلاق، فالإسلام لا يجيز التمثيل بجثث قتلى الحرب أو التشويه بجدع الأنف وقطع الأذن وبتر الشفاه وبقر البطن مثلا، حتى ولو فعل العدو ذلك[4].

وبالمقارنة نجد أن المادة الأولى للإعلان العالمي لحقوق الإنسان قد نصت

(١) سورة المائدة، الآية (٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٣) سورة النحل، الآية (٩١).

(٤) قضايا الفقه والفكر الإسلامي المعاصر لوهبة الزحيلي، دار الفكر-دمشق، ط(٣)، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، (١/ ٥٩٨-٦٠٣).

على الآتي: «يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء»[1] فهنالك اتفاق بين مبادئ العلاقات الدولية في الإسلام، ومبادئ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مع اختلاف المصدر والغاية.

الفرع الثاني: مبادئ التعايش في ظل دولة متعددة الأديان

لا يغالط أحد أن التعدد في الأعراق واللهجات والأديان والأفكار والمذاهب صار واقعًا ملموسًا في معظم دول العالم، ولا شك أنّ هذا التعدد يفرض تساؤلًا مهمًّا: كيف يتم التعامل معه؟ وهناك كثير من المشكلات التي أفرزها التعدد، والإسلام له رؤية في التعامل مع التعدد أشرنا إليها في مبحث سابق، وفي هذا الفرع نتناول منهج الإسلام في التعامل مع التعدد الديني في ظل دولة واحدة.

التعدد الديني من أخطر أنواع التعدد إن لم يتم التعامل معه بوعي؛ لأن المقدسات تشكل أهمية كبيرة للإنسان، ومن أجلها يضحي الإنسان بماله وولده ونفسه، ولذلك وضع الإسلام منهجًا للتعامل مع التعدد الديني في دولة واحدة، وأبرز منهج في هذا الخصوص هو المنهج الذي أدار به النبي ﷺ التعدد الديني في المدينة المنورة، فقد كانت المدينة تضم المسلمين واليهود والمشركين والمنافقين، وكل هذه الأصناف عاشت في أمن وسلام مع صيانة الحقوق واحترام الخصوصيات.

لقد نصت صحيفة المدينة -وهي الدستور الحاكم لمجتمع المدينة - على التزامات جميع المقيمين في الدولة تجاه الدولة والتزاماتهم تجاه بعضهم بعضا والتزامات الدولة تجاههم، ونهى الإسلام عن الإكراه في الدين وترك للناس الحريه في أن يختاروا الدين الذي يريدون، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ

(١)أنظر: موسوعة حقوق الإنسان، للمستشار الدكتور عبدالفتاح مراد، شركة البهاء للبرمجيات والكمبيوتر والنشر الإلكتروني، الإسكندرية، ص: ٧٦٤.

﴿ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [1]، ولا يجوز لأحد أن يحمل الناس قسرًا على دين لا يريدونه؛ لأن مبدأ الحساب العادل يقوم على الحرية، والرسول ﷺ أفضل خلق الله لم يعطه الله حق الإكراه، فمن باب أولى ألا يعطيه لأحد غيره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [2]، ومهمته ﷺ فقط تنحصر في البلاغ، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [3].

فعلاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف وتعاون وبرٍّ وعدل، وقد نهى الإسلام عن الإساءة لأصحاب المعتقدات المخالفة، بل دعا للبر بهم والتواصل معهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [4]، ومن مقتضيات هذه العلاقة تبادل المصالح واضطراد المنافع وتقوية الصِّلات الإنسانية، وهذا المعنى لا يدخل في نطاق النهي عن موالاة الكافرين؛ فإن النهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهي عن الرضى بما هم فيه من كفر [5].

والإسلام لا يطلب من أهل الكتاب التخلي عن دينهم، بل يأمرهم بالالتزام به، فعندما حمل الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة [6] رسالة رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط بمصر، ودار بينهما حوار، بدأ حاطب، فقال للمقوقس: «إن لك دينًا لن تدعه إلا لمن هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، وما

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

(٢) سورة يونس، الآية (٩٩).

(٣) سورة الكهف، الآية (٢٩).

(٤) سورة الممتحنة، الآية (٨).

(٥) فقه السنة، للسيد سابق، مكتبة دار التراث، القاهرة، (٣/ ٩).

(٦) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي (٣٥ ق هـ - ٣٠ هـ = ٥٨٦ - ٦٥٠ م): صحابي، شهد الوقائع كلها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكان من أشدّ الرماة، في الصحابة. وكانت له تجارة واسعة. بعثة النبي صلّى الله عليه وسلم بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية. ومات في المدينة. وكان أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهلية، الأعلام، الزركلي، مرجع سابق، ٢/ ١٥٩.

بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»[1].

هذه النظرة التي ينظرها الإسلام لأهل الكتاب جعلته يطلب من المسلمين أن يعاملوا أهل الكتاب معاملة حسنة، وأن يجادلوهم بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2].

والتمييز الطبقي والتفاضل العرقي واسترقاق الإنسان لأخيه الإنسان كانت من المفاهيم السائدة في العلاقات الإنسانية في الحقبة التي سبقت مجيء الإسلام، وتعاليم الإسلام جاءت محاربة لتلك المفاهيم الظالمة، وفي هذا العصر تجددت الدعوة إلى إحياء كل ما هو إنساني في عالمنا هذا، وإلى إقامة العلاقات على أساسه وفي ضوئه؛ لأن هنالك وعيًا عالميا بالقرية الكونية التي سيتأثر أي ركن فيها بما يحدث في أي جزء من أجزائها، وهو أمر يتطلب تعاونًا بين عُمَّارها للمحافظة عليها من الممارسات السيئة المضرة، مثل تلوث البيئة وانتشار المخدرات ونقل الأمراض الفتاكة والهجرة غير الشرعية، وغيرها من أمراض العصر التي سماها الإمام الصادق المهدي (أسلحة الضرار الشامل)، وللتعاون الإيجابي بين شعوبها لتحقيق الوحدة الإنسانية في ظل التنوع.

لقد جاءت الدعوة الإسلامية واضحة لمنع الضرر في أكثر من موضع، والسنة النبوية دعت إلى منع من يسعى للضرر؛ بل أكدت أن الناس إذا لم يمنعوا المفسدين فسوف تحل الكارثة بهم جميعًا، كما وضح ذلك حديث السفينة، قال رسول الله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ، (ص٦٦).
(٢) سورة العنكبوت، الآية (٤٦).

الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1].

إن الالتزام بهذه التوجيهات يحقق الإصلاح في الأرض ويمنع الفساد ويحقق المحافظة على البيئة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[3]، فالتواصل الإنساني أمر بديهي في الإسلام، ولم يكن من القضايا التي يحتار فيها المسلمون في السابق؛ لأنهم كانوا معافين من العلل التي لحقت بالخلف، فقد عاشوا مع رسول الله ﷺ وخلفائه روح الإسلام، فرأوا كيف أنهم تسامحوا حتى مع الذين سعوا لاستئصالهم فعفوا عنهم عند المقدرة، وتجاوزوا عنهم عند التمكن، فرفدوا الإنسانية لأول مرة بمنظومة قيم لا تعرف الثأر ولا الانتقام، بل إنهم أقروا للذين آذوهم بالأخوة، فعندما فتح رسول الله ﷺ مكة منتصرًا، وتمكن من خصومه قال لهم: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ «قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[4].

ونصت المادة (٢/ ١) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية على الآتي:« تتعهد كل دولة طرف في هذا العهد باحترام الحقوق المعترف بها فيه، وبكفالة هذه الحقوق لجميع الأفراد الموجودين في إقليمها والداخلين في ولايتها،

(١) أخرجه البخارى في صحيحه برقم (٢٤٩٣)، كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة؟، (٣/ ١٣٩).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٥٦).

(٣) سورة البقرة، الآيات (٢٠٤-٢٠٦).

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبري، دار التراث-بيروت، ط(٢) ١٣٨٧هـ، (٣/ ٦٠)، وفي إسناده عمر بن موسى الوجيهي: يضع الحديث.

دون أي تمييز بسبب العرق، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي سياسيا أو غير سياسي، أو الأصل القومي، أو الاجتماعي، أو الثروة، أو النسب، أوغير ذلك من الأسباب[1] وهي مبادئ لا تختلف مع مبادئ الإسلام في تقرير تلك الحقوق كما ورد سابقا.

الفرع الثالث: علاقة المسلمين بغير المسلمين في دولة غير مسلمة

في عالمنا المعاصر حدث تحول كبير في الكرة الأرضية، وحدث تطور في العلاقات الإنسانية، وتوصلت التجربة الإنسانية إلى مفهوم الدولة القطرية الحديثة، والنظام الدولي المحكوم بمواثيق وقوانين دولية، وكان الفقهاء يتحدثون عن أحكام أهل الذمة في ظل الدولة الإسلامية، وعن أحكام المسلم في الدولة غير المسلمة، سواء كانت حربية أو داخلة في صلح أو هدنة مع دولة الإسلام، ولكننا اليوم نشهد تحولًا كبيرًا في طبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم؛ فقد أصبحت الدول الغربية جاذبة لهجرة المسلمين بسبب توفر فرص العيش الكريم فيها، وأصبحت هنالك جاليات كبيرة تقيم في دول غير مسلمة، بل قد حصلت على جنسية تلك الدولة وتجري عليها أحكام قوانينها وتخضع لنظامها ودستورها، فما الحكم الشرعي للتعامل مع هذه الحالة؟ وما هي أسس العلاقة بين المسلم وغيره في ظل دولة غير مسلمة؟

إن المسلمين الذين يقيمون في دولة غير مسلمة تنظم علاقاتهم الأسسُ الآتية:

أولًا: الواجبات التي عليهم الالتزام بها:

١. وجوب الالتزام بالعقود والعهود التي وقعوها أو أقروها بما لا يتعارض مع النصوص قطعية الدلالة والثبوت، والأدلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ

(١) العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، أنظر: حقوق الإنسان مجموعة صكوك دولية، المجلد الأول، الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٩٣، المصدر: موسوعة حقوق الإنسان، ص(٧٧٠)

(٢) سورة المائدة، الآية (١).

مَسْئُولًا ﴾[1]، بل إن الله تعالى أمر بالوفاء بالعهد الذي وقعه المسلمون مع غير المسلمين حتى إذا قامت بينهم وبين المسلمين حرب فلا ينصروا المسلمين في هذه الحالة، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2]. قال ابن كثير: «وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال دينيٍّ على عدو لهم فانصروهم؛ فإنه واجب عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا في ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس ﷺ»[3].

وأما الأحاديث الصحيحة في هذا المجال فأكثر من أن تحصى، منها الحديث المتفق عليه: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[4].

٢. عدم القيام بالغش والكذب والخداع للدولة أو لغيرها، وذلك لحرمة الغش والخيانة والخداع والتدليس والغدر مطلقًا؛ فقد عقد معظم علماء الحديث أبوابًا خاصة بتحريم الغدر والغش والخيانة والخداع والكذب؛ ذكروا فيها أحاديث كثيرة، منها الحديث المتفق عليه: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان»[5].

(١) سورة الإسراء، الآية (٣٤).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٧٢).

(٣) تفسير ابن كثير، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط(٢) ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، (٤/ ٩٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٣)، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (١/ ١٦)، ومسلم في صحيحه برقم (٥٩)، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، (١/ ٧٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦١٧٧)، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، (٨/ ٤١) ومسلم في صحيحه برقم (١٧٣٦)، كتاب الجهاد، باب تحريم الغدر، (٣/ ١٣٦٠)، واللفظ له.

٣. الالتزام بالقوانين واللوائح السائدة في البلد ما دامت لا تتعارض مع ثوابت الإسلام، ومنها القوانين الخاصة بالضرائب، حيث إن معظم حصيلتها تصرف فيما فيه النفع للجميع[١].

٤. الحفاظ على الأمن والسلامة داخل المجتمع.

٥. تكوين صورة حقيقية إيجابية عن الإسلام والمسلمين، وتعزيز روح التضامن والتعايش والتعاون والتكامل والتآخي[٢].

ثانيًا: حق المسلمين على الدولة التي يقيمون فيها:

١. توفير العدل والمساواة ومنح الحريات في إطار القانون، ومنع الأفكار العنصرية، ومراعاة شعور المسلمين، وعدم إثارتهم، ومنع الإساءة إلى ثوابت جميع الأديان تحت أي مسمى، وتشريع القوانين التي تحمي حقوق المسلمين وحريتهم الدينية.

٢. الحق في إنشاء محاكم شرعية، تكون لها صلاحية النظر في قضايا الأسرة والأحوال الشخصية والقضايا الدينية الخاصة بهم، كما هو الحال في البلاد الإسلامية التي أنشأت محاكم خاصة بغير المسلمين في المجالات السابقة.

٣. المحافظة على هوية المسلمين وخصائصها احتراما للتنوع، ومنع أي إجراءات تؤدي إلى تذويب المسلمين ودمجهم دمجا سلبيًّا في المجتمع ذي الأغلبية غير المسلمة[٣].

إن إعلان الأمم المتحدة للأقليات للعام ١٩٩٢، في مادته الأولى أشار إلى الأقليات على أساس الهوية القومية أو الإثنية والثقافية والدينية واللغوية، وتنص هذه المادة على واجب الدول حماية وجود هذه الأقلّيات.و يعتبر مبدأ عدم التمييز

(١) نحن والآخر (١١١-١١٤).

(٢) السابق (ص١١٤).

(٣) نحن والآخر (ص١١٤-١١٥) بتصرف.

والمساواة أمام القانون من المبادئ الأساسية للقانون الدولي لحقوق الإنسان. ويحظر مبدأ عدم التمييز أي تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل يقوم على أساس العرق أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو الإثني ويستهدف أو ينتج عنه تعطيل أو عرقلة الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها، على قدم المساواة[1] وينبغي التأكيد هنا أن القانون الدولي لا يفرض أي شرط لإثبات نيّة التمييز. وأن عبارة «ويستهدف أو ينتج عنه» تُشير إلى تشريعاتٍ أو سياساتٍ قد تبدو محايدة ولكنها تؤدي في الواقع إلى التمييز. ويحظر القانون الدولي لحقوق الإنسان التمييز المباشر وغير المباشر.

وبالإضافة إلى أحكام عدم التمييز، هناك أحكامٌ تتعلق بحماية حقوق الأقليات على وجه التحديد. وتنّص المادة ٢٧ من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية على أنه:

«لا يجوز، في الدول التي توجد فيها أقليات اثنية أو دينية أو لغوية، أن يحرم الأشخاص المنتسبون إلى الأقليات المذكورة من حق التمتع بثقافتهم الخاصة أو المجاهرة بدينهم وإقامة شعائره أو استخدام لغتهم، بالاشتراك مع الأعضاء الآخرين في جماعتهم[2].

(١) أنظر المادة (١) من إعلان الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري. موسوعة حقوق الإنسان، ص(١٠٥٦)

(٢)العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، أنظر: موسوعة حقوق الإنسان، ص(٧٧٧) وحقوق الأقليات في القانون الدولي: بعض الاضاءات، لميرفت رشماوي بحث منشور في المجلة الالكترونية لمنظمة العفو الدولية المكتب الإقليمي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا على الموقع: http://www.amnestymena.org/ar/Magazine/Issue19/Minorityrightsintlaw.aspx?articleID=1076

الفصل الثاني

التنوع الديني والحضاري خصائصه وآثاره

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التنوع الديني أبعاده ومظاهره.

المبحث الثاني: الأديان الوضعية والحضارات الإنسانية.

المبحث الأول

التنوع الديني أبعاده ومظاهره

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإنسان والعقائد.

المطلب الثاني: أهل الكتاب.

المطلب الثالث: موقف الإسلام الإيجابي من اليهودية والنصرانية.

المطلب الأول

الإنسان والعقائد

الفرع الأول: أهمية الدين للإنسان

ثمة سؤال كبير يلح على العقل الإنساني في كل العصور، نراه في إنتاج المفكرين وأدب الأدباء وشعر الشعراء وفلسفة الفلاسفة، إنه سؤال الإله، ذلك السؤال الذي تنبع منه أسئلة الكون والوجود والحياة والإنسان والروح والموت والخلود وما بعد الموت وما قبل الوجود[1].

وهي أسئلة لا تجيب عليها إلا جهة يثق فيها الإنسان ويعتقد جازمًا في علمها المطلق وحكمتها، ولذلك منذ أن وُجد الإنسان على ظهر الأرض وُجدت معه معتقداته؛ لأنه بحكم تكوينه يفتقر إلى عقيدة تفسر له الوجود وتحقق الانسجام بين المادة والروح في تركيبته، والأهم من ذلك أن يعيش في سلام وأمان وتوافق بين عنصري تكوينه: المادة والروح، فهو قبضة من طين وقبس من روح الله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2].

ومن الطبيعي أنَّ مخلوقًا وجد هذا الاهتمام وهذا التكريم لن يكون وجوده

(١) المشترك الإنساني-نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب للدكتور راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط(١) ٢٠١١م، (ص٢٦٠). وانظر: قصيدة الطلاسم لشاعر المهجر، إيليا أبو ماضي، فقد لخص فيها تساؤلات الإنسان المشار إليها، وختم كل تساؤل بقوله: لست أدري؟

(٢) سورة ص، الآيتان (٧١-٧٢).

عبثًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1]، لقد حدد الله ﷻ مهمة الإنسان في هذه الحياة، وزوّده بالخصائص التي تمكّنه من أداء وظيفته، إنّ خصوصية خلق الإنسان وتكريمه وتفرده بأمانة التكليف تؤكد أن هنالك غاية وهدفًا ووظيفة لوجوده بيّنتها الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] فالدين للإنسان ضرورة، وليس ترفًا، فالإنسان منذ يومه الأول سعى لمعرفة الله وتساءل من أين أتى؟ وكيف أتى؟ ولماذا أتى؟ وما دوره في الحياة؟ وما مصيره؟ ولذلك فهو منذ اليوم الأول مارس مجموعة واسعة من معانٍ ونماذجَ عبادية في علاقته مع الله، وحتى أولئك الذين عكفوا أمام الأصنام الصماء لم ينكروا وجود الله، وإنما اتخذوا منها معبرًا رَبْطِيًّا يُقَرِّبُهم إلى الله زُلفى، نعم كانت عقيدتهم تلك تحتوي على أفكار ومفاهيم قاصرة وهزيلة، فضلًا عن الأساطير حول الله ﷻ[3]، ولكنها تؤكد أهمية العقيدة عند الإنسان.

والفلاسفة وأهل التأمل أكدوا وأقرُّوا أنّ هذا الوجود لم يأت عبثًا، وأنه لا بد لكل وجود من موجد، ويصرون على ضرورة صلتنا التكوينية النهائية التَّوَلُّدية بالوجود الأول غير المُتَوَلد عن شيء، الذي لا أول لأوليته ولا آخر لآخريته، ويقررون أنه لا يمكن على الإطلاق إسقاط صلتنا بالله، وإلا فإننا بذلك نُسقط الهُوِيَّة التَّكْوِينِيَّة وسلسلة العلل الإيجادية من هذه الجهة[4]، وبهذا نقرّ على أنفسنا تحت ظلّ السؤال الذي يحمل في طياته الإجابة النهائية دون منازع (ألست بربكم؟) فكان الجواب إذعانًا تكوينيًا وإقرارًا فطريًا: (بلى)، أقررنا على أنفسنا،

(١) سورة المؤمنون، الآية (١١٥).

(٢) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن، بين الشهادات التاريخية والمعطيات العلمية للشيخ جعفر حسن عتريسي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، (ص٥).

(٤) السابق (ص٦).

وقد سجل القرآن الكريم هذه الشهادة الفطرية بأجلى تعابيرها[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[2].

إن هذه الحقيقة كانت أقوى من كل مدرسة وهمية أو ثقافة ملحدة أو مبطلة، كانت أعمق من كل ظاهرة عبثية، كانت أعظم من كل إنكار مُتَقَنِّع، كالذي حصل في ظل العقيدة الشيوعية الاشتراكية التي قادها الاتحاد السوفيتي السابق، والتي تهاوت أخيرًا لصالح مئذنة المسجد وأجراس الكنيسة، في ظل إقرار مذهل لسكان تلك المنطقة بالله وبعالم الوجود وصلة الخلق بالسماء[3].

هذا التطلع للعقيدة والإقرار بوجود الخالق مرجعه إلى طبيعة التكوين، وهنالك أمرٌ آخر يتعلق بحالة الإنسان النفسية، فهو في حياته معرض لمشاكل نفسية حتمية، يأمل فيخيب أمله، ويحزن فيَسْوَدُّ أفُقُه، ويَكْرَه فَتَضِيقُ دنياه، ويُحِب فيَهِيم هيامًا، ويفرح فيَطِيش صوابه، ويَسْبَح في الخيال فينسَى واقعه، ويخلد لواقعه فيقتله الملل[4]، هذه النزعات المتناقضة تسبب قلقًا للإنسان لا يهدأ إلا بعقيدة يثق فيها ويطمئن إليها، فعالم الاعتقاد له قوانينه، وله منطقه، وله دوره في تحقيق الطمأنينة النفسية، لذلك نجد غالبية البشر يؤمنون بدين يثقون فيه ويركنون إليه ليحقق لهم الاستقرار النفسي؛ لأن الحاجة للاعتقاد تشكل عنصرًا نفسيا لا يمكن قهره، تمامًا مثل اللذة أو الألم، فالنفس البشرية ترتعب من حالة الشك وعدم اليقين[5]، والإيمان يحقق لها الراحة والسكينة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟

(١) السابق (ص٧).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٧٢).

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن بين الشهادات التاريخية والمعطيات العلمية (ص٧).

(٤) العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الاجتماعي الإسلامي للإمام الصادق المهدي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة-مصر، ط(١) ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، (ص٢٧-٢٨).

(٥) الآراء والمعتقدات نشوؤها وتطورها، غوستاف لوبون، ترجمة نبيل أبو صعب، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية-دمشق، ط(٢) ٢٠١٦م، (ص٢٦).

﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

كذلك فإن الدين ينظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فالإنسان مَدَنِيٌّ بطبعه - أي لا يعيش مستوحشا- بل لا بد أن يعيش وسط جماعة من بني جنسه؛ لأنه مفتقر إلى الاستئناس، ومفتقر إلى ضرورات حياتية لا يستطيع تحقيقها منفردًا، فوجوده مع الجماعة يمكِّنه من تبادل المنافع مع غيره، فالعلاقات الاجتماعية لا تحكمها القوانين وحدها، وإنما تنظمها الفطرة والضمير والأخلاق، وهي عناصر يهذبها الإيمان بوجود يوم يتحقق فيه العدل المطلق الذي يُنصَف فيه المظلومون وتُوضع فيه موازين القسط، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2].

كذلك فإن الدين ينظم علاقة الإنسان بالكون، فهذا العالم الذي نعيش فيه يضم مخلوقات لا حصر لها، والطبيعة والفضاء والسماء مودعة فيها قوانين، وتسير على سنن، يتطلع الإنسان لمعرفتها واكتشاف خصائصها، وهنالك عوالم غير مرئية، ولكنها تؤثر علينا، وهذا الكون المتمدد لا نستطيع معرفته إلا بمفاتيح يزودنا بها الخالق الذي صنع فأتقن، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[3] إنها آيات بينات لا يملك المرء إلا أن يقف عندها مَلِيًّا، ويقول: «سبحان الله العظيم الذي خلق فأتقن فتبارك الله أحسن الخالقين».

(١) سورة الأنعام، الآية (٨٢).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٤٧).

(٣) سورة الواقعة، الآيات (٥٨-٧٤).

فالخلاصة أن الدين من قَدر الإنسان، فنفس الإنسان مجبولة على اعتقاد أن لكل الموجودات كمالًا ، وأن لكل وجود بداية ونهاية، وأن للإنسان في هذا الكون مكانًا، وأن وراء المشاهدات الناقصة الظالمة عدلًا ، وأن وراء الحس حقائق تدرك بوسائل غير حسية، وأن التعلق بالكمال والعدل والحقيقة التي لا تدركها الحواس يسعد الإنسان الآن وفيما بعد، ويزيد قدراته كَمًّا وكَيْفًا، هذه الحقائق هي التي جعلت الدين من قدر الإنسان بحيث لا يوجد إنسان بلا دين، فإن فارقه إيمانه بدين ما أحَلَّ محله عقائد أكسبها صفات الدين[1]، فالإنسان بلا دين يفقد قيمته الإنسانية، ويتردى إلى أسفل من الحيوان الأبكم.

الفرع الثاني: مظاهر التنوع التي أشار إليها القرآن

ورد في القرآن الكريم ذكرٌ لمظاهر التنوع بين بني البشر، فهناك تنوع في المعتقدات، وتنوع في القوميات، وتنوع في المفاهيم والأفكار، وتنوع في الألوان والثقافات، وتنوع في الاجتهاد في الدين الواحد، وقد أشار إلى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وغيرهم، كما أشار إلى الأحناف أتباع إبراهيم، وذكر بني إسرائيل وغيرهم من أتباع الرسل الذين منهم مَن قَصَّ علينا ومنهم من لم يَقْصُصْ، والباقون في عصرنا هذا من أتباع الرسل أو من المنتسبين إلى الرسالات السابقة اثنان فقط، هما اليهود والنصارى، وقد ورد ذكرهم في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2]، وذكر الصابئين والمجوس، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3]، فهذه الآية جمعت المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين

(١) تحديات التسعينات للصادق المهدي، شركة النيل للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة-مصر، ط(١) ١٩٩٠م، (ص١١١).

(٢) سورة البقرة، الآية (١١٣).

(٣) سورة الحج، الآية (١٧).

والمجوس والمشركين، وهم مختلفون في عقائدهم.

والتنوع في القوميات ورد في سورة الحجرات في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1]، والتنوع في الألوان والألسن والثقافات ورد في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[2]، كما أشار القرآن إلى بعض المفاهيم التي قامت عليها النحل الباطلة مثل الدهريين والعلمانيين، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[3].

وهذا ما يقوم عليه الفكر العلماني في ثوبه الفلسفي، الذي لا يعترف إلا بعالم الشهادة المحسوس المنظور، وقال القرآن عن الدهريين: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[4] كما ذكر القرآن المنافقين - وهم صنف يُظْهِر الإيمان ويبطن الكفر- قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[5].

كما أشار القرآن إلى إبليس الذي سيكون مسلطًا على بني آدم؛ امتحانًا لهم، وأنه سيسعى بكل طاقاته لإضلالهم، وأنّ إبليس أثار شبهات أمام الملائكة اعتمدت كثير من النحل عليها لبلورة مفاهيمها، ويمكن تلخيصها في سبع شُبهات:

الشبهة الأولى: لماذا خلقه الله وهو يعلم أنه سيعصيه؟

الشبهة الثانية: لِمَ كَلَّفَه بالطاعة وهو لا ينتفع بطاعته، ولا يتضرر بمعصيته؟

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٢) سورة الروم، الآية (٢٢).

(٣) سورة الروم، الآية (٧).

(٤) سورة الجاثية، الآية (٢٤).

(٥) سورة البقرة، الآية (٨).

الشبهة الثالثة: لِمَ كلفه بطاعة آدم والسجود له وهو مخلوق؟

الشبهة الرابعة: عندما رفض السجود لآدم لِمَ لعنه وأخرجه من الجنة، وهو لم يزد على أن قال: «إنَّه لا يسجد إلا لله؟ »

الشبهة الخامسة: لِمَ سَلَّطَه على آدم، بحيث وسوس له وأخرجه من الجنة، وهو قادر على منعه؟

الشبهة السادسة: لِمَ سَلَّطَه على بني آدم بحيث يراهم ولا يرونه، وكان يمكن أن يعصمهم منه لمصلحتهم؟

الشبهة السابعة: لِمَ أنظره إلى يوم يبعثون، وكان يمكن أن يُهْلِكه ويريح منه العباد؟

ويذكر في الأناجيل أنّ الله ﷻ أَوْحَى إلى الملائكة أن يخبروه بأن الله يقول له: «إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق غير صادق ولا مخلص، إذ لو صدقت أني رب العالمين ما احتكمت عليّ بِـ(لِمَ) فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أُسْأَل عما أَفْعل، والخلق مسئولون»[1].

أما التنوع الاجتهادي في داخل الدين الواحد، فقد ذكر القرآن الكريم قصة داود وسليمان واختلاف حكميهما، قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[2] وخلاصة القصة – كما ذكرها المفسرون– أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلًا ، فتحاكما إلى داود، فحكم بالغنم لأهل الحرث، فقال سليمان: «غير هذا أرفق بالفريقين»، فعزم عليه داود لَيَحْكُمَن، فقال: «أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى رب الغنم، حتى يصلح الحرث ويعود

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٦).

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان (٧٨-٧٩).

كهيئته يوم أفسده، ثم يترادَّان»، فقال: «القضاء ما قضيت»، وأمضى الحكم بذلك، وهذا كان في شريعتهم.

فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه □ بالليل أو بالنهار، إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد، وعند الشافعي رحمه الله يجب الضمان بالليل، وقال الجصاص: «إنما ضمنوا؛ لأنهم أرسلوها»، ونُسِخ الضمان بقوله ﷺ: «العجماء جُبار»[1]، وقال مجاهد[2]: «كان هذا صلحًا، وما فعله داود كان حكمًا، والصلح خير»[3].

والشاهد هو التنوع في الاجتهاد، فالتنوع بكل مظاهره العقدية والاجتماعية والثقافية والفكرية، ورد في القرآن الكريم؛ ليؤكد أن التنوع وراءه حكمة إلهية.

الفرع الثالث: الأديان[4] السماوية

لم يترك الخالق ﷻ الإنسان دون توجيه، فبعد أن زَوَّده بأدوات الاستخلاف أرسل إليه الرسل؛ لِيُبَيِّنُوا له طريق النجاة، ويجيبوا على التساؤلات التي تدور في ذهنه، وكل دعوات الرسل اتفقت على الأصول الأربعة: توحيد الله، والعدل بين الناس، والعمل الصالح، والبعث، ومن الواضح أن السياق المبدئي للأديان السماوية منطلق من اعتبار الله أصل الخلق والوجود، وترتبط بهذا المحور

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٤٩٩)، كتاب الزكاة، باب: في الركاز الخمس، (٢/ ١٣٠)، ومسلم في صحيحه برقم (١٧١٠)، كتاب الحدود، باب جرح العجماء جبار، (٣/ ١٣٣٤).

(٢) مجاهد بن جبر أبوالحجاج مولى قيس بن السائب المخزومي شيخ المفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس، ثقة أمام في التفسير وفي العلم من الثالثة مات سنة أحدى أو اثنين أو ١٠٤هـ وله ثلاث وثمانون سنه، أجمعت الأمة على جلالته، له تفسير مجاهد، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ، ١٠/ ٤٤.

(٣) تفسير النسفي (٢/ ٥١٤). وينظر: تفسير ابن جرير (١٧/ ٥١).

(٤) مصطلح الأديان جاء هنا من باب المجاز وإلا فإن الدين واحد هو الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل.

الحيوي مسألة الصلة بين حياة الإنسان في دنياه وآخرته؛ لتتفرع منها جملة من المبادئ والمفاهيم التي تشكل بجملتها منطلقات الفكر الديني الموحد[1].

والأديان السماوية مصدرها واحد، هو الله ﷻ، ولذلك لا يوجد تناقض بينها في الأصول، وأما اختلاف الشرائع فسببه اختلاف الأحوال والبيئات والقضايا التي تواجه كل مجتمع، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[2] والتشريعات الإلهية مقدسة، ولكنها عند التنزيل تأخذ الطابع البشري في الفهم والتطبيق فهي أحكام إلهية يطبقها بشر، ومن مجمل الأحكام الواردة في الشرائع الدينية نفهم مقاصد الأديان وغايتها التي تتوافق في خط متجانس؛ لتقيم العلة لوجودها وانبثاقها من مصدرها السماوي أو الوضعي المستند إلى حكمة التدبير الكوني وللنظام الروحي الخلقي، الذي انبثق من هذه الحكمة، كناتج طبيعي لتوازن وتوافق الإرادة الإلهية مع الإرادة الإنسانية الخيرة، وحيث يكون الإنسان الذي خلقه الله على هيئته وصورته مجسدًا لحالة الامتثال لإرادة خالقه ومستخلفًا له في المدار الأرضي.

ويعتبر القرآن الكريم الكتاب الوحيد الذي وَثَّق لتاريخ الأديان السماوية منذ خَلْقِ آدم إلى آخر الرسل النبي الخاتم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالكتب الأخرى التي بين أيدينا والمتمثلة في التوراة والانجيل ركَّزت على مضمون الديانة الخاصة بها، ولم تشر إلى الرسالات السابقة بصورة تنسجم مع الحقائق التاريخية التي ذكرها القرآن، اللهم إلا إشارات عابرة، ففي التوراة ورد الآتي: « أنا إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، اسمع يا إسرائيل، الرب إله واحد، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك»[3].

(١) موسوعة الأديان للدكتور مهدي البصري، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن-عمان، ط(٢) ٢٠٠٣م، (ص١٣).

(٢) سورة الشورى، الآية (١٣).

(٣) سفر الخروج (ج٣).

وفي الإنجيل أيضًا يشار إلى إبراهيم وبنيه: «أما قرأتم ما قال الله بكم: أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب»[1].

بينما نجد القرآن الكريم قد ذكر الأنبياء والمرسلين منذ خلق آدم، منهم من ذكرهم على سبيل الإجمال، ومنهم من ذكرهم تفصيلًا ، فهو كتاب جاء مصدقًا لما سبق ومصححًا للانحرافات التي لحقت بالأديان ومهيمنًا، فالإسلام ينفرد بوفرة البيانات التوحيدية على وحدة المسار الرسالي للأديان على وجه التعميم في الذكر والإشادة أو التخصيص بالشواهد والأحداث التي تبرزها النصوص القرآنية والحديث والسيرة النبوية، حيث تبدو مساحة البيان التوحيدي في مجال التعميم أكبر وأوضح مما في سائر الكتب المقدسة[2].

قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

وفي الحديث عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لِعَلّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[4].

فالإسلام اسم عام استخدم في القرآن الكريم بمعنى الأديان السماوية كلها،

(١) متى (٢١: ٢٩-٣٢).

(٢) موسوعة الأديان (ص١٣٧).

(٣) سورة الأنعام، الآيات (٨٣-٨٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٤٣)، كتاب التفسير، باب: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، (٤/ ١٦٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٣٦٥)، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، (٤/ ١٨٣٧).

وهو اسم للدين الذي نادى به كل نبي من أنبياء الله، ومما يعنيه الإسلام عامة التوجه لله ﷻ في خضوع، فهو تسليم النفس لله.

وبالنظر إلى تسلسل مسيرة رسالات الأنبياء نجد الاتفاق على الدعوة لتوحيد الله، مع الحضّ على الإقلاع عن الرذائل التي تفشت في مجتمعاتهم، كما نلاحظ ذلك في دعوة نبي الله لوط الذي دعا قومه عن الإقلاع عن ظاهرة الشذوذ التي تفشت عندهم، ونبي الله شعيب الذي نهى قومه عن النقص في المكيال والميزان، وهكذا كانت دعوة هود وصالح، حيث تلازمت الدعوة لتوحيد الله مع الدعوة لمكارم الأخلاق وحميد الخصال.

تبين مما سبق أهمية الدين في حياة الإنسان، وأنه لا يخلو مجتمع إنساني من اعتقاد ديني؛ لأن الفطرة تقر ذلك، حتى قبل إرسال الرسل.

ذكر ابن الجوزي أن بعض مشركي مكة كانوا يقرون بوجود الخالق والابتداء والإعادة والثواب والعقاب، وذكر أن عبد المطلب كان إذا رأى ظالمًا لم تصبه عقوبة قال: «تالله إن وراء هذه الدار لدارًا يجزى فيها المحسن والمسيء»[1].

(١) كتاب العقائد والديانات، لابن الجوزي البغدادي، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ٢٠٠٦م، (ص٦١).

المطلب الثاني

أهـــل الكتـــاب

سنبحث في فروع الديانات السماوية والوضعية تعريف كل دين وتعاليمه، ونقاط الاتفاق والاختلاف بينه وبين الإسلام، أي إبراز التعاليم المشتركة، والخصوصيات التي تنفرد بها كل ديانة.

الفرع الأول: اليهودية[1]:

هي ديانة العبرانيين المنحدرين من نسل إبراهيم عليه السلام، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مُؤيّدًا بالتوراة؛ ليكون لهم نبيًّا، واليهودية ديانة يبدو أنها منسوبة إلى يهود الشعب، سُمُّوا بذلك حين تابوا إلى ربهم وقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[2] أي تبنا ورجعنا، قال الشهرستاني في الملل والنحل: «هاد الرجل أي رجع وتاب، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا وتضرعنا»[3].

الكتب الدينية المقدسة:

إن أهم كتب الديانة اليهودية:

العهد القديم: هو التسمية العلمية لأسفار اليهود، وليست التوراة إلا جزءًا من

(١) بعض الباحثين يسميها الموسوية، وعرفها بأنها تهدف إلى البحث عن وسيلة في الحياة يتساوى بموجبها الناس قداسة، وإن أداء رسالة كل حياة يتم بصالح الأعمال المنجزة بسرور.
ينظر: حكمة الأديان الحية لجوزيف كاير، ترجمة المحامي حسين الكيلاني، مراجعة الأستاذ محمود الملاح، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، (ص١٥٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٥٦).

(٣) الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ١٥).

العهد القديم، وقد تطلق التوراة على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى؛ لأنه أبرز زعماء بني إسرائيل وعنده يبدأ تاريخهم الحقيقي، وكلمة توراة معناها الشريعة أو التعاليم الدينية. وهو مقدس لدى اليهود والمسيحيين، ولكن أسفاره غير متفق عليها، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفارًا لا يقبلها أحبارٌ آخرون، فإذا جئنا إلى المسيحيين وجدنا النسخة الكاثوليكية تزيد سبعة أسفار عن النسخة البروتستانتية[1].

والعهد القديم سجلٌّ فيه شعر ونثر وحكم وأمثال وقصص وأساطير وفلسفة وتشريع وغزل ورثاء مع بلاغة في أسلوب وفصاحة عبارات كثيرة في كثير من الحالات[2].

فالتوراة بالمعنى الدقيق خمسة أسفار:

السفر الأول: سفر التكوين أو الخلق، وقد ذكر فيه خلق العالم وقصة آدم وحواء وأولادهما ونوح والطوفان وقصة ابراهيم عليه السلام وابنه اسحق وابنيه يعقوب وعيصو ثم قصة يوسف.

السفر الثاني: يسمى الخروج-أي خروج اليهود من مصر-وفيه قصة موسى من ولادته وبعثته وفرعون وخروج بني إسرائيل من مصر وصعود موسى الجبل وإيتاء الله له الألواح.

السفر الثالث: سفر اللاويين-أي الأحبار-وفيه حكم القربان والطهارة وما يجوز أكله وغير ذلك من الفرائض والحدود.

السفر الرابع: سفر العدد، بعضه في الشرائع وبعضه في أخبار موسى وبني إسرائيل في التيه وقصة البقرة.

(١) مقارنة الأديان اليهودية، للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة-مصر، ط(١٢)، ١٩٩٧م، (ص٢٣٨).

(٢) مقارنة الأديان اليهودية، (ص٢٤٠).

السفر الخامس: سفر التثنية-أي إعادة الناموس[١].

أما التلمود فهو روايات شفوية تناقلها الحاخامات، حتى جمعها الحاخام يوضاس سنة ١٥٠م في كتاب سماه «المنشا» أي الشريعة المكررة لها في توارة موسى كالإيضاح والتفسير، وتم شرح هذه المنشا في كتاب سمي (جمارا) ومن المنشا والجمارا يتكون التلمود[٢].

وهي عبارة عن شروح مسهبة وحواشي ومناظرات وتفاسير دوّنها حاخامات في أرض إسرائيل وفي بابل[٣]، ويشكل هذان النصان التلمود الذي ظل مصدرًا حيًّا للدراسة والفكر والتفسير اليهودي، ويحتل التلمود عند اليهود منزلة مهمة جدًّا تزيد على منزلة التوراة[٤]، ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتابًا منزلًا ، ويضعونه في منزلة التوراة، ويرون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهًا، ولا يقنع بعض اليهود بهذه المكانة للتلمود بل يضعون هذه الروايات الشفوية في منزلة أسمى من التوراة، ويرى بعضهم أن لا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى! ويعدون التوراة خبزًا، ويرون أن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، وأن الإدام هو التلمود، ويصرحون بأن من يقرأ التوراة بغير المنشا والجمارا فليس له إله[٥].

مما تقدم يتبين أن التلمود عبارة عن مجموعة من المناقشات الدينية الأولى مع شروح لرجال الدين من الأجيال المتعاقبة تضمن القوانين اليهودية من قانون

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط(١)، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، (ص٣٢٤).

(٢) مقارنة الأديان (ص١٦).

(٣) الموسوعة الحرة، مادة اليهودية.

(٤) موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات لمحمد عبد الحليم عبد الفتاح، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، ط(٤)، ٢٠١٣م، (ص١٦).

(٥) مقارنة الأديان اليهودية، (ص٢٧١).

عقوبات وقوانين مدنية، وبعبارة أخرى: فيه تحديد العلاقات الدينية والدنيوية يسجل أفكار اليهود في حياتهم وتقاليدهم في نحو ألف عام ويمزج مزجًا تامًّا نواحي الشعب الخلقية بنواحيهم الدينية[1].

والشريعة اليهودية تلخصها الوصايا التي يقولون إن الله أمرهم بها وتنقسم لأوامر تعرف في العهد القديم باسم «وصايا اعمل» وأخرى «لا تعمل»، وهي النواهي، وكانت محفورة على لوحين حجرين يُعرفان باسم لَوْحَيْ العهد أو الشهادة، اللوح الأول يشتمل على وصايا تختص بالواجبات الرئيسة نحو الله والوالدين، واللوح الثاني يشتمل على وصايا تتصل بالواجبات الرئيسة تجاه الجار أو الأصدقاء، والوصايا هي:

١- أنا الرب إلهك أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية.

٢- لا تكن لك آلهة أخرى أمامي «لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لها ولا تعبدها؛ لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانًا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي».

٣- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا؛ لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا.

٤- أذكر يوم السبت لتقدسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملًا ما، أنت وابنك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي دخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الله السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع! لذلك بارك الله يوم السبت وقدسه.

٥- أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك.

(١) ضحى الإسلام (ص٣٢٥) بتصرف.

٦- لا تقتل.

٧- لا تزن.

٨- لا تسرق.

٩- لا تشهد على قريبك شهادةً زورًا.

١٠- لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك[١].

والديانة اليهودية هي ديانة غير تبشيرية، أي إنَّ تعاليم اليهود اليوم لا تسمح للآخرين بالانتماء إليها؛ ولهذا السبب فإن اليهودية ليست ديانة تبشيرية نشطة، ولا يتقبل المجتمع اليهودي أشخاصًا يعتنقون الديانة اليهودية، بل إنَّ ذلك يتم بقرار من السلطات الدينية اليهودية التي هي صاحبة الشأن، فمسألة اعتناق الديانة ليست مجرد مسألة تحقيق معرفة ذاتية شخصية.

الصلوات والأدعية:

في اليهودية تتلى الصلاة في المنزل ثلاث مرات يوميًّا، صباحًا وبعد الظهر وبعد غروب الشمس، وتقام صلاة الجماعة في الكنيس أيام السبت والإثنين والخميس وأيام الأعياد اليهودية، ولليهود أعياد كثيرة مثل يوم الفصح، ويوم التكفير، وزيارة بيت المقدس، والاحتفال بالهلال الجديد، وأشهرها يوم السبت الذي يعتقدون أنّ الله قد استراح فيه[٢]. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

الختان: الختان سنة شائعة منذ أيام إبراهيم، والختان هو علامة العهد العضوية.

(١) اليهودية واليهودية المسيحية للدكتور فؤاد حسنين علي، دار العالم العربي، القاهرة-مصر، ط(١) ٢٠١٦م-١٤٣٧هـ، (ص١٢٢-١٢٣)، ومقارنة الأديان-اليهودية (ص٢٩٢-٢٩٣).

(٢) موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات (ص١٦).

العقيدة الأخروية: اختلفت أنظار اليهود بالنسبة لليوم الآخر تبعا لاختلاف فرقهم، فمنهم فرق لا تؤمن بالقيامة ولا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجزاء وجنة ونار، وتنكر الجن والملائكة والشياطين، مثل فرقة «الصدوقيين» الذين يؤمنون بأن الثواب والعقاب إنما هو قصر على هذه الحياة، وأنه لا حياة بين ذلك، وإلى جانب هذه الطائفة الكبيرة التي تنكر اليوم الآخر كانت هناك طوائف تؤمن بالثواب والعقاب في حياة أخرى غير هذه الحياة، أي أنها تؤمن باليوم الآخر، ولكن اليوم الآخر في فهمها يحوطه كثير من الغموض والإبهام بحيث يذهب بالمعنى الكبير الكامن وراء الإيمان بذلك اليوم، بحيث يجوز أن يلحقوا مع الطائفة الأخرى المنكرة لليوم الآخر[1].

الطوائف اليهودية الحديثة: نتيجة للتطور في الحياة تطور الفكر الديني عند اليهود، ويمكن تصنيف أفكارهم اليوم إلى أربعة مدراس هي:

اليهودية الأرثوذكسية، واليهودية الإصلاحية، واليهودية المحافظة، والصهيونية.

وَلْنُلْقِ نظرة سريعة على الصهيونية باعتبارها هي صاحبة الفكرة والتخطيط لاحتلال فلسطين، وهي على عداء مع المسلمين والعرب، لا بسبب الدين، وإنما بسبب الاحتلال والعدوان.

فالصهيونية: حركة قومية يهودية حديثة نشأت في أوروبا ساهم في تشكيلها عدة مفكرين يهود، أما فكرة الصهيونية في حد ذاتها فقد تطورت في الجيتوهات اليهودية طيلة قرون عديدة، والصهيونية الدينية مرتبطة بفكرة الحنين إلى العودة إلى صهيون - كناية عن (أورشليم)- ذلك الحنين المشحون بالمعتقد الإسخاتولوجي[2] الأخروي، والخلاص بعد ظهور (المسيح) أي الملك أو

(١) دراسات في اليهودية، للدكتور محمود محمد مزروعة، دار اليسر، القاهرة، ط(١)، ٢٠١٦م، (ص١٢٦).

(٢) الإسخاتولوجي: العلم أو التعليم المختص بالأخرويات ، والذي يبحث في مآل النفس البشرية في النهاية أو مصير البشر على وجه العموم.أنظر: موقع الأنبا ثكلا هيمانوت:st- Takla.org

المسيح المخلص، لكن الصهيونية السياسية التي اعتمدت على وجه الخصوص على مؤلَّف تيودور هرتزل (الدولة اليهودية) هي التي لقيت انتشارًا واسعًا أدى إلى إعلان قيام دولة يهودية على أرض فلسطين[1].

الفرع الثاني: النصرانية

النصرانية أو المسيحية: هي الرسالة التي أنزلت على عيسى عليه السلام مكملة لرسالة موسى عليه السلام ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم موجهة إلى بني إسرائيل داعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح[2].

فالنصارى يُعتبرون من وجهة النظر العلمية الامتدادَ العقدي لليهود أي أن النصارى في الأصل هم طائفة من اليهود اتبعت عيسى ابن مريم عندما بعثه الله، وبقي أكثر اليهود لا يؤمنون به، واصطلح على أن يطلق على من آمن بعيسى ابن مريم من اليهود: نصارى[3]، فهي ديانة إبراهيمية وتوحيدية في أصلها.

والمسيحية تعتبر أكبر ديانة لها أتباع إذ يبلغ عدد أتباعها حوالي ثلث البشر، كذلك فالمسيحية دين الأغلبية السكانية في (١٢٦) بلدًا من أصل ١٩٧ بلدًا في العالم، ويعرف أتباعها باسم المسيحيين، وكلمة (مسيحية) جاءت من كلمة المسيح التي تعني: من وقع دهنه، أو الممسوح بالدهن المقدس.

الفرق المسيحية:

تنقسم المسيحية إلى ثلاث فرق رئيسة هي: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت.

وكل فرقة من هذه الفرق الرئيسية تنقسم بدورها إلى عدد كبير من الطوائف

(١) الموسوعة الحرة.

(٢) موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، (ص٦١) بتصرف يسير.

(٣) الإسلام في العهد المدني والخصومات القديمة المتجددة للدكتور صابر عبد الرحمن طعيمة (ص٢٠٩).

المسيحية المنبثقة عن الفرقة الواحدة، ولا سيما الفرقة البروتستانتية التي تحتوي في داخلها ما لا يحصى من الطوائف الصغيرة الفرعية[1].

الكاثوليكية: هي الفرقة التي ينتمي إليها أتباع الكنائس الغربية التي يرأسها بابا الفاتيكان في روما، وأساس كلمة كاثوليكي لاتيني يعني الجامع أو العالمي، ولذلك تسمى الكنيسة الكاثوليكية بالكنيسة الجامعة، وتؤمن الكنيسة الكاثوليكية أن السيد المسيح له طبيعتين منفصلتين هما: الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية، وأنَّ الروح القدس منبثق عن الله الآب والله الابن أي منبثق عن كليهما.

وأهم مراكز تواجد أتباع الكنيسة الكاثوليكية يوجد في القارة الأوروبية مع وجود أتباع في قارات أخرى ساهم الاستعمار والتبشير في إدخالهم.

الأرثوذكس: هم أتباع الكنائس الشرقية، ويطلق على كنيستهم الأم الكنيسة اليونانية، وتأتي كلمة أُرثوذكس من الكلمة اللاتينية التي تعني مستقيم الرأي أو صحيح العقيدة.

وتؤمن الكنيسة الأرثوذكسية بالطبيعة الواحدة في شخص السيد المسيح، وأن الطبيعة الإلهية ابتلعت الطبيعة الإنسانية، كما يبتلع المحيط قطرة من الخمر! ولهذا لا يظهر في شخص المسيح إلا الطبيعة الواحدة المسيطرة على هذا الكون.

وأهم الأماكن التي يتركز فيها المسيحيون الأرثوذوكس في العالم الحاضر هي: تركيا واليونان وروسيا ودول البلقان وجزر البحر الأبيض والمجر ورومانيا، وتُشرف كنيسة أنطاكية على بيت المقدس، كما أن لطور سيناء في مصر كنيسة مستقلة تشرف على دير سانت كاترين، ومطرانها هو الأب رئيس الدير.

كما أن الكنيسة المصرية يتبعها نصارى الحبشة والسودان؛ لأن بها أقدم الكنائس التابعة لكنيسة الإسكندرية، وفي العصر الحديث أسست الكنيسة المصرية عدة كنائس تابعة لها في كل من: كينيا وليبيا والجزائر والكويت والعراق

(١) أبجديات الصراع الديني-المسيحية والإسلام لجمال عمر، ط(١)، ١٤٢٩هـ، (ص٤١).

والإمارات والبحرين وبلاد الشام وأمريكا الشمالية وأستراليا وبعض دول أوروبا مثل: النمسا وفرنسا[1].

وللمسيحيين الأرثوذكس أربع بطريكيات هي: أنطاكيا والاسكندرية وأورشليم القدس والقسطنطينية[2].

البروتستانت: كان البروتستانت من أتباع الفرقة الكاثوليكية قبل أن ينشقوا عنها في بداية القرن السادس عشر، وتعني كلمة بروتستانت المحتج؛ لأنهم احتجوا على الكنيسة الكاثوليكية وممارساتها آنذاك من سر الاعتراف وسر الأفخاريستيا (الشراكة في العشاء الرباني)، وتحول القربان إلى ذبيحة إلهية يحل فيها جسد المسيح وكذا الخمر الذي يتحول إلى دم المسيح وصكوك الغفران.

وقد ارتبط اسم مارتن لوثر(١٤٨٢م-١٥٤٦م) بالانشقاق البروتستانتي فيما يعرف بالإصلاح الإنجيلي، ولا يعترف البروتستانت إلا بما ورد في الإنجيل فقط، ويفسرونه كل بحسب طريقته الخاصة.

وأهم أماكن انتشار البروتستانتية الولايات المتحدة الأمريكية وكوريا وألمانيا وأسكتلندا والنرويج وهولندا وبريطانيا، حيث تعتبر الكنيسة الأنجليكانية الكنيسة الرسمية في البلاد، وهذه الكنيسة البريطانية ليست كنيسة واحدة وإن بدت كذلك؛ لأن الكنيسة تنقسم إلى قسمين: قسم يقترب من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، والقسم الثاني يقترب من تعاليم الكنيسة البروتستانتية[3].

مراجع المسيحية:

النصرانية امتداد لليهودية كما اتضح فيما سبق؛ ولذلك فإنها تعتمد على المراجع اليهودية التي يضمها العهد القديم والعهد الجديد، والعهد بقسميه يسمى الكتاب

(١) موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات (ص١٠٥).
(٢) أبجديات الصراع الديني-المسيحية والإسلام (ص٤٤).
(٣) المرجع السابق (ص٤٥-٤٨) بتصرف.

المقدس، ويتألف من أسفار الأنبياء بما فيها الأسفار التاريخية، وأسفار الأنبياء عددها (٢١) والأسفار التاريخية والأدبية المسماة أسفار الكتب وعددها (١٣).

أما العهد الجديد فهو جزء من الكتاب المقدس عند المسيحيين، ويتألف من أربعة أسفار تسمى الأناجيل (البشارة)، ثم يليها سفر أعمال الرسل ثم الرسائل ومجموعها (٢١) رسالة، (١٣) منها بقلم بولس، وأخيرًا سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي الموجهة في شكل رسالة من يوحنا إلى السبع كنائس التي في آسيا (بلاد الأناضول)[(١)].

والأناجيل المعتمدة في المسيحية أربعة هي: إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وهؤلاء الأربعة من الرسل القديسين الذين لا يدانيهم شك ولا تجريح، وقد تسلمت الكنيسة هذه الأناجيل، واتخذتها دستورًا تسير على هديه وتعمل بوحي منه؛ لأنه يتضمن شهادة الرسل على حياة المسيح وتعاليمه.

لقد استقى الإنجيليون الأربعة مادتهم مما سمعوه وعاينوه، ثم بالنقل عمن شاهد، وسمع من الثقات.

وخلاصة القول: أن المسيحية تعتمد في تعاليمها على الإنجيل، وهو كتاب مقدس يتضمن سيرة المسيح على الأرض وأقواله، قام بكتابته غير واحد من تلاميذ المسيح والرسل، كلٌّ كما رأى وسمع وعاش وشهد، فجاءت الأناجيل غير موحدة الصَّوْغ، وإن كان الصحيح منها موحد الجوهر والمضمون.

وقطعًا فإن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يختلف عما ذكره القرآن؛ لأن الكنيسة لا تعتبر الإنجيل كتابًا منزلًا، إنما هو كتاب مقدس وضعه أبرار قديسون بإلهام من الروح القدس[(٢)]، والقرآن ذكر في أكثر من آية أنَّ التوراة

(١) التوراة والإنجيل والقرآن بين الشهادات التاريخية والمعطيات العلمية، (ص٨١-٨٤) بتصرف.
(٢) موسوعة الأديان الميسرة، حررها عدد من العلماء، دار النفائس للطباعة، بيروت، لبنان، ط(٤)، ١٤٢٨هـ، (ص١٠٦).

والإنجيل مُنَزَّلَانِ من عند الله، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [2].

أهم الأفكار والمعتقدات المسيحية:

المسيحية في أصلها رسالة توحيدية - باعتبارها ديانة سماوية- جاء بها نبي مرسل على سكة من سبقوه من رسل الله، ولكنها مثل اليهودية انحرفت عن طريق التوحيد واتبعت عقائد ومفاهيم تتناقض مع أصل الرسالة، وأهم تلك المعتقدات والأفكار نجملها في الآتي:

أولًا: الألوهية والتثليث: استقرت عقائد النصرانية على الإيمان بالإله الواحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى، ويعتقد المسيحيون أن يسوع ابن الله وبكر الخلائق، ولد من أبيه قبل العوالم، ومنهم من يعتقد أنه الله نفسه، وقد أشار القرآن الكريم إلى المعتقدين وبين بطلانهما، قال -سبحانه-: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [4].

كذلك يعتقدون أن روح القدس حل في مريم لدى البشارة، وعلى المسيح في

(١) سورة آل عمران، الآيتان (٢-٤).

(٢) سورة المائدة، الآية (٤٦).

(٣) سورة التوبة، الآية (٣٠).

(٤) سورة المائدة، الآية (١٧).

العماد على صورة حمامة وعلى الرسل من بعد صعود المسيح، ولا يزال موجودًا وينزل على الآباء والقديسين بالكنيسة يرشدهم ويعلمهم، ويحل عليهم المواهب ما هو إلا روح الله، وحياته إله حق من إله حق.

كذلك يقولون بالأقانيم الثلاثة: الآب والابن والروح القدس، ويقولون في زعمهم: وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية، وقد صعب عليهم فهمه، ولذلك اختلفوا فيه اختلافا متباينًا، وكَفَّرت كل فرقة من فرقهم الأخرى بسببه، وقد حكم الله بكفرهم جميعا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ثانيًا: الكتاب المقدس: يؤمن النصارى بقدسية الكتاب المشتمل على العهد القديم والعهد الجديد، وكذلك يؤمنون بكل ما صدر عن المجامع المسكونية من أمور تشريعية سواء في العقيدة أو في الأحكام، وذلك على خلاف بينهم في عددها.

ثالثًا: الصليب: يعتبر الصليب شعارًا لهم، وهو موضع تقديس الأكثرين، وحمله علامة على أنهم أتباع المسيح.

رابعًا: مريم البتول: يعتقد النصارى أن مريم ابنة عمران والدة المسيح عليه السلام هي والدة الإله، ولذا يتوجه بعضهم بعبادتها.

خامسًا: الدين: يؤمن النصارى بأن النصرانية دين عالمي غير مختص ببني إسرائيل وحدهم، ولا يخلو اعتقادهم هذا من مخالفة لقول المسيح المذكور في انجيل متى الإصحاح (١٠ ٥ ٦): «إلى طرق الأمم لا تتوجهوا ومدن السامريين لا تدخلوا، بل انطلقوا إلى الخراف الضالة من آل بني إسرائيل».

سادسًا: الشعائر والعبادات: الصلاة الأصل عندهم في جميع الصلوات هي الصلاة الربانية والأصل في تلاوتها أن يتلوها المصلي ساجدا أو تكون بألفاظ منقولة أو مرتجلة أو عقلية بأن تنوى الألفاظ ويكون الابتهال قلبيا وذلك على

(١) سورة المائدة، الآية (٧٣).

خلاف كبير بين طوائفهم في عددها وطريقة تأديتها. وكذلك من شعائرهم الصوم وهو الامتناع عن الطعام الدسم وما فيه شيء من الحيوان أو مشتقاته مقتصرين على أكل البقول وتختلف مدته وكيفيته من فرقة إلى أخرى.

سابعًا: الأسرار السبعة: يعتقد المسيحيون أن هنالك سبعة أسرار ينال بها المسيحي النعم غير المنظورة في صورة نعم منظورة ولا تتم إلا على يد كاهن شرعي وهي: سر التعميد، وسر التثبيت، وسر العشاء الرباني، وسر الاعتراف، وسر الزواج، وسر مسحة المرضى، وسر الكهنوت.

ثامنًا: الرهبانية: اختلفت طوائفهم في مدى لزوم الرهبنة التي يأخذ رجال الدين أنفسهم بها. وقد ذكر القرآن الكريم أن الرهبانية ابتدعوها ولم تكتب عليهم. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[1].

تاسعًا: التنظيم الكهنوتي: هو تنظيم استعارته الكنيسة في عهودها الأولى من الرومان حيث كان يرأسها أكبرهم سنًّا، على أمل عودة المسيح، ويقدسون رهبانهم ورجال كنيستهم، ويجعلون لهم السلطة المطلقة في الدين وفي منح صكوك الغفران.

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2]، فالنصرانية بشكلها الموجود اليوم قد أخذت من معظم الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة قبلها، مما أفقدها شكلها وجوهرها الأساسي الذي جاء به عيسى عليه السلام من لدن رب العالمين[3].

(١) سورة الحديد، الآية (٢٧).

(٢) سورة التوبة، الآية (٣١).

(٣) موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، (ص٧٥-٨١) بتصرف.

الفرع الثالث: اليهودية والنصرانية ونقاط الاختلاف بينهما وبين الإسلام

أولا: النظرة الإسلامية لليهودية:

عندما ظهر الإسلام وجد تجمعات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل، وهم: بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة[1]، وقد وقّع الرسول ﷺ مع الطوائف الثلاثة صحيفة المدينة.

ويرى الإسلام أن الديانة اليهودية ديانة سماوية، ويؤمن المسلم بأصلها وبأنبيائها، ويقر الإسلام بأن التوراة منزلة من عند الله على موسى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3].

بل نص القرآن على بعض أحكام وردت في التوراة، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4].

وتتفق أحكام الإسلام مع كثير من أحكام التوراة كتحريم الدم ولحم الخنزير وتشريع ختان الذكور وتعدد الزوجات وإلزام الزوج بمسؤولية تلبية الحاجات الأساسية والضرورية للزوجة والأبناء، ويشير النص القرآني لليهود في عدة مواضع

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط(١)، ٢٠١٤م، (ص٢٩).

(٢) سورة المائدة، الآية (٤٤).

(٣) سورة المائدة، الآية (٤٦).

(٤) سورة المائدة، الآية (٤٥).

وفي سياقات متنوعة، تتراوح بين رواية قصص بني إسرائيل وبين الحديث عن اليهود وبين مدحه لهم ولأهل الكتاب وبين ذمّه لهم ووصفهم بالمفسدين، ويأتي هذا الوصف من منطلق أن الإسلام يعتبر اليهودية دينًا تم تحريفه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

وفي مواضع أخرى يصفهم بأنهم من أهل الكتاب، ويدعو لمجادلتهم بالتي هي أحسن، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2] وفي موضع آخر يميزهم: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] ويثني على صبرهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[4].

ولكن بالإجمال ينتقد النص القرآني اليهود أكثر من المسيحيين، فاليهود مردوا على العناد والمكابرة ونقض العهود.

ثانيا: نقاط الخلاف بين الإسلام واليهودية:

لقد أوضحنا في السابق أن التوراة التي أنزلها الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام قد أصابها التغيير والتبديل والتحريف بعدما نالت منها الأيدي الخفيّة ذات المصالح والمطامع والانقياد تبعًا للأهواء والشهوات، وعلماء الإسلام ذهبوا في موضوع تحريف التوراة مذاهب:

(١) سورة المائدة، الآية (٨٢).

(٢) سورة العنكبوت، الآية (٤٦).

(٣) سورة الدخان، الآية (٣٢).

(٤) سورة الأعراف، الآية (١٣٧).

الأول: يرى أنها -كلها أو أكثرها- بُدِّلَت أو غُيِّرَت، فالتوراة الموجودة حاليًا ليست المنزلة على موسى، وحجة هذا الرأي هو التناقض وتكذيب بعضها لبعض[1].

الثاني: ترى طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام أن التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل، وهذا مذهب البخاري[2] قاله في صحيحه: «يحرفون الكلم عن مواضعه»: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى ولكنهم يتأوّلونه على غير تأويله، وهذا ما اختاره الرازي في تفسيره، ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد عمت مشارق الأرض ومغاربها، ولا يعلم عدد نسخها إلا الله، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة والتغيير على منهاج واحد، وهذا ما يحيله العقل ويشهد ببطلانه، قالوا: وقد بين الله تعالى لنبيه ﷺ محتجا على اليهود بها: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[3].

الثالث: أنه قد زيد فيها ألفاظ يسيرة، وأكثرها باق على ما أنزل عليه، والتبديل

(١) من أشد من ذهب إلى هذا الرأي ابن حزم في كتابه (الفصل بين الملل والنحل)، وقد بحث فيه بحثًا مفصلًا .

ينظر: ضحى الإسلام (ص٣٢٣).

(٢) البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيره بن بردذبه، ولد سنة ١٩٤هـ، كان يتوقد ذكاء وورعًا وكان مجمعًا على فضله وثقته وحفظه، له رحلات من خراسان إلى الشام والعراق والجزيرة والحجاز ومصر، ألف الجامع الصحيح الذي انتخبه من زهاء ستمائة ألف حديث فكان نحو ألفين وخمسمائة كلها متصلة غير التعليق وآثار السلف توفي ٢٥٦هـ عن ٦٢ سنة، ودفن بخرتنك قرية على فرسخين من سمرقند، له كتاب الصحيح ـ والأدب المفرد. تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا يحي بن شرف النووي، المتوفي ٦٧٦هـ، ط، دار الطباعة المصرية، القاهرة ١/ ٦٧ .

(٣) سورة آل عمران، الآية (٩٣).

قليل جدًّا[1].

ثالثا: يرى الباحث أنّ العهد القديم الذي بأيدي اليهود اليوم فيه نصوص ليست من التوراة المنزلة على نبي الله موسى عليه السلام، فمنذ عهد ابن القيم حتى الآن أحدث اليهود تحريفًا كثيرًا، وأشهر التحريف ما تقوله الصهيونية اليوم من نصوص تؤكد أحقيتهم لأرض فلسطين بما يسمى بأرض الميعاد، والعهد القديم الذي بأيدي اليهود يحتوي على مفاهيم تناقض ما جاء به الإسلام ومن ذلك:

١-فساد المعتقد في ذات الله تعالى وفي صفاته وأفعاله والافتراءات الكاذبة المنسوبة إليه[2].

٢-الافتراءات الشنيعة على أنبياء الله تعالى ورسله ورميهم بأقبح وأحطّ الأفعال والرذائل، على الرغم من الاعتقاد بنبواتهم ورسالاتهم، كالادعاء بأن هارون النبي قد بنى معبدًا للعجل وعبده وأمر بني إسرائيل بعبادته كما هو مُصرّح به في سفر الخروج (باب ١٣٢)، والزعم بأن سليمان النبي قد ارتدّ في آخر عمره، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد، وأنه قد قام ببناء المعابد لها، وغير ذلك، ومن ثم القدح في

(١) ضحى الإسلام (ص٣٢٣). وممن اختار القول الثالث: ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ومثل لذلك بما جاء فيها: «إن الله ﷻ قال لإبراهيم عليه السلام: اذبح ولدك بكرك أو واحدك إسحاق» فإسحاق زيادة منهم في لفظ التوراة لأدلة ذكروها.
ينظر: إغاثة اللهفان لابن القيم، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة، ط(١)، ١٤٣٢هـ، (٢/ ١١٣٨) وما بعدها.

(٢) يعتقد اليهود أن الله خلقهم من عنصره، وخلق من أجلهم الكون بكل أجناسه من جماد ونبات وحيوان في صيغة حيوانية أعجمية، وحيوان في صيغة بشرية يتمثل في كل شعوب الأرض (الأميين) وقد تعهد الله لهم بأن تكون لهم السيادة على الكون في عالم الدنيا، وتعهده في شكل ميثاق لهم أقسم فيه بذاته المقدسة أن يجعل لشعبه المختار والمقدس السيادة على العالم (عالم الدنيا)، وقد بدأ الميثاق مع إبراهام (إبراهيم) ثم تجدد مع إسحق ثم يعقوب الذي أصبح اسمه إسرائيل، وانحصر الميثاق في أبناء إسرائيل فقط بالبركة والسلطان، أي النبوة والملك. ينظر: الأصول العقائدية والثوابت الثقافية لرؤية الآخر لمرسي الأسيوطي (ص٥٤).

الصفات العليّة لله والافتراء عليه -جلَّ وعلا- بسوء الاختيار لأنبيائه ورسله والجهل بما سوف يصدر منهم من مثيل تلك الأفعال المنكرة القبيحة، ومن ثم الجهل بالغيب.

٣- التكذيب ومحاولات القتل لكثير من الأنبياء والمرسلين والنجاح في كثير من تلك المحاولات المنكرة.

٤-الدعوة السيئة إلى القتل والمذابح والإبادات الجماعية لغير الجنس اليهودي اقتداءً بما نسبوه كذبًا إلى أنبيائهم عند فتحهم لمدن ذات سكان غير يهوديين، وذلك نتيجة العنصرية التي يعتقدون بها ويقومون بترسيخها في الأذهان من تفضيل للجنس اليهودي على غيره من الأجناس البشرية الأخرى.

٥- الدعوة إلى الاعتداء والاغتصاب والزنى من خلال افتراء الكثير من القصص الفاحشة وضمّها إلى محتويات كتابهم، لقراءتها وإثارة الغرائز الجنسية من خلالها[(١)].

٦-كفرهم بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام.

رابعا: موقف الإسلام من المسيحية:

عندما ظهر الإسلام كان أهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب في نجران، وجاء وفد منهم للنبي ﷺ وفيهم رؤساؤهم الثلاثة: السيد واسمه وهب والعاقب واسمه عبد المسيح والأسقف وهو أبو حارثة، وأراد رسول الله مباهلتهم فامتنعوا، وصالحوا النبي ﷺ فكتب لهم كتابًا، فلما وليَ أبو بكر أنفذ ذلك لهم، فلما ولي عمر أجلاهم واشترى منهم أموالهم[(٢)].

ويعتبر الإسلام النصرانية في الأصل ديانة سماوية جاء بها نبي الله عيسى عليه السلام،

(١) المقارنة بين الإسلام واليهودية والنصرانية والاختيار بينهم لمحمد السيد محمد، بحث منشور على موقع بيت الإسلام، (ص٢٢-٢٣).

(٢) فجر الإسلام (ص٣١) بتصرف.

والمسلمون ملزمون بالإيمان بها، ولكنها انحرفت عن مسارها الأصلي، بل دخلت فيها عقائد وثنية.

والنصارى في الأصل هم أهل كتاب يعاملون بما أمر الله به من البر والإحسان والقسط، كما أباح الإسلام للمسلمين أكل طعامهم والتزوج من نسائهم طالما أنهم لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا[1]، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2]، ويعتبر الإسلام النصارى أقرب إلى المسلمين من اليهود قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[3].

خامسا: أهم نقاط الخلاف بين الإسلام والنصارى:

(١) **عقيدة التثليث**: النصارى الذين يقولون بعقيدة التثليث يعتقدون أن طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الآب والله الابن والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير[4]، وهي عقيدة يرفضها الإسلام بنص الآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5].

(١) فجر الإسلام (ص٨٥).

(٢) سورة المائدة، الآية (٥).

(٣) سورة المائدة، الآية (٨٢).

(٤) محاضرات في النصرانية للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، (ص٩٣).

(٥) سورة المائدة، الآية (٧٣).

(٢) صلب المسيح: إن عقيدة صلب المسيح وفدائه بني البشر من أهم العقائد النصرانية، بل لعلها أهمها، ولم تكتسب أهميتها باعتبارها جريمة قتل وقعت على نبي من أنبياء الله، ولكنها اكتسبت أهميتها من حيث إنها جُعلت أساسًا يقوم عليها دِين وتُبنى عليها عقيدة، فعقيدتهم في صلب المسيح كانت أساسًا وبداية لجعله إلهًا وأساسًا للتثليث وأساسًا لاتخاذ الصليب رمزًا مقدسًا للنصرانية كلها كدين[(١)].

والقرآن ذكر بوضوح أن المسيح عليه السلام لم يُصلب ولم يُقتل، وإنما قُتِل شبيهه، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[(٢)].

(٣) الخطيئة الموروثة: وأساس هذه العقيدة أن أبا البشر آدم أخطأ في حق الله حين أكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، وخطيئة آدم هذه ورثها عنه جميع أبنائه من البشر حتى يوم القيامة، فكلهم مطالبون بها ومسئولون عنها؛ ولذلك فإنهم يستحقون الخلود في جهنم، وعقيدة الإسلام تنفي هذا الزعم، فآدم عليه السلام اجتباه ربه وتاب عليه وهداه، وأعمال الإنسان مسئول عنها صاحبها وحده، قال تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٣)].

(١) دراسات في النصرانية للدكتور محمود محمد مزروعة، دار اليسر-القاهرة، ط(١)، ٢٠١٥م، (ص١١٠).

(٢) سورة النساء، الآيتان (١٥٧-١٥٨).

(٣) سورة الإسراء، الآية (١٥).

المطلب الثالث

موقف الإسلام الإيجابي من اليهودية والنصرانية

الفرع الأول: الاعتراف برسل أهل الكتاب والكتب المنزلة عليهم

لا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بكل الرسل السابقين والكتب المنزلة عليهم، وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تؤكد هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

قال ابن كثير: «فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارُّون راشدون مهديون هادون إلى سبل الخير»[2].

وخص القرآن رسل أهل الكتاب بالذكر تفصيلًا ، قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[3].

قال صاحب أضواء البيان: «أمر الله النبي ﷺ والمسلمين في هذه الآية أن يؤمنوا بما أوتيه جميع النبيين وألا يفرقوا بين أحد منهم»[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٤٧).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٣٦).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار ابن الجوزي، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط(١)، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، (١/ ٨٧).

وعن الإيمان بالكتب السابقة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1] وهذا تأكيد لما سبق وتوضيح بأن إنكار الكتب المنزلة قَبْل الإسلام والكفر برسل الله السابقين هو الضلال البعيد.

ففي عقيدة المسلم أن دين الله واحد هو الإسلام الذي أرسل الله به رسله وأنبياءه إلى الناس أجمعين، وبه جاءت الرسل وأنزلت جميع الكتب، وجميع أنبياء الله ورسله جاءوا مسلمين يدعون إلى الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[2].

والرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة ووجد اليهود يصومون يوم عاشوراء الذي نجَّى الله فيه موسى أمر بصيامه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسئلوا عن ذلك؟ فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون فنحن نصومه تعظيمًا له فقال النبي ﷺ: «نحن أولى بموسى منكم» فأمر بصومه[3]، وصرح رسول الله ﷺ بأنه أولى بعيسى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من عَلَّات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد، وليس بيننا نبي»[4].

إن منهج رسول الله ﷺ في التعامل مع الرسالات السابقة والرسل السابقين يبين تكامل الرسالات وَوَحْدة مصدرها وصِدْق ما جاءت به قبل التحريف الذي

(١) سورة النساء، الآية (١٣٦).

(٢) سورة الشورى، الآية (١٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٠٠٤)، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، (٣/ ٤٤)، ومسلم في صحيحه برقم (١١٣٠)، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، (٢/ ٧٩٥).

(٤) سبق تخريجه ص ٨٤.

لحق بها.

الفرع الثاني: تصحيح تاريخهم من التحريف

سيرة الأنبياء والمرسلين السابقين لحقها التحريف والتشويه مثلما حُرِّفت الرسالات التي جاءوا بها، فاليهود حَرَّفوا سيرة الأنبياء، ونسبوا إليهم ارتكاب الكبائر، فنسبوا لنبي الله إبراهيم المتاجرة بزوجه ليكسب الأموال من فرعون، ونسبوا لنبي الله لوط الزنى بابنتيه، ونسبوا ليعقوب عليه السلام السرقة، ونسبوا لداود عليه السلام الزنى والقتل، ونسبوا لسليمان عليه السلام الزواج بالمشركات وعبادة الأوثان[1]، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

والنصارى يعتقدون في توراة اليهود ويؤمنون بكل ما ورد فيها، ومن ذلك ما جاء فيها عن النبوة والأنبياء، وعلى ذلك فالنصارى يؤمنون بكل الأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة، ويؤمنون كذلك بكل ما ورد في توراة اليهود من قصص يتعلق بهؤلاء الأنبياء[2].

لقد صحح الإسلام سيرة الأنبياء والرسل وبَرَّأهم مما نُسِب إليهم من أفعال ومواقف لا تليق بالأنبياء الأطهار، وَبَيَّنَ القرآن الكريم أن الله اصطفى الرسل، وطهرهم، واجتباهم، وفضلهم على العالمين، وأشار إلى بعضهم بالإجمال، وذكر بعضهم بالتفصيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

وبرأ الله سليمان مما نسب إليه من كفر فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

(١) دراسات مقارنة الأديان للدكتور محمود محمد مزروعة، دار اليسر، القاهرة، ط(١)، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، (ص١٢٣-١٢٤) بتصرف.

(٢) السابق (ص١٢٦).

(٣) سورة آل عمران، الآيتان (٣٣-٣٤).

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وَبَيَّنَ الله ﷻ أنه فَضَّل بعض الرسل على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2].

وَقَصَّ القرآن الكريم الرواية الصحيحة عن موقف اليهود من أنبيائهم، وبيَّن مظاهر عنادهم ومعارضتهم لأنبيائهم، بل وقتلهم للأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن

(١) سورة البقرة، الآية (١٠٢).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٥٣).

قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (١).

وهنالك سور عديدة سُمِّيَت بأسماء الرسل مثل: يونس وهود ويوسف وإبراهيم كما سميت سورة بـ«الأنبياء»، كذلك نزلت سورة تشرح قصة السيدة مريم والتكريم الذي خصه الله بها، حيث حملت بالسيد المسيح عليه السلام دون أب في مشهد معجز يوضح قدرة الله الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، وقد برأها الله ﷻ من التهمة التي رميت بها، وشهد لها ابنها الذي تكلم في المهد صبيًّا.

وقد صحح القرآن الكريم التحريف الذي لحق بالرسالات السابقة ورد الافتراء على الرسل وبين أن أصل الرسالات واحد، وأن كل رسالة جاءت مكملة للرسالة التي سبقتها حتى خُتِمت الرسالات بالرسالة الخاتمة التي جاء بها سيدنا محمد رسول الله صلى الله وسلم عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، فقد أخذ الله الميثاق على النبيين بالإقرار بهذه الرسالة وعلى أتباعهم الالتزام بهذا الميثاق الذي التزم به رسلهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٢).

الفرع الثالث: دعوتهم للحوار والالتزام بالتوحيد

تأكيدًا على وحدة الأصل وصدق رواية القرآن دعا القرآن أهل الكتاب للحوار للاتفاق على توحيد الله ونفي الشركيات التي أتى بها المحرفون، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣).

وقد اشتملت مجالات الحوار على كافة القضايا التي لحقها التحريف، ومنها الادعاء ببنوة عزير والمسيح لله، حيث بيَّن أن ما قاله اليهود والنصارى هو تقليد

(١) سورة النساء، الآيات (١٥٣-١٦٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٨١).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٦٤).

للكافرين، كذلك الادعاء بأن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا أو نصرانيًّا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ ۖ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ففي هذه الآيات علَّم الله ﷻ المسلمين كيف يحاورون أهل الكتاب؛ حيث أمرهم أن يقولوا لهم: «نحن متمسكون بملة إبراهيم أبي الأنبياء ومؤمنون بكل ما أنزل على أنبياء بني إسرائيل، فعلى أهل الكتاب أن يقروا بذلك، وإن أبوا فإنهم يشاقون اتباعا لأهوائهم»، وعلى المسلمين أن يتمسكوا بعقيدتهم الصحيحة التي جاء بها الأنبياء والرسل، والله سيكفيهم شرور مخالفيهم.

ووجه الله الرسول ﷺ إلى كيفية محاورة غير المسلمين والرد على مزاعمهم، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

وإن السيرة النبوية مليئة بالرسائل والمكاتبات والحوارات التي أجراها رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ تنفيذًا لأوامر الله، ومنها رسالته إلى أسقف القسطنطينية التي جاء نصها: «إلى ضغاطر الأسقف، سلام على من آمن، أما على أثر ذلك فإن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية، وإني أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له

(١) سورة البقرة، الآيات (١٣٥-١٤١).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٢٠).

مسلمون، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

وروي في سبب نزول صدر سورة آل عمران ما ذكره النسفي قال: «لما قدم وفد نجران -وهم ستون راكبًا، أميرهم العاقب وعمدتهم السيد وأسقفهم وحبرهم أبو حارثة- خاصموا في أن عيسى إن لم يكن ولدا لله فمن أبوه؟ فقال ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ » قالوا: بلى. قال: «ألم تعلموا أن الله تعالى حي لا يموت، وعيسى يموت؟ وأن ربنا قَيِّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعيسى لا يعلم إلا ما علم؟ وأنه صور عيسى في الرحم كيف شاء، فحملته أمه ووضعته وأرضعته، وكان يأكل ويحدث وربنا منزه عن ذلك كله؟ » فانقطعوا فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية[2].

إن منهج الإسلام في الحوار مع أهل الكتاب يؤكد صدق الرسالة الخاتمة، ويبين التحريف الذي أدخله اللاحقون على أصل الديانة، ويقيم الحجة على معتنقي هذه الديانات بأقوى برهان وأصدق دليل.

هذه المواقف تؤكد اهتمام الإسلام بالعلاقات الاجتماعية مع المخالفين له وأنه حريص على التواصل وتطوير العلاقة مع المخالف.

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط(٧)، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، (ص١١٥).

والحديث ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٢)، قال: « أخبرنا الهيثم بن عدي قال: أخبرنا دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة ابن الحصيب الأسلمي.. وحدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان والزهري.. وحدثنا الحسن بن عمارة عن فراس عن الشعبي، دخل حديث بعضهم في حديث بعض... ». فهذه ثلاثة أسانيد لهذه الرواية، أما الإسناد الأول ففيه دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلي: متروكان. وأما الإسنادان الآخران فمرسلان؛ لأن الشعبي والزهري ليسا من الصحابة، بالإضافة إلى ضعف الحسن بن عمارة الشديد. والله أعلم.

(٢) تفسير النسفي (١/ ٢٣٦)، وهو في سيرة ابن هشام (١/ ٥٧٣) بغير هذا السياق.

المبحث الثاني

الأديان الوضعية والحضارات الإنسانية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: طبيعة الأديان الوضعية.

المطلب الثاني: الحضارات الإنسانية.

المطلب الأول

طبيعة الأديان الوضعية

الفرع الأول: تعريف الأديان الوضعية

تبين مما سبق أهمية الدين بالنسبة للإنسان واتضح أن الأديان السماوية منزلة من عند الله ﷻ، وأما الأديان الوضعية فهي من صنع البشر ومن اختراع العقل الإنساني، وعلى هذا فهي ليست وحيا من الله ﷻ، وليس لها أنبياء أو رسل، ذلك أن مهمة الأنبياء والرسل هي تلقي الوحي من الله، فالدين الوضعي في حقيقته مذهب إنساني دعا إليه بعض الناس فدان به آخرون[1].

والدين الوضعي نشأ كمذهب خلقي وإصلاح اجتماعي له فلسفته الخاصة التي يقوم عليها، والتي تستمد دعائمها من البيئة وظروف المجتمع الذي نشأت فيه ومن ثقافته النوعية ومن مشاكله التي جاء هذا المذهب -أساسًا- علاجًا لها[2].

ويقف الملحدون الذين ينكرون وجود الله ويرجعون تفسير التساؤلات المعضلة إلى عالم المادة أو الطبيعة أو الهوى، وبين الإثنين يقف أصحاب الديانات الوضعية، وهم الذين حاولوا أن يجيبوا على تلك التساؤلات باجتهادهم، فنشأت الديانات الوضعية التي تجيب عن سؤال الإله بأنه موجود، غير أنها لا تتفق على تصور أبعد من هذا، فالإله يمكن أن يكون روح الأسلاف أو النار أو الشمس أو القمر أو النجوم أو الأوثان، أو المعاني المجردة كالخير والشر والظلمة والنور، أو قد يكون أكثر من إله يتفقون أو يتنازعون أو يتقاسمون هذا الكون بصلاحيات لكل منهم، لكن يجمع بينهم أن لهم معابد وطقوسًا تعبدية، ولهم أعياد في أيام

(١) دراسة في مقارنة الأديان (ص٢١).

(٢) السابق (ص٢٢) بتصرف.

ذات قداسة مميزة، ولهم منظومات فلسفية تجيب عن أسئلة الكون والحياة والوجود، وتنبثق عنها منظومة أخلاقية، وغالبًا ما ينبثق عنها- أيضًا- تشريعات وقوانين لا سيما في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق وما إلى ذلك[1].

إن وجود الديانات الوضعية يؤكد أساس الفطرة الدينية التي أشار إليها الإسلام، فالإنسان فُطِر على التَّدَيُّن والاعتقاد، فمن اتبع الرسل استجاب لنداء الفطرة السليم، ومن اتبع ديانة وضعية استجاب لنداء الفطرة، ولكنه وجهه وجهة غير صحيحة، ولذلك لا يستغرب وجود بعض القيم في الديانات الوضعية تتفق مع قيم الديانات المنزلة، ويؤكد ذلك ما بينه الرسول ﷺ بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2] وإقرارُه لبعض القيم التي كانت عليها الحياة قبل الإسلام، فالفضائل قيم إنسانية موجودة في كل المجتمعات البشرية، وهى محل حفاوة من العقلاء، وحتى المجتمعات الجاهلية لا تخلو من قيم فاضلة في بعض جوانبها، ونعرف من دراستنا للتاريخ أنّ العرب كانوا أهل كرم وشجاعة ونجدة ووفاء وحكمة، حتى قبل أن يأتيهم الإسلام، وبرز منهم حاتم الطائي وعبد الله بن جدعان وقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت وزهير بن أبي سلمى وآخرون.

فالديانات الوضعية ضلت الطريق، لكنها لا تخلو من فضيلة تتفق مع ما جاء به الدين المنزل.

قال ابن القيم: «إن الشريعة لا ترد حقًا، ولا تكذب دليلًا ، ولا تبطل أمارة صحيحة، وقد أمر الله سبحانه بالتثبت والتبين في خبر الفاسق، ولم يأمر برده جملة؛ فإن الكافر الفاسق قد يقوم على خبره شواهد الصدق فيجب قبوله والعمل به، وقد استأجر النبي ﷺ في سفر الهجرة دليلًا مشركًا على دين قومه فأمَّنَه، ودفع إليه راحلته»[3].

(١) المشترك الإنساني، نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب (ص٢٦٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٩٥٢)، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، (١٤/ ٢١٥)، وصحح محققو المسند إسناده.

(٣) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم (ص٢٤).

وقد شهد رسول الله ﷺ قبل البعثة حلف الفضول الذي أبرمته قريش لنصرة المظلوم وردع الظالم، فقد قال ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعد ظالم مظلومًا»[(١)].

فالإسلام يأخذ بالحق ولا يلتفت إلى الجهة الصادر منها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[(٢)].

لقد أقر الإسلام بكل مصادر المعرفة: الروحية والعقلية والتجريبية، ولا تتناقض تعاليمه مع العطاء الإنساني المفيد، بل إن عطاء الإنسان جزء من قدر الله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[(٣)] فالإسلام هو الدين الذي تعترف تعاليمه بقيمة إنسانية للإنسان وإن خالفه في المعتقد، ولا شك أن الدين الذي يحترم الإنسان لإنسانيته أولى بالخلود.

الفرع الثاني: الهندوسية

الهندوسية من الديانات العريقة التي يتأصل جذرها التاريخي في الحياة الإنسانية، لتمر في بعدي التطور في الفكر الديني ما يتصل منه بالإلهية وأساطيرها، وما يتصل منه بوحدة الآلهة، على نحو غدت فيه هذه الديانة -على نحو ما تشير به موسوعة الأديان في العالم- أسلوبًا في الحياة أكثر مما هي مجموعة من العقائد،

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢٧٠)، وقد ورد في بعض كتب الحديث ما يشير إلى حضور النبي ﷺ حلف الفضول بغير هذا اللفظ، فأخرج الإمام أحمد في مسنده برقم (١٦٥٥)، مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة، مسند عبد الرحمن بن عوف، (٣/ ١٩٣) بلفظ: «شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأَنِّي أَنْكُثُهُ»، وقوى محققو المسند إسناده.

(٢) سورة المائدة، الآية (٨).

(٣) سورة الرعد، الآية (١١).

يوضح ذلك استيعابها لشتى العقائد والفرائض التي منها ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، ومنها ما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة[١].

والهندوسية ديانة ترتبط بتراث الهند، ومنه استمدت اسمها، وكانت قديما تسمى درما(Dharma)، وسميت سانتا (Sentana)، ومن ثم اتخذت اسم (الهندوسية)، وباتت تشمل كل ما يتعلق بالهند من دين وحضارة وعادات وتقاليد، ولم تعد دينا وضعيا بحتا بقدر ما هي حالة ثقافية[٢].

كتب الهندوس: كتاب الهندوس المقدس يسمى «الويدا»، وهو دائرة معارف دونت فيه حياة الآريين في الهند في عهدهم القديم ومقرهم الجديد، ففيه أخبار حلهم وترحالهم ودينهم وسياستهم وحضارتهم وثقافتهم ومعيشتهم ومعاشرتهم ومساكنهم وملابسهم ومطاعمهم ومشاربهم ومهنهم وحرفهم، وتجد فيه مدارج الارتقاء للحياة العقلية من سذاجة البدو إلى شعور الفلاسفة، فتوجد فيه أدعية ابتدائية تنتهي بالارتياب، وألوهية تترقى إلى وحدة الوجود[٣].

والويدا تضم أربعة كتب دينية هي:

١- **الريج ويدا** (Rig Veda)، وهو أشهر الأربعة وأهمها وأشملها، كما سيظهر من مقارنة موضوعاته بموضوعات الويدات الأخرى، ويقال: «إن تأليفه يرجع إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد»، ويشتمل ١٠١٧ أنشودة دينية وضعت ليتضرع بها أتباعها أمام الآلهة أو يتغنون بها عند الآلهة.

٢- **ياجور ويدا** (Yajur Veda)، ويشتمل على العبادات النثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

(١) موسوعة الأديان لمهدي البصري (ص٣٩).

(٢) موسوعة الأديان الميسرة (ص٤٨٥).

(٣) أديان الهند الكبرى (الهندوسية – الجينية - البوذية) مع ملحق عن قضية الألوهية كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، ط(١١)، ٢٠٠٠م، (ص١٣١).

٣- **ساما ويدا** (Sama Veda)، ويشتمل على الأغاني التي ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

٤- **آثار ويدا** (Athar Veda)، ويشتمل على مقالات في السحر والرقى والتوهمات الخرافية مصبوغة بالصبغة الهندية القديمة.

ويشتمل كل كتاب على أربعة أجزاء هي (سمهتا وبرَهْمَن وأرَنْيك وأبانيشاد)[١].

أهم العقائد الهندوسية: الديانة الهندوسية لها عقائد متعددة نتيجة لتعلقها بمظاهر الطبيعة، وأهم عقائدها أربعة هي:

١- **الكارما**: وهي عقيدة تقوم على أن لكل عمل جزاءً، خيرًا كان أم شرًّا، فنظام الكون قائم على العدل المحض، وأن العدل الكوني قضى بالجزاء لكل عمل، وأن في الطبيعة نوعا من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء، وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء في هذه الحياة[٢].

٢- **تناسخ الأرواح**: لاحظ الهندوس من واقع الحياة أن الجزاء لا يقع كما ورد في عقيدة الكارما، فالظالم قد ينتهي دون أن يقتص منه، والمحسن قد ينتهي دون أن يحسن إليه، ولذلك لجئوا إلى القول بتناسخ الأرواح، وقد عبر عن عقيدة تناسخ الأرواح بـ «تجوال الروح»، وقد يطلق عليها «التناسخ» فقط، ويطلق عليها كذلك «تكرار المولد»، والتناسخ رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضي في جسم آخر، وسبب التناسخ أو تكرار المولد هو أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد، وأنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين لا بد من أدائها، فلا

(١) السابق (ص٤٠-٤١) بتصرف.

(٢) أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي، (ص٦٠).

مناص إذًا من أن تستوفي شهواتها في حيوات أخرى، وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة[١].

٣- **الانطلاق**: هو الامتزاج ببرهما كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم، وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى، وهذا الانطلاق لا يكتسب بالأعمال؛ لأن الأعمال الصالحة يجازى عليها الإنسان عن طريق الميلاد المتكرر كالأعمال الشريرة تمامًا[٢].

فالانطلاق يتحقق بتغلب الإنسان على نفسه بحيث لا يبقي له شهوة ولا ميل، بل يقنع بما حصل عليه، ولا يطلب مزيدًا، فإذا تم له ذلك مع انقطاع عن الأعمال وعن علائق الدنيا وما فيها من ملاذ وعصيان تلك التي تستلزم تكرار المولد إذا تم له ذلك نجا من تكرار المولد وامتزج ببرهما[٣].

٤- **وحدة الوجود**: ذكرت شروح الويدا أن الإنسان من حيث روحُه جاء على فطرة الله (Brahaman)، وكما أن شرارة النار نار، فإن الإنسان من نوع الإله وروحه لا يختلف عن الروح الأكبر إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة، وعندما تُجرَّدُ الروحُ من الظواهر المادية تبدأ رحلتها للعودة للروح الأكبر، ولذلك يسمى تخلصها من الجسم «طريق العودة»، والإله في التفكير الهندي له صفات ثلاث: فهو برهما (خالق) ووشنو (حافظ) وسيفا (مهلك) وهذه الصفات الإلهية الثلاثة كامنة في الإنسان، فهو يخلق الأفكار والأنظمة والمؤسسات ويحافظ عليها ويستطيع تدميرها ليعيد خلقها في شكل آخر[٤].

وفي فلسفة الهند الأخلاقية المسماة «ويدانت» وردت العبارة التالية: «هذا الكون كله ليس إلا ظهورًا للوجود الحقيقي الأساسي، وإنّ الشمس والقمر وجميع

(١) السابق (ص٦١).

(٢) السابق (ص٦٤).

(٣) نفسه.

(٤) أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي، (ص٦٥-٦٦) بتصرف.

جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق، وإنّ الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الأصلية، وإنّ الجبال والبحار والأنهار تُفَجَّر من ذلك الروح المحيط الذي يستقر في سائر الأشياء»[(١)].

الأخلاق في الهندوسية: إن أغلى ما يطمع فيه البرهمي هو الانطلاق والاندماج في برهما، ودستور العقل الهندي للوصول إلى هذه الغاية كان دائمًا الزيادة المفرطة بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس، كما كان يعيش أسير الحرمان ويحمل نفسه ألوان البلاء، ويبدو دائما كثير الهموم والخوف والتشاؤم، وهو لا يتمنى الموت؛ لأن الموت ينقله إلى دورة جديدة من دورات حياته، بل يرجو لنفسه الفناء في برهما[(٢)].

وقسمت الفلسفة الهندية الحياة أربع مراحل، وجعلت لكل مرحلة منهجًا يليق بها، وكل دور مدته خمسة وعشرون عامًا، باعتبار متوسط العمر مائة عام، فالدور الأول: دور التربية الجسدية والعقلية والروحية، والدور الثاني: دور الحياة العائلية فيتزوج المرء في هذا الدور ويكون له أهل وذرية ويقوم بواجباته الأهلية، والدور الثالث: يتنحى فيه عن الحياة العائلية هو وزوجته ويشغلان نفسيهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما مطمع شخصي أو نفع عائلي، والدور الرابع: يتجرد المرء فيه من كل ما هو دنيوي ويتفرغ للرياضة الروحية[(٣)].

وفي كل مرحلة من هذه المراحل نوع من الزهادة، ولكن الزهادة في المرحلة الأخيرة أقسى وأصعب، وفي الفقه الهندوسي هنالك فرائض على الهندوس منها:

- أن الذي تغلب على نفسه فقد تغلب على حواسه التي تقوده إلى الشر.

- أن النفس لأمارة بالسوء، والنفس لا تشبع أبدا، بل يزداد جشعها بعد أن تنال مشتهاها.

(١) السابق (ص٦٦).

(٢) نفسه.

(٣) أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي، (ص٦٨).

- أن الذي أوتي كل شيء والذي تخلى عن كل ما كان في يده فهذا خير من ذاك.

- على طالب العلم أن يتجنب الحلوى واللحوم والروائح الطيبة والنساء، وكذلك يجب عليه ألا يدلك جسده بما له رائحة طيبة ولا يكتحل ولا يلبس حذاءً، وليكن طعامك مما تنبته الأرض وتثمره الأشجار، ولا تقطف الثمر بنفسك، بل كل منه ما سقط من الشجر بنفسه، وعليك بالصوم تصوم يوما وتفطر يوما، وإياك واللحم والخمر.

- عود نفسك على تقلبات الموسم فاجلس تحت الشمس المحرقة وعش أيام المطر تحت السماء وارتد الرداء المبلل في الشتاء.

- لا تفكر في الراحة البدنية، اجتنب سائر الملذات، لا تقترب من زوجتك، نم على الأرض، ولا تأنس بالمكان الذي أنت فيه.

- إذا مشيت فامش حذرا حتى لا تتخطى عظما أو شعرا، وحتى لا تدوس نسمة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبتلع نسمة.

لا تفرح للذيذ ولا تحزن على الرديء[1].

وللهندوس كتاب يسمى (منو دهرما ساستر) «Manu Dbrama Sastra» وردت فيه بعض القوانين الخاصة بالسلطة الحاكمة والمرأة وبعض النظم المالية نذكر منها:

- خلق الله الملك ليصون البلد وليدافع عنه، ولذلك لا تحتقروا ملكًا، وإن كان طفلا رضيعا؛ لأنه إله في صورة إنسان فوق الأرض.

- تعيش المرأة وليس لها خيار سواء كانت بنتًا صغيرة أو شابة أو عجوزًا، البنت في خيار أبيها، والمتزوجة في خيار بعلها، والأرملة في خيار أبنائها، وليس لها أن تستقل أبدًا، وعلى المرأة أن ترضى بمن ارتضاه لها والدها بعلًا ، فتخدمه طول

(١) السابق (ص٦٨-٦٩) بتصرف.

حياته، ولا تفكر في رجل آخر بعد وفاته، بل عليها حينئذ أن تهجر ما تشتهيه من الأكل اللذيذ واللبس الحسن والزينة كلها، وتعيش أرملة إلى آخر عمرها.

- وإن وجدت زوجها لا يعتني بها ويحب امرأة غيرها فلا تحقد عليه، ولا تقصر في خدمته ونيل مرضاته، فقد نيطت جنة المرأة برضاء بعلها، فلا تفعلن شيئًا لا يرضاه بعلها.

- والأسرة التي تحترم المرأة فإن الآلهة تخصها بعطفها، وأما الأسرة التي تحقر فيها المرأة فإن حسناتها تذهب سدى.

- والأوفق أن تشهد النساء للنساء والرجال للرجال، وشهادة النساء -وإن كن نزيهات- لا يقام لها كبير وزن؛ لأن عقولهن لا توازن فيها.

- والذي قال لرجل: «إني أزوجك بنتي» فلا يحل له أن يرجع عن قوله ويخلف وعده، وإذا فعل ذلك يبوء بإثم الذي يقتل ألف نفس بريئة.

مسائل اقتصادية:

- لا يجوز أكل الربا الفاحش، ولصاحب المال أن يأخذ روبية وربع روبية ربا عن مائة روبية في كل شهر.

- وإذا حاول عم صبي صغير أن يستولي على أملاكه فيمنعه الملك من ذلك، ويحول الأملاك إلى إدارته حتى يبلغ الصبي الرشد.

- والعقار الذي لا يوجد له صاحب يبقيه الملك في يده ثلاث سنوات، فإن لم يعرف صاحبه خلال هذه المدة يصبح ملكًا للملك بعدها.

- وإذا وُجدت لقطة في مكانٍ أمر الملك بحفظها حتى يوجد صاحبها، والذي يسرق مثل هذا المال يُلقى أمام فيل ليدوسه؛ نكالًا لجنايته[1].

وهنالك أحكام متعلقة بالضرائب والميراث وتنظيم الأسعار احتواها الكتاب،

(١)أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي، (ص٧٠-٧٣).

والتشريعات الهندوسية تقسم المجتمع إلى طبقات، ولكل طبقة مهام وتشريع، فالبرهمي يشتغل بالتعلم والتعليم وإرشاد الناس في دينهم، فهو المعلم والكاهن والقاضي.

وطبقة الكشتريا: مهمتها الإدارة والحكم وحمل السلاح للدفاع عن الوطن والشعب.

وطبقة الويشا: تقوم بالزراعة والتجارة والإنفاق على المعاهد العلمية والدينية.

وأما طبقة شودرا: فعليها أن تخدم الطبقات الثلاث الشريفة[1].

فالهندوسية عقيدة تقوم على «التمييز الطبقي» -وإن كان أكثر المصلحين حاربوا ذلك- وعلى تقسيم الناس إلى طبقات كما قالت بذلك التعاليم الهندوسية ووضعه «براهما» الخالق، ولن يستطيع أحد تغيير طبقته إلا بنفسه وعن طريق كونه صالحًا باستمرار، وبذلك يؤمن لنفسه تناسخًا إلى طبقة أعلى[2].

الفرع الثالث: البوذية

البوذية ديانة التأمل الباطني وإنكار الذات والرحمة، والبوذي ينشد أول ما ينشد أن يكون في طمأنينة مع نفسه، وواجب المرء نحو نفسه لا يؤدي إلى الأنانية؛ لأن الأنانية مصدر جميع الأحزان، وهي حالة منكرة، ثم إنه يستهدف نبذ التطرف من كل نوع، ثم وقف النفس على خدمة بني الإنسان.

والبوذية تطلب من معتنقيها أن يكونوا كابحين لعواطفهم عديمي المبالاة بالمؤثرات الجسدية كاللذة أو الألم، أي رواقيين في تفهمهم للحياة[3].

(١) الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة لعبد القادر بن شيبة الحمد، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع-المدينة المنورة، ط(٥) ١٤٣٢هـ، (ص٦٥).

(٢) حكمة الأديان الحية (ص١١٢-١١٣).

(٣) السابق (ص١١٧) بتصرف.

ومؤسس البوذية هو بوذا، ولد بوذا في عام ٥٦٣[١] قبل ميلاد السيد المسيح، وتوفي عام ٤٨٣ قبل الميلاد، في منطقة تقع في الناحية الشرقية للهند، تضمها حاليا جمهورية النيبال، قريبة من جبال الهملايا، واسمه الحقيقي «غوتاما سيدهارثا»[٢].

ويُذكر أن اسمه هو «سذهاتا» (Siddharta)[٣] وأما بوذا فهو اللقب الديني الذي أطلق عليه بعد أن تربع على عرش البوذية، ومعناه «العارف المستيقظ المتنور».

فلسفة البوذية: يعتقد بوذا ككل المذاهب الهندية في مبدأ التناسخ، وأهم ما تعمل له البوذية هو التخلص من تكرار المولد والوصول إلى «النرفانا»[٤] - أي القضاء على الأنانية والتحرر من الهوى وسلطان النفس-، وهناك عشرة قيود تحول دون بلوغ الإنسان إلى النجاة وهي:

١- الوهم الخادع في وجود النفس.

٢- الشك في بوذا وتعاليمه.

٣- الاعتقاد في تأثير الطقوس والتقاليد الدينية.

(١) أديان الهند الكبرى (ص١٣١)، مع اختلاف في تاريخ ميلاد بوذا فبعض المصادر ذكرت أن ميلاده كان عام (٥٦٤) قبل الميلاد.

(٢) موسوعة الأديان الميسرة (ص١٤٨) بتصرف.

(٣) أديان الهند الكبرى (ص١٣١).

(٤) نسب إلى بوذا قوله عن النرفانا: «هي طور لا أرض فيه ولا ماء، لا نور فيه ولا هواء، لا مكان فيه غير متناه، ولا عقل غير متناه، ليس فيه خلاء مطلق، ولا ارتفاع الإدراك واللاإدراك معًا، ليس هو هذا العالم، وذاك العالم، لا فيه شمس ولا قمر، أيها المريدون، هي طور لا أقول عنه بإتيان ولا بذهاب ولا بوقوف، لا يموت ولا يولد، هي من غير أساس، من غير مرور، من غير انقطاع، ذلك نهاية الحزن».

ينظر: فلسفة الهند القديمة للرامبوري، بحث منشور ضمن مجلة ثقافة الهند، يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية، المجلد الخمس، العدد الثاني، يونيو سنة ١٩٥٤م، (ص١٣٤).

٤- الشهوة.

٥- الكراهية.

٦- الغرور.

٧- الرغبة في البقاء المادي.

٨- الكبرياء.

٩- الاعتداد بالبر الذاتي.

١٠- الجهل[١].

وكما نلاحظ فإن البوذية نشأت من فكرة مغالبة الأهواء والتركيز الذهني السليم أو صدق التأمل الروحي بالتبتل والرياضة الروحية كي يصل الإنسان إلى الغرض الأسمى وهو (النرفانا)، وهي الهدف الأسمى من التأمل في التفكير الديني الهندي وحالة الاستنارة والتحرر في البوذية أو انعدام فكرة الأنا كجوهر[٢].

فالبوذية تعتبر فلسفة وليست دينًا، وخلاصة فلسفتها -كما قررها بوذا- تتلخص في المبادئ الأربعة الآتية:

أولًا: أن هناك عذابًا وشقاءً.

ثانيًا: أن هناك سببًا للعذاب والشقاء.

ثالثًا: أن هذا السبب قابل للزوال.

رابعًا: أن وسيلة الانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار.

أما سبب الشقاء فهو الجهل الذي جعلنا نتعلق بالأوهام وننسى لباب الأمور، أو نتعلق بالعرض ونعرض عن الجوهر الأصيل، وقد وصف العقاد البوذية بقوله:

(١) أديان الهند الكبرى (ص١٥٨).

(٢) موسوعة الأديان (ص٤٣).

«ما هي إلا تململ من وطأة الحس والجسد، وما سعادتها القصوى إلا ضيقا بالحس وهربا منه إلى الفناء أو اللاوعي على أحسن تقدير»[1].

وإتمامًا للفلسفة البوذية نذكر الوصايا العشر التي تنسب إلى بوذا، وهي:

١- يجب ألا تقضي على حياة.

٢- يجب ألا تأخذ ما يعطى إليك.

٣- يجب ألا تقول ما هو غير صحيح.

٤- يجب ألا تستعمل شرابا مسكرا.

٥- يجب ألا تباشر علاقة جنسية محرمة.

٦- يجب ألا تأكل في الليل طعاما نضج في غير أوانه.

٧- يجب ألا تكلل رأسك بالزهر.

٨- يجب ألا تستعمل العطور.

٩- يجب ألا تحضر حفلة رقص أو غناء.

١٠- يجب ألا تقتني ذهبا أو فضة[2].

وسواءٌ قلنا إن البوذية دينًا أو فلسفة أو إشراقات لتجربة روحية، فإن بعض تعاليمها وبعض مبادئها تتفق مع الإسلام، مما يؤكد أن الدين مهم في حياة الإنسان، لذلك سيظل دائما باحثا عن الاعتقاد الذي يحقق له الطمأنينة النفسية.

وقد تشعبت البوذية الجديدة بسبب الحضارات التي وفدت هذه البوذية إليها من أقطارها، فشعبة من هذه الشُّعب تعتقد بوحدانية الله، وأن الله أوجد العالم

(١) الله لعباس محمود العقاد، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط(١)، ٢٠١٤م، (ص٤١، ٤٣).

(٢) أديان الهند الكبرى (ص٢٦٠).

وأسباب بقائه، ثم تركه مكتفيًا بهذه الأسباب.

وشعبة ترى أن الله يفرغ الكمالات الإنسانية في كل زمن على إنسان يتجرد لعبادته ويبتعد عن إرضاء الشهوات الحيوانية، وهذا الإنسان المختار يحل محل الإله في إظهار الرضا عن بعض الناس أو الغضب عليهم تبعًا لأعمالهم.

وشعبة تدعي أن الله يحل في أي صورة يختارها من صور أفراد الإنسان ليكملها ويطهرها، كاللاما في بلاد التبت، وبعضهم يدعي أن بوذا ابن الله، وأنه جاء ليخلص البشر وينقذهم من الخطايا، ويلقبون أم بوذا بأنها والدة الآلهة، أما البوذيون الصينيون فجعلوا آلهة البوذية ثلاثة وثلاثين إلهًا على الطريقة التي كانوا عليها قبل البوذية[1].

والبوذية تنتشر اليوم في البلدان التالية: الصين وبورما وبوتان وتايلاند وتايوان وسريلانكا وسنغافورة وكمبوديا وكوريا ولاوس ومنغوليا وإندونيسيا وماليزيا، ويبلغ عدد البوذيين في العالم قرابة مليار نسمة[2].

الفرع الرابع: موقف الإسلام من الأديان الوضعية

بَيَّنا سابقا أن الإنسان لا يمكن أن يعيش في هذه الدنيا عيشة مستقرة بدون أن يكون له دين يعتقده، ولذلك فإن الإنسان في سعيه إلى الدين تكونت لديه عقائد بعضها اتفق مع الدين الحق وبعضها أخطأ الطريق، فالذين هداهم الله إلى الدين الحق صححوا عقائدهم واستقاموا على الصراط المستقيم، وآخرون ظلوا متشبثين بعقائدهم، إما لأنهم لم يقتنعوا بالدين الحق، وإما لأنهم تمسكوا بما وجدوا عليه آباءهم، وإما لأنهم اقتنعوا بصحة الدين الحق ولكن المكابرة منعتهم من الاعتراف.

الديانات الوضعية كثيرة ذكرنا بعضها في صدر البحث كالهندوسية والبوذية

(١) الأديان والفرق والمذاهب (ص٧٦).

(٢) موسوعة الأديان الميسرة (ص١٥٠).

وغيرها، ولأنها ديانات لها أتباع ومتداخلة مع المسلمين ولأن البحث هدفه الرئيس هو التعايش مع الآخر، كان لا بد من معرفة عقيدة الآخر ومنطلقاته ونقاط الاتفاق والاختلاف معه.

فالإسلام يعتبر أن الرسالة الخاتمة والصحيحة هي الرسالة الإسلامية، وأن الديانات الوضعية انطلق أصحابها منطلقًا صحيحًا -وهو البحث عن الله- ولكنهم ضلوا الطريق باعتمادهم على عقولهم وحدها، وقد تتفق بعض تعاليم الديانات الوضعية مع الإسلام، ولكن الاختلاف الجوهري يظل في المصدر وفي الغاية، كما يختلف التصور نتيجة لاختلاف المصدر والغاية، وبالجملة فإن موقف الإسلام من الديانات الوضعية يتلخص في الآتي:

أولًا: عقيدة التوحيد: عقيدة التوحيد مبدأ أساسي في الإسلام، تتفق مع الفطرة السليمة، ويصدقها الاستنتاج العقلي الصحيح، يؤكد ذلك التدبرُ في الكون ونظامه المحكم الذي يدل على وجود خالق حكيم عالم قادر، بينما الديانات الوضعية ضلت الطريق في أمر التوحيد، فالزرادشتية توحيدها قائم على أن الآلهة اندمجت في (أهورامزدا)، والهندوسية التي تقوم على مجموعة من العقائد التي منها ما يهبط لعبادة الأحجار والأشجار، ومنها ما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة، ومنها ما يتعلق بتقديس الظواهر، وفي البوذية أن بوذا لم يهتم بالحديث عن الإله إثباتًا أو إنكارًا وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة، فالتوحيد في عقائد الأديان الوضعية يتسم بالغموض في بعضها، ويقوم على الشرك في بعضها، وهي قطعا لا تقصد الله الواحد الذي يرجع إليه الخلق والأمر، بينما التوحيد في الإسلام، فهو مفهوم واضح يقصد به الله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآيتان (٢١-٢٢).

ثانيًا: الوجود: الديانات الوضعية ضلت في أصل الوجود، فالهندوسية تغلب عليها النظرة الطبيعية في تفسير خلق الكون، وفي كتاب العقائد الهندوسية وردت عبارة: «إن الآلهة جاءت بعد أن أوجدت هذه الدنيا، فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود»[(١)].

وأما زرادشت فيعتقد أن الكون يقوم على صورتين للخلق: خَلْقٌ خَيِّر من صُنْعِ (أهورامزدا) وخَلْقٌ شِرِّير من صُنْع (أهرمن)، وأن الإنسان قد خلق من قِبَل (أهورامزدا) بعد أن خلق الأرض وخلق الثور الأول(الإنسان)، وأن أهرمن أثناء هجماته على أهورامزدا قد نجح في قتل الثور كيومرد (أول البشر)، فيما كانت بذور كيومرد مخبأة في الأرض، فنتج عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من بني آدم، وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر وأخذ البشر يلعبون دورًا في الحرب بين مملكتي النور والظلام[(٢)].

وأما قصة الوجود في الإسلام فواضحة، فالله ﷻ خلق هذا الكون بكل موجوداته، وهو يدبر أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[(٤)].

ثالثًا: القيم: تتمثل القيم في مكارم الأخلاق، وقد تكونت مع الإنسان منذ خلقه الأول، فهي تعتبر من القضايا الفطرية في الإنسان، ولذلك لا نستغرب إذا وجدنا أصحاب ديانات وضعية يتمسكون بمكارم الأخلاق، بل حتى المشركين كانوا

(١) موسوعة الأديان الميسرة (ص٦٠).

(٢) السابق (ص٦٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية (٥٤).

(٤) سورة النساء، الآية (١).

يعرفون مكارم الأخلاق، فقد ورد في السنة النبوية أن الرسول ﷺ أشاد بكثير من القيم التي كانت سائدة في عصر الجاهلية، وقد شارك في بعضها، وأعلن أنه لو دُعِيَ إلى مثلها في الإسلام لاستجاب.

وقد سئل كونفشيوس: «ما مقومات الحكومة الصالحة؟ » فقال: «على الحاكم أن يقدر المزايا الخمس: العطاء بغير إسراف، والضرائب بغير إثارة تذمر، والرغبة بغير جشع، والعظمة بغير عجرفة، والجلال بغير قسوة، لذلك عليه أن يتجنب الشرور الأربعة: فرض العقوبة بدون نص قانوني فإنه الطغيان، وتَوَقُّع الطاعة التامة بغير تحذير مناسب فإنه الجور، وتَوَقُّع الانصياع الفوري للأوامر فإنه السرقة، وفرض الضرائب والانفاق فإنه إساءة استعمال الحكم»[(١)].

وفي التعاليم الهندوسية: «من تحرر من الغضب وأدى واجبه ورعى الفضيلة وتجرد من الشهوات فهو من البراهما »[(٢)].

فالديانات الوضعية تلتقي مع الإسلام في كثير من القيم الإنسانية، ولديها من الأخلاق ما أقره الإسلام، كما أن لديها انحرافات رفضها الإسلام، والمنهج الذي أقره الإسلام هو الاشادة بالفضائل واستنكار الرذائل، فعندما قالت بلقيس ملكة سبأ - وهي غير مسلمة- ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾[(٣)] أكَّدَ الله كلامها فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[(٤)].

رابعًا: المصدر والغاية: الديانات الوضعية تعاليمها من وضع البشر نتيجة للتأمل أو الإلهام أو استجابة لاستنتاجات عقلية فرضتها الضغوط الاجتماعية، وغايتها في الغالب دنيوية لإصلاح النفس وإسعادها في الدنيا، وقد تكون أهدافها إرضاء للآلهة التي يعتقدون فيها، ويختلف الإسلام عنها؛ لأن تعاليمه مصدرها

(١) موسوعة الأديان (ص١١٥).

(٢) الداماباداً (٦٧-٦٨).

(٣) سورة النمل، الآية (٣٤).

(٤) سورة النمل، الآية (٣٤).

الله ﷻ، وغايتها إصلاح الدنيا وفلاح الآخرة؛ استجابة لأمر الله وتطلعا لرضاه، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[1].

وخلاصة القول في هذا المبحث: حاجة الإنسان للدين حاجة فطرية مرتبطة بتكوينه، ونتيجة لذلك كان الدين مطلبا أساسيا من مطالب الإنسان، وقد انقسم الناس في استجابتهم لهذا المطلب عدة أقسام: فمنهم من اتبع الرسل الذين جاءوا بدين الله لهداية البشر، ومنهم من اتبع ديانة وضعية من صنع البشر وافقت الأديان السماوية في بعض القيم والتعاليم وخالفتها في كثير من مبادئها خاصة في مجالي المصدرية والغاية، ومنهم من أنكر وجود الخالق ونسب الوجود إلى الطبيعة وإلى الصدفة، وهذا النوع صادم الفطرة فأفسد دنياه وخسر آخرته، وأما المؤمنون بالأديان السماوية فمنهم من وقف عند رسالة معينة وأنكر ما بعدها مثل اليهود والنصارى، ومنهم من آمن بكل رسالات الله إلى أهل الأرض وصدق بكل ما جاءوا به وهم المسلمون، وقد بينا موقف الإسلام من أصحاب الديانات السماوية الذين أنكروا الرسالة الخاتمة وهم أهل الكتاب، وموقف الإسلام من الديانات الوضعية.

(١) سورة البينة، الآية (٥).

المطلب الثاني

الحضـــــــــــارات

الفرع الأول: تكون الحضارات

يرى ابن خلدون[1] أن الحضارة طور من أطوار الحياة الإنسانية؛ فطور الدولة أولها بداوة، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال، والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل...فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك، وأهل الدول أبدا يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم[2]

علماء الأجناس يقسمون الجنس البشري إلى ثلاث عائلات رئيسة: العائلة الآرية والعائلة السامية والعائلة الحامية.

فالجنس الآري: يمثله بصورة عامة الشعوب التي تتكلم إحدى اللغات

(١) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم ولي الدين الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري المالكي المعروف بابن خلدون، ولد في أول رمضان سنة (٧٣٢هـ) بتونس وحفظ القرآن ثم قدم إلى مصر سنة (٧٨٤هـ)، توفي سنة (٨٠٨هـ) ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر. محمد بن علي الشوكاني المتوفي سنة (١٢٥٠هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، وضع حواشيه خليل المنصور، ج١، ط١، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٩٨٩، ص٢٣٥

(٢) مقدمة ابن خلدون لعبدالرحمن محمد بن خلدون، دار الكتاب العربي، ط١(٢٠١٥م) دمشق – القاهرة . ص(٢١٨)

الهندوأوربية، واللغات الهندوأوربية هي اللغة السنسكريتية[١] واللغة الفارسية واللغة اليونانية واللغة اللاتينية واللغة الجرمانية، وفي ضوء هذا فإن الجنس الآري تمثله شعوب عديدة، هي: مجموعة الشعوب الاسكندنافية في شمال أوروبا، كما تمثله في وسط أوروبا شعوب ألمانيا والمجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا، كما تمثله إيطاليا واليونان في الجنوب، ثم شعوب آسيا الصغرى وبلاد فارس[٢].

والجنس السامي: يطلق على مجموعة الشعوب التي تنتسب إلى سام بن نوح، كما هو وارد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين في التوراة، وهو إصحاح يسجل سلاسل أنساب تنحدر من أبناء نوح عليه السلام، وتنتسب إلى الجنس السامي مجموعة الشعوب التي تقطن أو كانت تقطن الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين وأرض الرافدين، هذا في القارة الآسيوية، أما في أفريقيا فإنه لا يوجد بين شعوبها من ينتسب إلى الجنس السامي سوى سكان إثيوبيا (الحبشة)[٣].

والجنس الحامي: يرتبط بأصحاب البشرة السوداء، وتتمثل هذه الخاصية أكثر ما تتمثل في القارة الأفريقية[٤].

تولد الحضارات: حضارة الإنسان ولدت في أودية أنهار معلومة كلها تقع في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية: في وادي النيل، وفي وادي الفرات، وفي وادي

(١) السنسكريتية لغة من أقدم اللغات الهندية، وهي لغة طقوسية للهندوسية والبوذية واليانية، وقد ظهرت في المنطقة الشمالية الغربية من شبه القارة الهندية، ثم انتشرت جنوبًا وشرقًا، ووصلت إلى ذروتها في الألف الأولى بعد الميلاد؛ إذ صارت لغة الثقافة والشعائر الدينية في معظم جنوب شرق آسيا.

ينظر: موقع المعرفة: www: marefa. Org.

(٢) قصة الحضارة لوول ديورانت.

(٣) مراكز الحضارة الإسلامية (مواطنها – أطوارها - روادها) للدكتور حامد غنيم أبو سعيد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، جمهورية مصر العربية، القاهرة، الإسكندرية، ط(١)، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، (ص٢٨).

(٤)مراكز الحضارة الإسلامية، حامد غنيم أبو سعيد، ص٢٩.

الأندلس (الهند)، وفي وادي النهر الأصفر (الصين).

هذه الحضارات التي ولدتها عبقرية الإنسان نورتها عقائد الدين.

والأديان وثقافات الإنسان أثمرت مجموعة من الحضارات المميزة، تصدى المؤرخون لدراستها، وكان المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون أول من حاول تصنيفها وتحديد عوامل تكوينها وتحللها، وهذا الأسلوب طوره المؤرخ آرنولد توينبي في كتاب (دراسة التاريخ) واستطاع أن يحدد وجود ست حضارات مميزة في تاريخ الإنسان، وهذا التصنيف لا يعني أن هذه الحضارات مستقلة عن بعضها تماما؛ إذ لا توجد حضارة مستقلة تمامًا، بل كلها متداخلة مؤثرة ومتأثرة[1].

إن كلمة الحضارة من أكثر الكلمات استخداما في عالمنا المعاصر، وبخاصة في النصف الأخير من القرن العشرين، وبالرغم من هذا الاستخدام الواسع لهذه الكلمة فإنه لا يوجد إجماع عالمي على تعريفها، ولا يقتصر الاختلاف على التعريف فقط، ولكن بقيت العديد من الأسئلة حولها تحتاج إلى إجابات، مثل: ما مقومات الحضارة؟ وما عناصرها؟ وما علاقة الحضارة بالتمدين أو المدنية؟ وما الفرق بين الحضارة والثقافة؟ وما الفرق بين هذه المعاني في المصطلحات الغربية وغيرها من اللغات وخاصة اللغة العربية؟

الحضارة والمدنية: الترجمة العربية للكلمة الإنجليزية Civilization والتي تعود لغويًا إلى الجذر اللاتيني Civilities، وتعني المدنية أو التمدين، وهي بذلك ترتبط بنمط حياة الإنسان في المدن، وليس في الغابات أو في البادية، وهذا وجه من الوجوه.

كما أن لها علاقة باللفظ Civis، ويعني ساكن المدينة في تمييز بين الإنسان الروماني ساكن المدينة وبين البربري ساكن البراري[2].

(١) تحديات التسعينات (ص١٣) بتصرف.

(٢) تحديات التسعينات (ص١٥).

ويقال إنها رقة طباع شعب وعمرانه ومعارفه المنتشرة بحيث يراعي الفائدة العلمية العامة[١].

فالحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، ويتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون[٢].

بينما يعتبر الألمان الحضارة مفهومًا مقصورًا على التقدم المادي[٣].

وفي المفهوم الإسلامي فإن الحضارة لا تقف عند الحَيِّز المكاني ولا العوامل المادية، فالحضارة الإسلامية تقوم على أسس عقدية وأسس اجتماعية وأسس أخلاقية مع السمو بالإنسان عن كل ما يشين حياته من المحظورات والموبقات[٤].

وهي حضارة أسهم فيها أهل المدن وأهل البادية، ونقلوها لكل أرجاء العالم.

إنّ الغرب يعتبر أن المدينة هي نهاية التطور، وهي حالة الانتقال من الشر إلى الخير ومن الجهل إلى الثقافة والعلم والتقدم ودخول التاريخ، والحقيقة أن قراءة التاريخ المحايدة تقول: «إن الأفكار جاءت فبنت المدن وأقامت فيها العمران البشري والمادي وليس العكس»[٥].

الحضارة والثقافة: القاموس العربي ربط بين الحضارة والثقافة والمدنية

(١) الحضارة المدنية.. اختلاف الدلالات باختلاف الحضارات للدكتور نصر محمد عارف، أستاذ مشارك، جامعة جورج تاون، إسلام أون لاين: www. Islamonline. net.

(٢) قصة الحضارة.

(٣) الحقيقة الكونية للحضارات للدكتور محمود الزهار، روابي القدس للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان، ط(١) ٢٠١١م، (ص١٦).

(٤) الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة–مصر، ١٩٩٧م، (ص٣).

(٥) الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة (ص١٧).

بدخول القرن العشرين، بينما اقتصر القاموس الإنجليزي على كلمتي الحضارة والثقافة، ومن هنا كان اختلاف المفاهيم.

جاء في شعر العرب قول القطامي:

وَمَن تَكُنِ الحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيُّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا[1]

إن كلمة ثقافة في اللفظ الانجليزي هي Culture، وهي كلمة من اللاتينية من فعل Colere بمعنى حرث ونما، ثم تطورت لتعني: مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات[2].

وأما جذر الثقافة في لغة العرب من «ثقف» بمعنى فهم وضبط وأجاد ما يعلمه وما يعمله، وهي تعني فطن ذكي ثابت المعرفة بما يريده[3] و«ثقف» في القرآن الكريم تعني أدركه وظفر به أي أمسكه، قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[4].

وفي الواقع أنه لا يوجد تعريف محدد للثقافة يمكن جمع العالم عليه، فهي عبارة واسعة الدلالة فضفاضة، يمكن إسقاط معانيها على العديد من القيم والسلوك لدى المجتمعات، وأذكر هنا مجموعة من التعريفات:

الثقافة هي كل النشاط في المجتمع الواسع، كاللغة والزواج والملكية والسلوك ومنظومة القيم الاجتماعية الأصيلة.

فالثقافة هي المُرَكَّب المتجانس من الذكريات والتطورات والقيم والرموز والتغيرات والابداعات التي تحتفظ بها الجماعة البشرية بهويتها الحضارية».

(١) فجر الإسلام (ص١٥).

(٢) الحقيقة الكونية (ص١٩).

(٣) نفسه.

(٤) سورة النساء، الآية (٩١).

والثقافة نمط من الحياة التي يشارك فيها المرء مع أناس آخرين، أي أنها تكيف المرء تكيفًا مناسبًا مع محيطه ومع حاجاته».

كما تعرف بأنها كل نشاط أو تظاهرة جسدية من التظاهرات الشخصية، بشرط ألا يكون ذلك غريزيًّا، ولا من فعل الارتكاز الذي يتم بصورة آلية.

والثقافة هي الأنماط المتميزة من الوعي والسلوك ومنظومات قيم وقواعد اجتماعية وعقلية مرتبطة بالحقيقة والبيئة والظروف العامة.

والمثقف: «هو الإنسان الذي يستطيع أن يُكَوِّن لنفسه رؤية وموقفًا من الناس بالدرجة الأولى ومن المجتمع بالدرجة الثانية ومن الطبيعة والكون بالدرجة الثالثة، ويستطيع أن يعبر عن هذه الرؤية وهذا الموقف برموز الكلمات والألوان والأصوات»[(١)].

وعلاقة الثقافة بالحضارة علاقة الجزء بالكل، فالثقافة جزء من الحضارة؛ لأن الحضارة مرحلة متقدمة من النمو الفكري والثقافي والمادي في المجتمع الإنساني، والحضارة صنع محلي لا يستورد، ولكن منتجاتها يمكن أن تعمم، يقول مالك بن نبي: «الحضارة هي الأم التي تلد أبناءها، والأبناء لا يلدون أمهاتهم»[(٢)].

فهنالك عدة مصطلحات متداخلة، وهي بمجموعها تكَوِّن الحضارة، ففضلا عن الثقافة هنالك مصطلحات التقدم والنهضة والمدنية، فالتقدم دلالته اللغوية تعني السبق والسير إلى الأمام وتحقيق درجة من النجاح في عمل من الأعمال، وفي المصطلح الحضاري يدل التقدم على قطع مرحلة معقولة في طريق البعد عن الحياة البدائية التي كانت تعيشها الإنسانية في مراحلها المبكرة، أو أنها الحلقة الأولى في سلسلة متعددة الحلقات، وحلقتها الأخيرة الحضارة[(٣)].

(١) الحقيقة الكونية للحضارات (ص٢٠-٢١) بتصرف.

(٢) السابق (ص٢٠-٢٥) بتصرف.

(٣) مراكز الحضارة الإسلامية (ص١٥).

ومصطلح النهضة في مدلوله الاجتماعي الأوروبي يطلق على حركة إحياء الفنون والآداب، وهي الحركة التي كانت سائدة في أوروبا إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، وكانت هذه الحركة تعتمد في إحيائها للفنون والآداب على ما خلفته الحضارة اليونانية القديمة والحضارة الرومانية، ويبدو أن هذا الاصطلاح قد تطورت دلالته بعد ذلك، ومع عدم إغفال الفروق الموضوعية بين أوروبا والعالم الإسلامي، فإن عصر النهضة في أوروبا من الممكن أن يقابله في العالم الإسلامي ذلك العصر الذي تميز بحركة الترجمة ونقل التراث الذي خلفته الحضارات السابقة إلى اللغة العربية، تلك الحركة التي بدأت في القرن الثاني الهجري وبلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري، وبتفاعل هذا التراث مع العقلية العربية وغيرها من العقليات وتحت مظلة العقيدة الإسلامية أخذت تتشكل معالم الحضارة الإسلامية بالمفهوم الشائع[1].

وأما عن المدنية، فيوجد اتجاهان لمفهومها:

اتجاه يقول: «إن المدنية تتصل بالجانب المادي المحسوس من الحياة، وما يتصل به من قواعد ونظم وتقاليد، وبهذا التحديد فإنّ المدنية تعادل الثقافة، بمعنى أن المدنية تتجه إلى الجوانب المادية للحياة، على حين تتجه الثقافة إلى الجوانب المعنوية، ومن الجانبين تتألف الحضارة»، هذا الاتجاه الأول.

وأما الاتجاه الثاني: فإنه يرى في المدنية مصطلحًا مساويًا في دلالته لمصطلح الحضارة[2]، وأغلب الدارسين يميلون للاتجاه الثاني.

وبناءً على ما سبق، فإن العالم شهد حضارات متعددة عبر التاريخ، فلكل أمة حضارة تعبر عن معتقداتها وثقافاتها وخصوصياتها، وكان للدين أثر واضح في تكوين الحضارات، وتتميز كل الحضارات العريقة والمستمرة في العالم بصنعها لتاريخ محلي في الأساس، مثل: نزول الوحي أو ظهور داعية أو مصلح أو نشوء

(١) السابق (ص١٥-١٧) بتصرف.

(٢) السابق (ص١٨-١٩) بتصرف.

ثورة أو انقلاب أو حدوث انتخابات تاريخية تغير صورة الواقع السياسي[1].

لقد استفادت كل حضارة من الحضارة التي سبقتها أو عاصرتها، بحكم التواصل الجغرافي والاحتكاك والتبادل، والحضارة الإسلامية ساهمت مساهمة كبيرة في نقل منجزات الحضارات التي سبقتها بعد تنقيحها وتهذيبها في العصر الذهبي للدولة الإسلامية، وأضافت إلى الإنسانية منجزات الحضارة الإسلامية في مجالات متعددة، منها: ترسيخ مفهوم التسامح والتعايش مع الآخر، وصيانة كرامة الإنسان بغض النظر عن معتقده أو لونه أو ثقافته، كذلك أسهمت الحضارة الإسلامية إسهامًا كبيرًا في اكتشافات العلوم، مثل: الطب والفلك والرياضيات وغيرها.

أما أمة الإسلام -فبالرغم من الدور الذي حققته من تهذيبٍ لمسيرة الحضارات الإنسانية سابقًا- فقد تراجعت عن هذا الدور؛ لعدة عوامل سياسية وفكرية وثقافية، فقد تخلت أمة الإسلام عن منهج الإسلام في الحكم، فتحَوَّل من حكم يقوم على الشورى والعدل ورعاية مصالح الأمة، إلى حكم يقوم على التَّغَلُّب والقهر والظلم وإهمالٍ لمصالح الأمة، كذلك حققت أمة الإسلام أكبر نهضة حضارية بترسيخ منهج الاجتهاد والتلاقح الحضاري والحوار، مما زود الإنسانية بمعارف وعلوم خَطَت بمسيرة الإنسانية للأمام، إلا أنها تراجعت عن هذا الدور بسبب الجمود والتقليد والتبعية، فضلا عن الاستبداد في الحكم، الذي يقتل الابداع في الإنسان كما يقول الكواكبي[2].

وخلاصة مفهوم الحضارة: أنها مجموعة القيم المعنوية والإنجازات المادية التي تشكل في مجموعها واقع أمة وصلت في مضمار التقدم والرقي وسيطرة

(١) الحقيقة الكونية للحضارات (ص٥٧) بتصرف.

(٢) عبد الرحمن الكواكبي: أحد رواد النهضة العربية الحديثة، ولد في حلب عام ١٨٥٥م، وتوفي عام ١٩٠٢م، من أشهر كتبه كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، شخص فيه حال الأمة وأرجع تخلفها إلى الاستبداد السياسي.

الإنسان النابعة من إبداعه الخلاق إلى درجة عالية، بالقياس إلى مستوى العصر الذي تعيش فيه الأمة[1].

والتعريفات السابقة -وإن لم تتفق على معنى محدد للحضارة- اتفقت بأن الحضارة هي ثقافة شاملة، تشمل الجوانب العقائدية والاقتصادية والاجتماعية، وتضم قوميات متعددة وأعراق مختلفة، فالحضارة الإسلامية مثلًا لو اتحدت لضمت إليها أجزاء واسعة من العالم تشمل العربي والأفريقي والإيراني والتركي والإندونيسي والدول المسلمة في الاتحاد السوفيتي السابق، وتضم دولًا مثل: ماليزيا وباكستان وأفغانستان ودولًا في أمريكا الجنوبية، وتجد فيها المسلم الأمريكي والمسلم الروسي والمسلم الصيني وهكذا[2].

والحضارة الصينية لها امتدادات في كثير من الدول حولها، والحضارة الغربية الكاثوليكية تضم قارة أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية والوسطى وأستراليا وغيرها.

والحضارات الحية اليوم تضم سبع كتل:

الكتلة الغربية الكاثوليكية والكتلة الغربية السوفيتية والكتلة الصينية والكتلة الهندية والكتلة اليابانية والكتلة الأفريقية والكتلة الإسلامية.

وسنتحدث عن الحضارة الغربية والحضارة الصينية والحضارة الهندية باعتبارها نماذج للتداخل والتقاطع مع الحضارة الإسلامية مع التركيز على الحضارة الغربية؛ لأنها من أكثر الحضارات تقاطعًا مع الحضارة الإسلامية تاريخيًّا وحاضرًا وربما مستقبلًا ، وباعتراف مفكريها بذلك، ولم نتعرض للحضارة الأفريقية باعتبار أن كثيرًا من الدول العربية الإسلامية تقع في قارة أفريقيا، وقد دخلت حضارتها الأفريقية في الحضارة العربية الإسلامية، كما أن الحضارة

(١) مراكز الحضارة الإسلامية (ص٢١).

(٢) الحقيقة الكونية للحضارات (ص١٣٧) بتصرف.

الأفريقية لا يوجد بينها وبين الحضارة الإسلامية صراعٌ -كما هو الحال بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية-، والحضارة الأفريقية لم تتبلور بصورة واضحة تبين أهم مبادئها وقيمها وأفكارها، فتسهل على الباحث تناولها، وإنما توجد شذرات هنا وهناك.

الفرع الثاني: الحضارة الغربية

تتكون الحضارة الغربية من الجذور اليونانية والرومانية والمسيحية الكاثوليكية واليهودية التلمودية، وهي حضارة تسيطر عليها فكرة الصراع مع الآخر،[1] ولا شك أن العلاقة التاريخية بين الطائفتين الكاثوليكية والبروتستناتية مفعمة بالخلافات الدموية، إلا أن القرن الحادي والعشرين يشهد تحالفًا بينهما تجاوز مرارات الصراع التاريخي[2]، فضلا عن المفاهيم الجديدة التي جاء بها مفكرون غربيون بعد صراع مع المفاهيم الكنسية، وتبلورت تلك المفاهيم في العلمانية والحرية في معانيها المختلفة ونظرية العقد الاجتماعي والديمقراطية، وتعتبر هذه المفاهيم هي القيم المؤسسة للحضارة الغربية الحديثة.

والسمات الجاذبة في الحضارة الغربية الأطلسية (أوروبا وأمريكا) هي أنها استطاعت أن تحقق تقدمًا في عدة مجالات تتمثل في الآتي:

١- نظام اقتصادي رأسمالي، جعلته الثورة الصناعية منتجًا بصورة لم يعهد الإنسان لها من قبل مثيلًا .

٢- نظام حكم لبرالي في حدود دولة قومية، بدأت الحقوق السياسية فيها محصورة في نطاق ضيق، ثم اتسعت حتى شملت الشعب كله.

٣- يقظة ثقافية تطورت عبرها العلوم الإنسانية والاجتماعية والجمالية، بصورة فيها درجة من الحرية والحرص على التحصيل، لم يشهد الإنسان لها من

(١) الغرب والإسلام دراسة في الأصول العقائدية والثوابت الثقافية لرؤية الآخر (ص ١٩٦).
(٢) أنظر: الحقيقة الكونية للحضارات (ص ٢٧٧).

قبل مثيلًا .

٤- تطور في العلوم الطبيعية والتكنولوجيا يزداد بسرعة هندسية، ولا حدود لاكتشافاته وتسخيره لكل الطاقات المعروفة البخارية والكهربية والنووية.

٥- نظام دولي تطور مِن تنافس بين الدول الاستعمارية - خاضت بموجبه حربين في (١٩١٤- ١٩١٨) وفي (١٩٣٩- ١٩٤٨م)، بلغت درجة التدمير والوحشية فيهما مبلغًا لم يشهده الإنسان من قبل، حيث بلغ عدد القتلى فيهما من مدنيين وعسكريين خمسين مليون نفسٍ- إلى نظام الأمم المتحدة القائم، كما تطورت العلاقة بين الدول المحتلة القوية والدول الضعيفة من التسلط المباشر إلى الاستقلال السياسي وإقامة علاقات تعاقدية[1].

بالرغم من هذا التفوق الظاهري، فإن الحضارة الغربية تعاني من خلل أساسي، يتمثل في الآتي:

أولًا: الهيمنة، فالحضارة الغربية الحديثة قامت على قهر الشعوب الأخرى باستعمارها واستنزاف مواردها لصالح الغرب، والحضارة الغربية في عمومها تسعى لفرض رؤيتها على الآخرين وإجبارهم على الخضوع لهيمنتها.

ثانيًا: عدم الاعتراف بالخصوصية، وهو من أهم أسباب الصراع مع الآخر، فالحضارة الغربية لا تعترف للحضارات الأخرى بدور، بل حتى المواثيق الدولية يجب أن تؤخذ كما هي دون مراعاة لخصوصية الحضارات الأخرى.

ثالثًا: ازدواج المعايير، فالغرب لا يتعامل بمقاييس عادلة مع الشعوب غير الغربية، صحيح أن الدساتير الغربية تنص على كرامة الإنسان وصيانة حقوقه واحترام حريته الدينية والمدنية، ولكن عندما يكون التعامل مع الآخر غير الغربي فإن هذه المعايير لا تنطبق عليه، والشاهد على ذلك التعاملُ مع المواقف الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، ودعم الغرب لنظم مستبدة لا تلتزم بالمعايير

(١) تحديات التسعينات (ص١٥).

الديمقراطية ولا تصون حقوق الإنسان، يدعمها الغرب؛ لأنها تحافظ على مصالحه.

رابعًا: طغيان المادية، فالحضارة الغربية حققت نجاحًا في المجال التقني والعلمي والإداري، ولكنها أغفلت الجوانب الروحية والخلقية، وأعلت من الجوانب المادية، حتى صارت كل مظاهر الحياة مادية صرفة.

وعليه سنبحث فقه التنوع في ضوء رؤية الإسلام للتعامل مع الآخر، ونقارن ذلك بالحضارة الغربية من خلال القيم المُؤَسِّسَة والمواثيق الدولية والممارسة العملية.

الفرع الثالث: الحضارة الصينية

ترجع الحضارة الصينية إلى أحقاب سحيقة، تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ، ويرمزون إليها بقولهم: (سان خونج ووتي)، ومعناه: ثلاثة ملوك وخمسة سلاطين، أما أول الملوك الثلاثة فهو صوى تشين الذي عاش قبل التاريخ، وينسبون إليه اكتشاف عنصر النار بنظره إلى النجوم، وعاش الثاني (فوهى) من سنة (٢٨٥٢) قبل الميلاد حتى سنة (٢٧٣٨) قبل الميلاد، وقالوا: «إنه منظم علم التقويم وأكبر رجال الثقافة الصينية، فقد شرع نظام الزواج، وابتكر لأهل الصين ما يأكلون وما يشربون، وابتكر لهم آلاتهم الموسيقية، وغرس أشجار التوت، وعلمهم صناعة الحرير، واستأنس الحيوانات الضارية»، كما أنه أول من عرف عبادة الإله، وعاش بعده الملك شين نونغ فيما بعد سنة (٢٧٣٧) ق. م، وقالوا: «إنه اخترع الآلات الزراعية، واستخرج خواص النباتات الطبية»[(١)].

وفي القرن الثالث قبل الميلاد أطلق اسم الصين على البلاد التي جمع شملها ووحد قبائلها إينج تسنج أحد ملوك أسرة تسين (٢٤٦- ٢٠٧ق. م)، وفي عهده أقيم السد الأعظم المعروف بسور الصين العظيم، وهو إحدى عجائب الدنيا،

(١) الصين والعرب عبر التاريخ لمحمد محمود زيتون، كتاب اقرأ سلسلة ثقافية شهرية، دار المعارف-مصر، ٢٠١٦م، (ص٢٨-٢٩).

دعت إلى إنشائه ظروف العدوان الذي شنته على البلاد قبائل الهون عدة مرات على الحدود، وقد لمس العالم آثار الحضارة الصينية خلال ثلاثة قرون، هي عصر أسرة تانغ، وهي الفترة الواقعة ما بين (٦١٩م) وسنة (٩٠٥م)، حيث انتقلت صناعة الورق والبارود -كما يقول محمد تواضع في كتاب الصين والإسلام- إلى أوروبا عن طريق العرب، ثم إلى شمال أفريقيا وإسبانيا عقب موقعة تالاس التي دارت رحاها بين الصين والعرب، سنة ٧٥١م[١].

والحضارة الصينية تحدد هويتها الثقافية على أساس الجنس الصيني - الجنس والدم والثقافة - فكل من هو من أصل صيني يعتبر صينيًّا، وإن حمل جنسيات أخرى، وتستند الحضارة الصينية إلى البوذية التي يعتنقها أغلبية السكان في الصين وتايلاند ولاوس وبوتان وكمبوديا وسنغافورا ومنغوليا وكوريا الشمالية وميانمار (بورما)، وهذه الكتلة تشكل القوة السكانية في العالم، وتأتي أفضليتها الحالية من انضواء أكبر عدد من سكانها تحت نظام سياسي واحد، وتتميز بقوة اقتصادية كبيرة ومنعة عسكرية عظيمة، ودور سياسي دولي مؤثر من خلال عضويتها الدائمة في مجلس الأمن الدولي[٢].

والمسلمون عرفوا الصين منذ وقت مبكر، ففي سنة ٩٦هـ (٧١٥) وبأمر من الوليد ابن عبد الملك، تحرك القائد قتيبة بن مسلم الباهلي على رأس جيش كبير من المسلمين إلى خراسان وما وراء النهر، ثم استراح بمرو، ثم زحف إلى بيكند، ثم كاشغر، ففتح بلاد الصين من الغرب، واستولى على المدن الصينية (الصغد ورامتين وبخارى وواردن وكش)، حتى دخل سمرقند فسجد شكرا لله على ما فتح عليه، وأمر بإقامة أول مسجد بها، كما أقام مسجد قتيبة في بخارى، وانتشر الإسلام في أرجاء التركستان الصينية، ثم الشمال الغربي للصين[٣].

واستمر جيش قتيبة يتوغل في الصين، حتى اضطر ملك الصين أن يعقد معه

(١) السابق (ص٢٩-٣٠).

(٢) الحقيقة الكونية للحضارات (ص٢٥٨) بتصرف.

(٣) الصين والعرب عبر التاريخ (ص٣٧-٣٨) بتصرف.

صلحًا، وتروي كتب المؤرخين والرحالة قصة طريفة خلاصتها:

أنَّ قتيبة أرسل وفدا لملك الصين بقيادة هبيرة بن مشمرج الكلابي، فلما حَلُّوا في ضيافة ملك الصين كانوا يدخلون عليه كل يوم بهيئة مختلفة، فلما سألهم عن ذلك؟ قالوا له: «الهيئة الأولى هيئتنا مع أهلينا وأسرنا، وهيئتنا الثانية لاستقبال ضيوفنا، وهيئتنا الثالثة للقاء عدونا! » فتعجب ملك الصين من دهائهم وحكمتهم، وطلب منهم الخروج من بلاده، وهددهم بالقضاء عليهم، ولكن قائدهم قال له: «نحن لم نخرج من بلادنا إلا لإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة»، وذكر له أن قتيبة أقسم ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية، فلما سمع الملك هذه اللهجة القوية قال لهم: «نحن نخرج قائدكم من يمينه، فنبعث له تراب أرضنا فيطؤه، وبعض أبنائنا فيختمهم، ونعطيه الجزية التي يرضاها»، فقبل قائد الوفد، وكتب إلى قتيبة بذلك، وفي هذا الموقف قال سواد بن عبد الملك السلولي يخاطب قتيبة ويشجعه على قبول العرض:

لا عَيْبَ في الوَفدِ الذين بَعَثْتَهُم ... للصين أَن سَلَكُوا طَرِيقَ المنْهَجِ

كَسَرُوا الجُفُون على القَذَى خَوْفَ ... الرَّدَى حَاشَا الكَرِيمَ هُبَيْرَةَ بن مُشَمْرَج

أَدَّى رِسَالَتَكَ التي اسْتَدْعَيْته ... فَأَتاكَ مِن حَنثِ اليَمِينِ بِمَخْرَجِ

لَمْ يَرْضَ غَيْرَ الخَتْمِ فِي أَعْنَاقِهِم ... وَرَهَائِنَ دُفِعَت بِحَمْلِ سَمَرَّج[1]

ولكن هذا الفتح توقف نتيجة للتغيرات التي حدثت في الخلافة الأموية بعد وفاة الوليد بن عبد الملك وتولي سليمان بن عبد الملك[2]، فتغيرت السياسة وقتل محمد

(١) الصين والعرب عبر التاريخ (ص٣٨-٤٢) بتصرف.

(٢) سليمان بن عبدالملك، خليفة أموي أسس مدينة الرحلة بفلسطين، اشتبك في معارك كثيرة مع البيزنطينيين وحاصرت جيوشه عمورية دون جدوى، وفي عهده فتحت جرجان، طبرستان، وكانت في أرض الترك، توفي في دابق في أرض قسرين بين حلب ومعرة النعمان، سنة ٩٩هـ، الطبري، مرجع سابق بتصرف ٨/ ١٢٦.

بن القاسم فاتح السند الذي يتبع له قتيبة، ونكل بقتيبة، فعزله، وأَمَّر على جيشه وكيعًا، فتقاتلا، فقُتِل قتيبة ومعه الكثيرون من أهل بيته وخلصائه، ونتيجة لذلك حدث الانشقاق في صفوف الجيش الفاتح، ووهنت عزائمهم عن المضي نحو المشرق الأقصى، فانحسرت هذه الموجة عن بلاد الصين، لكن آثارها لم تزل منذئذ باقية[1].

والحضارة الصينية تستند إلى تاريخ عريق، سَجَّلَه الرحالة المسلمون في كثير من الكتب مثل: مروج الذهب، وعجائب البلاد، ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر، وخريدة العجائب وفريدة الغرائب، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وغيرها من المؤلفات التي سجلت كثيرًا من مظاهر الحضارة الصينية، ومما يدهش له أن الرحالة والعلماء المسلمين كانوا يستوثقون من الأخبار، ولا يأخذونها على علاتها، فذكروا الشعوب واللغات الصينية والديانات، يقول المسعودي: «إن مذهبهم المانية -أي المانوية أتباع ماني- والسمنية»، وذكر أن عبادتهم تشبه عبادات قريش قبل الإسلام، إذ يسجدون للأصنام، أما عقلاؤهم فإنهم يعبدون الخالق، ويتخذون مع ذلك تماثيل من الصور والأصنام، وذكر أن ملوكهم ذوو آراء ونِحَل متعددة، إلا أنهم - مع اختلاف أديانهم- غير خارجين عن أحكام العقل والحق في إقامة القضاة والحكام وانقياد الخواص والعوام لذلك[2].

والصين في هذا العصر صارت قوة عظيمة، ونالت مقعدًا دائمًا في مجلس الأمن، وفي العقود الأخيرة حدث انفتاح منها على الدول العربية، ووقعت اتفاقيات لتبادل المصالح، والشعور العام عند المسلمين -خاصة في الدول العربية- أن الصين ليست لديها مطامع في بلاد المسلمين، ولا توجد خطورة في التعامل معها -رغم النهج الشيوعي الذي تلتزم به-، كما أنها لم تظهر لها أجندات خفية، ولم يُرْصَد لها أي تحرك لنشر أيديولوجيتها في البلاد الإسلامية، لذلك يمكن أن تكون الصين حليفًا للدول الإسلامية لتبادل المنافع المشتركة، فالصين دولة ذات امتداد

(١) السابق (ص٤١-٤٢) بتصرف.

(٢) الصين والعرب عبر التاريخ (ص١٢٠) بتصرف.

حضاري أصيل وثقافة مميزة وشعب عامل ونشط ومزدهر اقتصاديًا، وهي متطلعة للتواصل الثقافي مع الغير، وتدرك أن مصالحها الاقتصادية مستهدفة ومهددة من الغرب، والدول الإسلامية تشاركها نفس الإحساس في أنها مستهدفة ثقافيًّا وحضاريًّا واقتصاديًّا، ولذلك فإن الحل الأمثل لهاتين القوتين الكبيرتين هو التعاون من أجل مصلحة واحدة، للحد من تأثير الغرب عليهما[1].

لقد تخلت الصين عن برنامج تصدير الثورة، واتجهت إلى الالتزام بعدم التدخل في شئون البلاد الأخرى الداخلية ومواصلة التعاون الاقتصادي مع الآخرين على أساس المصلحة المشتركة[2].

الفرع الرابع: الحضارة الهندية

شبه القارة الهندية عالَمٌ قائم بذاته، يعزله عن بقية قارة آسيا جبال الهملايا الشامخة، التي تعرف بسقف الدنيا، وتتفرع منها في الشرق جبال آسام، أما في الغرب فيتفرع منها جبال الهندكوش حتى الشاطئ جنوبًا، وفيما عدا ذلك فالبحر من ورائها محيط[3].

وقد عرف المسلمون الهند في وقت مبكر، روى البلاذري أنه لما وُلِّي عثمان بن عفان الخلافة، وَوَلَّى عبد الله بن عامر بن كريز العراق، كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه بخبره، فوجه حكيمَ بن جبلة العبدي، فلما رجع أوفده إلى عثمان، فسأله عن حال البلاد فقال: «يا أمير المؤمنين قد عرفتها» قال: «فصفها لي»، قال: «ماؤها وَشَل[4] وثمرها دقل[5] ولصها بطل، إن

(١) الحقيقة الكونية للحضارات (ص٣٧٢-٣٧٣) بتصرف.

(٢) تحديات التسعينات (ص٤٠) بتصرف.

(٣) الحقيقة الكونية للحضارات (ص٢٧٠).

(٤) الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره، وقيل: لا يكون ذلك إلا من جبل. ينظر: لسان العرب (١١/ ٧٢٥).

(٥) الدقل: أردأ التمر. ينظر: لسان العرب (٣/ ١٦٧).

قلَّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا». فقال عثمان: «أخابر أم ساجع؟» قال: «بل خابر» فلم يُغزِها أحدًا[1].

وفي أيام الوليد بن عبد الملك وجَّه الحجاجُ محمدَ بنَ القاسم الثقفي، فدخل السند وفتح ديبل ونيرانكوت المسماة الآن بحيدر أباد، وسار إلى راور، وأخيرا فتح ملتان، وكان محمد بن القاسم قائد الجيوش وفاتح هذه الفتوح فتى شابًّا لم يتجاوز العشرين، قال فيه القائل:

إنَّ المـــرُوءَة والسَّـــمَاحةَ والنَّـــدَى لِمحمـد بـنِ القاسـمِ بـن محمـد

سَاسَ الجُيُـوشَ لِسَـبْعِ عَشْـرَةَ حِجَّـةً يَالَقُرْبَ ذلك سُـؤْدَدًا مِـن مَوْلِـد![2]

وقد عَدَّ المسلمون الهنود إحدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة، وهي: الفرس والهند والروم والصين، قال الجاحظ فيهم: «اشتهر الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة»[3].

وذكر جماعة من أهل العلم والنظر أن الهند كانت قديم الزمان الغرة التي فيها الصلاح والحكمة، ثم أَلَمَّ بطرف من إلهياتهم ورياضتهم وألعابهم، إلى أن قال: «والهند في عقولهم وسياستهم وحكمهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان»[4].

وقال الأصفهاني في محاضرات الأدباء: «إنَّ الهند لهم معرفة بالحساب والخط الهندي وأسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء والرُّقَى وعلم الأوهام وخرط التماثيل ونحت الصور وطبع السيوف والشطرنج والحنكلة -وهي وتر واحد

(١) فتوح البلدان للبلاذري، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م، (ص٤٣٨).

(٢) ضحى الإسلام (١/ ٢٣٦).

(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق: الدكتور طه محمد الحاجري، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢م، (ص٣٧).

(٤) ضحى الإسلام (ص٢٣٩).

يُجْعَل على قرعة فيقوم مقام العود- ولهم ضروب الرقص والثقافة والسحر والتدجيل»[1].

والحضارة الهندية تعتمد على الهندوسية والبوذية والعقائد الهندية التي مرَّ ذكرها، وأبرزها عقيدة التناسخ، وفي مجال رؤيتهم للآخر فالهنود عندهم اعتداد بأنفسهم، بصورة لا يظنون أن في الدنيا أحدًا مثلهم، وكما قال البيروني: «يعتقدون في الأرض أنها أرضهم، وفي الناس أنهم جنسهم، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم، وفي الدين أنه نحلتهم، وفي العلم أنه ما معهم، وفي طبيعتهم الضَّن بما يعرفونه والإفراط في الصيانة له عن غير أهله منهم، فكيف عن غيرهم؟! »[2].

ولعل هذا كان في عصر البيروني، حيث كانت وسائل التواصل محدودة، لم تمكن الهنود من الانفتاح على العالم لمعرفة وجود شعوب مثلهم أو يتفوقون عليهم، ولكن الصورة التي وصفها البيروني تغيرت اليوم نتيجة للانفتاح والتعرف على الآخر.

لقد حدث تطور في العلاقات الإنسانية، فوسائل الاتصالات والمواصلات قربت الزمان، وأتاحت للشعوب فرص التلاقي والتعرف على الحضارات والثقافات المختلفة؛ بل حدث تبادل للمعرفة والخبرات، واستفادت الحضارات من بعضها حتى أصبح عالم اليوم يعرف بالقرية الكونية.

ومع أن الحضارة الإسلامية كان لها دور مهم في التواصل الحضاري – كما سبق بيانه – إلا أن واقع المسلمين اليوم قد تراجع بسبب الجمود الفكري والتخلف العلمي والاستبداد السياسي مما جعل المسلمين تلامذة على غيرهم تلمذة مقلدة وليست مبدعة.

(١) السابق (ص٢٤٠).

(٢) السابق (ص٢٤٢).

الفصل الثالث

تنوع الفرق والمذاهب في الإسلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الفرق الإسلامية.

المبحث الثاني: التنوع الفقهي والفكري.

المبحث الأول

الفرق الإسلامية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نشأة الفرق الإسلامية.

المطلب الثاني: المبادئ التي اختلفت فيها الفرق الإسلامية.

المطلب الثالث: تطور العلاقة بين الفرق الإسلامية.

المطلب الأول

نشـــأة الفـــــرق

الفرع الأول: أسباب تفرق الأمة

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وترك المسلمين أمةً واحدةً، مرجعيتهم القرآن والسنة، وقيادتهم السياسية واحدة، وقبلتهم واحدة، وليس بينهم نزاع أو خلاف جوهري، وفور وفاته ﷺ واجهت المسلمين بعض القضايا التي كان لها أثرٌ كبير على وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها.

وقد ذكر الشهرستاني عشر قضايا اختلف الصحابة فيها في آخر حياة النبي وبعد وفاته:

القضية الأولى: عندما أمرهم أن يأتوه بدواة وقرطاس، ليكتب لهم كتابًا لئلا يضلوا بعده، فقال عمر بن الخطاب: «إن رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله»، وكثر اللغط، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع»[1].

القضية الثانية: اختلافهم في تسيير جيش أسامة.

القضية الثالثة: اختلافهم في موته ﷺ.

القضية الرابعة: اختلافهم في موضع دفنه ﷺ، حيث أراد المهاجرون أن يحملوه ليدفن في مكة، وأراد الأنصار دفنه في المدينة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١١٤)، كتاب العلم، باب كتابة العلم، (١/ ٣٤)، ومسلم في صحيحه برقم (١٦٣٧)، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، (٣/ ١٢٥٩).

القضية الخامسة: اختلافهم في الإمامة.

القضية السادسة: اختلافهم في ميراث النبي ﷺ.

القضية السابعة: اختلافهم في قتال مانعي الزكاة.

القضية الثامنة: اختلافهم في تنصيص أبي بكر على عمر بالخلافة وقت الوفاة.

القضية التاسعة: اختلافهم في الشورى واختلاف الآراء فيها، خاصة في خلافة عثمان.

القضية العاشرة: اختلافهم في بيعة علي ﷺ، وما ترتب عليها من آثار.

كانت أهم هذه القضايا: قضية الخلافة، ثم قضية الولاء للخليفة، حيث قال الشهرستاني: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة؛ إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان»[1].

ثم جاء الاختلاف في التعامل مع المستجِدَّات التي لم يرد فيها حكم صريح في الكتاب والسنة، ومنها الاختلاف في منهج التعامل مع المخالفين في الملة من أصحاب الديانات الأخرى، والتعامل مع المسلم المخالف في الاجتهاد، وغير ذلك من القضايا التي كان لها أثر كبير في مجتمعات المسلمين؛ حيث أدت إلى نشوب حروب بين المسلمين لا زالت تلقي بظلالها على التعايش السلمي بينهم.

إن اختلاف المسلمين إلى فرق لا يسقط عنهم صفة الإسلام، يقول الدكتور البوطي: «ومستند الأئمة في ذلك ما صح عن رسول الله من أن من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، وردت بذلك أحاديث صحيحة كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي:

١. من ذلك ما رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**من لقي الله لا يشرك به**

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٢).

شيئًا حرمت عليه النار»، زاد البخاري: «**صادقًا من قلبه**»[1].

٢. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «.. **أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشـهد أني رسول الله، لا يلقى اللهَ عبدٌ بهما إلا حُجِبَتْ عنه النار يوم القيامة**»[2].

ولكن يُشْكل على ما ذُكِر الحديثُ الذي رواه أصحاب السنن من حـديث أبـي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقـة، وتفرقـت النصارى عن اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[3].

وفي الحديث أيضًا «**كلهم في النار إلا ملة واحدة**»، قالوا: «**مـن هـي يـا رسـول الله؟** » قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[4].

ومن العلماء من ينكر هذه الزيادة ويضـعفها، إلا أن هـذه الزيـادة لم ينفـرد بهـا

(١) كذا عزاه الدكتور البوطي للشيخين البخاري ومسلم، وقد بحثت عنه بلفظه فيهما فلم أعثـر عليـه، ثم وجدت الإمام السبكي ذكره في طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ٣٦٤) في فصل بعنوان: (جميع مـا في كتاب الإحياء من الأحاديث التي لم أجد لها إسنادًا)، فهو حديث ضعيف جدًّا، لا أصل له، والله أعلم.

(٢) أخرجه النسائي في سننه برقم (٨٧٤٢)، كتاب السير، باب جمع زاد الناس إذا فنـي زادهـم، وقسـم ذلك كله بين جميعهم، (٨/ ١٠٢)، وأخرجه أيضًا الإمام أحمد في مسـنده بـرقم (١٥٤٤٩)، مسـند المكيين، حديث أبي عمرة الأنصاري، (٢٤/ ١٨٤)، وقوى محققو المسند إسناده.

(٣) عزاه البوطي لأصحاب السنن، والمقصود بأصحاب السنن: أبو داود والترمـذي والنسـائي وابـن ماجه، لكن النسائي لم يخرجه، وأخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٥٩٦)، كتاب السنة، باب شـرح السنة، (٤/ ١٩٧)، والترمذي في سننه برقم (٢٦٤٠)، أبواب الإيمان، ما جاء في افتراق هذه الأمة، (٥/ ٢٥)، وقال: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، وفي البـاب عـن سـعد وعبـد الله ابـن عمرو وعوف بن مالك»، وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٩١)، كتـاب الفـتن، بـاب افتـراق الأمـم، (٢/ ١٣٢١).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٦٤١)، أبواب الإيمان، ما جاء في افتراق هـذه الأمـة، (٥/ ٢٥)، وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه».
وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي: ضعيف.

الترمذي، فقد رواها بألفاظ قريبة أبو داود من حديث معاذ ﷺ[1][2]، ورواها ابن ماجه[3] من حديث عبد الله بن عباس[4]، ومن ثم فإن المشكلة قائمة لا تزول برد هذه الزيادة اعتمادًا على القول بعدم ثبوتها[5].

لقد أدى تأويل هذه الأحاديث إلى خلافات كبيرة بين المسلمين، حيث ادعت كل فرقة أنها الفرقة الناجية، والعلماء اختلفوا في تفسير أحاديث الفرقة الناجية، ما المقصود بها؟

ويرى الباحث صحة ما ذهب إليه الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي من أن المراد بالأمة في قوله ﷺ: «**وتفترق أمتي**» أمةُ الدعوة لا أمةُ الاستجابة، وكل الذين وُجِدُوا بعد بعثة رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة هم من أمة الدعوة، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، يراه أقرب إلى الصواب؛ لأنه وفَّق بين الأحاديث المتعارضة.

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن: صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلّى الله عليه وسلم، أسلم وهو فتى، وآخى النبي صلّى الله عليه وسلم بينه وبين جعفر بن أبي طالب، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وبعثه رسول الله، بعد غزوة تبوك، قاضيًا ومرشدًا لأهل اليمن، سير أعلام النبلاء ط الحديث (٣/ ٢٦٩)، الأعلام للزركلي (٧/ ٢٥٨).

(٢) كذا قال الدكتور البوطي، وإنما هو من حديث معاوية بن أبي سفيان، أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٥٩٧)، كتاب السنة، باب شرح السنة، (٤/ ١٩٨)

(٣) ابن ماجة: (٢٠٩-٢٧٣هـ): محمد بن يزيد الربعي القزويني، أبوعبدالله ابن ماجة أحد الأئمة في علم الحديث، من أهل قزوين رحل البصرة، وبغداد والشام ومصر الحجاز في طلب الحديث وصنف كتاب سنن ابن ماجة وهو أحد الستة المعتمدة وله تفسير القرآن، وكتاب في تاريخ قزوين. انظر في الأعلام ٧/ ١٤٤.

(٤) كذا قال الدكتور البوطي، وإنما هو حديث عوف بن مالك، أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٣٩٩٢)، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، (٢/ ١٣٢٢).

(٥) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط(٦) ١٤٣٨هـ، ص (٢٤).

الفرع الثاني: أهل السنة

أهل السنة هم أهل الحق، كما سماهم الجرجاني في قوله: «أهل الحق القومُ الذين أضافوا أنفسهم إلى ما هو الحق عند ربهم، بالحجج والبراهين، يعني أهل السنة والجماعة»[(١)].

أما البغدادي فقد عدها الفرقة الثالثة والسبعين، وهي الفرقة الناجية؛ لأنها من فريقي الرأي والحديث دون من يشتري لهو الحديث[(٢)].

أما صاحب مفتاح السعادة فيقول عن أهل السنة والجماعة: «اعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان: أحدهما حنفي والآخر شافعي، أما الحنفي فهو أبو منصور محمد بن محمود الماتريدي إمام الهدى... وأما الآخر الشافعي فهو شيخ السنة ورئيس الجماعة وإمام المتكلمين وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين والساعي في حفظ عقائد المسلمين أبو الحسن الأشعري»[(٣)].

أما الإمام ابن حزم فيسميهم (أهل الحق)، ويصفهم بأنهم السائرون على منهج رسول الله ﷺ، وهم من الصحابة ومن خيار التابعين ثم من أصحاب الحديث وعلماء الفقه جيلًا بعد جيل[(٤)].

ومصطلح أهل السنة والجماعة لم يكن معروفًا في بداية التاريخ الإسلامي، وإنما ظهرت هذه التسمية بسبب ظهور الفرق المنشقة عن جماعة المسلمين تحت مسميات مختلفة، وكانت أول بدعة ظهرت في الإسلام فتنة الخوارج الذين انشقوا عن جماعة المسلمين، وأعلنوا خروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب،

(١) التعريفات للجرجاني (ص٤٠).

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٧م، (ص١٩).

(٣) ينظر: أصول مذهب الشيعة الاثني عشرية وموقف أهل السنة منهم – دراسة مقارنة لمحمد الأنور محمد جمعة، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، (ص١٣).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة، (٢/ ١٤٥).

وغالوا في الوعيد، فقالوا بتكفير العصاة وتخليدهم في النار، واتخذوا من تكفير المسلمين مسوغًا للخروج على ولاة الأمر، واستباحوا بذلك دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم بغير حق، وقَصَرُوا الإيمان على جماعتهم، وتشعبت منهم فرق كثيرة، لذلك جاءت التسمية (أهل السنة والجماعة)؛ تمييزًا لهم عن الخوارج والمعتزلة وفرق التَّشَيُّع وغيرها من الفرق المخالفة لهم في الاعتقاد[1].

ومبدأ التسمية من مفهوم اتباع السنة الذي دلت عليه النصوص النقلية، والأشاعرة هم أول من أُطْلِق عليهم لقب أهل السنة في مواجهة المعتزلة الذين غلوا في تعطيل صفات الله، وتعسفوا في تناول قضية أفعال الإنسان، وأحدثوا فتنة خلق القرآن، وتسببوا فيما أريق حولها من دماء المسلمين، وأوغلوا في ربط العقيدة الإسلامية بالفلسفة اليونانية، بحيث كان المعتزلة يمثلون دور التحرر المطلق في التفكير الإسلامي، ولكن في الوقت نفسه كانت هناك جماعاتٌ تمثل جانب التحفظ في التفكير الإسلامي، حيث تناولت مسائل الجبر والاختيار وفاعل الكبيرة والخلود في الجنة والنار، وغير ذلك من القضايا الدينية، تناولت كل ذلك من زاويتها الخاصة مخالفة المعتزلة كل المخالفة، بحيث أصبح المعسكران طرفي نقيض[2].

ولما كان التطرف والاندفاع في الأفكار بدون روابط ينتهي إلى الشطط والزيغ، وكان الجمود والكسل يؤديان إلى تجميد الدين، وكان كل من الأمرين مرفوضًا مرذولًا ، فقد ظهر من بين صفوف المعتزلة المندفعين مفكر كان يؤمن بما يقولون أول الأمر، ثم ما لبث أن اختط خطة معتدلة لا هي إلى الشطط فتؤذي، ولا هي إلى الجمود فتضر، هذا المفكر الإسلامي هو أبو الحسن علي بن إسماعيل

(١) الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، بتصرف.

(٢) إسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط(٢)، ١٤٣٨هـ، (ص٤٤٨).

الأشعري[1].

استطاع الأشعري أن يصدر أحكامًا في قضايا العقائد في جو من الاعتدال والصفاء، بعيدًا عن التهور والاندفاع، وبالرغم من أن بعض الفقهاء ارتابوا في عقيدته، وأن الحنابلة رموه بالكفر فإن ذلك لم ينهض دليلًا على زيغه.

وقد نصره كبار العلماء كأبي بكر الباقلاني[2] وأبوالمعالي إمامِ الحرمين[3]

(١) الأشعري: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل، من ذرية أبي موسى الأشعري ﷺ، ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ على خلاف بين المؤرخين، مر الأشعري بثلاث مراحل في حياته الفكرية:
الأولى: عاش فيها في كنف أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره، وتلقى علومه حتى صار نائبه، وتزعم المعتزلة أربعين سنة.
الثانية: ثار فيها على مذهب الاعتزال، وأعلن البراءة منه، وخط لنفسه منهجا جديدا يقوم على التأويل وإثبات الصفات السبع.
الثالثة: إثبات الصفات جميعها لله -تعالى- من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تبديل ولا تمثيل، وألف كتابه (الإبانة في أصول الديانة)، توفي سنة ٣٢٤هـ ودفن ببغداد.
موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات (ص١٧٨-١٧٩).

(٢) الباقلاني: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، القاضي أبو بكر الباقلاني (٣٢٨-٤٠٢هـ)، من كبار علماء الكلام، هذب بحوث الأشعري، وتكلم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد، له كتاب (تأليف الأوائل وتلخيص الدلائل)، ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها، وجهه عضد الدولة سفيرًا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه: إعجاز القرآن، والإنصاف، ومناقب الأئمة، وغيرها.
ينظر: موسوعة الأديان والفرق والمذاهب والجماعات (ص١٨١).

(٣) إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني (٤١٩هـ-٤٧٨هـ)، ولد في جوين من نواحي نيسابور، ثم رحل إلى بغداد فمكة حيث جاور فيها أربع سنين، وذهب إلى المدينة المنورة فأفتى ودرس، ثم عاد إلى نيسابور فبنى له فيها الوزير نظام الملك المدرسة النظامية، وكان يحضر دروسه كبار العلماء، وبقي على ذلك قريبًا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، ودافع فيها عن الأشعرية فشاع ذكره في الآفاق، توفي بنيسابور، ومن مصنفاته: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، والبرهان في أصول الفقه، ونهاية المطلب في دراية المذهب في فقه الشافعية، والشامل في أصول الدين.
ينظر: موسوعة الأديان والفرق والمذاهب والجماعات (ص١٨١-١٨٢).

والإسفراييني[1] وغيرهم من العلماء الذين تبنوا أفكاره بعد موته، وقد سمَّى هؤلاء الأعلام رأي الأشعري مذهب أهل السنة والجماعة[2].

وقد شرح البغدادي عقيدة أهل السنة وعدد أصنافهم فيما يلي:

أولا: من أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة، وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب، وشروط الاجتهاد، والإمامة، والزعامة.

ثانيا: أئمة الفقه من أهل الرأي والحديث.

ثالثا: الذين أحاطوا علما بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي وميزوا بين الصحيح والسقيم منها.

رابعا: الذين أحاطوا علما بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف، وجروا على سمت أئمة اللغة.

خامسا: الذين أحاطوا علما بوجوه قراءات القرآن، وبوجوه تفسير آياته وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة، دون تأويلات أهل الأهواء الضالة.

سادسا: الزهاد والصوفية.

سابعا: المرابطون في ثغور المسلمين، في وجوه الكفرة، يجاهدون أعداء

(١) أبو إسحاق الإسفراييني إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران (توفي ٤١٨هـ)، عالم بالفقه والأصول، وكان يلقب بركن الدين، وهو أول من لقب به من الفقهاء، نشأ في إسفرايين (بين نيسابور وجرجان)، ثم خرج إلى نيسابور، وبنيت له مدرسة عظيمة فدرس فيها ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق فاشتهر في العالم الإسلامي، ألف في علم الكلام كتابه الكبير الذي سماه (الجامع في أصول الدين والرد على الملحدين). ينظر: موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات (ص١٨١).

(٢) السابق (ص٤٤٨).

المسلمين[1].

هؤلاء هم أهل السنة كما حددهم البغدادي؛ وهو أحد علماء السنة، ومن الخبراء الثقات في أهل الفرق والمذاهب المتعددة، وهكذا ترى أن أهل السنة هم هؤلاء الذين ساروا على درب الصحابة والسلف الصالح، ولم يلتزموا الاتجاهات التي يغلب عليها الافتعال والتعسف؛ بل كانوا واضحين فيما ارتضوه لأنفسهم من عقائد مرجعها جميعا إلى الكتاب والسنة والرأي والاجماع والقياس والاجتهاد، والبعد عن الغلو في العقيدة أو التعسف في إصدار الأحكام[2].

الفرع الثالث: الشيعة

تعريف الشيعة:

ذكر العلماء عدة تعريفات للشيعة، ومن هذه التعريفات:

١. هم الذين شايعوا عليًّا ﷺ، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ، وهذا تعريف أبي الحسن الأشعري[3].

٢. هم الذين يقولون بأن عليًّا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقهم بالإمامة وولدُه من بعده[4].

٣. هم الذين شايعوا عليًّا ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًّا ووصيةً، إما جليًّا وإما خفيًّا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن

(١)الفرق بين الفرق؛ تأليف الإمام العلامة أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي؛ المتوفى سنة(٤٢٩هـ -١٠٣٧م) طبعة مصححة منقحة وقد خرجت أحاديثها وفقا لأحكام الشيخ الألباني رحمه الله، ص(٢٣١-٢٣٣) الطبعة الثانية (١٤٣٦هـ - ٢٠٥) مكتبة الهدي المحمدي ، عين شمس- مصر

(٢)إسلام بلا مذاهب . ص(٤٥١) مرجع سابق

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، (ص٥).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٠).

خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده[1].

٤. هم كل من يتولى عليًّا وأهل بيته، وهذا تعريف الفيروز ابادي، وتبعه عليه الزبيدي وأبو البقاء[2].

وقد نوقشت هذه التعريفات بأن التعريف الأول غير سديد؛ لأنه غير مانع، فأهل السنة يتولون عليًّا وأهل البيت، ومع ذلك فهم ليسوا من الشيعة، بل يخالفونهم في أصول عديدة.

والتعريف الثالث -بالرغم من أن أكثر أصحاب المقالات قالوا به- غير سديد؛ لأنه غير جامع لكل فرق الشيعة؛ فبعض الزيدية من فرق الشيعة - وهم الصالحية- لا يقولون بالنص، ويثبتون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ويصححونها.

وأما التعريفان الأولان فالفرق بينهما في قيد اعتبار أحقية وأولوية الإمامة لعلي بن أبي طالب ولولده من بعده.

فمن نظر إلى فرق الشيعة التي ظهرت في تاريخ المسلمين وجدها جميعًا اهتمت بقضية الإمامة، وأن عليًّا هو الأولى بها بعد النبي ﷺ من غيره، ثم من تولاها غيره إما أن يكون قد ضل وظلم على قول لبعضهم، وإما أن يكون قد أخطأ على قول الآخرين، وإما أن يكون لا ظلم ولا أخطأ إنما لمصلحة اقتضت توليته، إلا أن الأولوية والأفضلية في غيره، فمن نظر هذه النظرة التي هي باعتبار حال فرق الشيعة قال بالتعريف الثاني، ومن نظر باعتبار حال بعض الأفراد القليلين المبرزين الأوائل في الشيعة قال بالتعريف الأول[3].

(١) الملل والنحل (١/ ١٤٦)، و التعريفات (ص١٢٩).

(٢) القاموس المحيط، مادة (ش ي ع).

(٣) الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، إشراف علمي: حسن عبد الحفيظ أبو الخير، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – جمهورية مصر العربية، ط(١)، ٢٠١١م، (١/ ١٤٥).

فلفظ الشيعة عند الفقهاء والمتكلمين يطلق على الفرقة التي والت الإمام عليا وأبناءه دون غيرهم، ويرجع ابن النديم سبب هذه التسمية إلى مخالفة طلحة والزبير عليًّا عندما أبيا إلا المطالبة بدم عثمان، ليقاتلهما عليٌّ حتى يفيئا إلى أمر الله تعالى، وتسمى من اتبعه على ذلك «الشيعة»، وكان علي يقول: «شيعتي»[1].

الفرع الرابع: الإباضية

الإباضية من أكثر الفرق الإسلامية التي كثر الخلاف حول تصورها ونشأتها وعقيدتها ومفاهيمها؛ فنجد معظم المؤرخين ينسبونهم للخوارج، وينسبون إليهم عقائدَ ومواقفَ تُصَنِّفهم ضمن الفرق التكفيرية المتطرفة، بينما الأمر كذلك نجد علماء الإباضية ينفون بشدة أي صلة لهم بالخوارج، بل يوجهون انتقادًا قويًّا للخوارج ولمواقفهم وممارساتهم.

فالأشعري جعلهم فرقة من فرق الخوارج؛ حيث قال:

«ومن الخوارج الإباضية، وينقسمون إلى:

١. الحفصية: كان إمامهم حفص بن أبي المقدام، زعم أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده، فمن عرف الله سبحانه ثم كفر بما سواه من رسول أو جنة أو نار، أو عمل بجميع الخبائث من قتل النفس واستحلال الزنا وسائر ما حرم الله من فروج النساء، فهو كافر بريء من الشرك.

٢. اليزيدية: كان إمامهم يزيد بن أُنَيْسَة، قالوا: «نتولى المُحَكِّمَة، ونبرأ ممن كان بعد ذلك من أهل الأحداث، ونتولى الإباضية كلها»، ويزعمون أنهم مسلمون كلهم، إلا من بلغه قولهم فكذبه أو من خرج، وخالفوا الحفصية في الإكفار والتشريك، وقالوا بقول الجمهور.

٣. أصحاب حارث الإباضي: قالوا في القدر بقول المعتزلة، وخالفوا فيه سائر

(١) الفهرست لابن النديم، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة- بيروت، ط(٢)، ١٤١٧هـ، (ص٢٤٤).

الإباضية.

٤. فرقة رابعة يقولون بطاعةٍ لا يراد الله بها على مذهب أبي الهذيل، ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعًا لله إذا فعل شيئا أمره الله به، وإن لم يقصد الله بذلك الفعل ولا أراده به»[(١)].

والشهرستاني والجرجاني ينسبانهم إلى عبد الله بن إباض الذي خرج أيام مروان بن محمد، ويذكر الجرجاني أنهم قالوا: «مخالفونا من أهل القبلة كفار، ومرتكب الكبيرة مُوَحِّد غير مؤمن»، بناءً على أن الأعمال داخلة في الإيمان، وكَفَّروا عليًّا وأكثرَ الصحابة[(٢)].

وتتلخص آراء الخوارج في أنهم أحدثوا تشريك المخالفين لهم، وترتب عليه الأحكام العملية التالية:

١-وجوب الهجرة من دار المخالفين.

٢- تحريم مناكحتهم.

٣- تحريم موارثتهم.

٤- تحريم أكل ذبائحهم.

٥- استحلال أماناتهم.

٦- جواز قتل أطفالهم.

٧- استحلال سبيهم.

٨- استحلال الغنيمة منهم.

٩- جواز استعراضهم.

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ١٥٤).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص٨).

١٠- قطع عذر القاعد عن القتال معهم.

فعلى هذا ينحصر الخوارج فيمن حكم على مخالفيهم من المسلمين بالشرك، ورتب عليهم بقية أحكام المشركين، ويشمل الخوارج الأزارقة والصفرية والنجدية، ويوجد بينهم خلاف في بعض الأمور.

أما الإباضية فلا يقولون بواحد من هذه الآراء، بل يقرون بإسلام المخالفين لهم من أهل القبلة، ويحرمون دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم، ويجوزون مناكحتهم وتوريثهم وأكل ذبائحهم[١]. تعد الإباضية من المدارس الإسلامية المعتدلة والمتسامحة مع مخالفيهم، ويغضبون ممن يعتبرهم فرقة من فرق الخوارج[٢].

(١) الخوارج والحقيقة الغائبة لناصر بن سليمان السابعي، مجلة البيان – السعودية، ط(١) ١٩٩٩م، (ص١٧٧).

(٢) الإباضية مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج، لمحمد على الصلابي، ط١ ١٤٤٠هـ ٢٠١٩م دار ابن كثير- دمشق سوريا ص(٨٩٩).

المطلب الثاني

المبادئ التي اختلفت فيها الفرق الإسلامية

الفرع الأول: الاختلاف في العقائد

لقد اختلفت الفرق الثلاث في كثير من قضايا العقائد بالرغم من الدعوة إلى الاعتصام بحبل الله والنهي عن التفرق، مع أنها تزعم أنّ مرجعيتها هي الكتاب والسنة، ولكنها تختلف في التفسير والتأويل والتصور؛ لعدة أسباب، وأهم خلافات الفرق الثلاث في العقائد ما يلي:

أولًا: الإيمان والإسلام:

الإيمان من الأمن، وهو ضد الخوف، وفي الشرع هو التصديق، قال -جل وعلا: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾[1] أي: مصدق[2].

والإسلام: هو الاستسلام، بأن يُسْلِم العبد أموره إلى الحق، وينقاد لما جاء في الشرع بالنطق بالشهادتين[3].

فأما أهل السنة والجماعة فقالوا: إن أصل الإيمان المعرفةُ والتصديقُ بالقلب، وإنما اختلفوا في تسمية الإقرار وطاعات الأعضاء الظاهرة إيمانًا، مع اتفاقهم على وجوب جميع الطاعات المفروضة، وعلى استحباب النوافل المشروعة، وأن اسم

(١) سورة يوسف، الآية (١٧).

(٢) مختار الصحاح للرازي، مادة (أ م ن)، عني بترتيبه: محمود خاطر، طبعة دار الفكر العربي.

(٣) الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة للشريف أنس بن يعقوب الكتبي الحسني، منشورات الخزانة الحسنية الخاصة، المدينة المنورة، ط(١) ١٤٣٧هـ، (ص٤٨٢-٤٨٣).

الإيمان لا يزول بذنب دون الكفر، ومن كان ذنبه دون الكفر فهو مؤمن، وإن فسق بمعصية[1].

وأما الشيعة الإمامية: فقد اتفقت فيما بينها على أن الإسلام غير الإيمان، وأن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا.

يقول الطوسي في كتاب (الاقتصاد): «الإيمان هو التصديق بالقلب بما يجري على اللسان، وكل من كان عارفًا بالله تعالى ونبيه ﷺ وبما أوجب الله عليه معرفته مقرًّا بذلك فهو مؤمن»، ويذكر في موضع آخر قول بعض الإمامية: «الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان والجوارح»[2].

وأما الإباضية: فقد ذهبوا إلى أنّ ألفاظ الدين والإسلام والإيمان كلها تدل على معنًى واحدٍ، وتطلق هذه الألفاظ الثلاثة على شيءٍ واحدٍ، وهو جميع ما أمر الله به، والإيمان عند الإباضي يُرَكَّب من ثلاثة أركان: مجموع المعرفة والإقرار والعمل.

ويرى علماء الإباضية أن الشرع جاء باستعمال الإسلام والإيمان على سبيل الترادف، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3].

ثانيًا: مفردات العقيدة:

اختلف الإباضية مع أهل السنة في بعض جزئيات العقيدة، كصفات الله تعالى والميزان في يوم القيامة والصراط والشفاعة وخلق القرآن وخلود مرتكب الكبيرة في النار ونفي رؤية الله في الدنيا والآخرة والوعد والوعيد.

فهذه المسائل للإباضية فيها رأي مختلف عن رأي أهل السنة، فيرون أن صفات الله الذاتية هي عين ذاته، وأن الميزان والصراط ليسا حِسِّيَيْن، وأن الله لا

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص٢٦٢).

(٢) الاقتصاد للطوسي (ص٢٢٧-٢٢٨).

(٣) سورة الذاريات، الآيتان (٣٥-٣٦).

يخلف وعده ولا وعيده، وأن مرتكب الكبيرة إذا مات بدون توبة يحبط عمله، ويخلد في النار لا يخرج منها أبدًا، وأن الشفاعة لا ينالها إلا المتقون، أما العصاة من المسلمين فليس لهم أي شفاعة من الرسول ﷺ، كما يرون نفي رؤية الله في الدنيا والآخرة، ويعتقدون أن القرآن مخلوق[1].

واتفق الإمامية وأهل السنة في كثير من جزئيات العقيدة واختلفوا في بعضها، ومما اتفق عليه أهل السنة والإمامية أن من اقترف كبيرة غيرَ مستحلٍّ لها ولا مستخفٍّ بما نهي عنها -بل لغلبة شهوته أو حميته- يرجو الله تعالى أن يغفر له، أو يخاف أن يعذبه عليها، فهذا اسمه المؤمن، وبقي على ما كان عليه من الإيمان، ولم يزل عنه إيمانه ولم ينقص، ولا يخرج من الإيمان إلا من الباب الذي دخله، وحكمه أنه لو مات من غير توبة فلله تعالى فيه المشيئة إن شاء عفا عنه بفضله وكرمه أو ببركة ما معه من الإيمان والحسنات أو بالشفاعة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ثم عاقبة أمره الجنة لا محالة، ولا يخلد في النار[2].

الفرع الثاني: الاختلاف في الإمامة

الإمامة عند أهل السنة:

الإمامة عن أهل السنة تعني «خلافة الرسول ﷺ في إمامة الدين، بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة»[3]، فالإمامة هي: «رياسة عامة في أمر الدين والدنيا، خلافة عن النبي وأحكامه في الفروع»[4]، وهو رأي الحنفية.

ويقول ابن خلدون: «هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأُخْرَوِيَّة والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى

(١) السنة والإباضية مجالات التقاطع وأوجه الاتفاق، مرجع سابق.
(٢) الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة للشريف الحسني (ص٥١٠).
(٣) المواقف للإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل-بيروت، ط(١) ١٩٩٧م، (ص٣٩٥).
(٤) شرح المقاصد للتفتازاني، دار المعارف العثمانية، باكستان، ١٩٨١م، (٥/ ٢٣٢).

اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[1]. وهو يعبر هنا عن رأي المالكية.

ويقول الماوردي[2]: «هي خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[3].

ويتضح من التعريفات السابقة -وكل أصحابها من أهل السنة- أن الإمامة وظيفة لحراسة الدين وسياسة الدنيا وَفق مقتضى الشرع، وصاحبها خليفة عن الرسول ﷺ في مجال السياسة والإدارة والحكم، وطاعته مشروطة بالاتباع والاستقامة.

ولم يتفق أهل السنة على شروط الإمام، وقد لخص القرطبي شروط الإمام المتفق عليها والشروط المختلف فيها، فذكر أحد عشر شرطًا، هي:

١- أن يكون قرشيًا، وقد اختُلِف فيه.

٢- أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيًا من قضاة المسلمين، مجتهدًا لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث، وهذا متفق عليه.

٣- أن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسد الثغور وحماية البيضة وردع الأثمة والانتقام من الظالم والأخذ للمظلوم.

٤- أن لا يكون ممن تلحقه رِقَّة في إقامة الحدود، ولا فزع في ضرب الرقاب

(١) المقدمة لابن خلدون (ص١٩٠).

(٢) الماوردي: أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، قال الشيخ أبو إسحاق: « تفقه بالبصرة على أبي القاسم الصَمْيرى، اتم ثم ارتحل إلى السيخ أبي حامد الإسفراييني فأخذ عنه دروس بالبصرة ». وله مصنفات كثيرفي الفقه والتفسير وأصول الفقه والأدب وكان حافظًا للمذهب، من تصانيفه ١الأحكام السلطانية) توفى ببغداد سنة ٤٥٠هـ وله ٨٦ سنة . انظر: طبقات الشافعية، عبدالرحيم الأسنوي جمال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د:ط) (د:ت)، ص٢٠٦ – ٢٠٧.

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي (ص٥)، نقلًا عن الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة (ص٥٤٢- ٥٤٣).

ولا قطع الأبشار.

٥- وأن يكون حرًّا.

٦- وأن يكون مسلمًا.

٧- وأن يكون ذكرًا.

٨- وأن يكون سليم الأعضاء.

٩- وأن يكون بالغًا عاقلًا ، ولا خلاف في ذلك.

١٠- وأن يكون عدلًا .

١١- وأن يكون أفضلهم في العلم[١].

الإمامة عند الشيعة:

عرف المتكلمون من الشيعةِ الإمامةَ بأنها رئاسة في الدين والدنيا، ومنصب إلهي يختاره الله بسابق علمه، ويأمر النبي ﷺ بأن يدل الأمة عليه ويأمرهم باتباعه[٢].

والإمامة عندهم كالنبوة، فكما يختار الله ﷻ رسله من بين خلقه ليتحملوا رسالته ويبلغونها للناس، فهو سبحانه يختار للإمامة من يشاء ويوحي إلى نبيه بالنص عليه، فالإمامة كالنبوة في قداستها.

يقول محمد جواد مغنية: «الإمامة في مفهوم الشيعة الإمامية وعقيدتهم: رئاسة دينية وزمنية يتولاها رجل عالم بما يصلح الناس في شئون دينهم ودنياهم، ويعمل على ذلك دون أن يستأثر عنهم بشيء، ولا يخطئ في علمه ولا في عمله»[٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (١/ ٢٧٠).

(٢) أصول الشيعة الاثنى عشرية لناصر الفقاري، بدون دار نشر، ط(١)، ١٤١٤هـ، (٢/ ٦٥٥).

(٣) الجوامع والفوارق لمحمد جواد مغنية (ص١٠).

فالإمامة عند الشيعة أصل من أصول الدين وركن من أركان الإسلام والإيمان، يقول المظفر: «نعتقد أن الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل المربين، مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة»[1].

الإمامة عند الإباضية:

يتفق الإباضية مع أهل السنة في تعريف الإمامة، فقد عرفوها بأنها: «الرئاسة العامة في أمور الدين والدنيا نيابةً عن الرسول ﷺ»[2]. وأجمع الإباضية على أن الإمامة بعد الرسول ﷺ لا تجب لإمام من بعد إمام، ولا يجوز عزله إلا عن مشورة أهل العلم ورضا منهم على النصح لله، ثم يكون حجة على من غاب[3].

وتثبت الإمامة باختيار أهل الصلاح أو أهل الحل والعقد وأهل الاختيار والشورى القادرين على إبداء الرأي السديد والنصح للأئمة والأمة وحل المشكلات، وإليهم يرجع في الملمات، وسموا بذلك؛ لأنهم يوثقون العقدة في الأمر بإمضائه وتأكيده، كما يملكون حل ما عقدوه ونقض ما أبرموه[4].

الفرع الثالث: الاختلاف في الفقه

هنالك بعض الاختلافات بين الفرق الثلاثة في مسائل فقهية، ترجع إلى الاختلاف في الأصول بين الشيعة من جهة وأهل السنة والإباضية من جهة أخرى، كما ترجع إلى التصور بين أهل السنة والإباضية؛ فالشيعة لا يقبلون الأحاديث إلا من طريق أهل البيت عن جدهم علي بن أبي طالب، أما ما يرويه أبو هريرة وغيره من الصحابة فليس له عند الشيعة اعتبار، وتبعًا لذلك فإنهم لا يعترفون بكتب الحديث عند أهل السنة، مثل موطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد والصحيحين

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر (ص١٠٢).
(٢) الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة (ص٥٤٣).
(٣) نفسه.
(٤) السابق (ص٥٦١).

وكتب السنن الأربعة المعروفة.

ولما كان الحديث هو المصدر الثاني للتشريع ومعظم الأحكام الفقهية الفرعية التفصيلية مصدرها السنة كان من الواضح أن تتسع الهوة نتيجة للخلاف على الرواة[1].

أما أهل السنة والإباضية فلا يوجد بينهم خلاف في أصول الفقه؛ فالإباضية يعترفون بكتب الحديث التي يعتمد عليها أهل السنة، ولديهم مسند هو مسند الربيع بن حبيب الفراهيدي الذي عاش في منتصف القرن الثاني الهجري.

وبين الشيعة وأهل السنة اختلافات كثيرة فقهية نتيجة للاختلاف في الأصول الفقهية، ونشير إلى ثلاثة منها:

١ - زواج المتعة: الشيعة يرون أن زواج المتعة ثابت بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2]، ويقولون: «إن جماعة من عظماء الصحابة والتابعين مثل عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري[3] وابن مسعود وأبي بن كعب وعمران بن الحصين كانوا يفتون بإباحة هذا النوع من الزواج، وأن الذي منعه هو عمر بن الخطاب، وليس

(١) إسلام بلا مذاهب (ص١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية (٢٤).

(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة من بني جشم بن الخزرج الأنصاري شهد العقبة مع أبيه كنيته أبو عبد الله استغفر له النبي صلى الله عليه وسلم ليلة البعير خمس وعشرين مرة وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزاة، مات سنة ثمان أو تسع وسبعين بعد أن عمى وكان يخضب بالحمرة وكان له يوم مات أربع وسبعون سنة، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، الثقات، راقبه د.محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، ج٣، ط١، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند١٩٧٣، ص٥١.

الرسول ﷺ»[1].

وأهل السنة يخالفونهم في ذلك -كما هو معلوم-، ويردون على الشيعة بأن زواج المتعة كان مباحًا أول الأمر، ولكن الرسول ﷺ حرَّمه في حياته، وفِعلُ عمرَ بنِ الخطاب ما هو إلا تأكيد لتحريم الرسول له.

والشيء المهم هو أن الشيعة الإمامية متمسكون بزواج المتعة حتى اليوم، ويقولون: «قد ثبت بإجماع المسلمين أنه لا خلاف في إباحة هذا النكاح في عهد النبي ﷺ بغير شبهة»، وهم يرون أنه ضروري للمسافر الذي يطول سفره، ففيه عصمة له، ولو أن المسلمين عملوا به على أصوله الصحيحة من العقد والعدة وحفظ النسل منها لانسدت بيوت الدعارة، وأغلقت المواخير أبوابها، ولكَثُرَت المواليد الطاهرة، واستراح الناس من اللقطاء[2].

٢ - الطلاق: لقد جعل الشيعة للطلاق قيودًا كثيرة، أهمها: أن الطلاق لا يتم إلا في حضور شاهدين عدلين، وبغير شاهدين يكون الطلاق باطلًا ، وهم في ذلك يرون أن الطلاق المقيد بهذا الشكلِ فيه صونٌ للأسرة، ولعل الشهود العدول يحولون بين الزوجين والطلاق فيصلحون بينهما، كذلك يرون أن طلاق الثلاثة مرة واحدة يعتبر طلقةً واحدة، ووافقهم ابن تيمية في ذلك، والمتأخرون من أهل السنة أخذوا بهذا الرأي.

٣ - التَّقِيَّة: التقية معناها المداراة، وأكثر فرق الشيعة تقول بها، كأن يحافظ الشخص على ماله وعرضه ودينه وعقيدته بالتظاهر باعتناق عقيدةٍ لا يؤمن بها، ولا يعترف بينه وبين نفسه بصحتها.

ويؤكد الخميني أن التقية جزء من العقيدة، فيقول: «إن كل من له أقل قدر من التعقل يدرك أن حكم التقية من أحكام الإله المؤكدة، فقد جاء أن من لا تقية له لا

(١) إسلام بلا مذاهب (ص١٨١).

(٢) إسلام بلا مذاهب (ص١٨١).

دين له»[1].

وأهل السنة يخالفونهم في ذلك؛ فالتقية بهذا المفهوم تزعزع الثقة بين الناس؛ لأنَّ كل كلام يقوله صاحب التقية يحتمل أن يكون غير مقصود، وبالتالي يكثر النفاق وتضطرب المعاملات بين الناس.

والتقية الواردة في سورة آل عمران محصورة في الإكراه والخشية على النفس من الهلاك، فلا يجوز أن تتوسع لتكون عقيدة عامَّةً يتعامل بها الناس.

وقد انتقد أحد علماء الشيعة موضوع التقية -وهو الدكتور موسى الموسوي في كتابه (الشيعة والتصحيح)-، حيث أفرد لها فصلًا كاملًا ، وقال: «إنها لا تليق بالمسلم إلا في حالة واحدة، لخصها الإمام الجليل محمد الباقر في كلمتين حين قال: (إنما حَلَّت التقية ليحقن بها الدم، فإذا بلغ الدم فليس تقية)... »[2].

والخلاف الفقهي بين أهل السنة والإباضية واقع في مسائل فرعية يوجد مثلها بين أهل السنة أنفسهم، فهو خلاف في الفروع موجود مثله في كل المذاهب، ومن المسائل الفقهية المختلف عليها بين أهل السنة والإباضية ما يلي:

أولًا: مسائل في الصلاة:

١- دعاء الاستفتاح في الصلاة.

يقرأ الإباضية دعاء الاستفتاح قبل تكبيرة الإحرام، وصيغته عندهم: (سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، إني وجهت وجهي للذين فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين)، ثم يكبر المصلي تكبيرة الإحرام قائلًا : «الله أكبر»، دون أن يرفع يديه عند تكبيرة الإحرام، ودليلهم في هذا الحديث الذي عن السيدة عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا استفتح الصلاة قال:

(١) كشف الأسرار للخميني (ص٤٨)، نقلًا عن إسلام بلا مذاهب (ص١٨٣).
(٢) إسلام بلا مذاهب (ص١٨٣).

«سبحانك اللهم وبحمدك.... »[1].

فلو كان التكبير سابقًا على الاستفتاح لما بدأ به.

أما الحنفية والشافعية والحنابلة فإنهم يقولون دعاء الاستفتاح بعد تكبيرة الإحرام[2]، مستدلين بالحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ، فقلت: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أرأيت سكوتك بين التكبيرة والقراءة ما تقول؟ » قال: «أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب... »[3].

أما الإمام مالك فلا يستحب دعاء الاستفتاح بعد تكبيرة الإحرام، بل يكره عنده[4].

٢- الرفع والقبض في الصلاة:

لم يثبت عند الإباضية أن الرسول ﷺ رفع يديه عند تكبيرة الإحرام أو عند الركوع أو الرفع منه، وأيضًالم يثبت عندهم أن الرسول ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى في الصلاة، بل السنة عندهم إرسال اليدين وعدم رفعهما البتة، ولو في حالة تكبيرة الاحرام، وإن وُجِدت بعض الروايات الدالة على الرفع والقبض حكموا عليها بالنسخ[5].

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤٣)، أبواب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، (٢/ ١١)، وابن ماجه في سننه برقم (٨٠٦)، كتاب الصلاة، باب افتتاح الصلاة، (١/ ٢٦٥)، والدارقطني في سننه برقم (١١٤٩)، كتاب الصلاة، باب دعاء الاستفتاح بعد التكبير، (٢/ ٦٣).

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، (١/ ٦٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٤٤)، كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، (١/ ١٤٩)، ومسلم في صحيحه برقم (٥٩٨)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقول بين التكبير والقراءة، (١/ ٤١٩).

(٤) الشرح الصغير لأحمد بن محمد الدردير، دار الفضيلة، القاهرة، (١/ ٤٤٠).

(٥) الضياء لسلمة بن مسلم العوتبي (٥/ ١٥)، والرفع والضم لأحمد بن سعود السيابي (ص٥).

ونشير هنا أن الإباضية وافقوا المالكية في جزئية إرسال اليدين في أثناء الصلاة، بينما خالفوهم في رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام.

أما أهل السنة من غير المالكية فيقولون بالرفع والقبض في الصلاة[1]، مستدلين بحديث ابن عمر[2] قال: «كان النبي ﷺ إذا قام للصلاة رفع يديه حتى تكونا حذو منكبيه ثم كبر»[3].

٣- التسليم في الصلاة:

يقتصر الإباضية على تسليمة واحدة في الصلاة يمينًا ويسارًا، هكذا: (السلام عليكم) على جهة اليمين، (ورحمة الله) على جهة اليسار، وهو المعمول به، ويوجد قول ثاني للإباضية بالتسليمتين[4].

بينما ذهب جمهور أهل السنة إلى القول بالتسليمتين، لكنَّ الواجبةَ التسليمةُ الأولى، والثانية مستحبة، وقول للمالكية بتسليمة واحدة هكذا (السلام عليكم)[5] على جهة اليمين فقط.

(١) فقه السنة (١/ ٩٩).

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب، كنيته أبوعبدالرحمن، كان مولده قبل الوحي بسنة، لم يشهد بدرًا وعُرض على رسول اِلله ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يُجِزه ولم يره بلغ، ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة فأجازه،وكان من صالحي الصحابة وقرائهم وزهادهم ولم يشتغل في هذه الدنيا بالصفراء ولا بالتمتع بالبيضاء ولا ضمُ درهما إلى درهم، وكان من أكثرهم تتبعًا، كتاب مشاهير علماء الأمصار لمحمد بن حبان البُستي مصححه م. فلا يشهر، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة (٣٧٩هـ-١٩٥٩م) ص١٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٣٦)، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع، (١/ ١٤٨)، ومسلم في صحيحه برقم (٣٩٠)، كتاب الصلاة، باب استحباب رفع اليدين حذو المنكبين مع تكبيرة الإحرام والركوع وفي الرفع من الركوع، وأنه لا يفعله إذا رفع من السجود، (١/ ٢٩٢).

(٤) المعتمد في فقه الصلاة للمعتصم بن سعيد المعولي (ص٢٣٣).

(٥) فقه السنة (١/ ٩٨).

ثانيًا: مسائل في الزكاة:

من المسائل التي اختلف الإباضية مع أهل السنة فيها في أبواب الزكاة مسألة نصاب زكاة البقر، فذهب الإباضية إلى أن نصاب زكاة البقرة خمس بقرات، قياسًا على الإبل، ففي خمس بقرات شاة، وفي عشرٍ شاتان، وهكذا كلما زادت خمس بقرات زادت شاة، إلى أن تصل خمسًا وعشرين بقرة ففيها تبيعة من البقر[1].

بينما ذهب أهل السنة إلى التفرقة بين زكاة البقر وزكاة الإبل؛ إذ لا زكاة في البقر حتى تبلغ ثلاثين بقرة ويحول عليها الحول، ففيها تبيع أو تبيعة، ثم لا شيء فيها حتى تبلغ أربعين ففيها مُسنة، ثم لا شيء حتى تبلغ ستين ففيها تبيعان[2].

ثالثًا: مسائل في الصوم:

من المسائل التي اختلف الإباضية مع أهل السنة فيها في أبواب الصوم مسألةُ وجوب القضاء على من أصبح جنبًا في رمضان إن تعمد تأخير الغسل إلى أن يصبح، فذهب الإباضية إلى وجوب القضاء دون الكفارة على من أصبح جنبًا متعمدًا، مستدلين بحديث: «من أصبح جنبًا أصبح مفطرًا»[3]، كما أنهم قاسوه على الحائض بجامع الحدث الأكبر بينهما، وقالوا: «هذا الذي يتفق مع قدسية الصيام»[4].

أما أهل السنة فإنهم قد ذهبوا إلى أن من أصبح جنبًا في رمضان ليس عليه قضاء، واستدلوا بما أخرجه الشيخان عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا

(١) زكاة الأنعام لأحمد بن حمد الخليلي، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، (ص١٤٢)، والمعتمد في فقه الصلاة للمعتصم بن سعيد المعولي (ص٢٢٩).

(٢) فقه السنة (١/ ٢٦١).

(٣) لم أهتد إليه، فلعله مما انفرد الإباضية بذكره في كتبهم.

(٤) فتاوى في الصلاة والزكاة والصيام لأحمد بن حمد الخليلي، دار الأجيال، عمان، (ص٣٨٣).

من غير حُلُمٍ، ثم يصوم »[1].

والملاحظ أن الاختلافات بين الفرق الثلاث، اختلافات اجتهادية توجد داخل الفرقة الواحدة، وهي اختلافات لها أسبابها سبقت الإشارة إليها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٩٢٦)، كتاب الصيام، باب الصائم يصبح جنبًا، (٣/ ٢٩)، ومسلم في صحيحه برقم (١١٠٩)، كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، (٢/ ٧٧٩).

المطلب الثالث

تطور العلاقة بين الفرق الإسلامية

الفرع الأول: تضييق شقة الخلاف

استشعر المهتمون بأمر الدعوة الإسلامية من الفقهاء والعلماء والمصلحين خطورةَ التعصب الذي لحق بالمنتمين إلى الفرق الإسلامية، حيث تغيرت طبيعة الاختلاف الاجتهادي من اختلاف تنوع إلى اختلاف تصادم وشقاق، وزعمت كل فرقة أنها الفرقة الناجية، ورمت المخالف لها بالبدعة والكفر في بعض الأحيان.

هذا التعصب المدمر دعا المهتمين لتصحيح التصور حول طبيعة الخلاف وإبراز العوامل الموحدة للفرق الإسلامية، وهذا المجهود كان حاضرًا منذ وقت مبكر من تاريخ الدعوة الإسلامية، فالإمام الشافعي قام بمجهود كبير في التوفيق بين أهل الرأي وأهل الحديث، والإمام الأشعري وفَّق بين أهل النقل وأهل الحجج المنطقية، وكان ظهور الأشاعرة نقطة تحوُّلٍ في تاريخ أهل السنة والجماعة التي تدعمت بنيتها العقدية بالأساليب الكلامية المتعددة، فأثبت أبو الحسن الأشعري بهذا أن تغيير المقدمات المنطقية مع استخدام نفس الأدوات التحليلية المعرفية يمكن أن يؤدي إلى نتائج مختلفة، فإلى جانب نصوص الكتاب والسنة استخدم الأشاعرة الحجج العقلية في عدد من الحالات لتوضيح بعض مسائل العقيدة، وهناك حالات استخدم فيها عدد من علماء الأشاعرة التأويل لشرح بعض ألفاظ القرآن الموهمة للتشبيه[1].

وفيما يتعلق بتضييق الشُّقَّة بين الفرق الإسلامية -وأبرزها أهل السنة والشيعة

(١) الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة (ص٤٨).

الإمامية والإباضية- جرت محاولات كثيرة بلغت قمتها في هذا العصر؛ حيث ظهرت في القرن الثالث عشر الهجري حركات إصلاح وتجديد إسلامية، أبرزها الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، والحركة السنوسية في ليبيا، وحركة عثمان دان فوديو في نيجيريا، والمهدية في السودان، وحركة جمال الدين الأفغاني في مصر، والكواكبي في الشام، وعبد الحميد بن باديس في المغرب، وكان الهدف الأبرز لهذه الحركات تجاوز الخلافات والعودة إلى الأصول الإسلامية المُوحِّدَة.

ونشير هنا إلى قول الدكتور محمد عمارة عن المهدية في السودان: «.. ولأن من ميزات المهدية اتفاق القول، فلقد أسقطت المذهبية والمذاهب، وألغت الطرق الصوفية، وأعلنت للناس أن عهدها موصول بعهد الرسول فما بينهما ساقط لا حجة فيه.. فهي سلفية تقف عند الكتاب والسنة فقط، وتعتبر أن المذاهب كانت صالحة لأزمانها السابقة على المهدية فقط، وهي تُجَدِّد وتُشَرِّع وَفق المصلحة المتجددة على ضوء الكتاب والسنة وحدهما... فلكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال... ولقد كانت الآيات تنسخ في زمن النبي على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها بعضًا على حسب المصالح»[1].

وما قاله محمد عمارة شرح للفكرة المحورية في الحركة المهدية، وهي توحيد أهل القبلة.

وفي جانب الشيعة إذا غضضنا الطرف عن نظرية الإمامة، فلن نجد بين الشيعة الإمامية وغيرها من تيارات الفكر الإسلامي وفِرَقِه خلافاتٍ ذات أهمية، بل سنجد الاتفاق قائمًا أو التقارب متحققًا بين الشيعة الإمامية وغيرهم من فرق المسلمين في العديد من القضايا والتصورات، ومن ذلك مبدأ التوحيد الذي يتفق فيه الشيعة الاثنا عشرية مع المعتزلة ومع الخوارج خاصة، ومع تيار التنزيه في الفكر

(١) تيارات الفكر الإسلامي للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط(٤)، ٢٠١١م، (ص٢١٧).

الإسلامي عامة فيما يتعلق بتصور الذات الإلهية، فَهُم مُنَزِّهَةٌ غيرُ مُشَبِّهَة.

وكذلك يتفقون مع المعتزلة في العدل وأفعال العباد والحُسْن والقُبْح والعقلانية والعدل الاجتماعي[1].

وأما مواضع الاتفاق بين السنة والإباضية في الأساسيات من الأركان والمبادئ والقيم والقطعيات الجوهرية في الشريعة الإسلامية فكثيرة، نجملها في يلي:

١- الاتفاق في أركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلًا[2]، فأهل السنة والإباضية متفقون في أركان الإسلام الخمسة بالتمام والكمال من دون زيادة ولا نقصان.

٢- الاتفاق في أركان الإيمان الستة: الإيمان بالله وحده لا شريك له والإيمان بالرسل والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب السماوية والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره[3].

٣- الاتفاق في الغيبيات الآتية: الموت وقيام الساعة والنفخ في الصور والبعث والحشر والحساب والجنة والنار[4].

لقد حدث تطور كبير في العلاقة بين الفرق الثلاثة، خاصة في كتب المعاصرين المتحررين من ظلال الماضي، ومجمل مؤلفاتهم تركز على ما يُوَحِّدُ الأمة، يقول صاحب كتاب (إسلام بلا مذاهب): «فنحن نستطيع أن نقول إنه لا يوجد الخلاف الذي يؤدي إلى هذه الفرقة الطويلة الخطيرة بين السنة والإمامية والزيدية والإباضية؛ اللهم إلا ما كان نتيجة الجهل والجمود والتعصب عند بعض من

(١) نفسه (ص٢١٩-٢٢٢).

(٢) القيم الإسلامية، لأحمد بن حمد الخليلي (ص٢٢).

(٣) طلعة الشمس شرح شمس الأصول، لنور الدين عبد الله بن حميد السالمي (٢/ ٣٥٤).

(٤) برهان الحق، لأحمد بن حمد الخليلي (٨/ ٢١).

ينتسبون إلى واحد من هذه المذاهب ممن جعل العامةُ لهم مكانةً دينية مرموقة... فمن الميسور إذن أن تتقارب هذه المذاهب في سهولة ويسر، وأن تجتمع على كلمة سواء، وأن تعقد الجلسات والمؤتمرات التي تظلها السماحة ويكون رائدها الخير للإسلام والمسلمين»[1].

أما الفِرق الإسلامية التي مثلت تنوعًا وتعدّدية في إطار أصول الدين فإن خلافها وتعدّديتها لم تكن في ثوابت الاعتقاد، وإنما كانت في (المقالات) أي النظريات والتصوّرات المتعلقة بالفروع أو ذات الصلة والعلاقة بالأصول، وليست من ذات الأصول.

إن مباحث الذات والصفات الإلهية هي هوامش على مباحث التوحيد، لا علاقة لها بجوهر الاعتقاد، ولقد عكست الاختلافات فيها مراتب الناظرين على سلم التنزيه أو التشبيه والتجريد أو الحشو والعقلانية المؤمنة والتأويل أو الوقوف عند ظواهر النصوص[2].

الفرع الثاني: اعتماد مناهج الفقه المقارن

اعتمد كثير من الفقهاء مناهجَ الفقه المقارن في مؤلفاتهم، مما ساعد كثيرًا على تفهم الخلاف والتعرف على أدلة المخالف، ونشأ تبعًا لذلك علم الخلاف، وهو العلم الذي يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية ودفع الشبه وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية، أو هو علم باحث عن وجوه الاستنباطات المختلفة من الأدلة الإجمالية أو التفصيلية[3].

وقد سبق تعريف الفقه، أما (المقارن) فهو مشتق من مادة (ق ر ن) بمعنى جمع ووصل بين شيئين[4].

(١) إسلام بلا مذاهب (ص٤٨٨).
(٢) أرشيف إسلام أون لاين. ١٤/ ٤/ ٢٠٠٤م.
(٣) اختلاف الاجتهاد وتغيره وأثر ذلك في الفتيا للمرعشلي (ص١٩٤).
(٤) مختار الصحاح للجوهري، مادة (ق ر ن).

وأما تعريف الفقه المقارن في الاصطلاح فهو تقرير آراء المذاهب الفقهية الإسلامية في مسألة معينة بعد تحرير محل النزاع فيها، مقرونةً بأدلتها ووجوه الاستدلال بها وما ينهض على الاستدلال من مناهج أصولية وخطط تشريعية، وبيان منشأ الخلاف فيها، ثم مناقشة هذه الأدلة أصوليًا، والموازنة بينها وترجيح ما هو أقوي دليلًا أو أسلم منهجًا، أو الإتيان برأي جديد مدعم بالدليل الأرجح في نظر الباحث المجتهد[1].

ويمكن أن نشير إلى أن الفقه المقارن قد عرف منذ عصر الرسالة؛ فقد اختلفت اجتهادات الصحابة في وجود رسول الله ﷺ، وبيّن لهم الرسول أسباب الاختلاف ومشروعيته، يظهر ذلك في اختلاف عمر وأبي بكر في التعامل مع أسرى بدر، واختلاف الصحابة عندما أُمِروا بأن لا يُصلوا العصر إلا في بني قريظة، واختلاف الصحابة عندما صلوا بالتيمم لفقد الماء، ولما وجدوه أعاد أحدهم الصلاة ولم يعد الآخر... وهكذا توجد أحداثٌ كثيرة اختلف فيها فقه الصحابة، وبيَّن لهم رسول الله مشروعية ذلك.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ كثرت الفتوحات وانتشر الصحابة في الأمصار، وتكونت مدرستا أهل الرأي في العراق وأهل الحديث في الحجاز، وأدى الخلاف بينهما إلى تطور الفقه المقارن.

وفي العصر الحديث تطور العمل في الفقه المقارن فظهرت الموسوعات الفقهية؛ ففي عام ١٩٥١م دعا مؤتمر الفقه الإسلامي، الذي عقد في باريس، لأول مرة إلى تأليف موسوعة فقهية؛ ليتم فيها جمع المصطلحات الحقوقية طبقًا للنماذج الحديثية والترتيب المعجمي. ولأول مرة بدأت كلية الشريعة في جامعة دمشق في عام ١٩٥٦م انجاز هذا العمل، وكانت ثمرته مقدمات كمعجم الفقه لابن حزم. وفي عام ١٩٦١م كتبت وزارة الأوقاف المصرية موسوعة فقهية. وبعد ذلك بدأت

(١) بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله للدكتور محمد فتحي الدريني (١/ ١٨)، والفقه المقارن لعبد الفتاح كبارة (ص٨٧).

وازرة الأوقاف الكويتية في عام ١٩٦٧م في تأليف الموسوعة الفقهية؛ وقد توقف انجاز هذا العمل في عام ١٩٧١ م واستطاعت هذه الوزارة دراسة ثلاثة مواضيع فقط من مجموع خمسين موضوعًا. ولكن في عام ١٩٧٥م استأنفت هذه الوزارة العمل في هذه الموسوعة، وقامت بطبع أول جزء من الموسوعة في عام ١٩٨١م وقامت في العام التالي بطبع الجزء الثاني، لكن القاهرة قامت بعمل عظيم جدا في هذا الجانب، وهو جمعها فقه كافة المذاهب الثمانية الموجودة؛ وهي: المالكي، والحنفي، والشافعي، والحنبلي، والزيدي، والجعفري، والإباضي، والظاهري[1].

والموسوعات التي كتبت في مجال الفقه المقارن والرائجة في يومنا هذا هي:

١ - **الموسوعة الفقهية الكويتية**: هذه المجموعة العظيمة التي أعدت وطبعت من جانب وزارة الأوقاف الكويتية تبلغ خمسة وأربعين مجلدًا.

خصائص الموسوعة الفقهية:

أ- هذه الموسوعة مرتبة على حروف الألف باء؛ مما أعطاها خاصية سهولة البحث عن المواضيع.

ب- في نهاية كل مجلد أدرج مجموع ترجمة الأعلام المذكورة في ذلك المجلد.

ج- أدرجت المسائل الجديدة والمستحدثة في ملحق مستقل.

د- أدرجت كذلك البحوث الأصولية في ملحق مستقل.

هـ- أوضحت في بداية كل بحث معاني الألفاظ الغريبة، الفقهية المتداولة على شكل لغوي واصطلاحي. هذه الموسوعة الفقهية تحتوي على وجهات نظر أئمة المذاهب الأربعة وأصحابهم وتلامذتهم، وتشير كذلك تارة إلى فتوي بعض

(١) تاريخ الفقه الإسلامي الأشقر، ص ٢٠٥، كذلك موسوعة الفقه الإسلامي المقارن (المعروف بموسوعة جمال عبدالناصر) ج١، ص ٥٨ وكذلك الموسوعة الفقهية (الكويتية) ج١، ص ٥٤

الصحابة.

٢- **موسوعة الفقه الإسلامي (المقارن)**: هذه المجموعة الكبيرة هي حصيلة جهود وزارة الأوقاف المصرية والتي تُعرف بموسوعة جمال عبد الناصر؛ لأن الموسوعة أنجزت بأمر منه.

خصائص موسوعة جمال عبد الناصر:

(أ) أنها موسوعة جامعة وقد أوردت وجهات النظر الفقهية للمذاهب الثمانية، الموجودة على الترتيب التالي: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، والظاهري، والزيدي، والإمامي، والإباضي.

(ب) نُظمت هذه المجموعة طبقًا لترتيب حروب الألف باء؛ لذلك يكون الوصول إليها سهلًا.

(ج) في كل موضوع تذكر التعريف اللغوي ثم الاصطلاحي، وبعد ذلك تذكر التقسيم.

٣- **الفقه الإسلامي وأدلته**: لكاتبه الدكتور وهبة الزحيلي؛ ويتكون من عشر مجلدات ضخمة.

خصائص كتاب الفقه الإسلامي وأدلته:

أ- هذا الكتاب أُلِّف طبقا لأبواب الفقه؛ كمثال على ذلك، الباب الأول: الطهارة، الباب الثاني: الصلاة، وأحكام الجنائز. والباب الثالث: الصيام والاعتكاف.

ب- يورد المؤلف وجهات نظر المذاهب الأربعة، ويجمع كذلك بشكل نادر بعض روايات الصحابة والتابعين.

ج- يبحث في المجلد الأخير لهذا الكتاب؛ البحوث والمواضيع المتعلقة

بالحكومة الإسلامية وظروف الدول الإسلامية والشؤون المتعلقة بها[1].

الفقه المقارن ترك تأثيرًا مباشرًا على عملية التقريب بين المذاهب الإسلامية، وخفف من حدة الخلافات الطائفية نوعا ما.

إنَّ التوسع في الفقه المقارن له دور كبير في تضييق الشقة بين الطوائف، وذلك على النحو التالي:

١. إعداد الأرضية المساعدة عبر تبادل الأفكار والرؤي المختلفة للمذاهب؛ من أجل بلوغ الحقائق الإسلامية في أبعادها المختلفة.

٢. إكمال صورة الفقه الإسلامي، وإثرائها بالتنوع.

٣. تعرف الباحثين على النِّسَب الكاذبة التي يذكرها دعاة التفرقة؛ لبعض أئمة المذاهب.

٤. إزالة شيطان الجهل وعدم الوعي لوجهات نظر الآخر، والذي يشكل أهم عنصر الاختلاف، وبتوسيع الفقه المقارن يمكن حل هذه المشكلة ويؤدي ذلك إلى التقريب بين المذاهب.

٥. تقوية حلقات المناظرة والحوار في مجال طرح الآراء الحقوقية والفقهية لكل مذهب من المذاهب، ووعي أتباعها لنقاط قوتها وضعفها.

٦. تخصيص المكانة والمنزلة اللائقة لكل واحد من المذاهب المتوازنة.

٧. ظهور نوع من قبول المصالحة الكلية، إلى جانب تقبل الفروق الفقهية الموجودة بين كافة المذاهب واعتبارها شيئًا طبيعيًا.

٨. فصل بين معني اختلاف وجهات النظر الفقهية، ومعني المضادة والتعارض والعداء[2].

(١)الفقه الإسلامي وأدلته ؛ تأليف الدكتور وهبة الزحيلي.

(٢)الفقه المقارن، تطوراته وادائه في التقريب بين المذاهب الإسلامية. مرجع سابق.

الفرع الثالث: التقريب بين المذاهب

المسلمون -كأمة- لم يختلفوا في أصول الدين ولا في أمهات الاعتقادات، فلقد كانت حقائق الدين وأركانه وثوابت الشريعة وحدودها هي الجامع المُوَحِّد للأمة في الاعتقاد الديني، وفي إطار هذا الجامع كانت التعدّديةُ وكان التنوّعُ وكان الاختلاف في فروع الفقه: عبادات ومعاملات، وهو ما أنتج المذاهب الفقهية المشهورة وغير المشهورة، بما مثلت من ثراء في الاجتهادات وغنى في التنوّع في إطار الأصول الفقهية ومصادر الاستنباط.

ولتجاوز التعصب المذهبي سعى عدد من العلماء إلى دراسة أصول المذاهب المختلفة والعمل على التوفيق بينها، مما أدى إلى ظهور الدعوة إلى التقريب بين المذاهب، وبُذِلت جهود كبيرة أثمرت تقاربًا بين المذاهب، وإن لم تثمر وفاقًا بين أتباع تلك المذاهب؛ لعوامل خارجة عن تعاليم المذاهب ومناهجها.

ومن الجهود العملية في هذا الجانب ما قام به الأزهر الشريف من اعتماد تدريس المذاهب السنية وغيرها في منهجه، وكذلك ما تقوم به كليات الشريعة في البدان الإسلامية من تدريس كافة المذاهب، فضلًا عن البحوث العلمية في الفقه المقارن لنيل الدرجات العلمية.

وتتويجا لهذه الجهود أُنشئ المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران سنة ١٩٨٨م، والذي استلهم من روح الثورة الإسلامية في إيران زخمًا كبيرًا انعكس في طموحاته وتطلعاته وفي نشاطاته وفعالياته وفي أفق الرؤية وبعد النظر[1].

(١) الدفاع عن فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية في زمن المحنة: ورقة مقدمة لمؤتمر التقريب في الفكر والوحدة في العمل، عقد في إسطنبول ما بين الفترة ١٤ــ ١٥ أبريل ٢٠٠٧م، تقديم زكي الميلاد.

وقد أدرك المهتمون بالتقريب بين المذاهب أن الأسس الجامعة بين المذاهب أكثرُ من العوامل المفرقة، وتتجلى تلك الأسس في الآتي:

أولًا: الإيمان بأصول الإسلام العقائدية الكبرى، وهي التوحيد الإلهي في الذات والصفات والفعل والعبادة، والإيمان بالنبوة الخاتمة لرسول الله ﷺ والقرآن الكريم الذي جاء به وما فيه والمعاد يوم القيامة.

ثانيًا: الالتزام الكامل بكل ضروريات الإسلام وأركانه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها.

ثالثًا: الالتزام الكامل بأن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأساسيان لمعرفة رأي الإسلام في شتى الأمور.

رابعًا: الالتزام بأن الإسلام سمح بالاجتهاد باعتباره بذلَ الوسع لاستنباط الحكم الشرعي من مصادره، وهذا يعني بالضرورة إمكان إيجاد الصلة بين مختلف النتائج التي أدى إليها الاجتهاد وبين الإسلام، حتى لو كانت مختلفة ومتضادة فيما بينها، وذلك لاختلاف الأفهام وزوايا النظر والقناعات.

خامسًا: إن مبدأ الوحدة الإسلامية يعبر عن سمة مهمة من سمات هذه الأمة المباركة، وبدونها لا يمكن لها أن تَدَّعِيَ اكتمال هويتها.

هذه الأسس الخمسة هي أهم ما يمكن أن تقوم عليه حركة التقريب، فالتقريب لا يقتصر على الجوانب الأخلاقية أو الجوانب الشعارية، ولا يتحدد بالجوانب التشريعية أيضا، بل يعبرها إلى مختلف الجوانب الفكرية والحضارية[1].

ومما يشجع على التقريب بين المذاهب أن العلماء المخلصين في شتى

(١) المذهبية حرية تجمع ولا تفرق للشيخ محمد علي التسخيري، بحث منشور في كتاب التعددية المذهبية في الإسلام وآراء العلماء فيها لسيد جلال الدين مير آقابي، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية-طهران، ط(١)، ١٤٢٨هـ، (ص٢٣-٢٦).

المذاهب يعملون على توحيد الأمة بالنظر إلى ما يجمع بينها، فهذا مفتي سلطنة عمان الشيخ أحمد الخليلي ينقل في كتابه (الحق الدامغ) جوابًا للإمام عبد الله بن حميد السالمي -وقد سئل عن أسباب تفرق الأمة إلى مذاهب متصارعة، وعن السبيل إلى توحيدها- فأجاب إجابة طويلة، نقتبس منها قوله: « وجَمْعُ الأمة على الفطرة الإسلامية بعد تشعب الخلاف ممكن عقلًا مستحيل عادة، وإذا أراد الله أمرًا كان، قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1]، والساعي في الجمع مُصْلحٌ لا محالة، وأقرب الطرق له أن يدعو الناس إلى ترك الألقاب المذهبية، ويحضهم على التسمي بالإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [2]، فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية، ولو بعد حين، فيبقى المرء يلتمس الحق لنفسه، ويكون الحق أولًا عند آحاد الرجال، ثم يفشو شيئًا فشيئًا، حتى يرجع إلى الفطرة، وَأَوْفَقُ البلاد لهذه الدعوة مهبِط الوحي ومتردَد الملائكة ومقصِد الخاص والعام حرمُ الله الآمن؛ لأنه مرجع الكل.

وليس لنا مذهبٌ إلا الإسلام، فمن ثم تجدنا نَقبَل الحق ممن جاء به، وإن كان بغيضًا، ونرد الباطل على من جاء به، وإن كان حبيبًا، ونعرف الرجال بالحق، فالكبير عندنا من وافقه، والصغير من خالفه، ولم يشرع لنا ابن إباض مذهبًا -وإنا نسبنا إليه؛ لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق-»[3].

هذا الكلام مجرد من العصبية المذهبية، وقائله حريص على وحدة الأمة، ويدور مع الحق حيث دار، ولا يضيره من أي وعاء خرج الحق، وهو ما أمر به الإسلام قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا

(١) سورة الأنفال، الآية (٦٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٩).

(٣) الحق الدامغ للشيخ أحمد بن حمد الخليلي، مكتبة مسقط، ط(١)، ١٤٠٩هـ، (ص١٦، ١٧).

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وهو منهج يشاركه فيه عدد كبير من العلماء من كافة المذاهب، حيث دعوا إلى الالتزام بقيمٍ عامة للسياسات التي ينبغي أن يراعيها الملتزمون بالدعوة للتقريب بين المذاهب، وتلك القيم هي:

١. التعاون في المتفق فيه: والمتفق فيه في المجالات العقائدية والتشريع يصل إلى أكثر من ٩٠٪، وفي المجالات الأخلاقية يكاد يكون التوافق كاملًا، وفي مجال المفاهيم والثقافة الإسلامية والمسيرة التاريخية والحضارية لا يكون الاختلاف إلا في تقييم بعض المواقف.

٢. الإعذار في المختلف فيه: فما دام هناك إيمان بانفتاح باب الاجتهاد -وهي الحالة الطبيعية التي لا يمكن إغلاقها بقرار- وما دامت أسباب اختلاف النتائج الاجتهادية قائمة وطبيعية فإن هذا يعني القبول باختلاف الآراء والفتاوي، فالأئمة أصحاب المذاهب قالوا إن آراءهم اجتهادية، فليسعنا ما وسعهم.

٣. تجنب التكفير والتفسيق والرمي بالابتداع: فليكن التعامل مع المختلف فيه من باب الخطأ والصواب، وليس من باب الكفر والإيمان، ولنلتزم بروح القرآن التي تدعو إلى الموضوعية حتى في النقاش مع الكفار الحقيقيين، حينما تأمر الرسول أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

٤. عدم المؤاخذة بلوازم الرأي: فمن المنطقي أن يحاسب الإنسان على رأيه، ويناقش بكل دقة وأناة، إلا أننا اعتدنا على مناقشات تُبنَى على لوازم الآراء، وبالتالي

(١) سورة المائدة، الآية (٨).

(٢) سورة سبأ، الآية (٢٤).

يـأتي التكفيـر والاتهـام بالابتـداع، في حـين أن صـاحب الـرأي قـد لا يقبـل تلـك الملازمة.

٥. التعامل باحترام عند الحوار: فـالقرآن الكـريم قـدَّم نظريـة رائعـة للحـوار المطلوب، تناولت مقدمات الحوار وظروفه وأهدافـه ولغتـه بشـكل لا مثيـل لـه، وكان مما تناوله مسألة الاستماع للآراء واتباع أحسنها ومسألة عدم التجريح حتى مع غيـر المـؤمنين بالإسـلام، قـال تعـالى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [(١)]، فكيف بنا -ونحن نتحاور كمسلمين متفقين على المبادئ التي أشـرنا إليها في إشارتنا لأسس عملية التقريب-؟

٦. تجنب الإساءة لمقدسات الآخرين: والنصوص الإسـلامية الآمـرة بـذلك كثيـرة، قـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)].

فإذا كان هذا هو الحال مع المشركين، فكيف يكون الأمر والحـال أن الحـوار بين مسلمين إخوة يعملون لهدف واحد ويشعر كل منهم بآلام الآخر؟

٧. الحرية في اختيار المذهب: فما دمنـا اعتبرنـا المـذاهب ثمـرة لاجتهـادات سمح بها الإسلام فإن علينـا أن نَعُـدها سـبلًا مطروحـة للإيصـال إلى مرضـاة الله، وحين تختلف فمن الطبيعي أن يدرس المسلم هذه المذاهب، وينتخـب الأفضـل منها وَفق معاييره التي يؤمن بها، والتي يرى من خلالها أنه أبرأ ذمته أمـام الله وأدى أمانته وعهده[(٣)].

إنّ الـدعوة إلى التقريـب بـين المـذاهب أدت إلى نتـائج إيجابيـة في المسـتوى

(١) سورة سبأ، الآية (٢٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٠٨).

(٣) المذهبية حرية تجمع ولا تفرق.

الأكاديمي والعملي؛ فإن كليات الشريعة اعتمدت منهج الفقه المقارن في كثير من البلدان الإسلامية، وقد وقفت بنفسي على منهج معهد العلوم الشرعية في سلطنة عمان - والذي تطور لاحقًا إلى كلية العلوم الشرعية- فوجدته يعتمد على تدريس كل المذاهب الإسلامية بحيادية، دون أن يلزم الطلاب بالمذهب الإباضي، مما أدى إلى معرفة طرق استنباط المذاهب الفقهية المختلفة وتقريب الشقة بين أتباعها، وأيضًا فإنَّ قوانين كثيرٍ من الدول الإسلامية لم تتقيد بمذهب واحد، وإنما أخذت ما يلائمها من مختلف المذاهب خاصة في قانون الأحوال الشخصية مما ساعد على ترسيخ التيسير في الأحكام والفتاوى وإبراز ثراء الشريعة الإسلامية.

المبحث الثاني

التنوع الفقهي والفكري والسياسي

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المذاهب الفقهية.

المطلب الثاني: التيارات والجماعات الإسلامية.

المطلب الثالث: التيارات السياسية.

المطلب الأول

المذاهب الفقهية

الفرع الأول: نشأة المذاهب الفقهية

المذاهب جمع مذهب، والمذهب في اللغة هو اسم مكان أو مصدر ميمي، والمقصود به هنا اسم المكان أو الغاية التي يُذْهَب إليها، وهو هنا المعتقد الذي يذهب إليه أو الرأي أو الحكم، والمذهب عند الفلاسفة والمناطقة: هو مجموعة مبادئ وآراء متصلة ومنسقة لمفكر أو لمدرسة، ومنه المذاهب الفقهية والأدبية والعلمية والفلسفية[1].

ذكرنا فيما سبق انتشار الصحابة في الأمصار، وترتب على ذلك نشأة مدرستي أهل الرأي في العراق وأهل الحديث في الحجاز، ونتيجة لعواملَ كثيرةٍ اختلفت اجتهادات الفقهاء، ويتصل بهذا الأمر أن الفقه في العصر العباسي تضخم ونما نموًّا كبيرًا، وسبب هذا أمورٌ منها:

١. أن العباسيين صبغوا أعمالهم بصبغة دينية.

٢. أن طبيعة النظام الذي جرى عليه الفقهاء تجعل المأثور يتزايد مع الزمن، فبعد أن كان في عهد الصحابة المأثور هو حديث رسول الله أصبح في عهد التابعين المأثور أقوال الرسول وكبار الصحابة، وفي عهد تابعي التابعين المأثور هذا وقولَ كبار التابعين، وهكذا، فكلما جاء جيل ورث عمن قبله آراء المجتهدين وفتوى المفتين وقضاء القضاة.

٣. أن مدرسة الرأي لم تكتف بما يحدث من أحداث؛ بل كأنها فرحت بما

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بمصر.

لديها من وسائل الاجتهاد وأدوات القياس والقدرة على «التخريج».

«ومن أسباب التضخم أن المملكة الإسلامية أصبحت في صدر الدولة العباسية بعيدة الأطراف، تضم بين جوانبها أممًا مختلفة، لكل أمة عادات اجتماعية، وعادات قانونية، وطرق في المعاملات.

والأمم التي دخلت الإسلام تمثل مختلف الشعوب، ولكل أمة دينٌ له تقاليده، فلما دخلت هذه الأمم في الإسلام واستقرت الأمور عرضت هذه العادات والتقاليد على الأئمة، فعرضت أمور العراق على أبي حنيفة وأمثاله، وفيها العادات الفارسية والعادات النبطية وغيرها، وعرضت أمور الشام على الأوزاعي وأضرابه، وفيها العادات الرومانية وغيرها، وفيها نظم القضاء الروماني، وما كان يجري في المعاملات وطريقة التقاضي، وعُرِضت أمور مصر على الليث بن سعد والشافعي وأقرانهما، وفيها العادات المصرية والرومانية كذلك، فكان من عمل الأئمة النظر إلى هذه التقاليد بالقواعد العامة للإسلام وإقرار بعضها وإنكار بعضها وتعديل بعضها، وهذا - بلا شك- باب واسع من الأبواب التي تضخم التشريع وتغذيه، وهذا ما جعل كل مصرٍ يغذي التشريع غذاءً خاصًّا قد لا يكون في غيره.

لقد كثر اختلاف الفقهاء وتعددت الأسباب، فقد اختلفوا - مثلًا - في تفسير الألفاظ الواردة في الكتاب أو السنة، كاختلافهم في معنى«القروء» الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [1] هل القرء الطهر أو الحيض؟ فذهب الحجازيون من الفقهاء إلى أنه الطهر، وذهب العراقيون إلى أنه الحيض، وكان اختلاف الحجازيين والعراقيين تابعًا لاختلاف الصحابة في هذا أيضًا، فقد روي عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت[2] أنهم فسروا الأقراء بالأطهار، كما

(١) سورة البقرة، الآية (٢٢٨).

(٢) زيد بن ثابت: (١١ق هـ - ٤٥ هـ = ٦١١-٦٦٥م):هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، أبو خارجة، صحابي ، كاتب الوحي، ولد بالمدنية ونشأة بمكة، هاجر مع النبي ﷺ وعمره ست سنين، كان رأسًا بالمدنية في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، كان عمر=

روي عن عبد الله بن مسعود أنها الحيض.

وقد يكون الاختلاف سببه تركيبُ الكلام وتأليف الجمل، وقد يكون سببه حمل الكلام على الحقيقة أو المجاز، وقد يكون سببه ما ورد من جملة آيات أو أحاديث إذا ألف بعضها مع بعض اختلفت المدارك فيما يستنتج منها وما لا يستنتج، وقد يكون سببه اختلاف الأحاديث الواردة في الموضوع، وأن كل مجتهد وصل إليه بعضٌ دون بعضٍ، أو صح عنده بعضٌ دون بعضٍ»[1].

تلك العوامل أدت إلى الاختلاف بين الفقهاء، وكان كبار الفقهاء كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان وجعفر الصادق، وقبلهم جابر بن زيد ذلك التابعي الجليل الذي قال فيه أستاذه وحبر هذه الأمة عبد الله بن عباس: «لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علمًا عما في كتاب الله»[2].

كان هؤلاء وغيرهم قد أتوا بأساليب جديدة في استنباط الفقه وتقرير الأحكام، وكل واحد من هؤلاء الأئمة تتلمذ على يديه عدد من العلماء وتبنَّوْا أقواله واستنبطوا من القواعد التي وضعها، وهكذا نشأت المذاهب الفقهية، ولقد اجتمعت الأمة على أن ظاهرة التعدّدية في المذاهب الفقهية واحدة من سمات الغنى والثراء الفكري في الفروع الإسلامية، وعلى أنها التطبيق الخلَّاق والثمرة الطيبة لتعدّدية الاجتهادات، خاصة وأنّ فقه الفقهاء في الإسلام لم يقف عند ميدان فقه الأحكام - بما يقتضيه من تعدّدية مناهج النظر والاستنباط - وإنما كان هناك فقه الواقع أيضًا، وكذلك مناهج تنزيل الأحكام على الواقع، أو التوفيق بينها، وجميعها ميادين لتعدّد الأفهام واختلاف الأولويات في ترتيب مصادر الاستنباط

=يستخلفه في المدنية إذا سافر، كان بن عباس على سعة علمه يأتيه للأخذ عنه وكان من الذين جمعوا القرآن من الأنصار في عهد النبي ﷺ وعرضه عليه، وكتب القرآن في المصحف لأبى بكر ثم لعثمان ، من رواة الأحاديث.الأعلام ج٣ ص (٥٧)

(١) ضحى الإسلام (١/ ٥٤٣).

(٢) التاريخ الكبير للبخاري، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت، (٢/ ٢٠٤).

وتنوّع المواقف من المرويات والمأثورات، ناهيك عن تنوّع واختلاف الوقائع والعادات والأعراف، ومن ثم المصالح التي قارنت وصاحبت اجتهادات الفقهاء.

لقد كان من أسباب تعدد المذاهب أيضًا الاختلاف في فهم الواجب وفهم الواقع والمزاوجة بينهما، وكما يقول ابن القيم: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يحيط بها علمًا، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر »[1].

فقد اختلفوا في ذلك بسبب العوامل المشار إليها سابقًا.

وفي فقه الأحكام وفقه الواقع تعدّدت الاجتهادات، فتكونت مذاهب منفتحة، ولم تتحول في عصر الاجتهاد إلى عقائد مغلقة ومستعصية على التجدّد ومراجعة الاجتهادات، وبعبارة أبي حنيفة: «هذا الذي نحن فيه رأي، لا نجبر أحدًا عليه، إنه أحسن ما قدرنا عليه، ومن جاءنا بشيء أحسن منه قبلناه»[2].

فهي مذاهب منفتحة على بعضها؛ لأنها تحتضن تراث الأمة، وتعتصم جميعها بالشريعة الواحدة، فهي لم تختلف في مصادر الشريعة، ولا على مبادئها وأحكامها، وإنما كان خلافها تنوّعًا في مناهج النظر في هذه الأصول، واختلافا في نسبة المُدْرَك من حقيقة المبادئ والأحكام[3].

وقد تكونت المذاهب وتنوعت طرق استنباطها، وتبنَّى كلَّ مذهب أهلُ مصر من الأمصار، وقد تتعدد البلدان التي تتبنى مذهبًا واحدًا من المذاهب، وينتشر المذهب ويستقر حسب توفر العوامل التي تساعد على انتشاره، وقد يضعف لقلة

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٧٧).

(٢) مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه للذهبي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، لجنة إحياء المعارف النعمانية، ط(٣)، ١٤٠٨هـ، (ص٣٤) .

(٣) إرشيف إسلام أون لاين: ١٤/ ٤/ ٢٠٠٤م.

حامليه وعجزهم عن نشر تعاليمه، والمذاهب الموجودة حاليًا ثمانية، وهي مرتبة بحسب تاريخ وفاة مؤسس كل مذهب منها كما يلي:

١- المذهب الإباضي، توفي مؤسسه سنة٩٣هـ.

٢- المذهب الزيدي، توفي مؤسسه سنة ١٢٢هـ.

٣- المذهب الجعفري، توفي مؤسسه سنة ١٤٨هـ.

٤- المذهب الحنفي، توفي مؤسسه سنة ١٥٠هـ.

٥- المذهب المالكي، توفي مؤسسه سنة ١٧٩هـ.

٦- المذهب الشافعي، توفي مؤسسه سنة ٢٠٤هـ.

٧- المذهب الحنبلي، توفي مؤسسه سنة ٢٤١هـ.

٨- المذهب الظاهري، توفي مؤسسه سنة٢٧٠هـ.

وقد توجد داخل كل مذهب مذاهب فرعية أو اختلافات داخلية فرعية، كما حدث في المذهب الزيدي من وجود مذاهب فرعية مثل: الهادوية والقاسمية والناصرية وغيرها[1].

الفرع الثاني: فتاوى العلماء في شرعية المذاهب الثمانية

بيَّنا في مبحث سابق أن المذاهب الإسلامية المعتبرة استندت في اجتهادها على الكتاب والسنة، وأن الاختلاف كان في التصور والتأويل والتفسير، وأن الاختلاف في المصادر الأخرى لا يضر؛ لأنها في الأصل تستند في شرعيتها على المصدرين المتفق عليهما.

(١) دعوة إلى كلمة سواء بين المذاهب الإسلامية، محاولة في التقريب والتعاون بين مذاهب الأمة الإسلامية، محاضرة قدمها الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الشيخ توفيق الشيرازي الصباغ، في كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة في ١٤ ربيع الثاني ١٤٢٨ هـ الموافق ١ مايو ٢٠٠٧م منشورات مجمع الفقه الإسلامي الدولي، منتدى الفكر الإسلامي – جدة.

وقد أفتى بشرعية المذاهب الثمانية المذكورة سابقًا عددٌ من العلماء ممن يمثلون مذاهب مختلفة، وسنذكر بعض هؤلاء حسب ما يسمح به البحث.

وفتاوى هؤلاء العلماء جاءت ردًّا على سؤال وجهه الأمير غازي بن محمد بن طلال -رئيس مجلس أمناء مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي-، ونصه: «هل يجوز أن تُعتبر المذاهب التي ليست من الإسلام السنّي جزءًا من الإسلام الحقيقي؟ أو بمعنى آخر: هل كل من يتبع أو يمارس أيَّ واحد من المذاهب الإسلامية - يعني المذاهب السنية الأربعة، والمذهب الظاهري، والمذهب الجعفري، والمذهب الزيدي، والمذهب الإباضي- يجوز أن يعد مسلمًا؟ ».

جاءت أجوبة العلماء كالآتي:

١. شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي: « وأصحاب هذه المذاهب التي جاءت في السؤال - فيما نعلم من ظواهر أحوالهم- كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويعترفون بهذه الأركان الخمسة ويؤدونها، وإذا وجد خلاف بينهم في أداء هذه الأركان فهو خلاف في الفروع لا في الأركان والأصول، وبذلك لا نستطيع أن نقولَ عن أصحاب هذه المذاهب بأنهم غير مسلمين، وشريعة الإسلام تأمر أتباعها أن يحكموا على الناس على حسب ظواهرهم، أما بواطنهم فالله تعالى وحده العليم بها، وفي الحديث الشريف: «أمرت أن أحكم على الناس بالظاهر، والله يتولى السرائر»[1]، ونحب أن نضيف إلى ذلك أن كليات الشريعة بالأزهر الشريف تدرس هذه المذاهب، وتوضح ما بينها من خلاف، علمًا بأن هذا الخلاف إنما هو -كما سبق أن أشرنا- خلاف مشروع؛ لأنه في الفروع».

(١) قال الحافظ السخاوي في كتاب المقاصد الحسنة، (ص١٦٢): «اشتهر بين الأصوليين والفقهاء، بل وقع في شرح مسلم للنووي في قوله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم» ما نصه: (معناه إني أمرت بالحكم الظاهر، والله يتولى السرائر، كما قال ﷺ) انتهى، ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له، وكذا أنكره المزي وغيره».

٢. الدكتور علي جمعة -مفتي الديار المصرية السابق-: «وهذه المذاهب الثمانية: المالكية والحنفية والحنابلة والشافعية -وهي التي يُطلق عليها مذاهب أهل السنة- والجعفرية والزيدية والإباضية والظاهرية -وهي التي يطلق عليها المذاهب غير السنية- إذا نظرنا إلى هذه المذاهب في فقهها وأصول فقهها رأينا أن الخلاف بينها إنما هو في نطاق [المضمون][1]، ولم يقع بينها خلاف في المقطوع به، الذي يكفر منكره، والحمد لله رب العالمين».

٣. الدكتور مظفر شاهين -رئيس المجلس الأعلى للشؤون الدينية التركية-: «.. إن انتساب أي مسلم إلى مذهب من المذاهب -التي ذكرت في السؤال- ليس متعلقًا بإيمانه وإسلامه، وإنما ذلك أمر متعلق بالمنهجية التي رجحها في ممارسة العبادات والمسئوليات الدينية، ومن ناحية أخرى ليس هناك أي اختلاف وتفاوت بين المذاهب المذكورة في موضوع قبول وتصديق المبادئ الأساسية الإسلامية، فأما وجود آراء مختلفة حول تفسير وإيضاح بعض المبادئ والأحكام الدينية فهو وضع يعد من جملة الثورة الفكرية للمجتمع الإسلامي.. ».

٤. الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي -مدير مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر-: «وأصحاب المذاهب المعروفة في العالم الإسلامي -التي تتبعها جماهير من المسلمين- كلهم داخلون في مفهوم الإسلام الذي ذكرناه، سواء كانت هذه المذاهب فقهية تعنى بالأحكام العملية عند المذاهب السنية الأربعة المعروفة ومعها المذهب الظاهري، أم كانت مذاهب عقدية تعنى بأصول الدين -أي بالجانب العقائدي منه- مثل المذهب الأشعري أو المذهب الماتريدي، أم كانت تجمع بين الجانب العقدي والجانب العملي، شأن المذهب الجعفري والمذهب الزيدي والمذهب الإباضي».

٥. الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة -الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي

(١) هكذا وردت عبارة «المضمون» وأظن المقصود «المظنون» بدليل الذي جاء بعدها ولم يقع خلاف في المقطوع به. والله أعلم.

بجدة-: «المسلمون أمة واحدة يؤمنون بإله واحد، كتابهم المنزل إليهم القرآن، قبلتهم واحدة، وأصول دينهم خمسة: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فمن أخذ بهذه الأصول والتزمها فهو مؤمن مهما كان مذهبه، وليست المذاهب في واقع الأمر إلا اجتهادًا في فهم نصوص الكتاب والسنة التي هي مصادر هذا الدين، وإنما تمايزت طرقها في ذلك أو اختلف أئمتها في التفسير والتأويل والأصول والقواعد والترجيح بين الأقوال في عدد من المسائل».

٦. الشيخ محمد علي التسخيري -الأمين العام لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية-: «نعم، يعد كلُّ المتبعين لأي واحد من هذه المذاهب الإسلامية المذكورة في السؤال مسلمًا له كل ما للمسلمين من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات، ويُشَكِّلون بمجموعهم أفراد الأمة الإسلامية».

٧. السيد محمد حسين فضل الله -المرجع الديني الشيعي في لبنان-: «إن الإسلام يتمثل بإظهار الشهادتين بكل لوازمهما العقدية مما اشتمل عليه القرآن الكريم، فمن التزم بهما كان مسلمًا، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، حتى إنكار الضروري من الدين لا يوجب الكفر، إلا إذا التفت المنكر إلى لازمه من تكذيب الرسول ﷺ، باعتبار أن بداهته تلازم ذلك غالبًا، أما الاختلاف في النظريات مما اختلف فيه العلماء من خلال النقاش في وثاقة راوٍ، أو دلالة حديث، أو من خلال بعض الأمور المثيرة للجدل، فإنها لا تؤدي إلى التكفير.

وفي ضوء ذلك، فإننا نعتقد أن كل المسلمين في مذاهبهم داخلون في مصطلح الأمة الإسلامية، ولا يجوز تكفيرهم من أي جهة».

٨. الشيخ إبراهيم بن محمد الوزير -رئيس المركز الإسلامي للدراسات والبحوث في صنعاء-: «إن هذه المذاهب المذكورة - المذاهب الأربعة: المذهب الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، والمذهب الجعفري، والزيدي، والإباضي، والظاهري- كلها مذاهب إسلامية معتبرة، وأي مسلم تابع لأي واحد من هذه المذاهب يجب أن يعتبر ويعد مسلمًا، ولا يحق لأحد أن يعتبره أو يعده

خارجًا عن الإسلام».

٩. الشيخ أحمد بن حمد الخليلي -المفتي العام لسلطنة عمان-: «إن الإسلام دين يتمثل في المعتقدات الحقة التي تنطوي عليها إجمالًا الشهادتان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ويجسدها تطبيق الإسلام في الحياة العملية بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام، فكل من أتى بالشهادتين، ولم ينقضهما بإنكار ما علم من الدين بالضرورة فإنه يعد مسلمًا، وممارسته للأركان العملية المذكورة تعد تطبيقًا لتعاليم الإسلام، سواءً كان على أي مذهب من المذاهب التي تنتمي إلى هذا الدين، ولا يجوز إخراجه من ملة الإسلام نظريًّا ولا تطبيقيًّا...»[1].

هذه الفتاوى صدرت من علماء يمثلون أهم المراكز الإسلامية في العالم، وهناك غيرهم لم نذكرهم؛ خشية التطويل، وهم يمثلون -كذلك- المذاهب الإسلامية المختلفة، وقد اتفقوا جميعًا على مشروعية المذاهب الإسلامية الثمانية، وذهب بعضهم إلى أن إنكار المعلوم من الدين بالضرورة لا يخرج صاحبه من الإسلام ما لم يلتفت المنكر إلى لوازمه، كتكذيب الرسول ﷺ، كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمد حسين فضل الله.

الفرع الثالث: مقررات المؤتمرات الإسلامية

المؤتمرات الإسلامية -في الغالب- تضم علماءَ يمثلون كافة المدارس والمذاهب الإسلامية، وتُقَدَّم فيها بحوثٌ علمية مُحَكَّمة من أهل الاختصاص، وتصدر بياناتها بعد مراجعة، وفي بعض الأحيان تُتَبَنَّى التوصياتُ التي تَرِدُ في هذه البيانات.

فهذه المؤتمرات مهمة، وتساعد في تحرير مواضع الاختلاف وتضييق الشُّقَّة

(١) احترام المذاهب، تحرير وإعداد غازي بن محمد بن طلال، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي- الأردن، ط(١) ٢٠٠٦م، (ص١٧) وما بعدها بتصرف كبير واختصار.

بين المسلمين، وقد صدرت بيانات وتوصيات مهمة عن هذه المؤتمرات، نذكر منها:

أولًا: المؤتمر الدولي المقام في عمان بعنوان (حقيقة الإسلام ودوره في المجتمع المعاصر):

صدر عن هذا المؤتمر بيان، من أهم بنوده فيما يتعلق بموضوع بحثنا الآتي:

(أ) كل من يتبع أحد المذاهب الأربعة من أهل السنة والجماعة -الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي- والمذهب الجعفري والمذهب الزيدي والمذهب الإباضي والمذهب الظاهري فهو مسلم، ولا يجوز تكفيره، ويحرم دمه وعرضه وماله.

ووفقًا لما جاء في فتوى شيخ الأزهر لا يجوز تكفير أصحاب العقيدة الأشعرية ولا من يمارس التصوف الحقيقي، وكذلك لا يجوز تكفير أصحاب الفكر السلفي الصحيح، كما لا يجوز تكفير أي فئة أخرى من المسلمين تؤمن بالله ﷻ وبرسوله ﷺ وأركان الإيمان، وتحترم أركان الإسلام، ولا تنكر معلومًا من الدين بالضرورة.

(ب) ما يجمع بين المذاهب أكثرُ بكثير مما بينها من الاختلاف؛ فأصحاب المذاهب الثمانية متفقون على المبادئ الأساسية للإسلام، فكلهم يؤمنون بالله ﷻ إلهًا واحدًا أحدًا، وبأن القرآن الكريم كلام الله المنزل، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولًا للبشرية كافة، وكلهم متفقون على أركان الإسلام الخمسة: الشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وعلى أركان الإيمان: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، واختلاف العلماء من أتباع المذاهب هو اختلاف في الفروع وليس في الأصول، وهو رحمة، وقديما قيل: إن في اختلاف العلماء في الرأي أمر جيد.

(جـ) الاعتراف بالمذاهب في الإسلام يعني الالتزام بمنهجية معينة في

الفتاوى، فلا يجوز لأحد أن يتصدى للإفتاء دون مؤهِّلات شخصية معينة يحددها كل مذهب، ولا يجوز الإفتاء دون التقيد بمنهجية المذاهب، ولا يجوز لأحد أن يدعي الاجتهاد ويستحدث مذهبًا جديدًا أو يقدم فتاوى مرفوضةً تُخرِج المسلمين عن قواعد الشريعة وثوابتها وما استقر من مذاهبها[1].

ثانيًا: المؤتمر الدولي الأول للمذاهب الإسلامية والتحديات المعاصرة الذي نظمته جامعة آل البيت في الأردن في شوال ١٤٢٦هـ.

صدر بيانُه الختامي بعنوان: «المذاهب الإسلامية والتحديات المعاصرة»، وقد جاء فيه:

«وفقا لما قُدِّم في مؤتمرنا هذا من بحوث ودراسات وما دار فيه من مناقشات وحوارات بين يدي علماءَ أجلاءَ من داخل المملكة الأردنية الهاشمية ومن مختلف الأقطار الإسلامية، بما ينوف عن خمس عشرة دولة إسلامية، تباحثوا وتدارسوا في أسس الحوار المذهبي وآدابه، ووحدة الثوابت والأصول بين المذاهب الإسلامية، وأهمية التسامح مع وجود الخلافات المذهبية، في ظل التحديات المعاصرة التي تواجه الأمة الإسلامية، وفقًا لذلك كله فإننا -نحن الموقعين أدناه- نعرب عن توافقنا على ما يرد تاليًا ونقر به... ».

واشتمل البيان على البنود الثلاثة المذكورة أعلاه بنصها واعتمدها[2].

(١) احترام المذاهب لغازي بن محمد بن طلال ، وقد أكد على البنود الثلاثة السابقة منتدى العلماء والمفكرين المسلمين التحضيري للدورة الاستثنائية لمؤتمر القمة الإسلامي في مكة المكرمة في ٥-٧ شعبان ١٤٢٦هـ، وقد اعتمدها مؤتمر القمة، (ص١٧٦-١٧٧).

(٢) وقع على البيان ثلاثة وثلاثون عالمًا وعالمة، أبرزهم الدكتور الأحمدي أبو النور وزير الأوقاف المصري الأسبق، والدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية السابق، والدكتور عبد المجيد النجار رئيس المركز الإسلامي بفلسطين، والدكتور كهلان بن نبهان الخروصي مستشار بمكتب الإفتاء سلطنة عمان، والدكتور عادل الطويسي رئيس جامعة آل البيت.
ينظر: احترام المذاهب لغازي بن محمد بن طلال (ص٣٢٧-٣٣٣).

ثالثًا: (بلاغ مكة) الصادر عن الدورة الاستثنائية الثالثة لمؤتمر القمة الإسلامي:

جاء البلاغ مؤمِّنًا على ما اتفق عليه العلماء في اجتماعهم الذي سبق لقاء القمة، واعتمد البنود الثلاثة المذكورة سابقًا، وجاء في بلاغ مكة ما يلي:

«إننا نستشعر ضمير الأمة الذي عبر عنه علماؤها ومفكروها - جزاهم الله عنا خير الجزاء - في لقائهم الذي سبق اجتماع القمة، مدركين للتحديات التي أشاروا إليها، ولا بد من التعامل مع هذه التحديات من خلال رؤية استراتيجية، تخطط لمستقبل الأمة، وفي هذا الإطار فإنه ينبغي علينا الوقوف وقفةً صادقةً حازمةً مع النفس حول إصلاح شأن الأمة، الذي يبدأ من إصلاح الذات بالاتفاق على كلمة سواء، ركيزتها كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، والتصدي بكل حزم لدعاة الفتنة والانحراف والضلالة الذين يستهدفون تحريف مبادئ الإسلام السامية الداعية إلى المحبة والسلام والوئام والتحضر، إلى أفكار منحرفة تقوم على الجهل والانغلاق والكراهية وسفك الدماء.

إن أمتنا الإسلامية مطالبة اليوم للاجتماع على الخير مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [1] الأمر الذي يُوجِبُ من علمائنا وفقهائنا توحيد كلمتهم في فضح انحراف هذه الفئة الضالة وبطلان مزاعمها واتخاذ موقف حازم ضدها»[2].

رابعًا: ندوة تطور العلوم الفقهية:

وهي ندوة تنظمها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بسلطنة عمان، وتتبع منهجًا يتم فيه تحديد موضوع معين ويخاطب علماء المسلمين من كل المذاهب؛ ليقدموا رؤيتهم في الموضوع المطروح كلٌّ حسب مذهبه، ويتم التداول في

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٣).

(٢) احترام المذاهب (ص٣٧٤).

الموضوع المطروح؛ ليصلوا في النهاية لبيانٍ ختاميٍّ يمثل الرؤية المشتركة للعلماء المشاركين، وقد عقدت حتى الآن أربع عشرة ندوة، وجاء في البيان الختامي للندوة الثانيةَ عشْرةَ:

أولًا: لقد تم في الندوة بحث فقه المشتركات الإنسانية عند علماء الإسلام عمومًا في ضوء الرؤية الاجتهادية لكل منهم، وفقًا للظروف الزمانية والمكانية التي عاشوها، ولذا فلا بد من مراعاة ذلك عند مناقشة آرائهم وفتاواهم ونصوصهم الفقهية في هذا الموضوع، ومن النظر في التراث الفقهي في ضوء تأثيرات الزمان والمكان، ومن إعادة قراءة المصطلحات الشرعية المتعلقة بالمشترك الإنساني وتعميق فهمها في التعامل مع الآخر وَفق تصور القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من أجل تقديمها في قالب إيماني وسلوكي، مع التعريف بهذه الحقوق القرآنية باعتبارها منهج هداية يرعى مصالح البشر ويقودهم إلى التآلف والتعارف.

ثانيًا: تعزيز الجوانب المشتركة لدى علماء المسلمين من المذاهب الفقهية المختلفة، من أجل إزالة الحواجز الفكرية والعمل على تلاقي الأفكار وتبادل الخبرات للخروج بأعمال فقهية تجمع المسائل المتفق عليها في المشتركات الإنسانية[1].

هذه المؤتمرات أسهمت إسهامًا ملحوظًا في تضييق الشُّقَّة بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة، سواء على مستوى العلماء المشاركين في هذه المؤتمرات أو غيرهم من العلماء المنصفين الذين يؤمنون بأن كل هذه المذاهب تستند في مقرراتها وقواعدها على الكتاب والسنة، وأن الاختلاف في الاجتهاد أمر مشروع وضروري للأسباب المذكورة سابقًا.

(١) البيان الختامي لندوة تطور العلوم الفقهية في نسختها الثالثة عشرة تحت عنوان (الفقه الإسلامي... المشترك الإنساني والمصالح) والتي عقدت في مسقط عاصمة سلطنة عمان، في الفترة من السادس وحتى التاسع من جمادى الآخرة لعام ١٤٣٥ هـ الموافق السادس وحتى التاسع من إبريل لعام ٢٠١٤.

المطلب الثاني

التيارات والجماعات الإسلامية في السودان

تمهيد:

سيتناول هذا المطلب أبرز الجماعات الإسلامية العاملة على الساحة السودانية، وهي الحركة الصوفية والأنصار وأنصار السنة والإخوان المسلمون، وستُرتَّب حسب الظهور التاريخي لكل جماعة.

ولم يتطرق البحث إلى الحركة الإسلامية ولا إلى الجماعات السلفية الأخرى، باعتبار أن الحركة الإسلامية لا تختلف عن الإخوان المسلمين في المبادئ والمفاهيم المُؤَسِّسَة والأهداف العامة، وإنما الاختلاف في التنظيم وبعض الاجتهادات المتعلقة بالتعاطي مع البيئة السودانية.

وكذلك الحركات السلفية، فإنها متفقة مع جماعة أنصار السنة في الأصول والمفاهيم العامة، والاختلاف بينها اختلاف تنظيمي أو تقديري لبعض المواقف.

والبحث يهدف إلى إبراز فقه التعايش، ولذا سيكون التركيز على المبادئ الجامعة، ولن يتعرض للاجتهادات المختلف عليها؛ لأنها معلومة ومنتشرة، وهي أحد أسباب الشقاق.

الفرع الأول: المتصوفة

قال الجرجاني: «التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرًا، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنًا، فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال.

وقيل: مذهب كله جد، فلا يخلطونه بشيء من الهزل.

وقيل: تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدعاوي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة، واتباع رسول الله ﷺ في الشريعة»[(١)].

التصوف هو العنوان المتعارف عليه للحياة الروحية الإسلامية، أو هو الجانب العاطفي من الإسلام، أو هو تزكية النفس واكتساب الكمال الإنساني، أو هو مقام الإحسان الذي تنبثق فيه العبادة والسلوك الإيماني من المراقبة والشهود: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٢)].

وهو -من أية زاوية ننظر منها- ظاهرة ثقافية اجتماعية روحية، وُلدت في عالمنا العربي الإسلامي، وعاشت -وما تزال- في هذا العالم تمارس وظائفَ متفاوتةً، وتلبي حاجاتٍ أصليةً، وتستقطب جماهير عريضة.

وقد تختلف كلمة الباحثين حولها، أو حول بعض جوانبها وأطوارها، لكنهم يتفقون جميعًا على أهميتها وسَعَةِ تأثيرها واستحقاقها للدراسة العلمية والبحث النزيه[(٣)].

ويرجع تاريخ التصوف لعصور الإسلام الأولى؛ حيث يشير الباحثون إلى أن بذرة التصوف ولدت بالبصرة بعد عصر الصحابة في أواخر القرن الأول، وأخذت تنتشر في مختلف الأمصار والأقطار الإسلامية في صورة الزهد الموروث عن السلف، ذي الروح العاطفية الحارة، ثم نما وازدهر وشاع وانتشر، وأصبح تيارًا

(١) التعريفات للجرجاني (ص٥٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم (٥٠)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان، (١/ ١٩)، والإمام مسلم في صحيحه برقم (٩)، كتاب الإيمان، باب الإيمان: ما هو وبيان خصاله، (١/ ٣٩).

(٣) في التصوف الإسلامي للدكتورين حسن الشافعي وأبو اليزيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ط(١) ١٤٢٨هـ، (ص٣).

روحيًّا تربويًّا ينتظم الشيوخ والمريدين، ويصدر النظريات والأفكار، واتخذ عندئذ اسم التصوف عنوانًا على صيغته الجديدة، وصار الصوفيةُ طائفةً أو فئةً من المسلمين تتميز عن المتكلمين والمحدثين والفقهاء، وتدون مثلَهم مبادئَها وتاريخَها، وتشارك في الفكر والحياة الإسلامية[1].

تعددت تعريفات التصوف حتى تجاوزت ألفًا من العدد، بيد أن التعريفات الاصطلاحية ليست كافية، خاصةً في أمر روحي دقيق ذي تجليات متنوعة كالتصوف، الأمر الذي يدعو بعض الباحثين إلى العزوف عن تلك التعريفات كطريق للتعرف على ذاته[2].

إن التصوف الإسلامي نشأ ضرورةً لازمةً في المجتمع السني المسلم، انبثاقًا من ميراث النبوة المحمدية؛ إذ للنبوة ثلاثُ وظائف:

أولُها: بلاغ الشرع وبيانه وتعليمه للناس، سواءٌ في ذلك العقائد النظرية والأحكام العملية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[3].

ثانيها: سلطة تنفيذ الأحكام ومعاقبة المقصر وردع المعتدي وتحكيم الشرع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[4].

ثالثُها: تزكية النفوس وقيادة الأرواح في سيرها نحو الحق تعالى ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[5].

(١) السابق (ص٤١).

(٢) السابق (ص٢٣).

(٣) سورة المائدة، الآية (٦٧).

(٤) سورة التوبة، الآية (٧٣).

(٥) سورة آل عمران، الآية (١٦٤).

لقد كان الرسول ﷺ يقوم بهذه الوظائف الثلاثة، ومن بعده الخلفاء الراشدون، وبعد انقضاء عهد الخلافة الراشدة أخذت هذه الجوانب تتوزع تدريجيًّا داخل المجتمع السنيّ المسلم، فظهر العلماء المجتهدون - الفقهاء السبعة بالمدينة، ثم المدارس الفقهية المعروفة إلى اليوم- وقاموا ببيان الأحكام المنصوصة، واستنباط الجديد منها باعتبارهم أولي الأمر العملي وأهل الذكر الشرعي.

وقام أكثر الخلفاء والأئمة على تنفيذ الشرع ورعاية الأمة، أو سياسة الدنيا بالدين -كما يقول ابن خلدون-. أما وراثة النبوة في إرشاد النفوس وتربيتها وقيادة الأرواح فقد شغل بها قوم من الزهاد العارفين بعد عصر الصحابة والتابعين، وربما جمع بعضهم بين الاجتهاد في العلم والتوفر على العمل؛ كالحسن البصري[1] والجُنيد والغزالي[2] وابن عبد السلام.

وهذا الجانب الأخير من تراث النبوة هو الذي صدر عنه التصوف الإسلامي، مستمِدًّا الأسوة من حياة النبي الكريم ﷺ، ومن زهد الصحابة والتابعين، فكان الصوفية فيما بعدُ ورثةَ النبي ﷺ في هذا الجانب، فاهتموا بالتزكية وتربية النفوس وإعدادها لوصال بارئها وصقلها لتلقي تجلياته وأنواره، من خلال منهج أخلاقي وسَفَرٍ روحي ومتابعة جادة لمسلك النبي ﷺ؛ طلبًا للشهود واليقين، وسعيًا

(١) الحسن بن يسار البصري: أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة وحيد الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، توفى سنة ١١٠هـ، انظر: طبقات المفسرين، الداودي، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مطبعة الاستغلال الكبرى، القاهرة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ج١، ص١٤٧.

(٢) الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، الإمام المشهور، صاحب كتاب إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والمستصفى في أصول الفقه، .... انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، المحقق: إحسان عباس،: دار صادر – بيروت، طبعة ١٩٩٤هـ، ٤/ ٢١٦.

للكمال الإنساني[1].

يقول ابن القيم: «وفي القلب شَعَث لا يَلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يُطفِئُها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة أبدًا»[2].

وفلسفة التصوف لا تخرج عن هذه المفاهيم التي ذكرها ابن القيم، مما يؤكد أن جوهر التصوف يستند إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة، فالتصوف يدعو إلى تزكية النفوس والتقوى والزهد والخوف والرجاء والرضا، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

الصوفية في السودان:

دخل الإسلام السودان أول الأمر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ولم يتجاوز حينها منطقة (دنقلا) التي وقَّع الصحابي عبد الله بن أبي السرح مع حكامها اتفاقية البقط المشهورة، وفي مرحلة لاحقة انتشر الإسلام بجهود فردية، قام بها التجار والعلماء وأهل التصوف.

وشيوخ الطريق هم الذين أسهموا بقدر معلوم في نشر الإسلام في السودان[4]،

(١) في التصوف الإسلامي (ص٢١).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم، تحقيق الشيخ حامد الفقي، دار الفكر العربي، القاهرة، (ص١٦٤).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

(٤) قبل سقوط المملكات المسيحية في السودان انتشر الإسلام مع الهجرة العربية والعلاقات التجارية التي أقامها تجار خلطوا بين أعمالهم والدعوة للإسلام، واستمر هذا الحال قرونًا من الزمان، حتى قامت مملكة الفونج ثم مملكة الفور، وبعد قيام هاتين المملكتين تراخت هجرة القبائل العربية للسودان، وتولى شأن الدعوة للإسلام فقهاء ورجال طرق، ووجدوا من الحكام الفونج والفور مساندة كبيرة، وكانت هذه أول مرة يساعد الحكام في نشر الإسلام؛ لأن الحكام= =الذين

وهم الذين شيدوا المساجد، وأضاؤوا بنور القرآن، فقاموا بمحو الأمية الدينية في البلاد، وتجمع الناس حول مساجدهم ومقاماتهم، فتكونت المدن والقرى الكبيرة على ضفتي النيل، مثل نشأة (العيلفون) حول مسجد الشيخ إدريس ود الأرباب[1]، ونشأة (الدامر) حول مسجد الشيخ مدني السني، وغيرها.

وهم الذين جمعوا ولاءات الناس حول طرقٍ أتاحت لهم مجال اتصال وتعامل أوسع وأعمق من القبيلة، وهم الذين حصلوا على قيادة الناس الاختيارية، فكانوا مصدر التوجيه الفعلي للناس، فلعبوا دورًا هامًّا في تكوين الشعب السوداني السناري حتى قيام الدعوة المهدية[2].

والتصوف في السودان كله سني، ويعتقد عقيدة أهل السنة والجماعة التي أصلها الإمام الأشعري.

لقد ركز التصوف في السودان على التزكية والتربية، وساهم في تذويب القبلية وصهرها، وقد عبر الشيخ العبيد محمد بدر عن الفكر الصوفي بقوله: «من شروط الصوفي أن يكون ظاهره موافقًا للشريعة، وباطنه مجالًا للحقيقة؛ لأن الشريعة بلا حقيقة عاطلة، والحقيقة بلا شريعة باطلة».

=تعاقبوا على الولاية في بغداد والقاهرة لم يهتموا بنشر الإسلام في السودان، وتدخل بعض حكام مصر في شئون ممالك السودان لأغراض سياسية فقط، ولكن سياسة هؤلاء الحكام في مصر من فاطميين وأيوبيين ومماليك ساعدت على نشر الإسلام من غير قصد منهم، وذلك لأنهم ضيقوا على القبائل العربية التي كانت تقيم في صعيد مصر، وكانت هي بدورها تعارضهم فيحملون عليها عقابًا وتأديبًا، مما جعلها تفر جنوبًا لاجئة للسودان.

(١) هو إدريس بن محمد الأرباب بن علي؛ ولد سنة ٩١٣هـ بالعيلفون بلدة على شاطئ النيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم، وقيل بالحليلة كانت قريبة من حلفاية الملوك، وتوفي سنة ١٠٦٠هـ قال عنه صاحب الطبقات: هو الشيخ الإمام حجة الصوفية مرشد السالكين منقذ الهالكين قطب العارفين علم المهتدين، مظهر شمس المعارف بعد غروبها. أنظر:كتاب طبقات ود ضيف الله، ص(١٢-٢٠)

(٢) يسألونك عن المهدية للصادق المهدي (ص٥٦-٥٧).

وفيما يلي بيان ملخص لأهم الطرق الصوفية في السودان:

١. القادرية:

وهم أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني، أو الجيلي -نسبة إلى جيلان من طبرستان-.

والشيخ عبد القادر الجيلاني أحدُ الأقطاب الأربعة في التصوف، وهم: الجيلاني، وأحمد الرفاعي، وأحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي.

ولد الجيلاني سنة ٤٧١هـ، وتوفي سنة ٥٦١هـ، ودفن في بغداد[١].

والطريقة القادرية هي ثاني طريقة دخلت السودان بعد الشاذلية[٢]، وذلك في عام ١٥٤٥م في أوائل سلطنة الفونج، حين قدم الشيخ تاج الدين البهاري[٣] من بغداد إلى السودان؛ تلبية لدعوة أحد تجار (أربجي) الذين قابلوه في الحج، وأثناء تلك الزيارة انضم للطريقة القادرية بعض أعيان البلاد، أمثال الشيخ عجيب المانجلك شيخ العبدلاب، والشيخ محمد الأمين عبد الصادق جد الصادقاب، والشيخ بانقا الضرير جد اليعقوباب، والشيخ عبد الله العركي جد العركيين، والشيخ محمد سوار الذهب جدّ السواراب، وهؤلاء جميعًا من أهم بيوتات السودان السناري.

ويعرف الجيلاني التصوف بأنه: «الصفاء من أدران النفس والهوى، وأنه الصدق مع الحق، وحسن الخُلق مع الخَلق».

---

(١) المرجع الكامل في الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية منذ سقيفة بني ساعدة إلى اليوم لصلاح أبوالسعود، مكتبة النافذة، مصر، ط(١)، ٢٠٠٥م، (ص٢٢٥).

(٢) يسألونك عن المهدية (ص٥٨).

(٣) تاج الدين البهاري البغدادي: اسمه محمد والبهاري، نعته مأخوذ من قولهم: قمر باهر أي: مضيء، سمي بذلك لضياء وجهه. ولد في بغداد وقدم إلى السودان في النصف الثاني من القرن العاشر في عهد الشيخ عجيب وسكن في منطقة الجزيرة سبع سنين وأخذ على يديه الطريقة القادرية خمسة رجال وسافر أخيرا للحجاز...أنظر: كتاب الطبقات، ص(٦٠-٦١)

وعلى المتصوف أن يلتزم بأحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة التزامًا حرفيًّا، وأن يبتعد عن البدع وعن كل ما ليس من الإسلام، وخاصة الرهبانية المسيحية، فقد جاءت طريقته خالية من التعقيد ومن الأقوال الفلسفية التي قد تذهب بصاحبها في بحور الشطط[1].

٢. السمانية:

هذه الطريقة فرع من القادرية، ومؤسسها الشيخ محمد الأمين السماني، المدفون بالمدينة المنورة، وقد انتقلت إلى السودان عن طريق الشيخ أحمد الطيب البشير الذي كان تلميذًا للسماني، فقضى معه سبع سنوات، ثم عاد إلى السودان ونشر الطريقة السمانية، وبعد وفاته تفرع منها فروع على رأس بعضها حفدة الشيخ الطيب نفسه، وعلى رأس بعضها كبار خلفائه ومريديه، مثل الشيخ القرشي والشيخ البصير والشيخ برير.

٣. الشاذلية:

نسبةً للإمام أبي الحسن الشاذلي (٥٩٣ هـ- ٦٥٦هـ) المولود بقرية عمارة في بلاد المغرب، وانتقل إلى (شاذلة) بتونس، وانتسب إليها وعرف بالشاذلي.

وتعد طريقة الشاذلي من أسهل الطرق؛ فهي تقوم على كثرة العلم والذكر، وليس فيها كثير من المجاهدة، حتى قيل عنه: «إنه سَهَّل الطريقة على الخَلِيقة»[2].

والشاذلي عالم وفقيه وصوفي، وقد انتشرت طريقته في مراكش، في القرن الخامس عشر الميلادي، علي يد أبي محمد عبد الله محمد سليمان الجزولي[3].

وكان الشاذلي يقول: « إن أردت أن تكون من أصحابي، فلا تسأل أحدًا شيئًا، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله، وإن كنت مقتديًا بالرسول في الأخذ فكن

(١) المرجع الكامل في الفرق والجماعات لصلاح أبو السعود، (ص٢٢٥).
(٢) نفسه (ص٢٢٣).
(٣) يسألونك عن المهدية للصادق المهدي (ص٥٨).

مقتديًا به كيف يأخذ، كان رسول الله ﷺ لا يأخذ شيئًا إلا ليثيب من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدست هكذا فاقبل، وإلا فلا»[1].

ويقال: إن إحدى بناته تزوجت الشريف حمد أبي دنانة، الذي نزح إلى السودان وسكن هو وابنه المحمية ١٤٤٥م.

وانتشرت الطريقة على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحسي، الذي كان قادريًّا ثم صار شاذليًّا، ومن بعده تحولت الخلافة إلى الشيخ حمد بن محمد المجذوب المتوفى ١٧٧٦م، والشيخ المجذوب أسس فرعًا للشاذلية صار ينسب إليه، هو المجاذيب[2].

٤. التجانية:

وهي طريقة أسسها أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم التجاني، المولود بقرية عين ماضي بالجزائر سنة ١٧٣٧م، والمتوفى سنة ١٨١٥م. وأهم ما يميز الطريقة التجانية ابتعادُهم عن السياسة وأمور الحكم، ويعتقدون أن التجاني هو خاتم الأولياء، ويقولون: «إن من سلك طريقتنا تُخففُ عنه سكرات الموت، ويظله الله في ظل عرشه»[3].

والطريقة التجانية أسسها الشيخ أحمد التجاني في الجزائر عام ١٧٨١م، ودخلت السودان في منتصف القرن التاسع عشر بعد سقوط دولة الفونج.

٥. الميرغنية:

يروى أن السيد أحمد بن إدريس أوفد السيد محمد عثمان الميرغني (الجد) إلى السودان في ١٨٣٥م؛ لنشر تعاليم الإسلام، وفي السودان لقي السيد محمد عثمان ترحيبًا والتف حوله أتباعٌ، وأسس الطريقة الميرغنية أو الختمية.

(١) المرجع الكامل في الفرق والجماعات (ص٢٢٣).

(٢) يسألونك عن المهدية للصادق المهدي (ص٥٨).

(٣) المرجع الكامل في الفرق والجماعات (ص٢٢٣).

٦. الإسماعيلية:

وهي طريقة أسسها السيد إسماعيل، وقد كان من خلفاء الختمية، ثم دعا إلى طريقة مستقلة سميت الإسماعيلية، ولا صلة لها بإسماعيلية الشيعة المنسوبة لإسماعيل بن جعفر الصادق.

هذه هي أهم الطرق الصوفية التي دخلت السودان في الفترة المعنيَّة، وحازت على ولاء أهله[١].

والطرق الصوفية في السودان لها دور كبير في نشر الإسلام في الماضي، ولها دور كبير في تعليم القرآن الكريم وفي تهذيب السلوك، ولها أثر في إزالة الفوارق الاجتماعية، كما تقوم بدور ملحوظ في رتق النسيج الاجتماعي وفي فض النزاعات، فضلًا عن تقديم الخدمات للمحتاجين من مأكل ومأوى وملبس عن طريق التكايا التي اشتهرت بها -وهي الخلاوي التي تضم مريدين وطلابًا من معظم بقاع السودان، بل من خارج السودان من البلدان الأفريقية-.

الفرع الثاني: الجماعات السلفية «أنصار السنة نموذجا»

السلف لغة: هو الماضي، وكل ما تقدم ومن تقدم ومضى.

وفي لسان العرب: سَلَف أي تقدم، والسالف: المتقدم، والسلف: الجماعة المتقدمون، وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلفَ الصالح[٢].

وفي الاصطلاح: هو العصر الذهبي الذي يمثل نقاء الفهم والتطبيق للمرجعية

(١) ثمة طرق لم يصر لها شأن إلا بعد المهدية، وهي: الطريقة الهندية التي أسسها الشريف يوسف الهندي الزعيم السوداني المعروف، والطريقة الإدريسية التي أسسها حفدة أحمد بن إدريس العالم الصالح الشهير، والأحمدية وهي فرع من طريقة السيد أحمد البدوي الولي المعروف، وتأسست مؤخرًا طرق وفروع لطرق مثل البرهانية.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة (س ل ف).

الفكرية والدينية، قبل ظهور المذاهب والتصورات التي وفدت على الحياة الفكرية بعد الفتوحات التي أدخلت الفلسفات غير الإسلامية على فهم السلف الصالح للإسلام[1].

والسلفية في المفهوم الحديث: هي حركة إحياء إسلامي إصلاحي شامل، ظهرت في الحياة الفكرية الإسلامية عند فشو البدع والخرافات والبعد عن جوهر الدين الصحيح؛ لتعيد الأمر في ذلك إلى الأصل الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان[2].

ويذهب العلامة الشيخ محمد أبو زهرة إلى أن أول ظهور للسلفية كان في القرن الرابع الهجري، وكانوا من الحنابلة، وكانوا يزعمون أن جملة آرائهم تنتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل[3] الذي أحيا عقيدة السلف وحارب دونها، ثم تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، وشدد في الدعوة إليه، وأضاف إليه أمورا أخرى بعثت على التفكير فيها أحوال عصره، ثم عادت تلك المدرسة إلى الظهور في القرن الثاني عشر الهجري، على يد محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية[4].

والجماعات السلفية في عصرنا هذا تعددت، ولكنَّ أشهرها جماعةُ محمد بن عبد الوهاب المعروفة بالوهابية، وإن كانوا يفضلون أن يسموا (أنصار السنة).

(١) إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات (ص٤٩٠).

(٢) المدارس الفكرية الإسلامية من الخوارج إلى الإخوان المسلمين لمحمد سليم العوا، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط(١)، ٢٠١٨م، (ص٣٣٢).

(٣) أحمد محمد بن حنبل بن هلال بن أسد أبوعبدالله الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي ولد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ-٢٤١هـ، نشأ يتيمًا وطلب الحديث وهو ابن خمسة عشر سنة إلى سنة ١٧٩هـ السنة التي توفى فيها الإمام مالك رضي الله عنه، توفى ببغداد يوم الجمعة ودفن بمقبرة باب حرب وأسلم يوم وفاته عشرون ألف من اليهود والنصارى والمجوس، تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبوبكر البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤، ص٤١٢.

(٤) تاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٠هـ، (ص١٩٦).

والحركة الوهابية حركة إسلامية إصلاحية، كان الهدف منها العودة إلى عقائد السلف الصالح وتنقيةُ الإسلام من الشوائب التي علقت به، مطبقةً في ذلك منهج الإمام أحمد بن حنبل، ومن حذا حذوه من بعده، خاصة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم[1].

ظهرت الدعوة الوهابية على يد زعيمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي ولد سنة ١٧٠٣م في العيينة من بلاد نجد، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وتلقى العلم على أبيه الذي تولى القضاء في بعض أقاليم نجد.

كان محمد بن عبد الوهاب حاد الفهم شديد الذكاء سريع الحفظ، ولديه رغبة قوية في تحصيل العلم، فقصد البصرة والحجاز مرارًا، وذهب (الحسا) وكانت آهلة بالمشايخ والعلماء، وطالت إقامته بالبصرة يتلقى فيها العلم، ويقرأ كثيرا من كتب الحديث والفقه واللغة، ثم عاد إلى أرضه وموطنه[2].

وكانت بادية نجد تغلب عليها بساطة الفكر وخشونة الطبيعة، تخضع كغيرها من أنحاء الجزيرة العربية لسلطان الدولة العثمانية، وتسود فيها العقلية الفكرية التي سادت ذلك العصر، والتي أدخلت في التصورات الاعتقادية الإسلامية وشعائر الإسلام وعباداته الكثيرَ من البدع والخرافات، فتَغَبَّشَت الصورة النقية لعقيدة التوحيد الإسلامي إلى حد كبير، وأصبح العامة يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله، بل ويتوجهون إلى الوسائط بالدعاء، وطلب قضاء الحاجات عند الملمات[3].

هذه المظاهر جعلت كثيرًا من المصلحين ينهضون لتوضيح الفهم الصحيح للإسلام، وإزالة الشوائب التي ألحقت به، وكان الشيخ محمد عبد الوهاب أحد هؤلاء، فقد نهض بأمر الدعوة، وأنكر كثيرًا من البدع التي تفشت بين المسلمين،

(١) المرجع الكامل في الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية (ص٢٤٠).

(٢) نفسه.

(٣) إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات (ص٧١٨).

ورأى فيها شركًا بالله، فدعا إلى التوحيد، وصنف فيه كتابًا، ودعا قومه إلى تنقية الإسلام مما دخله من بدع وطرح كل ما لم يرد في القرآن والسنة من الأحكام والتعاليم، ونصحهم بالرجوع بالدين إلى فطرته وبساطته الأولى، وقد أخذ دعوته من طريقة الإمام ابن تيمية[1].

دعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى فتح باب الاجتهاد من جديد، والاعتماد على الكتاب والسنة، وطرح أي أمر من أمور العقيدة لا يجد سنده في هذين المصدرين، كما أحيا فريضة الجهاد لنشر الدعوة، وإزالة كل مظاهر الشرك التي تسللت للإسلام، ومن أهم ما دعا إليه تحريمُ لبسِ الحرير وشربِ الدخان والتنباك، وتحريمُ إقامةِ المزارات ونصبِ القباب، والدعوةُ إلى هدمها[2].

لقد انتشرت الدعوة الوهابية التي أخذت عدة أسماء منها: (أنصار السنة) و(الدعوة السلفية)، وصار لها وجود في معظم الأقطار الإسلامية، وخرجت منها جماعات كثيرة، اختلفت أسماؤها واتفقت في الأصول.

جماعة أنصار السنة في السودان:

تأسست جماعة أنصار السنة المحمدية في عام (١٣٥٩هـ - ١٩٣٩م)، وكان أولَ رئيس لها الشيخُ محمد الفاضل التقلاوي (١٩٣٩ - ١٩٤٧م)، ورئيسها الثاني الشيخ يوسف محمد نعمة (١٩٤٨- ١٩٥٦م)، ورئيسها الثالث الشيخ محمد هاشم الهدية، ورئيسها الرابع الشيخ أبو زيد محمد حمزة.

وجماعة أنصار السنة المحمدية جماعة دعوية إصلاحية، تهتم بأمر إصلاح المجتمع - بدًا بإصلاح المعتقد- بمختلف فئاته من وجهة نظر إسلامية سلفية سنية صحيحة، وهي امتداد للدعوة السلفية التي سادت في الجزيرة العربية.

وقد أشاد سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله) -مفتي عام المملكة

(١) المرجع الكامل في الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية (ص٢٤٠).
(٢) السابق (ص٢٤١)

العربية السعودية- بالجماعة، في قوله: «أهنيء الشعب السوداني بجماعة أنصار السنة المحمدية، وذلك لإحيائها عقيدة أهل السنة والجماعة»، وقد وصفتها هيئة كبار العلماء في فتواها الصادرة برقم (١٦٩٧٢) في (١٣/ ٣/ ١٤١٥هـ) بأنها جماعة إسلامية سنية تدعو إلى منهاج النبوة في التوحيد والتعبد والسلوك، وتعقد الولاء والبراء على الكتاب والسنة.

أهداف الدعوة السلفية:

١. تعريف المسلمين بدينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه والتحلي بفضائله وآدابه.

٢. تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره ومن البدع والأفكار الدخيلة التي اجتالت شباب الإسلام، وخاصة أفكار الملاحدة والشيوعيين والزنادقة.

٣. بلورة القضايا المعاصرة وإخضاعها لميزان الكتاب والسنة.

٤. الإعذار إلى الله، وذلك بأداء الأمانة والدعوة إلى الله.

٥. السعي نحو استئناف حياة إسلامية وإنشاء مجتمع إسلامي وتطبيق حكم الله في الأرض.

الأصول العلمية:

الدعوة السلفية تهتم بعدة أصول أساسية وترتكز عليها، وهي:

١. التوحيد: وهو أن يُفهم التوحيد فهمًا صحيحًا، وتبدأ به الدعوة، ولا يترك حتى يعلمه الناس، ويستمر الناس عليه حتى الممات.

٢. اتباع النبي ﷺ.

٣. التزكية: وهي التربية الروحية للنفس البشرية المسلمة، اقتداء بالرسول ﷺ

ومن بعده الصحابة والتابعين[1].

الفرع الثالث: الأنصار

الأنصار هم الذين ناصروا دعوة الإمام المهدي التي ظهرت في السودان، في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، والحركة الأنصارية حركة إحياء جهادي واجتهادي سودانية خالصة.

جاء في مقدمة الدليل الأساسي لهيئة شؤون الأنصار تعريفُ الأنصاري بالآتي:

«إن عبارةَ (مسلم) و(مؤمن) و(نصير لله) عبارات متقاربة المعنى متداخلة المضمون، أوجبها الله على كل أهل القبلة، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾[3]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾[4].

المسلم هو من نطق بالشهادة، والمؤمن من نطق بها وعمل بها، ونصير الله من نطق بالشهادة وعمل بموجبها في حد ذاته، ودعا إليها الآخرين.

إن كتاب الله يخاطب كل الناس بالإسلام، ويخاطب كل المسلمين بالإيمان، ويخاطب كل المؤمنين لنصر الله.

(نصر الله) هو المعنى الذي اختاره الإمام المهدي لتسمية الذين استجابوا لدعوته الإيمانية الاجتهادية الجهادية الهادفة لإحياء الكتاب والسنة.

إنَّ دعوة أنصار الله خطاب مفتوح ومستمر لكل أهل القبلة»[5].

دعوة الأنصار دعوة سنية، وفي مبادئها جذور متقاربة مع معظم الجماعات

(١) الموقع الرسمي لجماعة أنصار السنة بالسودان: http://ansar-alsuna.net

(٢) سورة الحج، الآية (٨٧).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٩٣).

(٤) سورة الصف، الآية (١٤).

(٥) الدليل الأساسي لهيئة شئون الأنصار المجاز من المؤتمر العام للهيئة في ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٢م.

الإسلامية، فالدعوة المهدية استجابة خاصة للتوجيه الرباني المذكور﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ ، هي استجابة أوجبتها ضخامة المفاسد التي سقط فيها المسلمون، وجسامة الإصلاحات المطلوبة لانتشالهم، وسندها الحقيقي هو أن انقطاع الوحي لم يقطع الإلهام المتصل إلى قيام الساعة، وأنَّ صاحب الدعوة معروف بتقوى الله والصدق مع الناس.

يقول الإمام المهدي مبينا أصول دعوته: «فمِنْ عبدِ ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلى أحبابه في الله كافة، أما بعد، أيها الأحباب، إن الخير كله في تقوى الله واتباع ملة رسول الله ﷺ والاقتداء بمن هدى الله من الأنبياء والمرسلين واقتفاء آثار السلف الصالحين، واعلموا أن من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، ومن أراد به خيرًا بصَّرَه بعيوب نفسه، واستعمله في طاعته، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والسعيد من اتعظ بغيره، والأحمق من اتبع هواه واغتر بالأماني... »[1].

لقد حققت الدعوة المهدية للسودان إنجازات تاريخية غير منكرة؛ فقد وحدت السودان وحررته وشهرته بين الأمم، وأكملت حلقات الإسلام فيه بإقامة التشريع والدولة وإحياء فريضة الجهاد.

ولقد تركت الدعوة المهدية نهجًا للبعث الإسلامي يتجاوز خلافات الفرق والمذاهب، ويستصحب إيجابيتها.

وخلاصة نهج المهدية للبعث:

أولًا: الالتزام بالكتاب والسنة والامتثال للنص القطعي ورودًا والقطعي دلالةً، وهذا المبدأ يصلح أساسًا لتوحيد أهل القبلة.

ثانيًا: فيما عدا القطعيات، فإن أحكام الإسلام تحتمل الاختلاف والحركة

(١) الآثار الكاملة للإمام المهدي للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، دار جامعة الخرطوم، ط(١)، ١٩٩١م، (١/ ٤٥١).

وفقًا لقاعدة: «لكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال»، وهذا المبدأ يفسر احتمالات الاختلاف بين المسلمين،

ويمنع التعصب لوجهات النظر الاجتهادية كأنها من القطعيات.

ثالثًا: إن لتكاليف الإسلام أغوارًا وبواطنَ روحيةً، ولا تصلح التكاليف إلا بصلاح تلك البواطن، وهذا المبدأ يستصحب فضائل التصوف، ويزيل أي تناقض مزعوم بين الشريعة والحقيقة.

رابعًا: الإمامة قيادة دينية واجبة لحياة الأمة، وشرعيتها تقوم على أسس واضحة: (من تقلد بقلائد الدين ومالت إليه قلوب المسلمين)[1].

والدعوة المهدية -التي يسير عليها الأنصار- جاءت بالتوحيد والتجديد والاجتهاد، فاهتمت بتجميع الحق الذى تفرق في الجماعات المختلفة، ومرتكزاتها تؤكد ذلك، فقد جاءت بمدرسة جديدة، تُعَدّ ثورة على الفكر الإسلامي التقليدي، وهذه المدرسة تتمثل في الآتي:

١. الالتزام بالكتاب والسنة فقط؛ لأنهما المرجع الأول في التشريع.

٢. عدم التقيد بالمذاهب؛ لأنها فرقت الأمة وأبعدت الناس عن روح الدين.

٣. التمييز بين الثابت والمتغير على أساس: (لكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال).

٤. النظرة العميقة للإسلام؛ باعتباره تجسيدًا حيًا في الواقع، وليس نصوصًا وشاراتٍ؛ بل عمل على إحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما.

٥. تجاوز الخلافات التاريخية بين السنة والشيعة، وبين العقل والنقل، وبين الحقيقة والشريعة؛ باعتبار أن الإسلام يوفق بينها (توحيد أهل القبلة).

٦. إحياء فريضتي الجهاد والاجتهاد؛ إذ لا حيوية للإسلام إلا بهما.

(١) الدليل الأساسي لهيئة شئون الأنصار.

٧. إن البعث الإسلامي المنشود لا يتحقق إلا بمنهج واضح محدد المعالم.

وقد أحدثت المهدية تحولًا كبيرًا في السودان وقتها، وتأثر بها كثير من المسلمين ودعاة التحرر، من الصين شرقًا حتى غرب أفريقيا، وجاءت المهدية بمفاهيم جديدة في مجال الفكر والممارسة والحياة، وأثبتت عمليًّا قدرة الإسلام على إحداث التغيير ومواجهة تحديات كل عصر.

كان مفهوم الإحياء أبرز شيء في فكر المهدية، فقد جاءت في وقت تحوَّل فيه الدينُ إلى طقوس، والتدينُ إلى رهبنة، والعبادة صارت حركات بلا روح، والقرآن أُختُزِل في تعاويذ وأحجبة، فكان لا بد من تثوير للمفاهيم، فجاء الإحياء بمفهومه الواسع (أنا عبد مأمور بإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما)، وبهذا استطاعت المهدية أن تغير الواقع، وتستنهض الهممَ، وتشحذ العزائمَ، وتواجه تحديات تلك المرحلة بجدارة.

لم تكن المهدية حركة دراويش -كما وصفها خصومها- بل كانت تباشر عملها بتخطيط ووعي وإدراك للظروف الإقليمية والدولية المحيطة بها، فتقسيمُ العمل على مراحل والتدرجُ وتنظيمُ الخطط الحربية، والخروج من (أبا)[1] بعد أول معركة، والزحفُ على الخرطوم من الغرب، واختيارُ مكان وزمان المعركة في (شيكان)[2]، وإقامة دولة المؤسسات، كل ذلك يؤكد إدراكها للواقع.

ولم يهمل الإمام المؤسس شاردة ولا واردة إلا اهتم بها، حتى أنه أصدر منشورًا يدعو فيه إلى تحسين الخط وتجويد الكتابة!

(١) أبا مدينة تبعد عن الخرطوم العاصمة بحوالي ٢٥٠ كم، وهي المنطقة التي أعلن الامام المهدي دعوته فيها في عام ١٨٨١م.

(٢) شيكان منطقة تقع في ولاية شمال كردفان، وهي المنطقة التي انتصرت فيها جيوش المهدية في أشهر معركة هي معركة شيكان التي أبيد فيها الجيش الاستعماري الذي بلغ بضعة عشر ألفا وقائده الانجليزي «هيكس»، وانتصر فيه الأنصار انتصارًا هز عرش ملكة بريطانيا الملكة فيكتوريا في عام ١٨٨٣م.

كل المفاهيم الجديدة التى تتبناها تيارات الإصلاح الحديثة كانت حاضرة في فكر المهدية، فالإمام المهدى دعا إلى التمييز بين الثابت والمتحرك في تعاليم الإسلام، ونهى عن التقليد، ودعا الى تجاوز التقيد المذهبى، ووضع القاعدة الذهبية للاجتهاد (لكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال)، هذا الإرث يمثل أصول المرجعية الفكرية للأنصار، وتمشيًا مع مفهوم الإحياء والتجديد والاجتهاد كان منهج هيئة شئون الأنصار -المؤسسة الدينية للأنصار- في مجال الفكر يتمثل في الآتى:

١- الانطلاق من مفهوم أن الإسلام جاء دينًا خاتمًا مكملًا للرسالات قبله، متضمنًا لأصولها الأربعة: التوحيد والعدل بين الناس والبعث والجزاء الأخروي، فالعلاقة بين الإسلام والرسالات السابقة علاقة تكامل، وليست علاقة تقاطع.

٢- التمييز بين الثابت والمتحرك من أحكام الإسلام، فالأحكام الثابتة محصورة في العقيدة والعبادات وأصول الأخلاق، أما المعاملات فأحكامها متغيرة حسب ظروف الزمان والمكان والأحوال.

٣- شمول الرسالة الإسلامية لكل المطالب الفطرية؛ فالإنسان يحتاج لإشباع موزون لعشرة مطالب: المطالب الروحية والمادية والخلقية والمعرفية والعقلية والعاطفية والاجتماعية والرياضية والترفيهية والبيئية، ولذلك جاء خطاب الهيئة مستجيبًا لهذه المطالب؛ انطلاقًا من المرجعية الإسلامية حتى لا يضطر المسلم لإشباع بعض حاجاته خارج الإسلام.

٤- التسامح مع الآخر، فالإسلام انتقد العقائد المنحرفة، ولكنه لم يأمر باستئصالها، بل وضع تشريعًا للتعامل معها وَفق قاعدة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

(١) سورة الأنعام، الآية (١٠٨).

٥- استصحاب العطاء الإنساني النافع على أساس أن الإسلام لم يلغ دور الإنسان، بل استصحب كثيرًا من القيم الإنسانية النافعة، وأشاد بكل ما هو إيجابي بغض النظر عن مصدره، مثل: حلف الفضول وحفر الخندق وتدوين الدواوين وغيرها من إيجابيات العطاء الإنساني.

٦- نظام الحكم في الإسلام يقوم على فرائضَ سياسيةٍ تتمثل في الحرية والشورى والمساواة والعدالة والوفاء بالعهد، ولا يوجد شكل معين للحكم ملزم للمسلمين، بل يجوز لهم أن يكيِّفوا أيَّ شكل يحقق تلك المبادئ وَفق ظروف الزمان والمكان.

٧- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فالإسلام دين يرفض الإكراه والتسلط، ويدعو إلى الاقتناع، وقد أعطى الإنسان مطلق الحرية، ومهمة الدعاة محصورة في التبليغ والتبيين وليس القهر.

هذه المبادئ تمثل المرجعية الفكرية لهيئة شؤون الأنصار، وهي تنتمي إلى مدرسة الصحوة في الفكر الإسلامي، وهي منطقة وسطى بين الانكفاء والاستلاب، إنها مدرسة توفق بين الأصل والعصر، وبين العقل والنقل، إنها قراءة واعية للكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنظور (الكون)[1].

الفرع الرابع: الإخوان المسلمون

تأسست حركة الإخوان المسلمين علي يد الأستاذ حسن البنا في (١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م)، وقد أصبح حسن البنا وحركة الإخوان المسلمين اسمين لا يفترقان، ولا يفهم أحدهما دون الآخر، ولا يذكر أحدهما إلا إذا استدعت الأذهان والألسنة قرينه وصاحبه[2].

(١) ينظر: يسألونك عن الأنصارية لعبد المحمود أبو، مطبعة المصابيح، أم درمان، ط(١)، ٢٠١٨م، (ص٢٦).

(٢) المدارس الفكرية الإسلامية من الخوارج إلى الإخوان المسلمين (ص٤١٥).

وجاء في المادة الثانية من النظام العام للإخوان المسلمين: «الإخوان المسلمون هيئة إسلامية جامعة، تعمل لإقامة دين الله في الأرض وتحقيق الأغراض التي جاء من أجلها الإسلام الحنيف، ومما يتصل بهذه الأغراض:

أ - تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة وإلى المسلمين خاصة، وشرحها شرحًا دقيقًا يوضحها ويردها إلى فطرتها وشمولها، ويدفع عنها الأباطيل والشبهات.

ب - جمع القلوب والنفوس على مبادئ الإسلام، وتجديد أثرِها الكريمِ فيها، وتقريبُ وجهات النظر بين المذاهب الإسلامية.

جـ - العمل على رفع مستوى المعيشة للأفراد وتنمية ثروات الأمة وحمايتها.

د - تحقيق العدالة الاجتماعية والتأمين الاجتماعي لكل مواطن، ومكافحة الجهل والمرض والفقر والرذيلة وتشجيع أعمال البر والخير.

هـ - تحرير الوطن الإسلامي بكل أجزائه من كل سلطان غير إسلامي، ومساعدة الأقليات الإسلامية في كل مكان، والسعي إلى تجميع المسلمين جميعًا حتى يصيروا أمةً واحدة.

و- قيام الدولة الإسلامية التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عمليًّا، وتحرسها من الداخل، وتعمل على نشرها وتبليغها في الخارج.

ز- مناصرة التعاون العالمي مناصرةً صادقة في ظل الشريعة الإسلامية التي تصون الحريات وتحفظ الحقوق، والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية على أساس جديد من تآزُرِ الإيمان والمادة، كما كفلت ذلك نظم الإسلام الشاملة[1].

يتضح مما سبق أن جماعة الإخوان المسلمين حركة إصلاحية، نشأت نتيجة

(١) الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية أوراق في النقد الذاتي لعبد الله النفيسي، مكتبة آفاق، الكويت، ط(١) ٢٠١٢م، (ص٤٠١).

لما أصاب العالم الإسلامي من ضياع بوقوعه تحت سلطان الاستعمار وبإسقاط الخلافة الإسلامية، وأن حركة الإخوان المسلمين واحدة من الحركات التي نشأت لتستعيد للأمة الإسلامية عزتها وكرامتها، وأن من أهم مهام الحركة نشرَ الدعوة الإسلامية وتوحيدَ الأمة وتحسينَ أوضاع أفرادها العلمية والمعيشية وتحريرَ الأوطان وإقامةَ الدولة الإسلامية بتطبيق الشريعة الإسلامية.

وحسب أدبيات مؤسسها فإن الإخوان المسلمين يهتمون بكل جوانب الحياة فحركتهم دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية:

دعوة سلفية؛ لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي، كتاب الله وسنة رسوله.

وطريقة سنية؛ لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا .

وحقيقة صوفية؛ لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس ونقاء القلب والمواظبة على العمل والإعراض عن الخلق والحب في الله والارتباط على الخير.

وهيئة سياسية؛ لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل، وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، فهو نظام دولي عادل، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد.

وجماعة رياضية؛ لأنهم يُعْنَوْنَ بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تُؤدَّى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوي.

ورابطة علمية ثقافية؛ لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وشركة اقتصادية؛ لأن الإسلام يُعْنَى بتدبير المال وكسبه من وجهه.

وفكرة اجتماعية؛ لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي، ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها.

وهكذا أكسب شمول الإسلام فكرتنا شمولًا لكل مناحي الإصلاح، ووجه نشاط الإخوان لكل هذه النواحي[1].

وأجمع نص يعبر عن فكر حسن البنا -فكر الإخوان المسلمين- هو نص (الأصول العشرين) التي تضمنتها رسالة التعاليم، ويقدم حسن البنا لهذه الرسالة بقوله: «إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات الموجزة، وهي ليست دروسًا تحفظ، لكنها تعليمات تنفذ... ». ثم تحصر الرسالة أركان بيعة هؤلاء الإخوان المجاهدين في عشرة أمور: الفهم والإخلاص والعمل والجهاد والتضحية والطاعة والثبات والتجرد والأخوة والثقة[2].

وجماعة الإخوان نشأت في مصر، ولكنها نظرت إلى كل أوطان المسلمين باعتبارها دار الإسلام والوطن الواحد للأمة الإسلامية الواحدة، ورتبت للمسلم سُلمًا للأولويات، فالوطن الأخص أولًا، ثم الدائرة القومية العربية بالنسبة للعرب ثانيًا، والدائرة الإسلامية ثالثًا، ثم الدائرة الإنسانية التي تشمل جميع الناس[3].

يقول الشيخ حسن البنا: «فإن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم، ويحرصون على وحدته القومية، والعرب هم عصبة الإسلام وحراسه، فهم لا يرون بأسًا في أن

(١) المدارس الفكرية من الخوارج إلى الإخوان المسلمين لمحمد سليم العوا (ص٤٢٣ – ٤٢٤).
(٢) السابق (ص٤٢٧).
(٣) إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات للدكتور محمد عمارة (ص٦٢).

يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه في العمل على سواه، ثم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية، باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام، ثم هم يرون الخير للعالم كله، ولا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار، فكل منها يَشُدُّ أَزْرَ الأخرى ويحقق الغاية منها»[1].

(١)إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات للدكتور محمد عمارة(ص٦٢).

المطلب الثالث

التيارات السياسية

الفرع الأول: التيار العلماني

العلمانية من أكثر المفاهيم التي اختلف في تعريفها، بل اختلف في نطقها، فمن المفكرين من ينسبها للعِلْم، ومنهم من ينسبها للعالَم، وقد عرفت تعريفات متعددة تتفق كلها على أن العلمانية تهتم بالأمور الدنيوية المادية المشاهدة، وتصرف النظر عن الأمور الغيبية.

ففي معجم اللغة البريطانية: (علمانية: secularism) ما يهتم بالدنيوي أو العالمي كمعارض للأمور الروحية، وبالتحديد الاعتقاد بالدنيويات.

وفي معجم أكسفورد بيان معنى كلمة (secular) دنيوي أو مادي، ليس دينيًّا ولا روحيًّا، مثل التربية غير الدينية، والفن والموسيقى غير الدينية والسلطة غير الدينية، والحكومة المناهضة للكنيسة[1].

والمعجم الوسيط -وهو أول معجم عربي أورد كلمة العلمانية- جاء في طبعته الأولى سنة ١٩٦٠م: «العلماني نسبة إلى العلم، بمعنى العالم، وهو خلاف الديني، أو(الكهنوتي).

وبقي الأمر كذلك في الطبعة الثانية الصادرة سنة ١٩٧٩م، أما في الطبعة الثالثة التي صدرت سنة١٩٨٥م فقد وردت الكلمة فيه مكسورة العين، بعد أن ظلت مفتوحة في الطبعتين الماضيتين[2].

(١) الموسوعة المفصلة (٢/ ٨٣٩).

(٢) الموسوعة المفصلة (٢/ ٨٤١).

فهناك (العلمانية) بكسر العين، نسبة إلى العلم، و(العلمانية) بفتح العين نسبة إلى العالم والدنيوية، أي الإيمان بأنها في الحياة الدنيا، ولا يوجد سواها، والزمنية بمعنى أن كل الظواهر مرتبطة بالزمان وبالدنيا، ولا علاقة لها بما وراء ذلك[1].

تحليل مفهوم العلمانية:

استنادًا إلى التعريفات السابقة فإن العلمانية معنية بالأمور الحسية المادية المشاهدة، ولا علاقة لها بعالم الغيب، لقد ظهرت العلمانية كَرَدٍّ فعل لمواقف رجال الدين السالبة من العلم ومن حرية الضمير ومن العقل ومن كرامة الإنسان، ونتيجة لذلك توالت ردود الأفعال ببروز مفاهيم العقلانية والناسوتية والمادية ونظرية فرويد حول الجنس، وغيرها من المفاهيم المتطرفة، ثم تبلورت كل هذه المواقف في ظاهرة العلمانية، وهي أقرب إلى الدَّهرية التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[2].

مما سبق يتضح أن للعلمانية عدة جوانب: جانب فلسفي، وهو إنكار كل ما غاب عن عالم الشهادة الزماني والمكاني، وجانب موضوعي، وهو عدم إعطاء قدسية للنظام الاجتماعي والنظام السياسي.

وجانب آخر موضوعي، هو حرية البحث العلمي، فاختزال العلمانية في مفهوم فصل الدين عن السياسة اختزال مُخِلّ.

والجانب الفلسفي من العلمانية لم يجد قبولًا حتى في أوروبا؛ لأنه يصادم حقائق أثبتها العلم، فالوجود ليس مقتصرًا على عالم الشهادة، فهنالك عالم للغيب يدركه كل المؤمنين، وقد أثبتت التجارب أن الإنسان ليس كتلة مادية صماء، وإنما

(١) العلمانية لعبد الوهاب المسيري (ص٦٧)، نقلًا عن العلمانية والدولة المدنية تواريخ الفكرة وسياقاتها وتطبيقاته لعبد الرحيم العلام، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، لبنان، ط(١) ٢٠١٦م، (ص٦٦).

(٢) سورة الجاثية، الآية (٢٤).

هو كائن ذو وَعْي وإرادة، يتأثر بالعوامل النفسية والروحية والوجدانية.

كأن عِدَّة أرواحٍ تقوم به فليس يَهْدَأْ ولا تَهْدَأْ رَغَائِبُه

أما الجانب الموضوعي، فيمكن تحقيقه في الإسلام، ولا يجوز إسقاط مفاهيم رجال الدين في القرون الوسطى على كل الأديان، فالإسلام لا يعترف برجال الدين أصلًا ، بل قال بوضوح: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [1]، والإسلام يحترم العقل، بل يجعله شرطًا في التكليف، قال ﷺ: «رُفِع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ»[2].

والإسلام أقر مصادر المعرفة كلها: الدينية والعقلية والتجريبية، ولا يعرف الإسلام السلطة الدينية لغير الرسل فيما يبلغونه عن الله.

ولم يحدد الإسلام شكلًا معينًا للحكم، وإنما وضع مبادئ سياسية تتمثل في الشورى والعدل والمساواة والوفاء بالعهد، ثم ترك للمسلمين أن يختاروا الشكل الذي يُلائم ظروف زمانهم وأحوالهم. والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ لم يُخَلّف أحدًا، وأن أبا بكر خَلَّف عمر، وأن عمر ترك الأمر شورى بين أهل الحل والعقد، وبعد مقتل عثمان اجتمع أهل المدينة واختاروا عليًّا، فالأمر اجتهادي متروك للمسلمين ليحددوا الكيفية التي يختارون بها حكامهم وَفق الظروف التي تلائم تطور مجتمعاتهم، ومشروع لهم أن يقتبسوا من تجارب الآخرين.

(١) سورة التوبة الآية (٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٣٩٨)، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا، (٤/ ١٣٩)، والنسائي في سننه برقم (٣٤٣٢)، كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، (٦/ ١٥٦)، وابن ماجه في سننه برقم (٢٠٤١)، كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، (١/ ٦٥٨).

قال ابن الملقن في البدر المنير (٣/ ٢٢٥): «هذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام يدخل فيها ما لا يحصى من الأحكام... رواه الأئمة بإسناد حسن، بل صحيح متصل كلهم علماء».

إن الأسباب والمسوغات التي أدّت إلى بروز ظاهرة العلمانية في أوروبا إبان سلطة رجال الدين غيرُ موجودة في الإسلام، ولكن تصرفات بعض المسلمين أصحاب النزعة التسلطية المنبهرين بالسلطة الدينية تؤدي إلى المطالبة بالعلمانية، وانبهار العلمانيين بظاهرة العلمانية في أوروبا ودعوتهم إلى تطبيقها في بلداننا يغذي ظاهرة التطرف الديني، فكل تطرف يغذي نقيضه:

قال المعري:

اثنان أهلُ الأرض: ذو عقل بِلاَ دِينٍ، وصاحبُ مِلَّةٍ لاَ عَقْلَ لَهْ

إنّ مُصْطَلَحَيْ الثِّيُوقْرَاطية والعلمانية ولدا في ظروفٍ تختلف عن ظروف المجتمعات المسلمة، وفي ظلِّ مفاهيمَ دينيةٍ تتصادم مع العلم والعقل، والمصطلحان يحملان ظلالًا فلسفية لا تتقبلها مجتمعات المسلمين.

والأسباب التي أدت إلى ظهورهما في الغرب غير موجودة في قطعيات الإسلام، وإن وجدت في ممارسات بعض المسلمين، فلا مسوغ للدعوة إليهما في مجتمعات المسلمين، إنهما يُغَذِّيان الحرب الباردة بين العلمانيين والإسلاميين، وبين دعاة الحداثة ودعاة التأصيل، وهي حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

إن دعاة العلمانية في العالم الإسلامي ظنوا أن كل الأديان تدعو إلى مفاهيم تشبه مفاهيم الكنيسة في الغرب قبل ظهور العلمانية، وأسقطوا مفاهيم الكنيسة على الإسلام؛ ظنًّا منهم أن الإسلام مثله مثل المسيحية التي عرفتها الكنيسة الغربية، وبالنظر الموضوعي إلى مطالبهم فهم لا يرفضون الإسلام، بل أغلبهم مسلمون، ولكنهم بسبب اللبس الذي حدث لهم مع بعض تصرفات ومفاهيم بعض الدعاة تبنوا الدعوة للعلمانية، ودعوتهم في الغالب تتعلق بالمفاهيم الآتية:

١- التطلع إلى دستور يعبر عن قيم ومعتقدات وأعراف المواطنين باختلاف انتماءاتهم الدينية والثقافية والعرقية.

٢- الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

٣- الاعتراف بالمواطنة كأساس الحقوق والواجبات.

٤- عدم التمييز بين المواطنين بسبب الدين أو الثقافة أو العرق.

٥- كفالة حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

٦- الاعتراف بالتعددية واحترامها.

٧- الالتزام بالتداول السلمي للسلطة عبر الانتخابات الحرة القائمة على الأسس الديمقراطية الصحيحة.

٨- أن تستمد السلطة شرعيتها من اختيار الجماهير وتخضع للمحاسبة من قبل نواب الشعب.

٩- حرية البحث العلمي.

وهذه المطالب كلها يكفلها الإسلام، فقط هي تحتاج إلى بحث علمي من أهل التخصص، وإلى حوار موضوعي مع دعاة العلمانية في العالم الإسلامي.

الفرع الثاني: التيار القومي

القوميةُ حركةٌ سياسيةٌ فكريةٌ تدعو إلى ضرورة أن يكون ولاءُ أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة واحدًا، وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم.

والدعوة القومية ظهرت في أوروبا تمردًا على سلطان الكنيسة إثر ظهور حركات الانفصال، واتجهت كل قومية لتوسيع نفوذها على حساب غيرها من القوميات، فنشب صراع عنيف داخل أوروبا بين هذه القوميات، ومع الثورة الصناعية ظهرت الأخلاق اليهودية المادية، فاتجهت القوميات إلى تحقيق المصالح القومية بصرف النظر عن المصالح الإنسانية، وبتضاعف الصراعات بصورة مادية بحتة قامت الرأسمالية متذرعةً بمقولة الدارونية (البقاء للأصلح).

ولما كانت كل قومية تزعم لنفسها أنها هي الأجدر بالبقاء، وتريد أن تثبت ذلك بالفعل، وصل الصراع بين القوميات إلى حد الوحشية، وماتت في دوامته كل

المعاني الإنسانية.

ودخلت النزعة القومية إلى العالم الإسلامي مع الاحتلال كوسيلة لإضعاف الولاء للإسلام بإقامة ولاءات قومية، ومع ضعف الخلافة في تركيا نشأت الحركات السرية، وتألفت من أجلها الجمعيات والخلايا التي تنادي بالعروبة والقومية العربية، ثم تطورت في حركة علنية لتصبح جمعياتٍ أدبيةً تتخذ من دمشق وبيروت مقرًا لها، ثم لتصبح حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م[1].

والعرب حققوا عظمة تاريخهم في ظل الإسلام، باعتباره دعوة عالمية، وفي خدمة الإسلام صار الكيانُ العربي في ظل الدولة الأموية، وجزءٍ من الدولة العباسية كيانًا عالميًّا، وصارت اللغة العربية لغة عالمية.

إنّ الشعوب التي اعتنقت الإسلام، وأقبلت على هدايته لم تنس أصولها الحضارية تمامًا، وتحت شعارات الشعوبية نشأ تنافسٌ قومي، ونشأ تباين في تفسير الإسلام نفسه.

ونتيجة للاختلاف في فهم الإسلام وقواه السياسية، وبسبب الصراعات القومية بين الشعوب المسلمة انزوى الدور العربي شيئًا فشيئًا، فتقلص دور العرب السياسي في الدولة الإسلامية، ثم انكمش دور اللغة العربية في الإمبراطوريات الثلاث التي اقتسمت العالم الإسلامي في القرن السادس عشر الميلادي، وهي العثمانية والفارسية والمغولية؛ ففي ثلاثتها صارت اللغة الرسمية لغة غير عربية، واحتفظت اللغة العربية بدورها الديني وحده، وبقيت لغة التخاطب في المنطقة العربية وحدها.

لقد كانت الدولة العثمانية حريصة على طابعها الإسلامي، وعلى تربعها فوق كرسي الخلافة، وكان هذا يخفف على الشعوب الإسلامية غير الطورانية قبول

(١) الموسوعة المفصلة (٢/ ٨٨٠).

السيادة العثمانية، ولكن على أثر الاتصال العثماني بأوروبا نشأت حركات في الدولة العثمانية تقلل من دور الإسلام شيئًا فشيئًا، وتتخذ القدوة من الوعي القومي الأوروبي، وتميل لجعل رابطة الدولة قومية عثمانية، ثم قومية طورانية، ميلًا بلغ أقصاه أو ذروته بعد ثورة ١٩١٣م في تركيا.

إنّ ذكرى الدور العربي في التاريخ، والانفعالَ ضد التطورات التركية التي جعلت السيادة التركية تنتقل من كونها خلافة إسلامية إلى كونها استعمارًا تركيًّا، والتأثرَ بالفكر الأوروبي الحديث وصحوةَ الحركة الوطنية العربية هي العوامل التي أيقظت الوعي القومي الحديث[1].

والقومية العربية التي نعرفها اليوم غطاءٌ واسع للعديد من الحركات السياسية التي برزت على الساحة العربية منذ الحرب العالمية الأولى، وتبلورت بعد الحرب العالمية الثانية في حزب البعث العربي الاشتراكي بشقَّيه في سوريا والعراق، والحركة الناصرية وحركة القوميين العرب، باختلاف أسمائها في الجزائر وليبيا واليمن والسودان وغيرها من البلدان، كما أن القومية العربية هي الوعاء الفكري العام للأحزاب والحركات والتيارات الداعية سياسيًّا إلى الوحدة ما بين الأقطار العربية، واقتصاديًا إلى تغيير عوامل الإنتاج لصالح الفئات المحرومة دون الالتزام العقائدي بأي نظام أيديولوجي معين[2].

إن أهم أفكار ومعتقدات القومية العربية تتلخص في الآتي:

١. إعلاء رابطة القربى والدم على رابطة الدين، ويرى القوميون أن رابطة اللغة والجنس أقدر على جمع كلمة العرب من رابطة الدين.

٢. يرى دعاة الفكر القومي -مع اختلافهم في ترتيب مقومات الفكر- أن أهم

(١) الثورة العربية المعاصرة للصادق المهدي، محاضرة قدمها في بريطانيا عام ١٩٧٥م

(٢) الديمقراطية والأحزاب في البلدان العربية.. المواقف والمخاوف المتبادلة لبرهان غليون وآخرين، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، ط(١) ١٩٩٩م، (ص٣١).

المقومات التي تقوم عليها القومية العربية: اللغة والدم والتاريخ والأرض والآلام والآمال المشتركة.

٣. العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة، وهي تعيش على أرض واحدة، هي أرض الوطن العربي الواحد، الذي يمتد من الخليج إلى المحيط.

ويقول بعض دعاة الفكر القومي: «إن العبقرية العربية عبرت عن نفسها بأشكال شتى، فمثلًا عبرت ذات مرة عن نفسها بشريعة حمورابي، ومرة أخرى بالشعر الجاهلي، وثالثة بالإسلام»[(١)].

وهنالك أفكار أخرى تصب كلها في إعلاء قيمة العروبة على أي مبدأ آخر، وقد اتسمت الأحزاب القومية العربية بعدة ظواهر أهمها:

١. المناداة بالاشتراكية كوسيلة للتنمية العادلة.

٢. رفع شعارات الحرية والديمقراطية.

٣. الرفض الحاسم للاستعمار وأسباب النفوذ الأجنبي.

٤. عدم وضوح الموقف من دور الإسلام، مع الاعتراف بأن للإسلام دورًا في التكوين العربي، ففي كتاب (في سبيل البعث) كتب ميشيل عفلق: «البعث العربي حركة قومية، تتوجه إلى العرب كافة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وتقدس حرية الاعتقاد، وتنظر إلى الأديان نظرة مساواة في التقديس والاحترام، ولكنها ترى إلى جانب ذلك في الإسلام ناحيةً قومية، لها مكانتها الخطيرة في تكوين التاريخ العربي والقومية العربية، وتعتبر هذه النظرة ذات صلة وثيقة بتراث العرب الروحي وبمميزات عبقرية».

وبالرغم من هذا الاتجاه النظري، فإن ذلك لم يظهر معها في اتجاهات البعث الفكرية ولا في برامجه، بل انحصر الاهتمام في شعارات ثلاثة: الوحدة والحرية

(١) الموسوعة المفصلة (٢/ ٨٨٠).

والاشتراكية.

كذلك كتب الرئيس جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة عن الانتماء للحلقات الثلاث: العربية والإسلامية والأفريقية، وكان دور الحلقة الإسلامية مهتزًّا، حتى إن مشروع الميثاق الوطني الذي عُرِض على المؤتمر لم يُنَصَّ فيه على بيان الصلة الإسلامية، ولكن بعد المداولات التي جرت في المؤتمر أضيف إلى نص الميثاق الصادر في (٣٠/ ٦/ ١٩٦٢م) ما مفاده أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي[١]، وبعد صراع طويل بين التيار القومي والتيار الإسلامي جرت محاولات لتقريب وجهات النظر بينهما، فانعقدت ندوة الحوار القومي الديني بالقاهرة عام ١٩٨٩م، نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، وشارك فيها عدد من المفكرين المرموقين من التيارين، وتواصل الحوار بينهما، فأدى إلى قيام المؤتمر القومي الإسلامي كمنبر للحوار والعمل المشترك بين التيارين القومي الإسلامي، وانعقدت أولى دوراته في بيروت في الأسبوع الأول من شهر جمادى الأولى عام ١٤١٥هـ.

وقد حددت اللجنة التحضيرية[٢] الهدف من المؤتمر بقولها: «أن المؤتمر القومي - الإسلامي يأتي استجابة لتحديات المرحلة الراهنة من تاريخ الأمة التي تحدق بها الأخطار، مستذكرة جهاد قُوى النهضة من التيارين القومي والإسلامي، حيث تجلى وقوف المؤمنين - نصارى ومسلمين- من أبناء الأمة في سبيل تحقيق الأهداف التي تبناها كل من هذين التيارين، وإن عبرا عنها بمصطلحات مختلفة أحيانًا أو رتب كلٌّ منهما أولوياته وَفق اجتهاده، وبفعل هذا الاختلاف حدث تصادم في بعض الأحيان، مَثَّل ظاهرة سلبية، وقد تفاقم أمر هذه الظاهرة، حين وَقَعَ

(١) الثورات العربية للصادق المهدي.

(٢) اللجنة التحضيرية تكونت من الأسماء الآتية: أحمد صدقي الدجاني، خير الدين حسيب، راشد الغنوشي، عبد الوهاب الأفندي، عصام نعمان، محمد البصري، محمد الحسن الأمين، محمد سليم العوا.

ينظر: المؤتمر القومي الإسلامي في سطور (ص٧).

البعضُ في فخ اصطناع تناقض بين العروبة والإسلام، وهما معًا عنصرا هوية»[1].

وذهبت اللجنة التحضيرية للمؤتمر القومي الإسلامي إلى أكثر من ذلك، حيث ذكرت أن قوى الخير عملت على وضع حدٍّ لكثير من الخلافات الفكرية والسياسية المفتعل بعضها بين التيارين، وإيجاد صيغة تعاون لتنفيذ برنامج محدد يعالج الأزمة المستحكمة في أوضاعنا العربية والإسلامية، وذلك من خلال تعاون التيارين القومي والإسلامي لحشد طاقات الأمة؛ لتحقيق مشروعها الحضاري في تحرير فلسطين والأراضي العربية المحتلة، وتحقيق الوحدة وتقوية الروابط العربية بالدائرة الإسلامية، وسيادة الديمقراطية والشورى واحترام حقوق الإنسان، وصولًا إلى تنمية مستقلة معتمدة على الذات، ومرتكزة على العدل الاجتماعي[2].

وفي المؤتمر التأسيسي عام ١٩٩٤م قدم التيار الإسلامي ورقة تعكس رؤيته لحال الأمة وقضايا الحوار، وكذلك قدم التيار القومي ورقة تعكس رؤيته لحال الأمة وموضوعات الحوار، ويهم في هذا الفرع ورقة التيار القومي التي جاء فيها:

١- **حال الأمة**: أكدت الورقة الأزمةَ المستحكمة، وفي مقدمتها المخاطر التي تهدد الاستقلال الوطني، ومأزق التنمية والديمقراطية وحقوق الإنسان، والتذبذب الثقافي بين السلفية والتجديد، وتزايد الفكر التكفيري وفكر الاغتراب، والأوضاع الاقتصادية المتخلفة رغم الموارد الضخمة التي تمتلكها الأمة.

٢- **لقاء التيارين**: أكدت الورقة الحاجةَ الماسّة إلى التغيير، والذي لا يستطيع أن يقوم به أي فريق سياسي منفردًا، وبإمكان التيارين أن يقوما بالتوافق أو الاتفاق على الدور الواجب والممكن أن يقوما به.

٣- **قضايا الحوار**: حددت ورقة التيار القومي القضايا التي ينبغي أن يتحاور

(١) السابق (ص٨).

(٢) نفسه.

فيها التياران، وهي: (الوحدة العربية والاستقلال الوطني والديمقراطية وحقوق الإنسان والتنمية المستقلة والعدالة الاجتماعية والتجدد الحضاري)، وذكرت الورقة أن الوحدة العربية لا تتعارض مع الوحدة الإسلامية، فالثانية تشمل -بالضرورة- الأولى، وقد جرت في فكر التيار القومي مراجعة مهمة إزاء قضية الوحدة العربية، وذلك بتغليب عناصر البنية التحتية لمشروع الوحدة، بدلًا من التركيز الكبير على أشكالها.

وختمت الورقة بمقترحات عملية كمداخل للحوار تتمثل في الآتي:

١- مراجعة كل تيار لموقفه من القضايا المهمة على الساحة وبيان متطلبات التوافق حولها.

٢- مراجعة التيار القومي لموقفه من المطالبة بالوجود القانوني للقوى الإسلامية السياسية.

٣- بحث كيفية تعميق فهم كل تيار للآخر.

٤- تنقية الخطاب السياسي لكل من التيارين حيال الآخر.

٥- التحديد الدقيق لمجالات التعاون ومجالات الاختلاف، والتأكيد على إمكانية التعايش مع الاختلاف، بل والتعاون في وجود مثل هذه الاختلافات[1].

إن أهم ما يساعد على التعايش السلمي فيما ورد في ورقة التيار القومي هو الدعوة لمعرفة كل تيار للآخر، مع المراجعة الذاتية للمواقف، والاستعداد للتعاون المشترك، وقد تطورت العلاقة بين التيارين عبر منبر المؤتمر، واستمرت أكثر من عقد من الزمان إلى أن جاءت ثورات الربيع العربي، وتمخضت عنها بعض المواقف التي أثرت على العلاقة بين التيارين.

***

(١) المؤتمر القومي الإسلامي في سطور (ص١١-١٣).

الفرع الثالث: التيار الحداثي

الحداثة مفهوم اختلفت تعريفاته، وتعددت بتعدد الزوايا التي يستند إليها التعريف، فهناك من عرَّفها من خلال نظره إلى مكوناتها وفكرها، فوجد من سماتها عدم الانضباط وعدم الوضوح، وهناك من عرَّفها من خلال النظر إلى نتائجها من منطلق الصراع مع الطبيعة، وهناك من عرفها من خلال علاقتها بالموروث، وهناك من عرفها من خلال جوانب المناهج المعرفية، وهناك من عرفها من خلال نشوئها وعلاقتها بالكنيسة، والتعريف الأقرب إلى موضوعنا هو التعريف الذي ينظر إليها من خلال علاقتها بالموروث وبالصراع الحضاري بين الغرب والشرق.

بالعودة لقواميس اللغة العربية نجد أن مصطلح الحداثة مصدر للفعل حدث يحدث حدوثًا وحداثة، وهو يستخدم للدلالة على معان من أهمها:

١- الجديد وهو نقيض القديم.

٢- الكلام والخبر[(١)].

وبالرجوع إلى استخدامات النص القرآني والسنة النبوية لهذا المصطلح، نجد أن القرآن الكريم لم يرد فيه لفظ (حداثة) بهذه الصيغة، وإن كان استعمل صيغًا أخرى لذات الجذر، وكلها جاءت بالاستعمال اللغوي للكلمة[(٢)].

أما في السنة النبوية فقد ورد استعمال هذه اللفظة (الحداثة) في مواضع قليلة منها:

الحديث الأول: عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام؛ فإن قريشا استقصرت

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (ح د ث).

(٢) الحداثة وموقفها من السنة للدكتور الحارث فخري عيسى عبد الله، دار السلام، القاهرة، ط(١)، ١٤٣٤هـ، (ص٢٧-٢٨).

بناءه، وجعلت له خَلْفًا»[1].

الحديث الثاني: حديث عائشة قالت: «... فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة... »[2].

يلاحظ من خلال هذين الموضعين أن استخدام الحديث النبوي لهذا اللفظ (الحداثة) جاء بالمعنى اللغوي الصرف، وهو بمعنى الجديد وعدم الخبرة في الحياة بسبب، صغر السن أو قرب العهد[3].

الحداثة اصطلاحًا محاولة صياغة نموذج للفكر والحياة يتجاوز الموروث ويتحرر من قيوده وثوابته؛ ليحقق تقدم الإنسان ورقيه بعقله، وَفق مناهجه العصرية الغربية؛ لتطويع الكون لإرادته واستخراج مقدراته لخدمته[4].

هذا التعريف يتضمن الأفكار التي يتبناها دعاة الحداثة في العالم العربي الإسلامي، وخلاصتها:

١- الاعتماد على العقل باعتباره مرجعية أولى ومصدرًا معرفيًّا.

٢- محاولة تقديم نموذج لخروج الأمة من مأزقها الراهن المتمثل في تخلفها وتأخرها.

٣- الانبهار بالحضارة الغربية وما أنتجته من أفكار ومناهج وتقنيات.

٤- النظر إلى التراث على أنه سبب في تخلف الأمة وتأخرها.

٥- النظر إلى علاقة الإنسان بالكون باعتبارها علاقة صراع وبحث عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٥٨٥)، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، (٢/ ١٤٦)، ومسلم في صحيحه برقم (١٣٣٣)، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، (٢/ ٩٦٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٦٣٤٨)، مسند الصديقة عائشة بنت أبي بكر، (٤٣/ ٣٦٨)، وقال محققو المسند: إسناده حسن، وفي متنه نكارة».

(٣) الحداثة وموقفها من السنة (ص٢٨).

(٤) السابق (ص٣٣).

السيطرة، وليست علاقة تعايش وتسخير واستخلاف.

٦- النظر للإنسان بأنه الغاية، وللحياة الدنيا بأنها المنتهى، وأن السعادة دنيوية[١].

والحداثة - بحسب تعبير رولان بارت[٢]- طوفان معرفي وزلزال حضاري عنيف وانقلاب ثقافي شامل.

والحداثة موقف عام وشامل ومعارض للثقافات التقليدية السائدة، الحداثة تدعو إلى إعادة النظر في كثير من الأشياء، والتحرر من كل القيود، الحداثة ثورة على كل ما هو تقليدي في المجتمع، الحداثة عملية تقدمية حتى لو كان المخاض عسيرًا، فهي تنشد عصرًا جديدًا يقترن بالتطور والتقدم وتحرر الإنسان.

الحداثة رؤية فلسفية وثقافية جديدة للعالم، الحداثة حالة وعي الواقع وبالتالي نقده، الحداثة تتكئ على مكونات وعناصر مثل التصنيع والعلمانية والديمقراطية عند مطالبتها التوسع في وسائل الإعلام وفي المشاركة السياسية، وهي كثيرًا ما تنتقد الموروث الثقافي الديني بهدف التغيير نحو الأفضل.

الحداثة دعوة لانتصار العقل على النقل، وعرض المنقول من السلف لمنخل العقل مهما كان مصدره، من دون تقديس لأي نص، وتمريره بالتالي كحقيقة منزهة[٣].

ويرى بعض الباحثين أن الحداثة التي يروج لها في العالم الإسلامي لم يكن الهدف منها تحديث العالم الإسلامي ولا بلوغ مستوى أعلى من الرقي الحضاري

(١) الحداثة وموقفها من السنة (ص٢٨).

(٢) رولان بارت: فيلسوف فرنسي، ناقد أدبي دلالي، ومنظر اجتماعي. ولد في ١٢ نوفمبر ١٩١٥ وتوفي في ٢٥ مارس ١٩٨٠،واتسعت أعماله لتشمل حقولا فكرية عديدة. أثر في تطور مدارس عدة كالبنيوية والماركسية وما بعد البنيوية والوجودية، بالإضافة إلى تأثيره في تطور علم الدلالة. أنظر الموسوعة الحرة على الرابط:(ويكيبيديا)

(٣) الحوار المتمدن، العدد: ٢٤٨١ بتاريخ ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٨م.

والنضوج الفكري؛ وإنما هي في الحقيقة استبدال أفكار ومبادئ وقيم غربية بالأفكار والمبادئ والقيم العربية الإسلامية الأصيلة، وهذه المبادئ الغربية مبادئ مادية من شأنها أن تثبت جذور تبعية المسلمين للغرب، وتمحو شخصية المسلم، وتطمس معالم المجتمع الإسلامي الفكرية والثقافية والدينية والاجتماعية[1].

ولا يتفق الباحث مع هذا الرأي، بل يرى أن ما ذكر يعد نتيجة، وأن معظم دعاة الحداثة في العالم الإسلامي يهدفون إلى نهضة العالم الإسلامي باتباع منهج مغاير للمناهج السائدة، ظنًّا منهم أن ما يقوله بعض الدعاة يمثل رأي الإسلام، والواقع أن كثيرًا من خطابات الدعاة منفرة وطاردة، وتسيء للإسلام.

نقول هذا مع الإقرار بأن بعض دعاة الحداثة مثلَ سلامة موسى ونصر حامد أبو زيد وأدونيس؛ قد يكون هدفهم اتباع الغرب بخيره وشره، لكن ثمة آخرين منطلقاتهم بريئة، وهؤلاء مطلوب الحوار معهم لتفهم أهدافهم التي قد تتحقق في ظل الإسلام.

(١) أثر الحضارة الغربية على المجتمعات الإسلامية، للباحث جاد محمد عبد العزيز، دار السلام، القاهرة، ط(١)، ١٤٣١هـ، (ص١٣٥).

الفصل الرابع

التأصيل الشرعي لفقه التنوع

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأصول المؤسِّسة لفقه التنوع.

المبحث الثاني: المقاصد الشرعية للتنوع.

المبحث الثالث: القيم الضابطة للتعامل مع الآخر في الإسلام.

المبحث الأول

الأصول المؤسِّسة لفقه التنوع

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأصول العقدية.

المطلب الثاني: الأصول الدعوية.

المطلب الثالث: الأصول الأخلاقية.

المطلب الأول

الأصول العقدية

الفرع الأول: وحدة الأصل الإنساني

عقيدة المسلم تقوم على قواعد الإسلام الخمسة وأركان الإيمان الستة والتصور العام الذي حدده الإسلام في رؤيته للكون والإنسان والحياة، وكل ذلك مُبيَّنٌ في القرآن والسنة.

وسنشير إلى التأصيل العقدي لوحدة الأصل الإنساني على النحو التالي:

أولًا: عقيدة الأصل الواحد:

ذكر القرآن الكريم أن البشرية أصلها واحد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[1]، فأصل الناس كلهم هو التراب -والآيات في هذا كثيرة- ثم من طين لازب، ثم من حمأٍ مسنون، ثم من صلصال كالفخار، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[4]، فهذه المراحل لتكوين الإنسان؛ من التراب إلى الطين والطين اللازب والحمأ المسنون ثم الصلصال كالفخار ثم نَفْخ

(١) سورة الحج، الآية (٥).

(٢) سورة الصافات، الآية (١١).

(٣) سورة الحجر، الآية (٢٦).

(٤) سورة الرحمن، الآية (١٤).

الروح فيه، لا يختلف فيها إنسان عن آخر[1].

فالمسلمون وغير المسلمين نفخ الله فيهم من روحه، ومنحهم الكرامة، وميزهم بالعقل والارادة، واختصهم بالصفات الفاضلة، وأعطاهم من الصفات ما يستطيعون به تعمير الكون[2]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[3].

ثانيًا: عقيدة الطهارة الفطرية:

لقد خاطب القرآن الإنسان على أنه مخلوق مكرم طاهر، يمتلك القدرة والاستعداد لبلوغ أقصى درجات الكمال البشري، وهي المعرفة بالله وبخلقه وبشرعه، بحيث لا يوجد لدى أي إنسان أو طائفة ما يعيق إمكانية الارتقاء الكمالي، ويستوي في ذلك الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم[4].

والفطرة التي خُلق عليها الإنسان تتمثل في مجموع الصفات والخصائص التي تحقق إنسانيته، فقد أُلْهِم فور ولادته الاهتداءَ إلى ثدي أمه لتناول غذائه، ثم مُنِح التمييز بين الأصوات والألوان، وأُعطِيَ الشعور بالحزن والسرور، واهتدى إلى السعي في الأرض؛ بحثًا عن المأوى والغذاء والكساء، وتطلع إلى المعرفة والاعتقاد والاحساس بالعاطفة، ووُهِبَ غريزة الاجتماع والحب والتملك... إلخ.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ

(١) نحن والآخر (ص٤٨).

(٢) نحن والآخر (ص٤٨).

(٣) سورة السجدة، الآيات (٧-٩).

(٤) النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف- دراسة تأصيلية تحليلية للدكتور محمد بن محمد رفيع، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط(١)، ١٤٣٣هـ، (ص ٢٨).

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ثالثًا: عقيدة المساواة:

قرر الإسلام المساواة بين جميع الناس، وصان كرامتهم، دون انحياز لأي فئة بسبب اللون أو العرق أو المعتقد، ورفض تقسيم الناس إلى طبقات يتفاضل بعضها على بعض بمعيار طبقي، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[2].

رابعًا: عقيدة العدل:

أقر الإسلام المحافظة على البراءة الأصلية لكل الناس، مهما كانت عقائدهم، فاختلاف العقيدة لا يبيح ظلمهم أو اتهامهم بما لم يفعلوا، لقد برأ الله ﷻ اليهودي عندما اُتُّهِمَ ظلمًا من قِبَل أحد المسلمين، وذلك في قصة طُعْمَة بْنِ أُبَيْرِق التي وردت في سورة النساء، وفيها براءة اليهودي وإدانة المسلم[3].

ومن لوازم العدل قبولُ ما يأتي منهم إن كان حقًّا، ولا تحول العقيدة من الاعتراف لهم بالحق إذا صدر منهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4].

خامسًا: عقيدة الكرامة الإنسانية:

أقر الإسلام الكرامة الإنسانية للجميع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[5]، وهذا

(١) سورة الروم، الآية (٣٠).

(٢) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥٢٨-٥٣١).

(٤) سورة المائدة، الآية (٨).

(٥) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

التكريم يقتضي التعامل مع الإنسان بالأسلوب الذي يحفظ هذه الكرامة، فالرسول ﷺ كان يقف عندما تَمُرُّ به جنازة غير المسلم، وعندما سُئِل عن ذلك قال: «أليست نفسًا؟ ».

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله[1]، قال: «مرت بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ،

فقمنا به، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي، قال: «إِذَا رَأَيْتُم الجَنَازَةَ فَقُومُوا»[2].

وفي حديث آخر أنه ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: «إنها جنازة يهودي»، فقال: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟ »[3].

قال الحافظ ابن حجر[4]: «ومقتضى التعليل بقوله (أليست نفْسًا؟) أن ذلك يُسْتَحَبُّ لكل جنازة»[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣١١)، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، (٢/ ٨٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٩٦٠)، كتاب الجنازة، باب القيام للجنازة، (٢/ ٦٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣١١)، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، (٢/ ٨٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٩٦٠)، كتاب الجنازة، باب القيام للجنازة، (٢/ ٦٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣١٢)، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، (٢/ ٨٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٩٦١)، كتاب الجنازة، باب القيام للجنازة، (٢/ ٦٦١).

(٤) ابن حجر العسقلاني: (٨٥٢هـ): هو أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني، المصري المولد سنة ٧٧٣هـ، والنشأة والوفاة، أجمعوا على أنه حافظ الإسلام، وله تأليف عديدة منها (فتح الباري) و(الإصابة في الصحابة) وألف في التاريخ وغيره. وتوفى سنة ٨٥٢هـ ومن أوسع شروحه: سبل السلام شرح بلوغ المرام في أدلة الأحكام لمحمد بن إسماعيل، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للقاضي محمد بن علي الشوكاني، انظر: طبقات الحفاظ لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ص٢٥١.

(٥) فتح الباري لابن حجر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩هـ، (٣/ ١٨١)، ونحن والآخر (ص٩٧).

سادسًا: عقيدة حرية الاختيار:

حرية الاختيار جاءت بوضوح في قصة إبليس، حيث دار بينه وبين الله ﷻ حوار، ورد في القرآن الكريم بصيغ كثيرة ومتنوعة، ففي سورة الأعراف جاء: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [1]، وفي سورة الحجر: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [2]، وفي سورة ص: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [3].

وفي سورة الأعراف وسورة ص كان رد إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [4]، وفي سورة الحجر جاء: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [5].

الفرع الثاني: الدين عند الله الإسلام

الإسلام هو الدين المشترك لكل الأديان السماوية[6]، فالأنبياء والمرسلون أجمعوا على أن الدين عند الله الإسلام، وكلهم دعوا إلى توحيد الله تعالى عبادةً واستعانةً، وأجمعوا على تنزيهه عما لا يليق به، وعلى تحريم الإلحاد في أسمائه، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيمًا لا يشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله، ويوقنون أنه -سبحانه- قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها، وأن لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده، ويفرض طاعته على الناس، وأن القيامة حق، والبعث بعد الموت حق، والجنة حق، والنار حق.

(١) سورة الأعراف، الآية (١٢).
(٢) سورة الحجر، الآية (٣٢).
(٣) سورة ص، الآية (٧٥).
(٤) سورة الأعراف، الآية (١٢). وسورة ص، الآية (٧٦).
(٥) سورة الحجر، الآية (٣٣).
(٦) نحن والآخر (ص٥٣).

وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والتقرب إلى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المنزل من الله.

وكذلك أجمعوا على مشروعية النكاح ووجوب إقامة العدل بين الناس وإقامة الحدود على أهل المعاصي وجهاد أعداء الله والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه وتحريم السفاح وتحريم المظالم[1].

لقد خاطب القرآن الكريم سيدنا محمدًا ﷺ بالمعنى الأشمل والأكمل لمعاني الإسلام، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]، فلفظ الإسلام -هنا- أطلق على الدين الذي أوحاه الله إلى سيدنا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3]، وقال -سبحانه-: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[4].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[5]، فلفظ الإسلام هنا معناه الإخلاص لله، فطرةً واعتقادًا وعملًا بمقتضى أمر الله في كل زمان ومكان، ويدخل فيه ما كان عليه الأنبياء السابقون والمؤمنون معهم، كما يدخل في هذا المدلول العام دينُنا الذي ختم به الأديان، فأصبح هذا المعنى العامُّ منحصرًا في ديننا الآن، مع الإيمان بشموليته لما سبقه من أديان أقر القرآن بصدقها وصلاحها، وأوجب الإيمان بها في زمانها قبل تبديلها وتغييرها[6].

(١) حجة الله البالغة للإمام الدهلوي، تحقيق السيد سابق، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط(١)، ٢٠٠٥م، (١/ ١٥٩-١٦٠).

(٢) سورة الأنعام، الآيات (١٦١-١٦٣).

(٣) سورة المائدة، الآية (٣).

(٤) سورة آل عمران، الآية (١٩).

(٥) سورة آل عمران، الآية (٨٥).

(٦) الشريعة الإسلامية كمال في الدين وتمام للنعمة للدكتور محمد رياض، دار الكلمة، القاهرة، ط(١)، ٢٠١٤م، (ص٣٠-٣٢).

الفرع الثالث: الاعتراف بالاختلاف

في عقيدة المسلم أن الوحدانية لله وحده، فهو ﷻ واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، أما المخلوقات فهي قائمة على التنوع والتعدد والاختلاف، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1].

والاختلاف آية من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[2].

ومن واقعية الإسلام أنه اعترف بالعقائد والأفكار والألوان والأطياف، على الرغم من أنه ينشد وحدة الناس، ويريد لهم الخير كله، يقول القرآن: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[3] فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

والبيان النبوي يؤكد هذا المبدأ القرآني في تقرير حقيقة وحدة الإنسانية في أصلها، يقول ﷺ: «ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[5].

---

(١) سورة فاطر، الآيتان (٢٧-٢٨).

(٢) سورة الروم، الآية (٢٢).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢١٣).

(٤) سورة البقرة، الآية (٢١٣).

(٥) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٣٤٨٩)، تتمة مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، (٣٨/ ٤٧٤)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح».

فانطلاقًا من لَبِنَاتِ مفهوم الوحدة في النفس والأبوة والأخوة الجامعة للإنسانية أَسَّسَ القرآن الكريم قواعد متينة للمشترك الإنساني من أجل التعارف والتعاون والتكامل بين خلق الله أجمعين[1].

(١) النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف (ص٢٢ -٢٣).

المطلب الثاني
الأصـــول الفقهـــــية

الفرع الأول: المجادلة بالحسنى

في إطار فقه التعامل بين المسلم والمخالف وضع الإسلام أصولًا ومبادئَ توجه المسلمين لفقه التعامل، ومن هذه الأصول الفقهية مبدأُ المجادلة بالحسنى.

في معاجم اللغة: «الجدلُ شدةُ الخصومة[1]، وجَدِلَ الرجلُ جَدَلًا فهو جَدِلٌ - من باب (تَعِبَ)- إذا اشتدت خصومته، وجادل مجادلة وجدالًا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها.

والجدل محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم، ويقال: «أول من دون في الجدل أبو علي الطبري»[2].

وقال الراغب الأصفهاني: «الجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من (جَدَلْتُ الحبلَ) أي أحكمت فتله»[3].

والمجادلة أصلها من الجدل، ومادة (جدل) في اللغة تدل على الشدة والقوة.

والجدل -في الإصطلاح-: دفع المرء خصمَهُ عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة[4].

(١) مختار الصحاح للرازي (ص٩٦).
(٢) المصباح المنير للفيومي (ص٩٣).
(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص١٨٩).
(٤) التعريفات للجرجاني (ص٧٤).

قال النووي[1]: «الجدل والجدال والمجادلة مقابلة الحجة بالحجة»[2].

ويكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال[3].

أما في السنة: فالأحاديث التي ورد فيها لفظ الجدل على إطلاقه تدل على كراهيته، فمن ذلك حديث رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[4].

فالجدل لم يؤمر به، ولم يمدح في الكتاب أو السنة على إطلاقه، بل الأصل فيه أنه مذموم، ما لم يقيد بالحسنى أو بالحق، كما ورد في الآيتين السابقتين، ومن ذلك يتبين الفرق بين الحوار والجدل، فهما يشتركان في كونهما حديثًا أو مراجعة للكلام بين طرفين، ويفترقان في أن الجدال فيه لَدَدٌ في الخصومة وشدة في الكلام مع التمسك بالرأي والتعصب له، أما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين الطرفين دون وجود خصومة بالضرورة، بل الغالب عليه الهدوء والبعد عن التعصب ونحوه[5].

(١) يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعيّ، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقه والحديث، مولده عام: ٦٣٢ه في نوا (من قرى حوران، بسورية) واليها نسبته، تعلم في دمشق، وأقام بها زمنًا طويلا، من كتبه: «تهذيب الأسماء واللغات ومنهاج الطالبين، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين» وتوفي كذلك في نوى عام: ٦٧٦هـ، الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٨/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، حققه: مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، (٣/ ٤٨).

(٣) تاريخ الجدل لأبى زهرة، طبعة دار الفكر العربي، (ص٥).

(٤) سورة الزخرف، الآية (٥٨).

(٥) فن الحوار لفيصل الحاشدي (ص١٧)

الفرع الثاني: الحوار

تعريف الحوار:

أصله من الـحَوْر -بفتح الحاء وسكون الواو- وهو الرجوع عـن الشـيء وإلى الشيء.

يقال: حَارَ يـحُور حَوْرًا وحُؤورًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [1]، أي: ظن أن لن يرجع إلى ربه، وقوله ﷺ: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمـه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعـده مـن النـار، ومـن دعـا رجـلًا بالكفر، أو قال: (عدو الله)، وليس كذلك إلا حار عليه» [2].

قال النووي: «حار عليـه: أي رجـع الكفـر عليـه، فبـاء وحـار ورجـع بمعنـى واحد» [3].

فالحوار -إذًا- في اللغة: هو الرجوع والمجاوبة.

وفي الاصطلاح: هو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرد فيه [4].

ومنهم من عرفه بأنه نوع حديث بين شخصين أو فريقين، يُتَـدَاوَل فيـه الكـلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعـد عن الخصومة والتعصب [5].

وقد ورد لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط:

(١) سورة الانشقاق، الآية (١٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٦)، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، (١/ ٧٩).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٥٠).

(٤) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ليحيى بن محمد زمزمي (ص٢٠)

(٥) الحوار في الإسلام حقائق ونتائج، (ص١٤).

أولها: قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [1].

والثاني: قوله تعالى : ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [2].

والثالث: قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [3].

إن التحاور مع الآخر يقتضي الاعتراف بوجوده، وهذا الاعتراف مرتبط بحقوق إنسانية في الإطار الإنساني العام، وبحقوقٍ دينية لأهل الأديان، وبحق الاجتهاد للمسلم المخالف، فالحكمة الإلهية اقتضت وجود الإنسان بكل خصائصه على الأرض مستخلَفًا فيها، وما دام عاقلًا حرًا يتمتع بالإرادة والإختيار فمن الطبيعي أن يحدث التباين والاختلاف والتنوع في المعتقدات والمفاهيم والأفكار والعادات والأعراف والثقافات، وليس هنالك تلازم بين الاعتراف بوجود الآخر وصحة اعتقاده في الغالب، فالإسلام سفَّه عقائد المشركين، وأكد بطلانها، بالرغم من اعترافه بها كواقع مشاهد، قال تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [4].

لقد وضح القرآن الكريم منهج الحوار مع المخالف، قال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [5].

(١) سورة الكهف، الآية (٣٤).

(٢) سورة الكهف، الآية (٣٧).

(٣) سورة المجادلة، الآية (١).

(٤) سورة الكافرون، الآية (٣).

(٥) سورة سبأ، الآيتان (٢٤-٢٥).

إنه منهج يؤصل للموضوعية في الحوار؛ حيث يوجه المسلمين أن يكون الحق مطلَبَهم، ولا يضيرهم أن يأتي على لسان غيرهم، إنه أسلوب يطمئن المخالف، ويعزز الثقة بينه وبين من يحاوره، وفوق ذلك لا ينسب الإجرام للمخالف، وهي دعوة صريحة للجميع -بدون استثناء- للبحث عن الحقيقة والتمييز بينها وبين الباطل والضلال، ولذلك لم يحكم القرآن عند الجدال بأن الإسلام هو الصحيح -مع أنه كذلك- ولا على باطل المشركين وشركياتهم بأنه ضلالة -مع أنه كذلك-، بل ترك الباب للحوار والنقاش[1].

فالحوار ميادينه كثيرة، منها حوار الحياة، وهو الاهتمام بالآخر وتَفَهُّمُ خلفياته والاعتراف بتميزاته، ثم بناء عيش مشترك معه على قاعدتي التفهم والاعتراف، ومنها حوار العمل، وهو العمل معًا اجتماعيًا وإنسانيًّا واقتصاديًّا، العمل الذي يحقق انصهارًا مجتمعيًّا وتداخلًا في العلاقات وتكاملًا في المصالح، ومنها حوار النقاش الفكري والعقدي، وليست غاية هذا الحوار توحيد الديانات، وإنما تفاهمها، وليست الوسيلة إلى ذلك التوقف أمام التباين، بل البحث عن المشترك فيما بينها، ومنها حوار التجارب، بما في ذلك التجارب الدينية، وليست الغاية منه ممارسة العبادة مثل الآخر، ولكن إدراك الحقيقة بأن الآخر يمكن أن يعبد الله بطريقة مختلفة[2].

الفرع الثالث: معايير ومحددات الدين الحق

ورد في الفصل الأول تعريفُ الدين وأهميتُه في حياة الإنسان، وبيَّنَّا أن الإنسان لكي يعيش في انسجام بين روحه وجسده لا بد له من عقيدة، يؤمن بها، وتفسر له مبدأه ومصيره وعلاقته بالكون، ولهذا لا تخلو المجتمعات البشرية من العقائد.

وإن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية

(١) نحن والآخر (ص٦٤).

(٢) مقدمة إلى الحوار الإسلامي المسيحي لمحمد السماك، دار النفائس، ط(١)، ١٩٩٨م، (ص١٤٢).

-بل أمة كبيرة- ظهرت وعاشت ثم مضت، دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأيًا معينًا، حقًّا أو باطلًا ، يقينًا أو ظنًّا، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها[1].

ولكن العقائد مع أهميتها ليست على نسق واحد، فمنها ما يقوم على الأوهام والخرافات، ومنها ما يقوم على تقليد الآباء والأسلاف، ومنها ما يقوم على التأمل، ومنها ما يقوم على أدلة مقنعة، تتلاءم مع الفطرة والعقل.

فالواقع أن مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس وفي الآفاق، وأن بواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات[2].

فالتطلع للعقيدة أمر مركوز في فطرة الإنسان، والدين يتحقق بوسيلتين: سعي الإنسان إلى الله، ومخاطبة الله للإنسان عن طريق إرسال الرسل.

فالوسيلة الأولى نتيجتها الأديان الوضعية بكل مسمياتها، والوسيلة الثانية ثمرتها الأديان السماوية التي ختمت بالرسالة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3].

والآن يجدر بنا بعد أن بيَّنَّا أهمية الدين في حياة الإنسان أن نحدد معايير ومحددات، نميز بها بين الأديان؛ لنعرف ما الدين الذي تنطبق عليه، فيكون هو الدين الحق، وما الدين الذي لا تتحقق فيه؛ ليكون حكمنا منصفًا.

المعيار الأول: أن يكون الدين صادرًا من الخالق الذي خلق الكون، وأوجد فيه الإنسان؛ ليقوم بعمارته، وأن يكون هذا الدين خاليًا من التناقض، ومحفوظًا

(١) الدين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان (ص٤٥).

(٢) السابق (ص١٥٨).

(٣) سورة المائدة، الآية (٣).

من التحريف والتبديل.

المعيار الثاني: أن يكون هذا الدين مصحوبًا بكتاب معجز، يتضمن سيرة الأولين، ويعترف بالرسل السابقين، ويصدِّقُ ما جاءوا به من أصول وأحكام، ويصحح التبديل والتحريف الذي لحق بتعاليمهم وسيرتهم.

المعيار الثالث: أن يلبي هذا الدين المطالب الضرورية التي يحتاجها الإنسان، باعتباره مخلوقًا من طين، وفيه قبس من روح الله.

المعيار الرابع: أن يحقق الدين المساواة بين جميع الناس، ويصون كرامتهم، وأن لا يكون منحازًا لأي فئة بسبب اللون أو العرق أو المعتقد، وأن لا يقسم الناس إلى طبقات، يتفاضل بعضها على بعض بمعيارٍ طَبَقِيٍّ.

المعيار الخامس: أن لا يتناقض الدين مع حقائق العلم ولا مع استنتاجات العقل ولا مع الواقع.

المعيار السادس: أن يحمل الدين منهجًا قادرًا على الإجابة على كل تساؤلات الإنسان في عالم الغيب والشهادة، وأن تكون أحكامه مرنة، تتلاءم مع حالات المكلفين قوةً وضعفًا، صحةً ومرضًا، جماعةً وأفرادًا... إلخ.

المعيار السابع: أن لا يفرض الدين عقيدته على الناس بالإكراه، وأن لا يعاقب الناس على جرم لم يرتكبوه، وأن لا يحطمهم بارتكاب الذنوب، بل يفتح لهم الباب للتوبة والإنابة، ويعاملهم بالرحمة، ويجعلهم يعيشون على أمل.

وتطبيقًا لتلك المعايير على دين الإسلام نجد الإسلام -فيما يخص المعيار الأول- يؤكد أنه صادر عن الله الذي خلق الكون، وأوجد فيه الإنسان؛ ليقوم بعمارته، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١)، وعن نفي التناقض قال تعالى:

(١) سورة البقرة، الآيتان (٢١-٢٢).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [1] وعن الحفظ عن التبديل قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [2].

وفيما يخص المعيار الثاني فإن القرآن الكريم هو الكتاب الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ، وهو كتاب معجز، تحدى معارضيه يوم نزوله، وما زال التحدي قائمًا إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى-: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3]، وتأكيدًا على تصديق الرسالات السابقة وتصحيح ما لحق بها من تحريف وتبديل قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [4].

وفيما يخص المعيار الثالث نقرأ قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [5].

وتصديق المعيار الرابع قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [6].

---

(١) سورة النساء، الآية (٨٢).

(٢) سورة الحجر، الآية (٩).

(٣) سورة البقرة، الآيتان (٢٣-٢٤).

(٤) سورة المائدة، الآية (٤٨).

(٥) سورة الأعراف، الآيات (٣١-٣٣).

(٦) سورة الحجرات، الآية (١٣).

وتأكيدًا للمعيار الخامس نطالع قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ (١).

والمعيار السادس مبثوثة مفرداته في كتاب الله وفي سنة رسول الله بصورة لا تحتاج إلى برهان، ومع ذلك نشير إلى بعضٍ منها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢). وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (٣). وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (٤).

فإذا أتينا للمعيار السابع قرأنا قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ (٥)، وقوله -جل شأنه-: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٦).

(١) سورة الطور، الآيات (٢٩-٣٨).
(٢) سورة النحل، الآية (٩٠).
(٣) سورة النحل، الآية (١٢٥).
(٤) سورة الأعراف، الآية (١٥٧).
(٥) سورة البقرة، الآية (٢٥٦).
(٦) سورة الإسراء، الآيات (١٣-١٥).

المطلب الثالث

الأصول الأخلاقية

الفرع الأول: السماحة

السين والميم والحاء أصلٌ يدل على سلاسة وسهولة، يقال: سمح له بالشيء، ورجل سَمْحٌ، أي: جواد، وقوم سُمَحَاءُ ومَسَامِيحُ[(١)].

وسامحه بكذا: أعطاه، وتسامح وتسمح، وأصله الاتساع، ومنه يقال في الحق: «مسمح، أي متسع ومندوحة عن الباطل، وعود سَمْحٌ مِثْلُ سهل، وزنًا ومعنى»[(٢)].

«وسمح له: أعطاه، وسَمُحَ -من باب ظَرُفَ- صار سَمْحًا -بسكون الميم-، وقوم سُمَحَاء -بوزن فقهاء-، وامرأة سمحة -بسكون الميم-، ونسوة سماح -بالكسر-، وتسامحوا: تساهلوا»[(٣)].

ولا نجد فرقًا بين المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية للفظ السماحة ومشتقاته، أو يمكن أن نقول: لا نجد لهذا اللفظ معنى اصطلاحيًّا خاصًّا مغايرًا لمعناه وأصله اللغوي[(٤)].

فمعاني السماحة تتضمن صفات التسهيل والتوسعة والسخاء والعفو ونحوها، مما يكون مبعثه كرم النفس وسعة الصدر وطيب القلب، فالإنسان السمح هو الذي ييسر على غيره في حال يمكنه فيها التعسير عليهم، ويلين معهم حيث تسوغ

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٩٩).

(٢) المصباح المنير للفيومي (ص١٠٩).

(٣) مختار الصحاح للرازي (ص٣١٢).

(٤) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، ط(١)، ١٤٣٤هـ، (٣/ ١٤٠).

له الشدة، ويعفو عنهم حيث يحق له اللوم والعقاب، ويحسن ظنه عند مثارات سوء الظن بالناس، ويعمل بالإحسان متجاوزًا حقه في العدل والانتصاف، ويتنازل حيث يستطيع المشاحة والتعنت، ويتعامل بالإيثار وهو قادر على الاستئثار[1].

وفي بيان مغزى الآية الكريمة: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[2]، ومعنى كون العفو أقرب للتقوى أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الشديد؛ لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعي وطبيعي، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يَزَعُهُ عن المظالم والقساوة، فتكون التقوى أقرب إليه؛ لكثرة أسبابها فيه[3].

فالسماحة تندمج فيها صفات كريمة حميدة، وتنزاح بفضلها صفات ذميمة نكدة، مما يجعل حياة الناس وعلاقاتهم تنساب في يسر وألفة ومودة وسعادة.

ولم تذكر السماحة بلفظها في القرآن الكريم، ولكن مضامينها مبثوثة في آيات كثيرة، منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[4]، فصفات المتقين المذكورة -التي استحقوا بها مغفرة الله وجناته الواسعة- هي الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس من المخطئين والمسيئين والإحسان في المعاملة، كلها من صفات السماحة وآثارها وتوابعها[5].

(١) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية، (٣/ ١٤٠).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٣٧).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، (٢/ ٤٦٤).

(٤) سورة آل عمران، الآيتان (١٣٣-١٣٤).

(٥) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية (٣/ ١٤٢).

وهي صفات مطلوب أن يعامل بها المسلم كل الناس، مهما كانت عقائدهم؛ رجاء الثواب من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، هذه الآية نزلت في الصديق ﷺ حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدًا، بعدما قال في عائشة ما قال، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ قال الصديق: «بلى -والله- وإنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا»، ثم أرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: «والله لا أنزعها منه أبدًا»[2]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول الأصوليون.

وفي السنة النبوية وردت أحاديث كثيرة تحث على السماحة، منها قوله ﷺ: «أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة»[3].

وفي صحيح البخاري: باب: الدين يسر، قول النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[4].

ولهذا الأصل -خلق السماحة- آثار جليلة جميلة في حياة الناس وعلاقاتهم ومعاملاتهم، وقد يكون أهل السماحة أنفسهم أوَّلَ المستفيدين والمستمتعين بهذا الخلق، بما منحهم من طمأنينة وسعادة بسماحتهم وجميل أفعالهم، وبما يكتب لهم في الأرض من محبة وقبول.

والسماحة -بعد ذلك- خلق وسلوك اجتماعي تنعكس آثاره الإيجابية على

(١) سورة النور، الآية (٢٢).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (ص٧٣٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢١٠٧)، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس، (٤/ ١٧)، وحسن المحققون إسناده.

(٤) صحيح البخاري (١/ ٤٣).

كافة جوانب الحياة الخاصة والعامة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فحيثما وُجِدَتِ السماحة وسادت بين الناس فالمشاكل والخسائر أقل، والمكاسب والأرباح أكثر[1].

والنص الجامع لمعاني السماحة والصفح واحتمال الأذى جاء في سورة الشورى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

الفرع الثاني: البر

قال الراغب الأصفهاني: «البَرُّ خِلافُ البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر، أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، وإلى العبد تارة، فيقال: «بر العبد ربه»، أي توسع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة.

وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد، وضرب في الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[4]، وعلى هذا ما روي أنه سئل عليه الصلاة والسلام عن البر، فتلا هذه الآية، فإن الآية

(١) معلمة زائد للقواعد الفقهية والأصولية (٣/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) سورة الشورى، الآيات (٣٧-٤٣).

(٣) سورة الطور، الآية (٢٨).

(٤) سورة البقرة، الآية (١٧٧).

متضمنة للاعتقاد والأعمال الفرائض والنوافلِ، وبرُّ الوالدين التوسعُ في الإحسان إليهما، وضده العقوق»[(١)].

والبر في اللغة الخير والفضل، ومن معانيه الصدق والتقى وإحسانُ الطاعةِ والرفقُ والقبولُ[(٢)].

وقد وردت كلمة (بر) ومشتقاتها في القرآن في عشرين موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [(٣)]، وقوله -جل شأنه-: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [(٤)].

ويقول المفسرون: «إن البر كلمة جامعة لكل أعمال الخير، فبر الإنسان بنفسه تزكيته لها، وتغذية الإنسان لنفسه بر ببدنه، وحسن معاملة الوالدين والتوسع في الإحسان إليهما بر بهما، والبر ثلاثة أنواع جامعة لكل خير: بر في العقيدة، وبر في العمل، وبر في الخلق»[(٥)].

والبر اسم للخير ولكل فعل مَرْضِيّ[(٦)].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [(٧)] الآية.

قال الواسطي[(٨)]: «الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحاب، وإلى الرب بالتخلي

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص٥١).

(٢) موسوعة مصطلحات الحضارة الإسلامية- مصطلحات علوم القرآن، رئيس التحرير أ. د. عبد الحليم عويس، دار الوفاء-مصر، ط(١) ١٤٢٨هـ، (١/ ٣٣٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٩٢).

(٤) سورة المائدة، الآية (٢).

(٥) موسوعة مصطلحات الحضارة الإسلامية- مصطلحات علوم القرآن (١/ ٣٣٤).

(٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، تحقيق الشيخ مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت، ط(٤) ١٤٣٩هـ، (١/ ١٤٧).

(٧) سورة آل عمران، الآية (٩٢).

(٨) أبو عبد الله محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي: من كبار علماء الكلام، معتزلي، توفي عام ٣٠٧ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي (٦/ ١٣٢).

عن الكونين».

وقال أبو بكر الوراق[1]: «لن تنالوا بِرِّي بكم إلا ببركم بإخوانكم، والحاصل أنه لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3] الآية..: «وتعاونوا على العفو والإغضاء، ولا تعاونوا على الانتقام والتَّشَفِّي، أو البر هو فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والإثم ترك المأمور، والعدوان فعل المحظور، ويجوز أن يراد العموم لكل بر وتقوى، ولكل إثم وعدوان، فيتناول بعمومه العفو والانتصار»[4].

والبر في الإسلام بمفهومه الواسع ليس وقفًا للتعامل مع المسلمين، بل هو تعامل مع كل الناس، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[5]. والمقصود أن تكرموهم وتحسنوا إليهم قولًا وفعلًا[6].

وإذا كان الناس أمة واحدة، فإن الأُخُوَّة الإنسانية ثابتة، يجب وصلها، ولا يصح قطعها، وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب بالمودة، والإسلام لا ينهى عن بِرِّ كُلِّ من لا يعتدي على المسلمين، ويصرح القرآن الكريم بذلك في كثير من آياته -كما في الآية السابقة-، فالبر ثابت للمسلم ولغير المسلم[7].

(١) محمد بن عمر الوراق البلخي: له الكتب في المعاملات، أسند عنه الحديث أبو بكر بن أحمد بن سعيد وأحمد بن مزاحم وغيلان السمرقندي ومحمد بن محمد بن حاتم وغيرهم.
ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٣٥).

(٢) تفسير النسفي (١/ ٢٥٥).

(٣) سورة المائدة، الآية (٢).

(٤) تفسير النسفي (١/ ٣٩١).

(٥) سورة الممتحنة، الآية (٨).

(٦) تفسير النسفي (٤/ ٣٦٤).

(٧) العلاقات الدولية في الإسلام لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٨هـ، (ص٤٤).

والمودة الموصولة لا تقطعها الحرب ولا الاختلاف، ويروى أنه في مدة صلح الحديبية -وهو الهدنة الذي كان بين المسلمين وقريش- بلغ النبي ﷺ أن قريشًا أصابتهم جائحة، فأرسل مع حاطب ابن أبي بلتعة إلى أبي سفيان[1] خمسمائة دينار؛ ليشتري بها قمحًا، ويوزعه على فقراء قريش[2].

فالآية الآمرة بالبر حكمُها عامٌّ لكل الناس، قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم؛ لأن الله ﷻ عمّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جميعَ من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: (ذلك منسوخ)؛ لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غيرُ محرم ولا منهي عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكُراع أو سلاح، قد بين صحة ما قلنا في ذلك الخبرُ الذي ذكرناه عن ابن الزبير في قصة أسماء وأمها»[3].

والتواصل الاجتماعي من وجوه البر، ومن أهم مداخله التحية والسلام وعيادة المرضى والتعزية والتهنئة؛ فقد أورد ابن القيم الأحاديثَ الناهية عن بدء

(١) أبوسفيان: صخر بن حرب بن أمية بن شمس بن عبد مناف، صحابي من سادات قريش في الجاهلية، ولد سنة ٥٧ قبل الهجرة = ٥٦٧م، والد معاوية رأس الدولة الأموية، كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره، قاد قريشًا وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال رسول الله ﷺ، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨هـ، وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، وشهد حنينًا والطائف ففقئت عينه يوم الطائف ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك فعمي، وكان من الشجعان الأبطال، كان يقول يوم اليرموك بأعلى صوته يا نصر الله اقترب، ولما توفي الرسول ﷺ كان أبوسفيان عامله على نجران، ثم أتى الشام وتوفي بالمدينة وقيل بالشام سنة ٣١هـ- ٦٥٢م، انظر: الأعلام جـ٣ ص٢٨٨.

(٢)العلاقات الدولية في الإسلام ، ص(٤٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٢٣).

أهل الكتاب بالسلام، مع شرح معاني السلام، وبين أن له خمسةَ أوجه، فصلها.

وأما رد التحية فأورد النصوص التي ذَكَرَت أن أهل الكتاب إذا سلموا علينا نرد عليهم بلفظ (وعليكم)، وذكر أنهم في الغالب يقولون: «السام عليكم»، ولكن إذا تأكد أنهم قالوا: «السلام عليكم» فكيف نرد عليهم؟

قال ابن القيم: «فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: «سلام عليكم» لا شك فيه، فهل له أن يقول: «وعليك السلام»، أو يقتصر على قوله: «وعليك»؟

فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: «وعليك السلام»؛ فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[1]، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئًا من أحاديث الباب بوجه ما؛ فإنه ﷺ إنما أمر بالاقتصار على قول الراد «وعليكم»؛ بناءً على السبب المذكور، الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليه في حديث عائشة ، فقال: «ألا ترينني قلت: وعليكم، لما قالوا السام عليكم؟»، ثم قال: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم».

والاعتبار -وإن كان لعموم اللفظ- إنما يعتبر عمومُه في نظير المذكور، لا فيما يخالفه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾[2]، فإذا زال هذا السبب، وقال الكتابي: «سلام عليكم ورحمة الله»، فالعدل في التحية يقتضي أن يرد عليه نظير سلامه»[3].

أما عن عيادة المريض فذكر ثلاث روايات للإمام أحمد: المنع، والإذن، والتفصيل، فإن أمكنه أن يدعوه إلى الإسلام ويرجو ذلك منه عاده، وذكر حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ

(١) سورة النساء، الآية (٨٦).

(٢) سورة المجادلة، الآية (٨).

(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم، دار الكتب العلمية- بيروت، ط(٢)، ١٤٢٣هـ، (ص ١٥٧).

يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: «أطع أبا القاسم»، فخرج النبي ﷺ، وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[1].

وفي حضور جنائز أهل الكتاب ذكر أن الإمام أحمد أجاز ذلك بتفاصيل.

وأما عن التعزية فقد ذكر أن الإمام أحمد سئل عن ذلك، فقال مرة: «ما أدري»، ومرة قال: «ما أحفظ فيه شيئًا»، ولم يذكر حكمًا.

ونفس الأمر في التهنئة، وفَرَّقَ بين التهنئة بالأمور المشتركة كالزواج والتهنئة بالمولود، وبين التهنئة بأعيادهم وصومهم، فذكر أن من يقول: «عيد مبارك عليك»، أو «تهنأ بهذا العيد»، ونحوه إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب[2].

ولا يتفق الباحث مع ما ذهب إليه الإمام ابن القيم بشأن تهنئة المسيحيين بأعيادهم؛ لأنه ليس من اللازم أن التهنئة بميلاد المسيح فيها إقرار بعقيدة المسيحيين في عيسى عليه السلام؛ فالمسلم يعتقد أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وأن ميلاد المسيح كان معجزة، فصلها القرآن الكريم؛ فتهنئة المسلم للمسيح بأعياد الميلاد من باب المعاملة بالبر ليس إلا.

الفرع الثالث: الإحسان

قال الراغب الأصفهاني: «الإحسان يقال على وجهين، أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: «أحسن إلى فلان»، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «الناس أبناء ما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣٥٦)، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟، (٢/ ٩٤).

(٢) أحكام أهل الذمة (ص١٦٢)، وبحث اجتهادات ابن تيمية في فقه العلاقات الدولية وأثرها على الواقع المعاصر لعبد المحمود أبّو، بحث مقدم في الندوة التكميلية الرابعة التي نظمها مركز الإمام أبوعبدالله الشافعي العلمي بالجمهورية اليمنية- تحت عنوان: إصلاحات ابن تيمية وأثرها في بناء الدولة، بتاريخ: ٢٩ - ٣٠/ ٠٤/ ٢٠١٤م.

يحسنون»، أي منسوبون إلى ما يعملون وما يعملونه من الأفعال الحسنة»[١].

فالإحسان هو التناهي علوًّا في كل شيء، عملًا أو قولًا أو عطاءً أو حسن معاملة أو حسن أداءٍ. ومن عطاء المحسنين قول الله تعالى في وصف المتقين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾[٢]، ثم قال عنهم: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٣]، فهم يعطون بكرم لا حساب فيه، ولا حدود له، ففي الإحسان زيادة في كل شيء على القدر الذي أقره الشارع، ولذلك قال -سبحانه- عن صنف المصلين -وهم غير المحسنين-: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤]، فهؤلاء يعطون عطاءً معلومًا محدودًا بالنطاق الذي قرره الشرع[٥].

فالمراد من الإحسان في الإسلام أن نتخذ من السماحة شعارًا في دفع حقوق الآخرين، فنجمع الرأفة والإشفاق إلى جانب العدل والإنصاف، ونذهب أبعد من إطار المقتضيات القانونية، ونبني موقف الفضل والعطف والكرم، وتسمو همتنا، بحيث نرضى لأنفسنا بأقل مما نستحقه، ونحاول أن نعطي لغيرنا أكثر مما يستحقه[٦].

فإذا كان معيار العدل أن يراعي العبد حق الغير، معاملةً وحكمًا كما يراعي حق نفسه، فإن الإحسان هو تقديم حق الغير على حق النفس، أو على حد تعبير الإمام الشاطبي: «إسقاط حظوظ النفس والقيام على قدم العبودية»[٧].

(١) المفردات في غريب القرآن (ص١٢٦).
(٢) سورة الذاريات، الآية (١٦).
(٣) سورة الذاريات، الآية (١٩).
(٤) سورة المعارج، الآيتان (٢٤-٢٥).
(٥) موسوعة مصطلحات الحضارة الإسلامية – مصطلحات علوم القرآن (١/ ٦٦).
(٦) التذكير القويم في تفسير القرآن الحكيم للعلامة وحيد الدين خان، دار الوفاء، مصر، ط(١)، ١٤٢٩هـ، (٢/ ٢٦٤، ٢٦٥).
(٧) الموافقات للشاطبي (٤/ ٢٤٠).

وأدنى ذلك ملاحظة الخير في أفعال الغير، وأعلاه التضحية بالنفس من أجل الغير، وأوسطه الصبر على الأذى والتماس العذر له والعفو عن مساءته ومكافأة الإساءة بالإحسان[1].

الإحسان خلقٌ لا يكون معه تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان مجرد تحصيل خدمات منه، أو توصيلها إليه، وإنما جلب صلاح له أو استجلابه منه، ودفع فساد عنه أو استدفاعه به[2]. وهذا مقتضى قول النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[3]. يقول القرطبي في شرح هذا المعنى: «فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى إن الطائر في سجنك، والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهدك بإحسانك»[4].

ويقول الغزالي: «وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعًا، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[5]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[6]، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[7]، ونعني بالإحسان فعل ما ينتفع به العامل، وهو غير واجب عليه، ولكنه تفضل منه؛ فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك

(١) القيم الحضارية في الإسلام.. نحو حداثة إنسانية جديدة (ص ١٨٧، ١٨٨).

(٢) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري لطه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط(٤) ٢٠١٧م، (ص١٦).

(٣) سبق تخرجه ص ٦.

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٦).

(٥) سورة القصص، الآية (٧٧).

(٦) سورة النحل، الآية (٩٠).

(٧) سورة الأعراف، الآية (٥٦).

الظلم»[1].

فالإحسان في التعامل يؤسس لفقه شغوف باصطناع المعروف بوجه عام، ويؤسس لفقه شغوف بخلق الإيثار، وهو فقه يقوم على وجهين، ذكرهما الإمام الشاطبي:

الوجه الأول: إسقاط الاستبداد والدخول في المواساة على سواء، وذلك بأن يرى العبد غيره مثل نفسه، وكأنه أخوه أو ابنه أو قريبه أو يتيمه، أو غير ذلك ممن طلب بالقيام عليه ندبًا أو وجوبًا، وأنه قائم في خلق الله بالإصلاح والنظر والتسديد، فهو على ذلك كواحد منهم.

عن أبي سعيد قال: «بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له»، قال: «فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا »، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له»، قال: «فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»[2].

الوجه الثاني: الإيثار على النفس، وهو أعرق في إسقاط الحظوظ، وذلك أن يترك حظ نفسه لحظ غيره؛ اعتمادًا على صحة اليقين، وإصابةً لعين التوكل، وتحملًا للمشقة في عون الأخ في الله على المحبة من أجله[3].

وهو من محامد الأخلاق وزكيات الأعمال، وهو ثابت من فعل رسول الله ﷺ، ومن خُلُقِه المَرْضِيّ، وقد كان ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٧٩)، دار المعرفة-بيروت، وقد ذكر الإمام الغزالي أن الإحسان ينال بواحد من ستة أمور، ثم ذهب يشرحها، وهو كلام مهم ونافع.
ينظر: القيم الحضارية في الإسلام (ص١٨٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٢٧٨)، كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال، (٣/ ١٣٥٤).

(٣) الموافقات للشاطبي (٢/ ٣٥٣-٣٥٥) بتصرف.

وقالت له خديجة: «إنك تحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتعين على نوائب الحق».

وحُمِلَ إليه تسعون ألف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلًا ، حتى فرغ منه، وجاءه رجل فسأله، فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه»، فقال له عمر: «ما كلفك الله ما لا تقدر عليه»، فَكَرِهَ النبيُّ ﷺ ذلك، فقال رجل من الأنصار: «يا رسول الله، أنفق، ولا تخف من ذي العرش إقلالًا »، فتبسم النبي ﷺ، وعُرِفَ البشرُ في وجهه، وقال: «بهذا أمرت» ذكره الترمذي[1].

(١) نفسه، والحديث أخرجه الترمذي في الشمائل برقم (٣٣٨)، باب ما جاء في خلق النبي، (ص٢٠١)، وضعف المحقق إسناده.

المبحث الثاني

المقاصد الشرعية للتنوع.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعارف.

المطلب الثاني: التعاون.

المطلب الأول

التعـــــــارف

الفرع الأول: مقاصد التعارف

نحن اليوم أحوج ما نكون إلى الفكر المقاصدي في تبليغ رسالة الإسلام وتبيين أحكامه ومبادئه، خاصة في العصر الذي تدفقت فيه المعلومات، وتعددت المناهج والأساليب المستهدفة الإنسان والمؤثرة على تفكيره، وقد أشار الإمام الغزالي إلى أهمية ربط النصوص بالمقاصد بقوله: «في معرفة باعث الشرع ومصلحة الحكم استمالة القلوب إلى الطمأنينة والقبول بالطبع والمسارعة إلى التصديق؛ فإن النفوس إلى قبول الأحكام المعقولة الجارية على ذوق المصالح أميلُ منها إلى قهر التحكم ومرارة التعبد، ولمثل هذا استحب الوعظ وذكرُ محاسنِ الشريعة ولطائفِ معانيها وكونِ المصلحة مطابقةً للنص، وعلى قدر حذقه يزيدها حسنًا وتأكيدًا»[1].

فالتعارف الذي علل الله به تعدد القبائل والشعوب لا ريب أنه مبدأ إسلامي، يسعى لتحقيق مقاصدَ نبيلةٍ، لحظها الأصوليون والفقهاء، والتعارفُ يمثل النظريةَ المعادلة لنظرية صدام الحضارات التي تدعو لها الفلسفة الغربية.

إن التعارف يمثل تصورَ الإسلام لتحديد شكل العلاقات مع الأمم الأخرى، يقول المفكر زكي الميلاد[2]: «والمفهوم الذي نتوصل إليه ونزداد ثقة به وبقيمته

(١) المستصفى للإمام الغزالي ، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط(١) ١٩٩٣م، (ص٣٣٩).

(٢) زكي الميلاد: من مواليد السعودية عام ١٩٦٥م، يحمل دكتوراه من الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية، وهو رئيس تحرير مجلة الكلمة التي تصدر من بيروت، ومستشار أكاديمي في المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكا، له عدد من المؤلفات في العلوم الحضارية، يعتبر صاحب نظرية تعارف الحضارات. ينظر: تعارف الحضارات (ص الغلاف).

المعرفية والأخلاقية والإنسانية هو مفهوم التعارف؛ لأن منشأ هذا المفهوم هو القرآن الكريم، حيث ورد في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [1]، وهذه الآية -تحديدًا- من أكثر آيات القرآن الكريم التي تكرر ذكرها والحديث عنها والالتفات إليها في الكتابات العربية والإسلامية، منذ أن تجدد الحديث حول حوار الحضارات، الأمرُ الذي يجعلها ذات علاقة بهذا الشأن»[2].

ويمكن استنباط عدد من مقاصد التعارف في الإسلام، استنادًا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، واستلهامًا من الخبرة الإسلامية في التعامل مع الآخر، فمن أهم هذه المقاصد -في نظر الباحث- الآتي:

المقصد الأول: الوعي بوحدة الأصل الإنساني:

فالإسلام يعد البشرية أسرةً واحدة ممتدة، فالإنسان أخو الإنسان، أَحَبَّ ذلك أو كره، وليس الإنسان ذئب الإنسان، حيث يعتبر الآخر من الأشرار، يحتاج إلى يد حازمة، كما ذهبت الفلسفات العنصرية والإمبريالية المعاصرة القائمة على أسطورة بابل -وهي أسطورة تُرجِع الاختلاف بين الناس إلى نقمة الرب وغضبه، وتؤصل بذلك لناموس التضاد والتنافر المؤدي إلى شرعة الاصطراع والغلبة والتهلكة-[3].

بل قرر الإسلام وَحدةَ الأصل الإنساني في نصوص واضحة، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [4]، وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم ربنا ورب

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٢) تعارف الحضارات لزكي الميلاد (ص٥٩).

(٣) القيم الحضارية – نحو حداثة إنسانية جديدة (ص٢٠٦) بتصرف.

(٤) سورة النساء، الآية (١).

كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»[1].

وفي خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، قال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أَبَلَّغتُ؟ » قالوا: «بلغ رسول الله ﷺ»، ثم قال: «أي يوم هذا؟ »، قالوا: «يوم حرام»، ثم قال: «أي شهر هذا؟ »، قالوا: «شهر حرام»، ثم قال: «أي بلد هذا؟ »، قالوا: «بلد حرام»، قال: «فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم - قال: ولا أدري، قال: «وأعراضكم» أم لا - كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلغت؟ »، قالوا: «بلغ رسول الله ﷺ»، قال: «ليبلغ الشاهد الغائب»[2].

المقصد الثاني: تعزيز الأخوة الإنسانية:

إن تقرير الأصل الواحد للإنسان ينزع عن النفس شبهةَ التفاضل على أساس النقاء العرقي لإنسان دون آخر، فكل الناسِ لآدم، وآدم من تراب.

إن هذه المعرفة تساعد على ترسُّخ معاني الأخوة بين جميع الناس، وقد ورد في القرآن الكريم أن الأنبياء -وهم الـمُصْطَفَوْن- قد أرسلوا لإخوانهم، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[3] وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[4]، فإذا كان الأنبياء - وهم أطهر خلق الله- قد تساووا مع قومهم في الأخوة، فمن باب أولى أن يتساوى بقية الناس فيما بينهم في الأخوة الإنسانية.

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (١٩٢٩٣)، مسند الكوفيين، حديث زيد بن أرقم، (٤/ ٣٦٩)، وضعف محققو المسند إسناده.

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٣٤٨٩)، أحاديث رجال من أصحاب رسول الله، حديث رجل من أصحاب النبي، (٣٨/ ٤٧٤)، وأخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٧٣٩)، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، (٢/ ١٧٦) بذكر آخره من حديث ابن عباس.

(٣) سورة الأعراف، الآية (٦٥).

(٤) سورة الأعراف، الآية (٧٣).

المقصد الثالث: الإقرار بالتنوع الإنساني:

أكد الإسلام أن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف حقيقة يقتضيها منطقُ الحياة وطبيعة الخلق في مختلف الأعصار والأمصار، وهي تعددية وتنوع في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله ﷻ، فالإنسان مخلوق لخالق واحد، ومن نفس واحدة، ثم تكاثر أزواجًا وألوانًا وألسنة،قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[1].

وكما يتعدد الناس ويتمايزون في الألسنة والألوان، يختلفون - كذلك - إلى شرائع ومناهج -أي ثقافات وحضارات-، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

كما تتنوع عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ومدركاتهم وعقولهم، حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾[3].

أي: لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد وباستعداد واحد، نسخًا مكرورة، لا تفاوُت بينها ولا تنويع فيها، وهذه ليست طبيعة المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض[4].

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا ﴾[5] يؤكد حقيقة

(١) سورة الروم، الآية (٢٢).

(٢) سورة المائدة، الآية (٤٨).

(٣) سورة هود، الآيتان (١١٨-١١٩).

(٤) القيم الحضارية نحو حداثة إنسانية جديدة (ص٢٠٧، ٢٠٨).

(٥) سورة الحجرات، الآية (١٣).

اجتماعية وقانونًا تاريخيًّا؛ فإن الله ﷻ بسط الأرض بهذه المساحة الشاسعة؛ لكي يتوزع الناس فيها شعوبًا وقبائلَ، ويعيشوا في بيئات وجغرافيات ومناخات وقوميات مختلفة، ويعمروا هذه الأرض، ويكتشفوا خيراتها، ويتبادلوا ثرواتها، ويجعلوا منها بيتًا مشتركًا وآمنًا ومتمدنًا للجميع، علمًا بأن القرآن الكريم لم يذكر في كل آياته عبارة (شعوبًا وقبائل) إلا في هذه الآية[1].

المقصد الرابع: إزالة مسببات النزاع والتصادم:

معظم الحروب التي وقعت في تاريخ الإنسان سببها محاولات استئصال الآخر ومَحْوُه من الوجود، وترجع محاولات الإزاحة من الوجود والإفناء لعدة أسباب، منها: الحسد، وتوهُّم نقاء العنصر، وادعاء احتكار الحقيقة، والطمع في الثروات، وغير ذلك.

فابنا آدم قتل أحدُهما أخاه؛ لأن الله ﷻ قَبِل عمل أخيه، ولم يقبل عمله، فحسده على هذا العطاء الإلهي، وقام بقتله، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] و«توعّده بالقتل؛ لفرط الحسد له على تقبل قربانه»[3].

فكلاهما بحث عن المصلحة، وكان الفيصلَ في تحقيق هذه المصلحة الالتجاءُ لله تعالى، ولما اختار الله قربان أحدهما -وهو هابيل-[4] اغتاظ الآخر، وسعى بكل ما أوتي من قوة إلى تحقيق المصلحة الذاتية من خلال التقاتُل والتحايُل، وبالفعل

(١) تعارف الحضارات (ص٦٢).

(٢) سورة المائدة، الآية (٢٧-٣٠).

(٣) صفوة التفاسير للصابوني، دار الصابوني، القاهرة، (١/ ٣٣٨).

(٤) سفر التكوين (٤/ ١-١٢).

قتل أخاه من أجل مبتغاه، تلك التجربة الإنسانية الأولى إنما ذكرتها الكتب السماوية دليلًا على أن طريق الغاشمين الفاسدين واحد، منذ بداية الخلق ووجود الإنسان على الأرض[1].

إنَّ الإقصاء والاضطهاد ومحاولة إلغاء الآخر نهج يؤدي إلي ظهور التعصُّب للأعراق، ومن ثمَّ يدفع إلى حروب مُدمِّرة.

وكما أنّه ما زال للعِرق دور في تجميع وتعارف مجموعات من البشر، فإنه ما زال -كذلك- سببًا كارثيًّا من أسباب الصدام؛ فالحروب التي تقوم على أساس العِرق حُروب شرسة، يمتد أثرها لعقود، وهي جريمة بكل المقاييس، وصار العالم يتعارف الآن على هذا التجريم لهذه الحروب -والتي تعرف بجرائم التطهير العرقي-؛ لأن البشر لا يدَ لهم في أعراقهم، ولا يملكون تغييرها، ولا يختارونها أو يستبدلونها، ومن ثم فهي حروب لا جدوى لها، وليس هناك مسوغ عقلي ولا أخلاقي مقبول وراءها.

فمن الجهل حقًّا أن نتصادم لأن أعراقنا مختلفة، مع أنه لم يختر أحدنا هذا العرق أو غيره[2].

وما أبلغ الوصف الذي وصف به رسول الله ﷺ مثل هذه الحرب العرقية حين وصفها بأنها دعوى أهل الجاهلية، وقوله ﷺ عنها: «دعوها فإنها منتنة»[3]!

(١) المشترك الإنساني (ص٦٢).

(٢) المشترك الإنساني (ص١٧٢).

(٣) اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: «يا للمهاجرين! »، ونادى الأنصاري: «يا للأنصار! »، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية؟! ».
أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٥١٩)، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، (٤/ ١٨٣)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، (٤/ ١٩٩٨)، واللفظ له.

المقصد الخامس: تكامل الأدوار في إطار المشترك الإنساني:

مطالب الإنسان متعددة، وحاجاته متزايدة، وعطاؤه متجدد، واحتياجاته أكبر من قدراته، وطاقته أقل من تطلعاته، وقد يُنتِجُ أشياءَ أكبرَ من حاجاته، فالتنوع يتيح مجالًا لتبادل المنافع بين الناس، وهي منافع متنوعة في ذاتها، فتبادل الخبرات فيه منفعة، واكتشاف الأخطاء منفعة، والوعي بالقصور منفعة، ومظاهر الحياة مليئة بالأنشطة الإنسانية القائمة على تبادل المنافع بين البشر في كافة المجالات.

والتعارف يُكسِب الإنسان خبرةً بالحياة وتعقيداتها، خاصة في اختلافات طبائع البشر وتنوع رغباتهم وأهدافهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعراقهم، فيتمكن من التعامل معهم، كُلٌّ حسْب طبيعته وأسلوب حياته، وبذلك يدرك أن الحياة أوسع في معارفه واهتماماته، وهذا من شأنه أن يرسخ عنده ثقافة قبول المخالف والتسامح معه.

ومن مقاصد التكامل التدافع والتفاعل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1].

يقول الإمام الرازي: «لا تتم مصلحة الإنسان الواحد إلا عند اجتماع جمع في موضع واحد، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، ثم إن الاجتماع يسبب المنازعة المفضية إلى المخاصمة أولًا، والمقاتلة ثانيًا، فلا بد في الحكمة الإلهية من وضع شريعة بين الخلق»[2]، ثم ذكر من هؤلاء الذين يدفع بهم الظلمة والطغاة إما أهل الحق، وإما غيرهم، كما ذكر أن التدافع بهذا المعنى لا يقع بين أهل الحق[3].

وقد بين الله تعالى حكمًا أخرى من هذا الدفع، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥١).

(٢) تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، (٦/ ١٩٠-١٩١).

(٣) نحن والآخر (ص١٧٩).

كَثِيرًا ﴾[1]، حيث أرشدنا أن هذا الدفع يحمى الشرائع وأهل الحق وأماكن العبادة[2].

إن فلسفة الإسلام في الحضارات تقوم على أساس الدفع نحو الأحسن، وبالتالي تنتج عملية التوارث والتفاعل الحضاري، وليس صراع الحضارات.

وبالنظر في النصوص الشرعية نجدها صريحة في الدلالة على ضرورة الأخذ بكل ما هو نافع وصالح، ويؤكد الإسلام ضرورة التفاعل الحضاري من خلال العلم والقراءة، ومن خلال السير في الأرض والنظر فيها وفي أهلها وأممها؛ للوصول إلى فقه سنن الله تعالى في هذا الكون وفي الأمم والحضارات، من سنن التقدم والنصر والتمكين وسنن الهزيمة والتخلف، فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[3]، وفي الحديث -موقوفًا ومرفوعًا-: الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[4]، فمن خلال العلم والقراءة والتاريخ يحدث التفاعل الحضاري، حيث تستفيد الحضارة اللاحقة من الحضارة السابقة، وتبني عليها[5].

الفرع الثاني: مجالات التعارف

التعارف بين الناس مجالاته متعددة، فهو ليس مقتصرًا على المعرفة الشكلية، وإنما يتسع باتساع مُقَدَّرات الإنسان ومعارفه ومعتقداته وثقافاته والمؤثرات التي تشكل مفاهيمه وطبائعه، والذي يهمنا في مجال البحث التعرفُ على العقائد

(١) سورة الحج، الآية (٤٠).

(٢) نحن والآخر (ص١٧٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٣٧).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٦٨٧)، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، (٥/ ٥١)، مرفوعًا، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه».

(٥) نحن والآخر (ص١٧٤).

والثقافات والأفكار، التي لها أثر مباشر في العلاقات بين الناس سلبًا وإيجابًا.

لقد سبق الحديث عن العقائد وتجلياتها، وقد تناول القرآن الكريم العقائد المخالفة، وبيَّن بطلانها، وأرشد المسلمين إلى المنهج الذي يتعاملون به معها.

لقد نهى الإسلام المسلمين عن الإساءة لمقدسات المخالفين لهم في العقيدة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

ونهى الإسلام عن ظلم المخالفين والخصوم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

إن منهج الإسلام يحفظ للإنسان حقوقه وكرامته؛ لكونه إنسانًا يحمل بين جنبيه قبسًا من روح الله، ويعترف له بهذه الحقوق، بِغَضِّ بالنظر عن اعتباره أو جنسه أو لونه، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3].

ففي مجال العقائد يتعرف المسلم على منطلقات عقائد الآخرين؛ حتى يحدد موقفه منهم، ويظهر هذا الأمر بوضوح في موقف الإسلام من عقائد المشركين، فعندما جاء مشركو قريش يساومون رسول الله ﷺ على التنازل؛ للوصول إلى تسوية، اقترحوا عليه أن يعبد معهم آلهتهم عامًا ويعبدوا معه إلهه عامًا، فنزلت سورة الكافرون حاسمةً ومبينةً أن عقيدة المشركين لا تشبه عقيدة المسلمين، فللمشركين دينهم -وهو الشرك- وللمسلمين دينهم -وهو التوحيد-.

إن معرفة المنطلقات الفكرية والمفاهيم العقدية والموروثات الثقافية

(١) سورة الأنعام، الآية (١٠٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (٨).

(٣) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

والمصالح الضرورية للآخر تساعد على التفاهم والتعايش، والتاريخ يحدثنا عن الحوار الذي جرى بين النجاشي ملك الحبشة وجعفر بن أبي طالب، عندما حاول عمرو بن العاص الإيقاع بالمسلمين، وعلمنا كيف استطاع جعفر أن يكسب الجولة بحسن التفاوض؛ لأنه كان على علم بما يدين به النجاشي، فخاطبه بأسلوب دفعه دفعًا للتجاوب معه وقبول حجته.

وفي مجال الثقافات فإن معرفة ثقافة الآخر مهمةٌ لتحديد المشترك؛ لقبوله، ومعرفة المخالف؛ لتجنبه، وأيضًا هذه المعرفة تجعل المسلم قادرًا على التعامل مع الناس بمعرفته لخلفيتهم الثقافية، ويؤكد ذلك فعلُ رسول الله ﷺ، فعندما مُنِع من دخول مكة في الحديبية أخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت، فبعثوا إليه مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا ، قال: «هذا رجل غادر»، ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، فلما رآه الرسول ﷺ مقبلًا ، قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه؛ حتى يراه»، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ؛ إعظامًا لما رأى[1].

لقد اشتمل القرآن الكريم على قصص الأمم السابقة، مع الدعوة إلى الاعتبار، وعلى الأوامر الإلهية للمسلمين بأن يسيروا في الأرض ويقِفُوا على الآثار، فضلًا عن التفاصيل الدقيقة لتاريخ بني إسرائيل وغيرهم من الأمم، كل ذلك دفع علماء المسلمين للاهتمام بمعرفة ثقافات الشعوب، فازدهرت الترجمة في الحضارة الإسلامية، وسجل الرحالة المسلمون كثيرًا من ثقافات الشعوب وتقاليدهم؛ تحقيقًا لمبدأ التعارف.

الفرع الثالث: بواعث التعارف

الرسالة الإسلامية رسالة عالمية وخاتمة وشاملة لكل شئون الحياة، فالتعارف تمليه طبيعة الرسالة، وتؤكده عدة عوامل، تعتبر من بواعث التعارف، وتلك

(١) فقه السيرة، لزيد بن عبد الكريم الزيد، دار التدمرية، الرياض، ط(١٠)، ١٤٣٧هـ، (ص٥٢٤).

العوامل هي:

أولًا: تبليغ الرسالة والدعوة إلى الهداية:

فقد جاء رسول الله ﷺ بدعوة الإسلام إلى الناس كافة، وهي دعوة لا تنقطع بوفاته ﷺ، وإنما كُلِّفَتْ أمتُه بحملها وتبليغها إلى كل الناس، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

إن القيام بواجب الدعوة يوجب على حملة الدعوة التعرفَ على البيئة التي يبلغون فيها الدعوة؛ حتى تثمر دعوتهم، فهذا من أهم بواعث التعارف؛ لأن الدعوة إلى الله من أهم واجبات الدعاة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

ثانيا: الشهادة على الناس:

لقد أناط الله تعالى بهذه الأمة مسئولية الشهادة على الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3]، فمن البديهي أن لا ترقى لمستوى هذا التكليف إلا بعد أداء واجب البلاغ[4].

ولا تستطيع الأمة أن تحقق الشهادة ولا تستوعب مقتضياتها إلا إذا انطلقت في دورها المميز، من موقع الوعي والشمول لكل المساحات الأخرى على مستوى العالم، بحيث تتعرف اتجاهاتها وأوضاعها وحركاتها وأساليبها وأهدافها وعلاقاتها؛ لتستطيع رصد نقاط الضعف والقوة والاستقامة والانحراف لديها، وتملك الحصول على المعرفة الشاملة، التي تجعلها في موقع المشاهد الواعي، الذي يعيش الحضور الواسع لكل التطورات والمتغيرات في كل جيل؛ لأن ذلك -

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).

(٢) سورة فصلت، الآية (٣٣).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٤٣).

(٤) تعارف الحضارات (ص٩١).

وحده- هو الذي يجعل للشهادة عمقًا وامتدادًا وسعةً على جميع المستويات[1].

ثالثًا: الانفتاح على العالم:

الإسلام دين عالمي، لا يعرف الانغلاق والعزلة، كما أن التقدير السليم للأمور والأفكار يتطلب أكبر قدر من الانفتاح على العالم[2]، فالضمير الإنساني الذي لم يألف العمل على حدود الثقافات تسيطر عليه عادات جذبية مزمنة، تحمله على أن يرى الأشياء من زاوية ضيقة[3]، تحرمه من التواصل الحضاري، وتعزله من التلاقح الثقافي، الذي يعد من ضرورات الحياة الاجتماعية.

رابعا: معرفة حقيقة الآخر:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4]، فهذه الآية تحذرنا بوضوح من الغفلة، فعلى المسلمين أن يعرفوا الآخر على حقيقته؛ حتى يكون تعاملهم مبنيًا على معرفة، وليس على مظاهر خداعة، والآية نزلت في المنافقين، ولكن حكمها عام؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «من دونكم، أي: من غيركم من أهل الأديان»[5].

فمعرفة الآخر على حقيقته تبين ما عنده من خير أو شر، وتعطي معيارًا لتمييز

(١) تأملات في كلمة الأمة في القرآن للسيد محمد حسين فضل الله ، مجلة المنطلق -لبنان، العدد (٧٠) ربيع الأول ١٤١١هـ- أيلول ١٩٩٠م، (ص١٥، ١٦) نقلًا عن تعارف الحضارات (ص٩١).

(٢) نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات (ص٩٢).

(٣) مشكلة الثقافة لمالك بن نبي (ص١٤٢).

(٤) سورة آل عمران، الآية (١١٨).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (ص١٢٩).

وتحديد الأقرب للمسلمين، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وفي عصرنا الحاضر يجب على المسلمين أن يعرفوا التطورات التي حدثت في مفاهيم أصحاب الديانات الأخرى، وأن يدركوا القيم والمفاهيم التي تقوم عليها الحضارات؛ ليكونوا على بينة من أمرهم، وبالمقابل ندعو غير المسلمين أن يتعرفوا علينا وعلى ديننا، فيتعرف كُلٌّ على صورة الآخر كما هي، وهذا التوجه تعليم رباني كريم للمسلمين؛ إذ يجب أن نتعرف على الناس، ويتعرفوا علينا[2].

وعلى هذا النحو يُحمل الأمرُ بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، والالتقاءُ بيننا وبينهم على كلمة سواء، وقولُنا للناس حسنًا[3].

خامسًا: تشجيع فكرة الانتفاع المتبادل من خيرات الأرض، من خلال فكرة التعاون، فالرؤية الإسلامية لهذا الهدف تنطلق من عقيدة أن الله تعالى لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه[4]، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[5].

إن اختلاف الناس شعوبًا وقبائل لم يكن ليتقاتلوا ويختلفوا، ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا، وقد صرحت بذلك الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١١٣-١١٤).

(٢) الإسلام والثقافة العربية في عالمنا المعاصر للشيخ محمد الغزالي، مجلة المعرفة، العدد السابع السنة الثانية، رمضان ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (ص١٥١، ١٥٢).

(٣) تعارف الحضارات (ص٩٦).

(٤) الإسلام والثقافة العربية في عالمنا المعاصر (ص١٥٢).

(٥) سورة البقرة، الآية (٢٩).

(٦) سورة الحجرات، الآية (١٣).

إن هذا التعارف يجعل كل فريق ينتفع بخيرِ ما عند الفريق الآخر، وتكون خيرات الأرض كلها لابن هذه الأرض - وهو الإنسان-، فلا يختص فريق بخير إقليمه ويحرم منه غيره، فإذا كانت الأرض مختلفة فيما تنتجه، فالانتاج كله للإنسانية كلها، ولا سبيل لذلك إلا بالتعاون والتعارف الإنساني[1].

يتضح مما سبق أن التعارف له في الإسلام مقاصد ومجالات وبواعث، نستطيع باستقرائها وتحديدها وتمثلها أن نقدِّم نظريةَ تعارفِ الحضارات؛ لمعالجة أزمات الإنسانية في هذا المجال.

(١) العلاقات الدولية في الإسلام (ص٢٢).

المطلب الثاني

التعـــــــــاون

الفرع الأول: مُقَوِّمَات التعاون الإنساني

قوام الشيء عمادُه الذي يقوم به وينتظم[1]، وقِوام الأمر مِلاكُه الذي يقوم به[2].

ومقومات جمع مُقَوِّم، وهو اسم فاعل من (قَوَّمَ)، ومن معانيه: كل ما يتألف أو يتركب منه جسم أو جهاز أو مشروع من عناصر أساسية، تسهم في قيامه ووجوده وفاعليته. ومقومات الحياة عناصرها وعواملها الأساسية التي بها تقوم مقومات العمران[3].

إن مقومات التعاون الإنساني تتمثل في العناصر والعوامل الأساسية التي تحقق التعاون بين الجماعاتِ المختلفةِ أديانُها المتعددة ثقافاتها المتنوعة حضاراتُها، والوعي بأهمية التعاون يتطلب الآتي:

أولًا: إدراك أن الكون مسخر لصالح الإنسان دون تمييز: فالله ﷻ خلق الدنيا وما فيها، وسخرها للإنسان، وآيات القرآن الشاهدة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4]، هذا التسخير جعله الله

(١) المصباح المنير للفيومي (ص١٩٨).

(٢) مختار الصحاح للرازي (ص٥٥٨).

(٣) معجم المعاني الجامع.

(٤) سورة البقرة، الآية (١٦٤).

لجميع الناس، مهما اختلفت عقائدهم وأعراقهم وثقافاتهم وحضاراتهم، فالعطاء الإلهي متاح لجميع الناس دون تمييز، قال تعالى : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1].

إن هذه المعرفة تهيئ للناسِ -مهما اختلفوا- أن يتعاونوا في هذه الساحة المشتركة.

ثانيًا: الوعي بحدود القدرات:

منح الله ﷻ الإنسان كثيرًا من الطاقات والقدرات، التي تمكِّنُه من السعي في الأرض والبحث في الكون لمعرفة السنن والقوانين المودعة فيه؛ للاستفادة منها في عمارة الكون، ولكنه يدرك -مع ذلك- أن قدراته محدودة، لا يمكنه -إن وقف عندها- أن يحقق حاجاته في هذه الحياة، ولذلك طُلب منه أن يتعاون مع إخوته في الإنسانية؛ لتتكامل قدراتهم في تعمير الكون، قال -تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[3]، هذا التفاوت في القدرات والتنوع في المهارات دافِعٌ للتعاون بين الناس؛ ليستفيد بعضهم من بعض.

ثالثًا: مواجهة المخاطر:

المجتمعات البشرية معرضة لكثير من المخاطر التي تزعزع استقرارها، والعوامل المؤدية إلى ذلك كثيرة، منها عواملُ تعود إلى الطبيعة كالزلازل

(١) سورة الإسراء، الآية (٢٠).

(٢) سورة النحل، الآية (٧١).

(٣) سورة الزخرف، الآية (٣٢).

والفيضانات والحرائق وغيرها، ومنها عوامل من فعل الإنسان كالحروب وانتشار المخدرات وتلوث البيئة، وهذه المخاطر تحتاج إلى تعاون بين الناس؛ لمواجهتها ومعالجة آثارها، وهذا يدفع إلى بحث القواسم المشتركة بين الحضارات، كطلب الحرية والعدل ومحاربة الرذائل والتفسخ الخلقي والابادة البشرية والظلم الاجتماعي واستغلال الغير جسديًّا وجنسيًّا ونهب ثروات الشعوب والاستبداد، وهي مما تلتقي القيم الحضارية السوية والعقول السليمة على نبذها وضرورة مقاومتها.

ومن جهة أخرى تجد كل حضارة ما تسهم به في حلها على ضوء القيم الحضارية، بل إن العقائد القائمة على عنصرية الجنس ستضطر -تحت ضغط نقاء العقائد الأخرى من هذه الآفة- إلى تكييف عقائدها مع غيرها أو تسويغها أو التخلف عن ركب التعارف، فتتميز بخاصية انعدام الإنسانية وعداوة الجنس البشري، لا عداوة حضارة بعينها فقط[1].

رابعًا: التطلع إلى المعرفة:

من خصائص الإنسان أنه مزود بنزعة التطلع إلى معرفة ما يجهله، وهي خاصية صحبت الإنسان منذ آدم ﷺ، فقد علمه ربه الأسماء كلها، ومع ذلك دفعه التطلع لمعرفة الشجرة التي نُهِيَ عن الاقتراب منها.

ومع تطور وسائل الاتصال وانفتاح العالم على بعضه تتنافس الحضارات في تقديم ما عندها من معارف وعلوم، وتسعى لمعرفة ما عند الآخرين، مما يدفع للتعاون بين الحضارات بما يحقق مصالحها.

إن مقومات التعاون مركوزة في تركيبة الإنسان وفي بنية الحضارات الحية؛ لأنها من ضرورات الوجود.

(١) تعارف الحضارات (ص١٠٩).

الفرع الثاني: مجالات التعاون

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ (١).

وقد تبين -سابقًا- أن مفهوم البر يتسع ليغطي مجالات الحياة، وعليه فإن التعاون مجالاته متعددة وآفاقه ممتدة بامتداد الحياة، وفي عالمنا المعاصر فإن أبواب التعاون بين الدول والحضارات اتسعت، مما يعزز نظرية التعارف التي دعا إليها الإسلام.

وتطبيقًا لفقه التنوع نشير إلى أهم مجالات التعاون بين الحضارات والثقافات والأديان في الآتي:

أولًا: مجال تعزيز الكرامة الإنسانية:

هذا المجال من أهم مجالات التعاون؛ لأن الإنسان محورُ الاهتمام الديني والحضاري، وهو المستخلَف بعمارة الأرض، ولذلك جاءت التعاليم السماوية موجهة وآمرة بالمحافظة على كرامة الإنسان، إن مجال تعزيز الكرامة الإنسانية يمكن أن يتعاون فيه الجميع، كُلٌّ من منطلقاته، مع الاتفاق في مضمون الكرامة.

ثانيًا: مجال نشر ثقافة التسامح:

من أهم شروط التعايش السلمي أن يكون المجتمع قابلًا للتنوع، وأن تنتشر فيه ثقافة قبول الآخر وروح التسامح مع المخالفين.

ثالثًا: مجال المحافظة على سلامة البيئة:

الوعي بأن الأرض والفضاء ملك مشترك للإنسان أمر يساعد على التعاون في حماية البيئة من التلوث، والثقافةُ والشعور بالمسئولية عامل مهم في التقليل من الأضرار على البيئة، رغم أن التلوث ناتج عن الاستعمال السيء مع مخلفات الصناعة، والتشريع الإسلامي اهتم بالبيئة والمحافظة عليها من خلال مبادئ

(١) سورة المائدة، الآية (٢).

وقواعد كثيرة، يتعلم منها المسلمون أهمية المحافظة على سلامة البيئة.

والبيئة هي مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية، وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها، وللإنسان -كأحد كائنات النظام البيئي- مكانة خاصة؛ نظرًا لتطوره الفكري والاجتماعي، فهو المسيطر على النظام البيئي، وعلى حسن تصرفه تتوقف المحافظة على النظام البيئي وعدم استنزافه[1].

رابعًا: مجال التعاون العلمي:

العلم رحم بين أهله، وهذا معناه أن العلم عنصر مهم في التواصل بين الشعوب والأمم، مهما اختلفوا، فالعلم لا يختلف الناس عليه، وإن اختلفوا في بعض مصادره، فالمصادر التجريبية والعقلية لا خلاف عليها، والإسلام شرع التعاون في مجال العلوم والاستفادة من المخالفين في هذا المجال.

فقد احتفى المسلمون في عصورهم النبوية والراشدية والأموية والعباسية بالعلم والعلماء، وتشهد على ذلك دار الحكمة التي أنشأها المأمون، وضمت أمهات المراجع من كل الحضارات، وعلماء من كل الديانات، ومعارف شملت كل العلوم المتاحة في ذلك العصر.

والدعوة لاكتشاف أسرار الكون وسننه وقوانيه تغطي معظم سور القرآن، مع الحثّ على التفكر والتدبر والتعقل والاعتبار، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، وإذا تدبرنا القرآن الكريم وجدنا فيه آيات تمثل أصول العلوم البيولوجية والفلكية والجيولوجية والطبيعية والجغرافيا، وهي

(١) إدارة التنمية د فضل الله على فضل الله، جامعة الملك عبدالعزيز - كلية الاقتصاد - إدارة التنمية ١٤٣١هـ..

(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٤).

ملك عام للإنسانية، فالإسلام عن طريق المعرفة خلق جسورَ تواصل بين بني البشر، وأصَّل لعلاقات إنسانية هادفة؛ لتحقيق المصالح المشتركة للإنسانية.

الفرع الثالث: فوائد التعاون

التعاون في المجالات المذكورة سابقًا وفي غيرها يحقق فوائد كثيرة للإنسانية، فبالنسبة للمسلمين فإن التعاون يحقق تكامل الأدوار بين الجماعات والمذاهب والمدارس المختلفة، وهو بوجه عام يحقق تبادل الخبرات والاستفادة من التجارب الإنسانية بين الحضارات والأديان والثقافات.

وقد جاءت تعاليم الإسلام شاملة لجميع المجالات، مبينة أحكام الله للإنسان منذ ولادته وحتى بعد مماته، بل بينت أحكامه وهو جنين في بطن أمه، كما شملت العلاقات الإنسانية وأحكام التعامل مع الكون وكيفية الاستفادة من القوانين والسنن التي أودعها الله -سبحانه- في مظاهر الكون.

إن هذه المجالات لا يمكن أن يغطيها طرف واحد، بل تتكامل الأدوار بين الأفراد والجماعات، كل حسب تخصصه وقدرته، وبالتعاون بينهم تتحقق المصالح المشتركة، هذا التكامل أسَّس له الرسول ﷺ قبل البعثة، في موقف فض النزاع بين زعماء قريش، عندما اختلفوا في وضع الحجر في مكانه.

ذكر كُتَّاب السيرة أن الكعبة جرفها السيل، فأعادوا بناءها، وعندما وصلوا إلى مرحلة وضع الحجر الأسود في مكانه اختلفوا، فكل قبيلة أرادت أن تحظى بهذا الشرف، حتى كادت الحرب تقع بينهم، فألهم الله ﷻ أكبرهم سنًّا أبا أمية بن المغيرة المخزومي، فأشار عليهم أن يُحَكِّموا أول من يدخل عليهم، فكان رسولَ الله ﷺ، فلما وصل إليهم أخبروه، فبسط رداءً، ثم أخذ الحجر، فوضعه فيه، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بطرف»، ثم أمرهم برفعه، فرفعوه جميعًا، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده المباركة، وبهذا وقى قريشًا من حرب كادت تقع بينهم[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٠٩ -٢١٤)، نقلًا عن فقه السيرة (ص٩٨).

وأكد رسول الله ﷺ هذه الأدوار التكاملية في كثير من مواقفه وأقواله، وكان ﷺ يلاحظ تنوع مؤهِّلات أصحابه، فيشيد بها، ويرى أنها مما يحتاج إليه المجتمع، قال ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد ابن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1]، هذه المهارات الفردية تطورت مع الزمن إلى مدراس ومذاهب في الفقه الإسلامي، فحققت التكامل في المجتمع.

أما بالنسبة لغير المسلمين فإن تاريخ الإسلام منذ عصر التنزيل يؤكد استفادة المسلمين من خبرات الآخرين، فالفوارق لم تمنع من التواصل، والمبدأ الإسلامي «الفوارق للتعارف وللاعتبار، وليست للتصادم والتقاطع»، فالأفكار تتلاقح، والمنافع يتبادلها الناس، والمعارف تتكامل، والأديان تتعايش، والحضارات تتواصل.

ونلمح في كثير من أفكار المسلمين وممارساتهم آثار الديانات والنحل التي كانت سائدة في الأمصار التي افتتحها المسلمون، فالأثر الروماني في الإدارة والقوانين والمدنية ملحوظ، وأثر الزرادشتية والمانوية والمزدكية بارز.

ولأن هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة وأقوى نظمًا اجتماعية كان من الطبيعي أن تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم، ولما كان العرب هم العنصر القوي الفاتح عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم، فَسَادَتْ في البلاد المفتوحة النظم التي كانت متبعة من قبل الفتح، كنظام الدواوين ونحوه، وأُقِرَّ على ما كان عليه، حتى لغة الدواوين نفسها ظلت باللغة الأصلية إلى عهد عبد الملك بن مروان[2].

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٧٩١)، أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت، (٥/ ٦٦٥)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) فجر الإسلام، لأحمد أمين، دار نوبليس للنشر والتوزيع، بيروت، ط(١)، ٢٠٠٦م، (١/ ١٠٨).

إن مرونة الإسلام استصحبت كثيرًا من القيم النافعة والمبادئ العامة، التي لا تتعارض مع أصول الدين الحق، فالرسول ﷺ جاء متممًا لمكارم الأخلاق، وكثير من تعاليم زرادشت وجدت طريقها للمجتمعات الإسلامية، إما لأنها لا تتعارض مع مبادئ الإسلام، وإما بسبب تأثر بعض المسلمين بها، فظنوها مبادئ إسلامية، مع ملاحظة أن كثيرًا من الذين أسلموا وكانوا يدينون بهذه النحل قد استصحبوا معهم كثيرًا من أفكارهم السابقة، وهي أفكار من الصعب أن يتخلصوا منها بين عشية وضحاها، فتعاليم زرادشت تقول: «إن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة يجب ألا تنجس، وإن للإنسان حياتين: حياة أولى في الدنيا، وحياة أخرى بعد الموت، ونصيبه في حياته الآخرة نتيجة لأعماله في حياته الأولى، قد أحصيت أعماله في كتاب، وعدت سيئاته ديونًا عليه.

وفي الأيام الثلاثة الأولى التي تعقب الموت تُحَلِّق نفس الإنسان فوق جسده، وتنعم أو تشقى تبعًا لأعماله، ومن أجل هذا تقام الشعائر الدينية في هذه الأيام إيناسًا للنفس، وعند الحساب تمر النفس على صراط ممدود على شفير جهنم، وهو للمؤمن عريض سهل المجاز، وللكافر أرق من الشعرة، فمن آمن وعمل صالحًا جاز الصراط بسلام، ولقى (أهورا) فأحسن لقاءه وأنزله منزلًا كريمًا، وإلا سقط في الجحيم، وصار عبدًا (لأهرمن)، وإن تعادلت سيئاته وحسناته ذهبت الروح إلى الأعراف إلى يوم الفصل.

وقد غُيِّبَ على الإنسان في حياته الدنيا ما أعد له بعد موته، ولم يعلم الخير من الشر، فكان من رحمة الله أن أرسل رسولًا يهدى به الناس... ويعلم (زرادشت) أن يوم القيامة قريب، وأن نهاية هذه الحياة ليست بعيدة، وسيستجمع (مزدا) قوته ويضرب إله الشر ضربة قاضية، ويعذبه بالجحيم هو ومن أطاعه»[1].

واضح أنها نفس التعاليم التي جاء بها الإسلام، اللهم إلا الاختلاف في اسم الله واسم إبليس، وأيام المأتم الثلاثة شائعة عند المسلمين في بلدان كثيرة.

(١) فجر الإسلام، السابق (١/ ١١٦).

إن تواصل المسلمين مع الآخر أثمر حضارة إسلامية إنسانية، استصحبت النافع من عطاء الإنسان، وحتى ذلك التواصل الخشن -الحرب- فيه مظاهر إيجابية، فالحروب الصليبية أتاحت للغربيين الوقوف على تجارب المسلمين، وعرفوا منها أن الإسلام لا توجهه سلطة دينية بابوية، كذلك نقلوا المعارف اليونانية التي ترجمها المسلمون ونقحوها.

والمغول -رغم تفوقهم العسكري ونزعتهم المتوحشة وانتصاراتهم على المسلمين- اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من حماته.

إن عالمية الإسلام تؤكدها تعاليمه، وتصدقها وقائع التاريخ، ونحن اليوم نعيش عالمًا جديدًا، تديره حكومة عالمية، قد تعولمت كل مظاهر نشاطه، فازدادت أهمية التواصل بين الإسلام والديانات والحضارات والثقافات المنتشرة في ربوع الدنيا، وذلك لاعتبارات كثيرة.

فبالإضافة لموقف الإسلام المبدئي من الدعوة للتعاون بين بني البشر فإن هنالك مصلحة حقيقية للمسلمين من التواصل الإيجابي مع الأديان والحضارات والثقافات، فالعالم الإسلامي محتاج لنقل التكنولوجيا وتوطينها في بيئته، ومحتاج للخبرات العلمية والمعرفية في معظم مجالات النشاط الإنساني، كما أن هناك عددًا لا يستهان به من المسلمين يقيمون في هذه العوالم الحضارية، فإن أحسنا التعامل فيمكن أن يتحول هؤلاء المسلمون إلى سفراء، يبرزون الجوانب الإيجابية الإسلامية للغربيين.

وتجدر الإشارة أن تصدُّر الحضارة الغربية للريادة حجب الرؤية عن حضارات أخرى لا تقل أهمية عن الحضارة الغربية، فهنالك الحضارة الصينية والحضارة اليابانية والحضارة الهندية والحضارة الأفريقية وغيرها من الحضارات، التي يمكن أن ينفتح عليها المسلمون، خاصة وأنها حضارات غير ملغومة بأهداف سياسية حاجبة من الرؤية المستبصرة، وغير مشدودة لماض صراعي مع الحضارة الإسلامية يعطلها من الانفتاح والتواصل المتبادل.

فالمطلوب من المسلمين أن يؤكدوا عمليًّا انحياز الإسلام لمبادئ التواصل والتعايش والتعاون مع الآخر المنصوص عليها في مراجعه الثابتة، وهذا التأكيد يكون أبلغ بالممارسة وإيجاد الآليات التي تتبناه أكثر من الكلام النظري، وهو ما يتطلب جهودًا مضنية يقوم بها أهل التخصص في كل المجالات لبلورة هذا المشروع وتنزيله لأرض الواقع.

ذهب الكاتب السعودي زكي الميلاد في اتجاه يؤسس لفكرة تعارف الحضارات الذي نسعى لتأصيله، وعبر مسيرته التي استمرت نحو عشر سنوات في هذا الميدان استطاع أن يبلور رؤية حول تعارف الحضارات، والأهم في خلاصات الرؤية أن مقولة تعارف الحضارات لا تعني مجرد الاعتراف بتعدد الحضارات وتنوعها، وإنما تستند إلى ضرورة بناء وتقدم الحضارات في العالم وتأسيس الشراكة الحضارية في ما بينها وتبادل المعرفة والخبرة.

والفكرة تأتي في إطار تجديد واجتهاد إسلامي له طبيعة معرفية من جهة، وتأكيدًا لمعنى الانفتاح والتواصل الحضاري الذي عبرت عنه التجربة الحضارية الإسلامية في تعاطيها مع الحضارات الأخرى من جهة أخرى.

وقد يكون الأبرزَ فيما ركز عليه الكُتَّاب في موضوع تعارف الحضارات قولُ العراقي رسول محمد رسول[1]: «إن تعارف الحضارات ليس مجرد تعبير، إنما هو مشروع حضاري، له أسس وتكوين فكري يستند إلى المرجعية الإسلامية».

فيما يرى السوري عبد الواحد العلواني[2] أنه يمثل أساسًا لنظرية يمكن تأطيرها، وهي أكثر إنصافًا وعدلًا وفاعلية ووئامًا، وتتيح سبيلًا نحو فهم أفضل

(١) رسول محمد رسول: كاتب عراقي وأستاذ للفلسفة، ولد في الكوفة عام ١٩٥٩م كتب في الصحف ودرس الفلسفة في عدد من الجامعات ، نشر أكثر من عشرين كتابا في مجالات معرفية متعددة. أنظر: صفحة ديوان العرب:www.diwanalarab.com

(٢) عبدالواحد علواني، كاتب وتربوي وباحث سوري معاصر يعنى بالقضايا التربوية والفكرية. أنظر:الموسوعةالحرة

لبناء علاقات سوية بين الأمم والشعوب.

وقد أجمل الجزائرى مراح رؤيته لأهداف تعارف الحضارات، فقال: «إنها تتضمن تحقيق التقارب والتسامح وفك عقدة الهيمنة وتجاوز عقيدة الصراع بين المختلفين، إضافة إلى تعميم معرفة الآخر وتصحيح الصور المسبقة عنه، وتشجيع فكرة الانتفاع المتبادل بخيرات الأرض، واحترام الخصوصيات الحضارية لكل طرف».

وأشار إلى العوائق فأجملها في أربعة، تشمل العائقَ العقائدي وتضخيمَ الذات الحضارية ونظرياتِ الصراع والصدامِ وهيمنةَ المفهوم السياسي على مجال العلاقات الدولية[1].

وهناك اتجاه عام ينمو يومًا بعد يوم؛ لتأكيد أهمية التواصل الحضاري، وهذا الإتجاه من قِبَل المسلمين يقابله حماس مماثل من تيارات في الحضارات الأخرى، استهجنت فكرة صراع الحضارات.

فالمطلوب التواصل بين هذه التيارات المؤمنة بالعلاقة السلمية بين الطرفين، وتقوية العلاقة بينها، والاتفاق على القيام بعمل مشترك يتصدى لتيارات الصدام هنا وهناك وتجفيف منابعها، فبالتقاء هذه التيارات المستنيرة والتواصل معها يمكن إحداث نقلة من العقلية الصدامية إلى مفهوم التواصل والتحاور، وهو ما دعا إليه الإسلام[2].

(١) فايز سارة: الحياة: العدد ١٥٧٦٥ بتاريخ: ٣ حزيران يونيو٢٠٠٦م

(٢) راجع الحوار في الإسلام حقائق ونتائج للباحث (ص١٨٩).

المبحث الثالث

القيم الضابطة للتعامل مع الآخر في الإسلام

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم القيم الحضارية في الإسلام وخصائصها.

المطلب الثاني: القيم والعلاقات الإنسانية.

المطلب الأول

مفهوم القيم الحضارية في الإسلام وخصائصها

الفرع الأول: مفهوم القيم الحضارية في الإسلام

قِيَم جمع قِيمة، ومادتها (قَ وَ مَ)، جاء في تاج العروس: «القِيمة -بالكَسْرِ- وَاحِدَةُ القِيَم، وهو ثمن الشيء بالتقويم، وأصله الواو؛ لأنه يقوم مقام الشيء، ويقال: ما له قِيمة، إذا لم يدم على شيءٍ ولم يَثْبُت، واستقام الأمر: اعتدل، والقَوام: العدل، والقِوام: نظام الأمر وعماده وملاكه الذي يقوم به، وكل من ثبت على شيء وتمسك به فهو قائم عليه، والقِيَم: الاستقامة، وتقاوموه فيما بينهم: إذا قدروه في الثمن، وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه، وأمر قيم: مستقيم، وخلق قيم: حسن، ودين قيم: مستقيم لا زيغ فيه، وكتب قيمة: مستقيمة تُبَيِّن الحق من الباطل، والقَيِّم السيِّد وسائس الأمر»[1].

فكلمة القيم تتعلق في حقلها الدلالي بعدة معانٍ، تدور في غالبيتها حول قيمة الشيء وقدره أو مقداره، والتقويم والاعتدال والاستقامة وعدم الميل، والثبات والتحكم في الأمور.

والقيمة: اسم هيئة يدل في الاستعمال العادي على قدر الشيء أو مقداره، ويدل في الاصطلاح على معان تختلف بحسب المجالات التي يرد فيها، ففي المجال الفلسفي يعني المعنى المثالي الذي يستحق أن يتطلع إليه المرء، ويجتهد في الإتيان

(١) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، تحقيق مجموعة من الباحثين، (٣٣/ ٣٠٦).
وينظر: القيم الحضارية في الإسلام، نحو حداثة إنسانية جديدة (ص٤٧).

بأفعاله على مقتضاه[1].

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[2] أي: الثابت الذي لا يتغير، والمستقيم الذي لا عوج فيه، والذي يملك القيام على شئون الحياة والإنسان، كما يملك القيام على الواقع كله؛ لأنه لا ينطلق من حالة طارئة قابلة للزوال، تبعًا لزوال ظروفها المحيطة بها، بل من حالة عميقة في عمق المصلحة الإنسانية، ممتدة بامتدادها، ومن ثم كان به قيام الناس، وبه يثبت توازن أوضاعهم[3].

والقيم بهذا الاعتبار مفهوم جامع لكثير من المعاني والدلالات، التي تُسَوِّغ إطلاقه على كل ما من شأنه أن يمثل معيارًا وميزانًا يتحرك من خلاله الإنسان ويتصرف، وعيًا وسعيًا بوحي من إشاراته وتوجيهاته، بحيث تكون هذه الحركة في استقامة وثبات، وبه يكون لهذه الحركة قدرُها وفاعليتها[4]، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[5].

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «والاستقامة: يقال في الطريق الذي يكون على خط مستوٍ، وبه شُبِّه طريق الحق، واستقامةُ الإنسان لزومُه المنهج المستقيم»[6].

ويرى طه عبدالرحمن أن الفرق بين المؤمن وغيره كونُ المؤمن لا يقف عند الظواهر، بل ينفذ عبرها إلى الآيات التي فيها معنى الحكمة والقيمة، فالظواهر

(١) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط(٤)، ٢٠١٧م، (ص١٦)

(٢) سورة الروم، الآية (٣٠).

(٣) القيم الحضارية في الإسلام (ص٤٨).

(٤) نفسه. ص(٤٨)

(٥) سورة هود، الآية (١١٢).

(٦) المفردات في غريب القرآن (ص٤١٨).

تمثل عالم الملك، والآيات تمثل عالم الملكوت.

فالآية هي الظاهرة منظورًا إليها من جهة المعنى، الذي يزدوج بأوصافها الخارجية، دالًا على الحكمة من وجودها، وهذا المعنى هو عبارة عن قيمة، ينبغي لمن يدركها العمل بمقتضاها، والأصل في نظر المسلم إلى الأشياء أنها تَأَمُّلٌ في الآيات، أي نظرة ملكوتية ، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[1]. ولا يصار إلى عدها ملاحظةً للظواهر -أي نظرة ملكية-[2] إلا بدليل، كما إذا باشر الكشف عن قوانينها السببية[3]، وما ذاك إلا لأنه يتشبه بالآدمي وهو على حال الفطرة الأولى، والآدمي الفطري لا يدرك الأشياء مجردة ومنفصلة عنه، وإنما يدركها مزودة بقيم متصلة به، تسد حاجاته وتراعي مصالحه.

أو قل: «إن للمسلم نظرَيْنِ اثنين إلى الأشياء، لا ينفك يزاوج بينهما: نظرًا أصليًّا، يبتدر به الأشياء -وهو النظر الملكوتي الذي يوصله إلى الإيمان-، ونظرًا فرعيًّا يدبر به الأشياء -وهو النظر الملكي الذي يوصله إلى العلم-[4].

يستفاد من هذا أن المسلم لا يفتأ يؤسس نظره الملكي على نظره الملكوتي، وبفضل هذا التأسيس يجد الصلاح في الحال، فيحيا حياة لا ضنك فيها، كما يرجو

(١) سورة الأنعام، الآية(٧٥)

(٢) النظرة الملكية تتمثل في النظر إلى الظواهر دون التعمق في معانيها، وذلك بتدبر الآيات القرآنية الكثيرة التي ورد فيها لفظ «الملك» ينظر: الحق الإسلامي في الاختلاف، ص(١٩).

(٣) واضح أن النظر الملكوتي نظر عقلي مثله في ذلك كمثل النظر الملكي، لا يختلف عنه إلا في وجهة النظر؛ فهذا يعقل من الأشياء القيم، والآخر يعقل منها الأسباب؛ لأنه لا شيء يخلو من القيمة والسبب معًا، فلا بد أن ينظر فيه من الجانبين، أي أنه يوجب النظر الملكوتي والنظر الملكي معًا. السابق، ص(١٩)

(٤) ننبه إلى أن الأصل في النظر الملكي أن يوصِّل إلى العلم، لا إلى الإيمان، وإلا كان كل العلماء المتوسلين بالنظر الملكي مؤمنين، وليس الأمر كذلك، بل نجد منهم من يزيد عدم إيمانه كلما زاد علمه؛ لشعوره بمزيد التملك لما ينظر فيه.
ينظر: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري (ص١٩).

الفَلَاحَ في المآل، فيسعد سعادة لا شقاء معها[1].

وتأسيسًا على ما سبق يمكن القول: إن مفهوم (القيم الحضارية في الإسلام) يراد به المعايير والموازين الموجهة لحركة الإنسان، والضابطة والحاكمة للفعل الحضاري بكل تنوعاته وامتداداته، وَفْقَ رؤية الإسلام ومقاصده في تحريك الحياة؛ تحصيلًا للمعية الإلهية، وترسيخًا للذات الإنسانية، واستقامة في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها، من خلال فقهٍ شَغُوف بالتوازن والتجرد وأداء الحقوق ومراعاة الحرمات ورفيع الأذواق وأخلاق البذل والإيثار واصطناع المعروف وابتغاء الفضل وبذله ومحاربة الطغيان الحضاري والاستئثار العمراني، فقهٍ بعيد عن ألوان التضليل والبغي الحضاري وأخلاقياته في تحريك الحياة[2].

إن القيم الحضارية في الإسلام مرجعيتها ربانية، صادرة من الذي يعلم ما يصلح عباده، وهدفها تحقيق المصلحة للأفراد والجماعات وإصلاح الحياة وعمارتها ومنع الفساد في الأرض، وآليتها التدافع، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[3]، فمفهوم القيم الحضارية في الإسلام يحرك في إطاره أربع دلالات، هي:

١- أنها تمثل المنطق الداخلي الذي يشكل الأمة الإسلامية، وبه قامت حضارتها وتطورت، كما يشكل الوقاية الحضارية المانعة للمسلم من الذوبان في الآخر.

٢- أنها تمثل معيارًا وإطارًا مرجعيًّا حاكمًا وضابطًا لحركة المسلم في الحياة.

٣- أنها تشكل المقاصد الحركية للإسلام ومصالحه في تحريك الحياة، ويُعَبَّر عنها في الفقه الإسلامي تارة بالمقاصد وتارة بالمصالح.

(١) نفسه.

(٢) القيم الحضارية في الإسلام، نحو حداثة إنسانية جديدة (ص٥١).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٥١).

٤- أنها تشكل روح شرعة الإسلام ومنهاجه، فهي مرتبطة بها وجودًا وعدمًا[١].

الفرع الثاني: منظومة القيم في الإسلام

بين الله ﷻ في القرآن الكريم أن الإنسان لم يخلق عبثًا، وإنما خلق لهدف، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢]، أي: بل خلقناكم للتكليف، ثم للرجوع من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء[٣].

ثم إن الإنسان تحمل أمانة التكليف وأمانة الإعمار، وبهما يكون الاستخلاف، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٤].

قال ابن كثير: «عن ابن عباس: الأمانة هي الطاعة، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يُطِقْنَهَا، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: «يا رب، وما فيها؟ »، قال: «إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت»، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى: « ظَلُومًا جَهُولًا».

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة»[٥].

لقد جاء تشريع الإسلام بمنظومة من القيم تضبط حركة المسلم في أدائه للأمانة التي تحملها، وهي قيم تلائم الفطرة الطاهرة التي خلق عليها الإنسان،

(١) القيم الحضارية في الإسلام، نحو حداثة إنسانية جديدة (ص ٥٣، ٥٤).
(٢) سورة المؤمنون، الآية (١١٥).
(٣) تفسير النسفي (٤/ ١٩٣).
(٤) سورة الأحزاب، الآية (٧٢).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (ص٨٩٣، ٨٩٤).

ولذلك كانت بعض هذه القيم موجودة في المجتمع قبل نزول الرسالة الخاتمة، وجاء الإسلام ليتممها.

إن منظومة القيم في الإسلام تقوم على أربعة أصول:

الأول: أنها فطرية، لأنها تتعلق بالإنسان المكرم الذي خلقه الله في أحسن تقويم، فهو مزود بالعاطفة والعقل والحرية، والقيم التي شيدها له تضمن له صلاح الحال وفلاح المآل، بما تحمله من معاني الهداية والاستقامة واستشعار مسئولية الاستخلاف والتعمير وحمل الأمانة والعلم النافع والعمل الصالح والتراحم والتعارف.

فهي قيم تنطلق من الإنسان، وتعمل لصلاح حاله، وفلاح مآله، في شمولية مرتبطة متوازنة[1].

الثاني: أنها أخلاقية، والأخلاق هي الصفات والسجايا النفسية المعنوية، التي تظهر -أو يظهر أثرها- من خلال السلوك العملي المستمر، فلا بد في الأخلاق من تحقق عناصر ثلاثة: عنصر نفسي باطني، وعنصر سلوكي عملي، وعنصر انتظام واعتيادٍ، فالعنصر النفسي يتضمن التحلي الباطني بالصفة الخلقية والرضى بها، والعنصر العملي هو التعبير الفعلي عما تكنه النفس من تعلق وميل ورغبة في هذا الخلق أو ذاك، وعنصر الاستمرار والاعتياد هو المعبر عن كون السلوك قد أصبح خلقًا وسجية، وليس مجرد فلتة أو تصرف عابر[2]. وعلاقة القيم بالأخلاق في الإسلام علاقة تكاملية، فالحكم الشرعي يقوم على بنيتين متكاملتين: إحداهما فقهية، والأخرى أخلاقية، تضبط من سلوك الفرد باطن الأعمال، التي تعود بالصلاح أو الفساد عليه أو على غيره، مما يورث المسلم أكمل تخلق[3].

(١) القيم الحضارية في الإسلام (ص٨٥).

(٢) دراسات في الأخلاق لأحمد الريسوني، دار الكلمة –القاهرة، ط(١) ٢٠١٦م، (ص٧).

(٣) تجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي- المغرب، ط(٥) ٢٠٠٧م، (ص١٠٦).

وإذا كان الخطاب الفقهي مبنيًّا على بيان أسباب الصحة في الأحكام الشرعية، فإنه لم يغفل أيضًا الدعوة إلى ضرورة مراعاة المقاصد الأخلاقية في الأعمال، وعدم الاكتفاء في ذلك بالرسوم والأشكال؛ لأن مراعاتها من أهم أسباب القبول[1].

يقول الإمام الشاطبي[2]: «والشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق، ولهذا قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[3]، وقال: «إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سفسافها»[4]... ».

وبموجب القيم الأخلاقية فإن تعامل المسلم مع أخيه ليس مجرد تحصيل خدمات أو توصيلها إليه - أي مطلق تعاون -، وإنما جلب صلاح إليه أو استجلابه منه، ودفع فساد عنه أو استدفاعه به؛ لأن التعامل بين المسلمين يبتغي الارتقاء إلى رتبة الأمة، وهذه الرتبة لا تدرك إلا بالعمل التعارفي -أي بتعاون الأشخاص داخل الأمة على المعروف-[5]، وإذا كان تصرف الإنسان مع أبناء أمته -عمومًا- يستدعي أخلاقًا معينة، فإن تصرفه مع غيرهم من الأمم الأخرى يتطلب منه أخلاقًا تعلوها رقة وتنوعًا؛ لأن وجوه الاختلاف بين أمته وأممهم تكون أظهر وأشد، وحيثما وجد مزيد الاختلاف احتاج إلى مزيد من العمل التعارفي، وأساسه تبادل المعروف، وكلما تعددت الأمم التي يتعامل مع أبنائها تزايدت الاختلافات، وكلما اشتدت هذه الاختلافات، ازداد تغلغلًا في عمله التعارفي، ومعنى هذا أن

(١) القيم الحضارية في الإسلام (ص٨٨).

(٢) الموافقات للشاطبي (٢/ ٧٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (٨٩٥٢)، مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، (١٤/ ٥١٢)، وصحح إسناده محققو المسند.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠٧٨١)، أبواب من تجوز شهادته، باب بيان مكارم الأخلاق، (١٠/ ٣٢٢)، وقال العراقي: « أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلًا ، ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلًا ، ورجالهما ثقات»، ينظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي، دار ابن حزم- بيروت، ط(١) ٢٠٠٥م، (ص٨٣٩).

(٥) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري (ص٢١).

يَسلُك إزاء هذه الأمم مسالك أخلاقية لها من الدقة والتلون على قدر اختلافهم معه[1].

الثالث: أنها تعبدية، فأعمال المسلم ما دامت مؤسسة على الأحكام الشرعية، وما دامت غايتها رضى الله ﷻ، فهي أعمال تعبدية.

فالأعمال إذا تجردت من الإخلاص لا تُقبل، حتى وإن استندت إلى حكم شرعي، ويؤكد ذلك أن النبي ﷺ قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[2]، وقال رجل للنبي ﷺ: «إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها»، قال: «هي في النار»، قال: «يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها»، قال: «هي في الجنة»[3].

فالمسلم كل حركاته وسكناته ومواقفه وسلوكه وأعماله يَتَعَبَّد بها الله حسب التوجيه القرآني، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

الرابع: ارتباطها بغاية، يقول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[5]، فليجعل غايته من تعامله إرضاءَ ربه، وهذا وجه من وجوه اختلاف التصور بين الإسلام وغيره في نظرته للحياة، ويوجه

(١) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري (ص٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٩٠٣)، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، (٣/ ٢٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (٩٦٧٥)، مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، (١٥/ ٤٢١، ٤٢٢).
قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار، ورجاله ثقات».
ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، (٨/ ١٦٩).

(٤) سورة الأنعام، الآية (١٦٢).

(٥) سورة الإسراء، الآيتان (١٨-١٩).

الإسلام المسلمين أن يعاملوا غيرهم بأخلاق الإسلام، ولا يجارونهم في معاملاتهم التي تتعارض مع مبادئ الإسلام؛ لأن غاية المسلم الجزاء في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

(١) سورة النحل، الآيات (٩١-٩٧).

المطلب الثاني
القيم والعلاقات الإنسانية

الفرع الأول: خصائص القيم الإسلامية

إن القيم في الإسلام تتميز بالخصائص الآتية[1]:

أولًا: أنها قيم مستمدة من الدين، فالمسلم يعتقد أن الحالة الأولى التي فطر عليها الإنسان هي دين التوحيد، وأن هذا التوحيد لم يصل إليه الإنسان عن طريق الاستنباط أو التأمل بسبب الخوف من المجهول أو لسبب نفسي أو اجتماعي، بل كان نتيجة مباشرة لمعرفة الإنسان الأول بالله خالقه على نحو مباشر ودون واسطة، وأن الناس كانوا متفقين على التوحيد، ثم أعقب التوحيد حالةٌ شركية وثنية واختلاف بين الناس في العقائد، فأرسل الله الرسل والنبيين مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، أي أن الناس كلهم كانوا على عقيدة التوحيد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فبينوا جميعا أن دينهم واحد، من حيث العقيدةُ مع تنوع الشرائع.

أما من حيث الاتفاقُ على عقيدة التوحيد، فقد نص عليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى

(١) هذا التقسيم مأخوذ من كتاب القيم الحضارية للإسلام؛ لأنه كتاب منهجي محكم في نظر الباحث. ينظر: الصفحات (١٠٢-١٢٧).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢١٣).

ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[2].

وأما من حيث تنوعُ الشرائع مع وحدة الأصل، فقد بينه الله ﷻ بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[3]، أي: شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وخصهم بالذكر لأنهم أكبر الرسل، ثم بين جوهر الرسالة بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾، وهو توحيد الله والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء، والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الغش والخيانة والقتل والزنا والإيذاء للخلق والاعتداء على الحيوان واقتراف الدناءات وما يتعارض مع المروءة، والالتزام بسائر الواجبات الأخلاقية، فهذا هو جوهر دين التوحيد لم يختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم وشرائعهم[4].

ثانيًا: أنها تتسم بالشمولية والتكامل، فالرسالة الإسلامية الخاتمة جاءت بتصور كامل للإنسان وللكون وللحياة والأحياء، ولذلك فإن قيم الإسلام تتسم بالشمولية، وتغطي جميع مجالات الحياة الإنسانية، وتنظم علاقة الإنسان بالموجودات؛ لأنها لا تخص صلاح الفرد الواحد، ولا الأمة الواحدة، وإنما تبتغي صلاح البشرية قاطبة، بل تبتغي صلاح جميع المخلوقات التي في عالم الإنسان[5].

(١) سورة النحل، الآية (٣٦).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٤٥).

(٣) سورة الشورى، الآية (١٣).

(٤) تطور الأديان-نظرية جديدة في منطق التحولات لمحمد عثمان الخشت، نيو بوك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط(١)، ٢٠١٨م، (ص ٨٦).

(٥) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط(١)، ٢٠٠٠م، (ص١٥٨).

والقيم الإسلامية قيم حضارية، يلتزم بها المسلم مع المسلم وغير المسلم، فهي لا تتعلق برؤية عنصرية، ولا بحدود حضارية تراعى داخلها، بينما تستباح من خارجها، بل إنها قيم مطلقة لا تعرف التمييز، ولا تعترف به، طابعها إنساني يرفض العصبية[1]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2]، وهذا الشمول أكدته السنة النبوية التشريعية، جاء ذلك في وصيته ﷺ لأبي ذر: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[3]، فالتعميم في قوله ﷺ: «حيثما كنت» -أي: في كل مكان، وقوله: «وخالق الناس» -أي: كل الناس-، التعميم فيهما يورث صاحبه نظرة إنسانية واسعة، ومن آثار هذه النظرة اتساع خلقه لبني البشر قاطبة، إذ في تخلقه طاعة لخالقه، وتدرُّج في منازل القرب من الحق، فلا يبالي في الفروق بين الأجناس، ولا بين الأعراق، ولا بين المواطن، إلا ما كان منها مخالفًا لمقتضى التقرب إلى مقصوده الأسمى[4].

ثالثًا: أنها قائمة على التوسط والاعتدال، فمنهج الإسلام منهج وسط، يراعي التوسط والاعتدال في كافة المواقف والتصرفات، وجاء تشريعه مؤكدًا لهذا المعنى، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[5]، قال ابن كثير: «لا تكن بخيلًا مَنُوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تسرف في الانفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾، وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت ملومًا يلومك الناس، ويذمونك ويستغنون عنك، ومتى بسطت يدك فوق

(١) القيم الحضارية في الإسلام (ص١٠٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٩٨٧)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، (٤/ ٣٥٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) القيم الحضارية في الإسلام (ص١٠٨).

(٥) سورة الإسراء، الآية (٢٩).

طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [1]، وفي الحديث: «إن الله قال لي: أَنفِق أُنفِق عليك»[2].

وفي الحديث: «ما عال من اقتصد»[3]... »[4].

إن المنهج الوسط يحفظ الواجبات المتوازنة، فقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «يا عبد الله، ألم أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وتَقُومُ اللَّيْلَ؟ »، قال: «بلى، يا رسول الله»، قال: «فلا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[5].

رابعًا: أنها قائمة على المصلحة والتوازن، فأحكام الشريعة قائمة على مراعاة مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم في العاجل والآجل، يقول الإمام العز بن عبد السلام: «ومعظم مقاصد القرآن الأمرُ باكتساب المصالح وأسبابها، والزجرُ عن اكتساب المفاسد وأسبابها»[6].

الفرع الثاني: الاستخلاف

(١) سورة الملك، الآيتان (٣-٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٦٨٤)، كتاب التفسير، باب سورة هود، (٦/ ٧٣)، ومسلم في صحيحه برقم (١١٥٩)، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، (٢/ ٨١٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (٤٢٦٩)، مسند المكثرين من الصحابة، مسند ابن مسعود، (٧/ ٣٠٢)، وضعفه محققو المسند.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (ص٥٨٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٩٧٥)، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، (٣/ ٣٩)، ومسلم في صحيحه برقم (٩٣٣)، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، (٢/ ٦٩١).

(٦) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام (١/ ٨).

الإنسان في الإسلام ليس إلهًا ولا حيوانًا ولا عبدًا للمادة، ولا غير ذلك من المفاهيم التي سارت عليها العقائد المنحرفة والنحل الوضعية، فالإنسان في الإسلام مخلوق مكرم مستخلف في الأرض ومؤتمنٌ عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [1]، وقال -سبحانه-: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [2]، وهذا ما وضحه الرسول ﷺ بقوله: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»[3].

فالاستخلاف هو القيمة المحورية الناظمة لقيم البناء الحضاري الإسلامي، وهو المفهوم الإسلامي الذي يحدد العلاقة التي تربط الإنسان بخالقه من جهة، وتربط الإنسان بالأرض وعالم الأشياء من جهة ثانية، وتربطه بأخيه الإنسان من جهة ثالثة، فهو تصور كامل لحقيقة الوجود والكون والإنسان، والحياة، فالمستخلِف هو الله ﷻ، والمستخلَف هو الإنسان وأخوه الإنسان، والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومن عليها.

والاستخلاف بهذا المعنى يؤطر حركة الخليفة -الإنسان- في الحياة، وهو يعني أمرين:

أولهما: أن الخليفة خلق حرًّا، ولا سيادة لإنسان على آخرَ ابتداءً، فلا مشروعية لأي لون من ألوان التحكم، ولا لأي شكل من أشكال الاستغلال وسيطرة الإنسان على الإنسان، فلا سيد ولا مالك ولا إله لهذا الكون وهذه الحياة بكل من فيها وما فيها إلا الله ﷻ، والقيم كلها مشدودة إليه بدءًا وعودًا[4]، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

(١) سورة البقرة، الآية (٣٠).

(٢) سورة فاطر، الآية (٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٤٢)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، (٤/ ٢٠٩٨).

(٤) السابق (ص١٣٣).

فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

ثانيها: أن دور الإنسان في هذه الحركة إنما هو دور الاستخلاف والائتمان والتفاعل وأداء الواجب وفق منهج الله في أمره ونهيه[2]، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان والكون فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة ائتمن عليها، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان -مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو ذاك- فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤديًا لواجبه بهذه الخلافة، وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية[3].

ومفهوم الاستخلاف في الإسلام يضم تحته ثلاثَ قيم تضبط حركة الإنسان وتعامله مع أخيه الإنسان ومع الكون:

الأولى: **الخلافة الاقتدائية**: ومعناها أن خلافة الإنسان ليست مطلقة، بل هي مقيدة بمنهج الله، وغايتها تحقيق مقصد العبادة في الأرض وفق مراد الله أمرًا ونهيًا، وفقه حركتها إقامة الحق والعدل ونصرة المستضعفين في الأرض.

الثانية: **السعي الحي**: ومعناه أن يكون سعي الإنسان في الكون موجهًا قاصدًا التعرف على الكون أفعالًا وأوصافًا، حريصا على التوفيق الإلهي والعون الرباني، متخذًا من منظومة القيم الإيمانية وسيلة لربط العلم بالأخلاق، والعقل بالغيب، والدنيا بالآخرة، وصلًا حقيقيًّا في عبودية شاملة لله تعالى ، ومصداق ذلك ما بينه رسول الله ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم، فقد مر بهم رجل رأوا من جَلَدِه ونشاطه، فقالوا: «يا رسول الله، لو كان ذلك في سبيل الله؟! »، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في

(١) سورة الجاثية، الآيتان (١٢-١٣).

(٢) القيم الحضارية في الإسلام (ص١٣٤).

(٣) المدرسة القرآنية لمحمد باقر الصدر، دار المعارف، بيروت، بدون تاريخ، (ص١٢٩).

سبيل الله، وإن كان خرج رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان»[1]، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[2]، والسعي الحي مستفاد من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4]، فكل سعي يرتبط بالله ورسوله، وتتصل فيه الحياة بالدين، وتتأكد معه هيمنة الشرعة والارتباط بأحكامها هو سعي يحيي ويحيا به الإنسان[5].

الثالثة: الحركة المسئولة: فإذا كانت الخلافة – في مفهومها الشامل والمتوازن – تعني تعمير الدنيا وفق سنن الله ومنهجه وتمكين الإنسان من التمتع بجميع خيرات الأرض، كما تعني قدرة الإنسان على اختيار سلوكه بنفسه، فإنها بهذا المعنى مصحوبة بالمسئولية، بل مؤسسة عليها، قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[6]، فالاستخلاف الذي هو منهج رباني في تحريك الحياة لن تكتمل فعاليته إلا إذا استشعر الإنسان المسئولية تجاه الكون والإنسان والحيوان والحياة، وأنه سيجازى على كل حركة يتحركها في الحياة، إما ثوابًا وإما عقابًا[7].

الفرع الثالث: الاستقامة

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٨٣٥)، باب من اسمه محمد، (٧/ ٥٦).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح».
ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٤/ ٣٢٥).

(٢) سورة الإسراء، الآية (١٩).

(٣) سورة الأنفال، الآية (٢٤).

(٤) سورة النحل، الآية (٩٧).

(٥) القيم الحضارية في الإسلام (١٣٨).

(٦) سورة القيامة، الآيتان (١٤-١٥).

(٧) القيم الحضارية في الإسلام (١٤٤).

الاستقامة في اللغة مصدر الفعل (استقام)، ومعناه انتصب واعتدل، والاستقامة وصف للطريق الذي يكون على خط مستو على الدوام، واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم[1].

فالاستقامة ضد الاعوجاج والالتواء، ويقال: استقام له الأمر، إذا انتظم وسار على نحو معتدل مستقر.

وأما المعني الشرعي للاستقامة فمطابق لمعناها اللغوي، غير أنه مستعمل بكثرة في الصفات المعنوية والخلقية، وأول استقامة في الشرع هي استقامة الدين ومنهجه وطريقه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[2]، قال الطبري: «أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»[3].

والإنسان يكون مستقيمًا بقدر ما تتطابق صفاته وتصرفاته مع المنهج المستقيم والصراط المستقيم[4].

وقد وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نصوص كثيرة في شأن الاستقامة، ففي القرآن الكريم نشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[6]، وقوله

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٤١٨).
(٢) سورة الفاتحة، الآية (٦).
(٣) تفسير الطبري (١/ ١٧٠).
(٤) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية (٣/ ٧٠).
(٥) سورة الأنعام، الآية (١٥٣).
(٦) سورة هود، الآية (١١٢).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وفي السنة النبوية نذكر ما جاء عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: «يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك»، قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[3].

الاستقامة التي جاء بها الشرع وحث عليها عامة وشاملة في مجالاتها ومقاصدها، وفي ثمراتها وفوائدها، فهي منهج عام وسلوك مطرد، يجب الاتصاف به والسير عليه ظاهرًا وباطنًا، وهذا واضح في الآيات والأحاديث السابقة[4].

فالاستقامة هي انضباط حركة المسلم في هذه الحياة وفق منهج الله وشرعته، فتكون حركته عِلْمًا وعَمَلًا منطلقة من معارف الوحي ومنضبطة بمقاصده ومناهج الاستمداد منه؛ حتى تكون كل أقواله وأفعاله وأحواله ونياته واقعة لله وبالله وعلى أمر الله[5].

الفرع الرابع: التزكية

لكي يحقق المسلم مقاصد الإسلام في علاقته بالناس يحتاج إلى تزكية نفسه من أدرانها وأن يتحلى بمكارم الأخلاق.

وأصل التزكية من الفعل (زكا)، ومنه الزكاة، وتعني النمو الحاصل عن بركة

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٣٨)، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، (١/ ٦٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٢٣٧٨)، تتمة مسند الأنصار، من حديث ثوبان، (٣٧/ ٦٠)، وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

(٤) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية (٣/ ٧٠، ٧١).

(٥) القيم الحضارية في الإسلام (ص٥٣).

الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية، يقال: زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾[1] إشارة إلى أن ما يكون حلالًا لا يُسْتَوْخَمُ عقباه، ومنه الزكاة، لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعًا؛ فإن الخيرين موجودان فيها[2].

والتزكية في البناء الحضاري الإسلامي مفهوم يستجمع معاني النمو والخيرية معًا؛ فالتزكية تخلية من الرذائل وتحلية بالفضائل، بما يستوجب للنفس الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة[3].

وهي مجاهدة داخلية للرغبات؛ كبحًا لجماحها وتهذيبًا لها؛ لتتخلق بأخلاق القرآن الذي جاء يهدي الإنسان للتي هي أقوم.

ويصير الإنسان بزكاء النفس وطهارتها مستحقًا في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو مطالب أن يتحرى ما فيه تطهيره، والتزكية تنسب تارة للعبد لكونه مكتسبًا لها، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[4]، وتارة تنسب إلى الله تعالى لكونه فاعلًا لها في الحقيقة، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[5]، وتارة إلى النبي ﷺ لكونه واسطة في وصولها إليهم، نحو قوله تعالى ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[6]، وتارة إلى

(١) سورة الكهف، الآية (١٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص٢١٨).

(٣) القيم الحضارية في الإسلام (ص٢٦).

(٤) سورة الشمس، الآية (٩).

(٥) سورة النساء، الآية (٤٩).

(٦) سورة البقرة، الآية (١٥١).

العبادة وهي آلة في التزكية، نحو قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[2]، أي مُزَكًّى بالخلقة، وذلك عن طريق الاجتباء، وهو أن يجعل بعض عباده عالمًا وطاهر الخلق، لا بالتعلم والممارسة، بل بتوفيق إلهي، كما هو حال الأنبياء والرسل، ويجوز أن يكون تسميته بالمزكى؛ لما يكون عليه في الاستقبال لا في الحال، والمعنى: «سيتزكى»[3].

والتزكية من أصول القيم الحضارية في الإسلام التي يجب تعزيز الوعي بها؛ لأنها تمثل كليات مرجعية تعصم الفعل الحضاري للإنسان من الطغيان والاستكبار في الأرض، كما أنها تحمي الحضارات من الزوال السريع والأفول المحتوم؛ لأنها تمثل منهجية إسلامية في ترقية الذات الإنسانية وترسيخها، من خلال تربية الإنسان المنوط به أمر الخلافة في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[4]، فبتزكية النفس يتم تزكية الواقع، ولذا يعد التغيير الداخلي مقدمةً ضرورية للتغيير الخارجي الذي ينعكس على سعي الإنسان في تحريك الحياة وفق مراد الله في أمره ونهيه، فبحركة الإنسان الداخلية، ومن خلال حريته الملتزمة، يتحرك التاريخ، ويتطور الزمن، وتتغير مظاهر الحياة[5]، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[6].

ولأهمية التزكية في الإسلام فإن الدعوة استمرت ثلاثة عشر عامًا في الفترة

(١) سورة مريم، الآية (١٣).
(٢) سورة مريم، الآية (١٩).
(٣) المفردات في غريب القرآن (ص٢١٩).
(٤) سورة الرعد، الآية (١١).
(٥) القيم الحضارية في الإسلام (ص١٥٧).
(٦) سورة النجم، الآيات (٣٩-٤١).

المكية، تعمل على تزكية نفوس المؤمنين بها وتربيتهم لحمل الرسالة، وكان أهم ملحظ في هذا المجال يتمثل في ترقية النفوس لتَحَمُّل الأذى وكظم الغيظ وكبح جماح الغضب، فعندما اشتد الأذى بالمسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: «ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟! »، قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

فهو هنا يروض النفس على الصبر وتحمل الأذى والتحرر من نزعة الإنتقام للنفس، فالرسالة ستنتصر حسب سنن الله في خلقه، لا حسب أماني الناس، والتضحيات مهر الانتصار، فدعوة الإسلام التي جاء نبيها بالرحمة لم تكن ميالة للانتقام، وحتى في أحلك الظروف التي يتعرض فيها المسلم للأذى والظلم حيث تكون النفس مشحونة بالغضب فإن قيمة العفو عنده تتغلب على الانتقام.

فالتزكية مطلب أساسي لبناء الإنسان الخليفة، ومقصد ضروري من مقاصد الشريعة ذاتها، بل هي ركن من الأركان الأربعة التي بُعث النبي الأعظم ﷺ لتحقيقيها وتكميلها، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

وخلاصة القول أن قيمة التزكية في الإسلام ترتبط بتكريم الإنسان، وتنبع من تطهير الإنسان لنفسه من عوارض القدح وترقية كيانه وإصلاح وجوده الإنساني، وهي في تطور مستمر، يثمر التجدد والمراجعة والمراقبة والتقويم لسلوكه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٦١٢)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٤/ ٢٠١).

(٢) سورة الجمعة، الآية (٢).

ومواقفه، كما أنها تُشعِر الإنسان بتحمل تبعة أعماله في الدنيا والآخرة، وأخيرًا فإن قيمة التزكية تشعر الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة واستحضارها في تعامله مع نفسه وتعامله مع غيره، فتقتضي التلازم بين الحق والواجب[1].

(١) القيم الحضارية في الإسلام (ص١٦٠-١٦٥).

الفصل الخامس

إدارة التنوع بين الإسلام والغرب

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إدارة التنوع في الغرب.

المبحث الثاني: إدارة التنوع في واقع المسلمين.

المبحث الثالث: مطلوبات فقه التنوع في الواقع المعاصر.

المبحث الأول

إدارة التنوع في الغرب

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المفاهيم المؤسسة للتعامل مع الآخر في الحضارة الغربية.

المطلب الثاني: المواثيق الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان.

المطلب الأول

المفاهيم المؤسسة للتعامل مع الآخر في الحضارة الغربية

الفرع الأول: رؤية الآخر في الحضارة الغربية

ذكرنا أن الحضارة الغربية تكونت من جذور يونانية ورومانية وكاثوليكية ويهودية، فما رؤيتها للآخر؟

في الحضارة اليونانية اعتبر الآخر هو خلاف العرق اليوناني، وقد خُلِق ليكون عبدًا مُسْتَرَقًّا للإنسان اليوناني، وكان أرسطو هو أول من قسم البشر إلى صنفين: صنف يتمتع بالعقل الكامل، خلقه الله ليتفرغ للتفلسف والتفكير والسيادة، وينحصر في العرق اليوناني فقط، وصنف شمِل باقي البشر، وهذا يتمتع بالقوة الجسمانية، ويعاني من نقص العقل، ولا يصلح للتفكير، خلقه الله ليكون في خدمة الإنسان اليوناني، وكل حرب يمارسها اليوناني للحصول على مزيد من الآخر كرقيق هي حرب مقدسة؛ لأنها تطبيق لإرادة الله[1].

وفي الحضارة الرومانية اُعتُبِرَ الآخرُ هو كل من لا يتمتع بالمواطنة الرومانية، وقد خلقه الله ليكون عبدًا مسترقًّا للإنسان الروماني، وأن شعار السلام الروماني هو أن يقبل الآخر بسيادة الإنسان الروماني.

وفي الثقافة اليهودية اعتبر الآخر هو خلاف نسل إسرائيل، وتعتقد اليهودية أن الله خلق اليهودي من عنصره، مثل الابن من عنصر أبيه، وخلق باقي الشعوب من نطفة حصان، فهم حيوانات في صورة إنسان، خُلِقوا ليكونوا عبيدًا لشعب الله المختار، ومن حق شعب الله المختار أن يُبيدهم أو يسترقهم بما يتفق مع حاجته.

(١) الحقيقة الكونية للحضارات (ص ٦).

والحضارة المسيحية الكاثوليكية اعتبرت الآخر هو من لا ينتمي للمذهب الكاثوليكي، وحتى المسيحي الذي لا يقر بالكاثوليكية فهو مُهَرْطِقٌ، دمه مهدر، واعتبرت الكنيسة أن وظيفتها المقدسة في الأرض هي أن تضم الآخر أو تحطمه[1].

وإذا كانت تلك هي خلفيات الحضارة الغربية، فإنها تحمل في تكوينها بذرة الصراع.

إن المفاهيم المؤسِّسة للحضارة الغربية لا مكان فيها لوجود الآخر، فهي ترفض حقه في الاختلاف، بل تستهزئ بحقه في الوجود؛ فإن الإنسان -كما يقول الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز[2]- ذئب الإنسان، والكل في حرب ضد الكل، والواحد في حرب ضد المجموع[3].

ويظهر ذلك واضحًا في منهج الحضارة الغربية -والأمريكية على وجه الخصوص-، التي تجلت على حقيقتها في العصر الحديث؛ حيث ظهرت فيه قيم حضارية جديدة، تحمل سمات وملامح العولمة التي شملت كل مجالات الحياة: إنسانا وأرضًا وعلاقاتٍ إنسانيةً، بَدْءًا بقيم الاقتصاد، إلى قيم الفكر والشعور والوجدان، ومرورًا بالهويات والخصوصيات والثقافات، وانتهاء بتنميط عيش الإنسان على نمط وحيد عن طريق هيمنة ثقافة واحدة وتسليط نمط فكري واحد -الفكر الأنجلو أمريكي-، وفرضه عنوة على جميع الثقافات المختلفة؛ فهي قيم تحمل بصمات الزمان والمكان -أي الحضارة الغربية التي أنتجتها- إلا أن

(١) السابق (ص٦-٧) بتصرف.

(٢) توماس هوبز: عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي، يعد أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا وأكثرهم شهرة خصوصا في المجال القانوني، حيث كان بالاضافة إلى اشتغاله بالفلسفة والأخلاق والتاريخ، فقيها قانونيا ساهم بشكل كبير في بلورة كثير من الأطروحات التي تميز بها هذا القرن على المستوى السياسي والحقوقي. ويكيبيديا.

(٣) القيم الحضارية في الإسلام (ص٦٧).

أصحابها أرادوا لها أن تكون قيمًا كونية واحدة ووحيدة -عولمة القيم- طوعًا أو كرهًا، وتعطيل كل سعي إلى التعددية والاختلاف، وإذا ظهر خطاب يخالف تلك القيم اُتهم بالتخلف والإرهاب[1].

فالغرب بالرغم من علو صوته في الدعوة لاحترام حقوق الإنسان وسَنِّهِ للقوانين والمواثيق المنظمة لكفالة هذه الحقوق، - رغم كل ذلك - فإن الممارسة العملية فيها تجاوز ومخالفة للمعلن -خاصة مع الآخر- مما يؤكد أثر المفاهيم الموروثة عن اليونان والرومان واليهودية والمسيحية في رؤيتها وموقفها من الآخر.

ويشهد العالم على فظاعة الصورة التي صنعها الغرب للعرب والمسلمين ودينهم ورسولهم ﷺ؛ ليشحن بها وجدان العامة في الصراع ضد حضارة الإسلام، فتقول: «لقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوربيين الازدراءُ الأحمق الظالم للعرب، فيصفهم -جهلًا وعدوانًا- بأنهم رعاةُ الماعز والأغنام، الأجلافُ، لابسو الخرق المهلهلة، عبدةُ الشيطان، محضرو أرواح الموتى، السحرةُ، أصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، الذين حذقوا هذا الفن، واستحوذ عليهم الشيطان، تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين، وقد تربع على عرشهم الصنم الذهبي لـ(ماهومد) (مخيميد)، وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية، يذبحها أتباعه قربانًا وزلفى إليه.

هم خلق غريب، غير متحضرين، متطفلون على الحضارة الهيلينية الإغريقية، مستبعدون من العالم الهيليني، وأقصى القول في هؤلاء المحمديين أنهم أعداء الله وأعداء المسيح؛ لأنهم يعبدون الدرك الأسفل من الشياطين، وعالمهم هو عالم الخرافات والأساطير، وبلادهم بلاد الأضاحي البشرية من أجل صنم ذهبي، اسمه محمد، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين»[2].

(١) السابق (ص ٥٥-٥٦).

(٢) الله ليس كذلك لسيجريد هونكة، ترجمة: غريب محمد غريب، دار الشروق، ١٩٩٥م، (ص٨-٢٣).

تلك هي الصورة التي صنعتها مؤسسات الهيمنة الغربية للإسلام وأمته ورسوله وعالمه، وشحنت بها أذهان السواد الأعظم من الأوربيين، وهي صورة لا تزال بقاياها حية في الكتب المدرسية الأوربية والغربية وفي أفلام هوليود وفي الإعلام الغربي، حتى القرن الحادي والعشرين[1].

لقد استمر التزييف الثقافي كسلاح غربيّ في الصراع الحضاري الغربي ضد الإسلام عبر تاريخ هذا الصراع، ويشهد على ذلك طوفانه الذي انهال على الإسلام وأمته وحضارته بصحبة الحرب الصليبية الإمبريالية الجديدة، التي شُنت على الإسلام وعالمه، عقب قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م في أمريكا.

لقد صنعت أوربا -في عصورها الوسطى- كل ذلك الافتراء على الإسلام ورسوله وقرآنه وأمته وحضارته؛ لتأجيج نزعة الصراع وثقافة الصدام التي تشحن الوجدان الغربي، ولتجييش الجيوش للحملات الصليبية (٤٨٩ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١).

لم يجن الأوربيون من تلك الحروب الهوجاء والإبادة الجماعية لآلاف المسلمين والأوربيين أنفسهم إلا الصراع والتصادم والحرب الضروس التي استمرت ما يقرب من مائتي عام متصلة، قُتل فيها من الجانبين مئات الآلاف، وظل تاريخ تلك الحروب عاملًا من عوامل استثارة الأحفاد الذين تجري الدماء في عروقهم؛ غضبًا وحمية لأجدادهم ومقدراتهم وتراثهم المقدس الذي دنس في تلك الحروب القديمة[2].

ثم جاء الاستعمار مخلِّفًا وراءه مآسي فظيعة، بسبب القتل الذي تعرض له مواطنو البلدان المستعمَرة، إضافة للأساليب غير الإنسانية التي مورست ضد البشر والبيئة، هذه المآسي التي نتجت عن أساليب المعاملة للمخالف وتحالفات

(١) الإسلام والحضارات الأخرى لمحمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط(١)، ١٤٣٣هـ، (ص١٨).

(٢) المشترك الإنساني (ص٦٥).

رجال الدين مع الحكام المستبدين وممارسات نظم الحكم المستبدة ضد المواطنين وآثار الاستعمار، فضلًا عن الكوارث الناجمة عن الحربين العالميتين، كل ذلك هز الضمير الإنساني، ودفع الدول الغربية إلى إصدار مواثيق تدعو إلى احترام حقوق الإنسان.

الفرع الثاني: أثر الحضارات الأخرى على الحضارة الغربية

الحضارة الغربية الحديثة حضارة مركبة من عنصر تراثي، وأوربا مكونة من تراث ثلاثي: ففي المجال الأخلاقي تبرز المسيحية بشقيها الكاثوليكي والبروتستنتي، وفي مجال القانون والسياسة والدولة تستمد من القانون الروماني، وفي مجال الفكر والفنون تستمد من التراث اليوناني.

وانطلاقًا من هذا التراث -وعبر ثورات الحداثة- نمت الحضارة الغربية الحديثة، وتبلورت حول المفاهيم والنظم الآتية:

- النظام الديمقراطي التعددي.
- النظام الاقتصادي الرأسمالي.
- التمدد الحضاري.
- محو الأمية.
- حرية البحث العلمي.
- التطور التكنولوجي.
- التسامح الديني.
- النظام الدولي التعاهدي.

فالحضارة الغربية الحديثة مكونة من عنصرين: عنصر تراثي، وعنصر حداثي، والجزء التراثي خاص بأوروبا، وهو نفسه إذا بحثناه بحثًا دقيقًا وجدناه متأثرًا بروافد غير أوروبية.

وأما الجزء الحداثي فهو يمثل التطوير الغربي لمصادر ثقافية وسياسية واقتصادية، أسهمت فيها كل الإنسانية، مما يسوغ التفرقة بين التغريب والتحديث[1].

فالغرب له سلسلة نسب بكثير من الحضارات؛ فاليونان القديمة أنجبت روما، وتولد عن روما أوربا المسيحية، وأنجبت أوربا المسيحية عصر النهضة، وأنجب عصر النهضة عصر التنوير، وأنجب التنوير الديمقراطية السياسية والثورة الصناعية[2].

ولكنّ الغرب لا يعترف بدورٍ للحضارات الأخرى، بل يصف نفسه بأنه عقلاني ومجتهد ومنتج ومُضَحٍّ ومقتصد وديمقراطي -لبرالي- وأمين وأبوي وناضج ومتقدم ومبدع ونشيط ومستقل وتقدمي وديناميكي.

أما الشرق فكان يقدم كالآخر المقابل للغرب: اعتباطي وكسول وغير منتج ومتساهل وغريب وغير عقلاني، وفي نفس الوقت مُغْوٍ ومشوش ومستبد وفاسد وطفولي وغير ناضج ومتخلف ومقلد وسلبي وراكد لا يتغير[3].

فالغرب يرى نفسه أنه يتمتع بديناميكية القيم الديمقراطية واللبرالية التقدمية والأعراف العقلانية منذ البداية، والتي أنتجت بدورها الفرد العقلاني، الذي مكنته حياته المزدهرة من النمو الاقتصادي والتقدم المحتوم نحو ضوء الحداثة الرأسمالية المبهر ودفئها.

وبالمقابل، تم تصنيف الشرق باستمرار على أنه الأدنى -بزعم تمسكه بالقيم الاستبدادية والأعراف غير العقلانية-، ويعني هذا أنه في قلب الظلمة الحالكة،

(١) الحضارات الإنسانية تصارع أم تحاور للصادق المهدي، بحث مقدم لمؤتمر حوار الحضارات بجامعة النيلين، بتاريخ: ٣-٦ فبراير ٢٠٠٣م

(٢) الجذور الشرقية للحضارة الغربية لجون إم. هوبسون، ترجمة: منال قابيل، مكتبة الشروق-القاهرة، ط(١) ٢٠٠٦م، (ص١٢).

(٣) السابق (ص١٨)

قامت جماعة قاسية بخنق الفرد العقلاني عند الميلاد، مما جعل الركود الاقتصادي والعبودية قدره الأبدي[1].

لكن الحقائق تؤكد أن الحضارة الغربية الحديثة استفادت من الحضارات الأخرى -ومنها الحضارة الإسلامية-؛ فقد اتصلت أوربا بالحضارة الإسلامية العربية عدة اتصالات، أهمها ما كان عبر الأندلس وعبر الحروب الصليبية، فانتقلت إلى أوربا أفكار وثقافات ومهارات وعلوم، درسها بإحاطة كبيرة كثير من المفكرين -كالأستاذ منتجمري وات-، وأوضحوا كيف أن البذور التي أثمرت عصر النهضة في أوربا مستمدة من الحضارة الإسلامية العربية، بل حتى العناصر الآتية أصلًا من الحضارة اليونانية الرومانية مرت إلى أوربا عبر الحضارة الإسلامية العربية[2].

(١) الجذور الشرقية للحضارة الغربية (ص١٩).

(٢) تحديات التسعينات (ص١٦).

المطلب الثاني
المواثيق الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان

الفرع الأول: خلفيات إصدار مواثيق حقوق الإنسان

الدول الأوربية لم تأخذ من المبادئ السالف ذكرها غير مفهوم تعزيز قوتها ونفوذها، مما أدى إلى حروب طاحنة بين الأوربيين، كما ساعدت الدعوات القومية طوال القرن التاسع عشر على تفكيك أوصال القارة الأوربية، واستعر لهيب التمرد والثورة بين الإيرلنديين والبولنديين والرومانيين والكرواتيين والصربيين، وازدادت حدة الفرقة بين الأوربيين، وتقاطعت أطماعهم، مما دفع بالأوضاع إلى حافة الانفجار، وتمثل هذا الانفجار في نشوب الحرب العالمية الأولى، التي اندلعت شرارتها من القارة الأوربية، إثر قيام إمبراطورية النمسا والمجر بغزو مملكة صربيا، بعد حادثة اغتيال ولي عهد النمسا وزوجته من قِبَل طالب صربي، أثناء زيارتهما لسراييفو في ٢٨ يونيو ١٩١٤م، وسرعان ما امتدت إلى أوربا كلها، ومنها إلى العالم أجمع[1].

وقد شهد العالم في هذه الحروب الدموية أسلحة لم يعهدها من قبل؛ فاستعملت الأسلحة الكيميائية، وتم قصف المدنيين من السماء لأول مرة في التاريخ؛ فرغم أن الحرب الجوية كانت في مهد طفولتها، إلا أن الحرب العالمية الأولى شهدت مباراة كريهة بين الدول المتحاربة في ضرب المدن ودكها بالقنابل والفتك بالمدنيين، فقنابل الطائرات تتساقط على أي مكان لا تفرق بين الأطفال والنساء، ولا تستثني مدرسة أو مستشفى أو دورًا للعبادة، وبعد ما كانت الحروب تخاض

(١) تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث لعبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، (٢/ ٢٠٤).

بتقابل جيشين متنازعين في ساحة المعركة بعيدًا عن المدينة، أصبحت المدن المأهولة بالسكان ساحات للمعركة، مما نتج عنه سقوط ملايين الضحايا، وكل هذا كان يصب في اتجاه تعميق الكراهية بين أبناء القارة الأوربية[١].

انتهت الحرب العالمية الأولى في ١١نوفمبر ١٩١٨م، على واقع أوروبي أليم، فقد انهار الاقتصاد في القارة الأوربية؛ إذ أودت الحرب بحياة ثمانية ملايين ونصف ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و٤٠ عامًا -أي ممن يمثلون القوة العاملة الأساسية-، وكانت معظم الخسائر المادية والبشرية تتركز في فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا[٢].

وكان من إفرازات الحرب العالمية الأولى ظهور الأفكار الهدامة: الشيوعية الروسية، والنازية الألمانية، والفاشية الإيطالية، هذه الأفكار مهدت الطريق أمام الحرب العالمية الثانية[٣].

بدأت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر ١٩٣٩م، عندما قام جيش ألمانيا النازية العملاق الذي بناه هتلر بغزو بولندا الدولة الضعيفة، فسحقها تمامًا في أسبوعين مروعين، لم تر لهما مدن بولندا مثيلًا في الخراب والدمار والرعب، وكانت بولندا هي البداية التي انفرط بعدها عقد الدول الأوربية، فتوالى سقوطها الواحدة تلو الأخرى في قبضة الجيوش الألمانية، فبعد بولندا الدنمارك ثم النرويج وهولندا ولوكسمبرج وبلجيكا، وحينئذ دخلت بريطانيا وفرنسا الحرب، واشتعلت القارة الأوربية[٤].

لقد كان حجم العنف والدمار الذي خلفته الحرب كبيرًا، مما كان له أكبر الأثر

(١) تاريخ أوربا في العصر الحديث للمستشرق فيشر، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، ط(٩)، ١٩٩٣م، (ص١٠٥-١٠٨).

(٢) السابق (ص٦٦٤-٦٧١).

(٣) المشترك الإنساني (ص٦٣٢).

(٤) تاريخ أوربا في العصر الحديث (ص٦٦٤-٦٧١).

في إحداث الكراهية والشقاق في النفسية الأوربية، وكان من الممكن أن تخلف هذه الحروب مزيدًا من الكراهية والرغبة في الثأر لدى الشعوب الأوربية، بما يقود القارة الأوربية إلى الفناء المحقق، ولكنها- وهذا هو المعجز والمثير للإعجاب- فكرت في عكس هذا الاتجاه بالكلية، لقد فكرت أوربا في استثمار طاقاتها الصناعية الجبارة ومواردها البشرية الماهرة والمتميزة في الاتجاه الصحيح، اتجاه الوحدة والتكامل بعد عصور الفرقة والتنازع، اتجاه تحقيق الرفاهية والحياة الكريمة للجميع[1].

ولكن كيف استطاعت أوربا التغلب على جراح الماضي والخروج من البرك والمستنقعات المليئة بالدماء والأحقاد إلى آفاق المحبة والتعاون الرحبة والعيش المشترك؟

كيف استطاعت التغلب على مشكلة اختلاف العرق واللغة والدين؟ إذ يتحدث الأوربيون بالعديد من اللغات المختلفة، كمجموعة اللغات السلافية واللغات الأورالية واللغة الأرمينية، وكل مجموعة من هذه اللغات تتوزع في مناطق عديدة من القارة[2].

ولا تدين أوربا بدين واحد، بل تتنوع فيها الأديان، وتتنوع المذاهب داخل الدين الواحد، فهناك المسيحية الكاثوليكية التي تنتشر في العديد من الدول والمناطق، مثل البرتغال وإسبانيا وفرنسا وبلجيكا وجنوب ألمانيا وجنوب سويسرا وإيطاليا، وهناك المسيحية البروتستانتية التي تنتشر في بريطانيا والدنمارك وألمانيا وهولندا وسويسرا، وهناك الأورثوذكسية المسيحية في ألبانيا وأرمينيا وروسيا البيضاء والبوسنة والهرسك وبلغاريا ورومانيا، وذلك إضافة إلى الدين الإسلامي الذي يدين به نحو ٥٪ من سكان أوربا، واليهودية التي يتركز أتباعها في روسيا وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، والهندوسية في المملكة المتحدة

(١) المشترك الإنساني (ص٦٣٤).

(٢) الموقع الرئيسي للاتحاد الأوربي على الشبكة العالمية: http://europe.eu//index_en.htm.

وهولندا[1].

خرجت أوربا من الحرب العالمية الثانية في حالة ضعف شديد من الناحية الاقتصادية والعسكرية، كما أدركت أنها فقدت مكانتها كمركز للعالم، بعد تصاعد مكانة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وقد ساهمت هذه العوامل في شحذ همم عقلاء القارة الأوربية؛ للعمل الجاد في سبيل تحقيق حلم الوحدة الأوربية، وخاصة بعدما تيقن الجميع من عقم نتائج الاقتتال بين الدول الأوربية[2].

بدأت خطوات الوحدة الأوربية بالجانب الاقتصادي، فوُقِّعَت معاهدة إنشاء الجماعة الأوربية للفحم والصلب في باريس عام ١٩٥١م، ثم معاهدة إنشاء جماعة الدفاع الأوربي، ثم معاهدة روما في عام ١٩٥٧م، التي تقضي بإنشاء المجموعة الاقتصادية الأوربية، والمجموعة الأوربية للطاقة النووية، وتأسست أول وحدة جمركية أوروبية، عرفت باسم المؤسسة الاقتصادية الأوربية، وتعد هذه المعاهدة بمثابة التدشين الحقيقي للاتحاد الأوربي الذي نراه في أيامنا الحالية.

لقد بدأ الاهتمام بحقوق الإنسان في الغرب منذ القرن الثالث عشر الميلادي، حيث تبلورت فكرة التمتع بالحرية والمساواة والتمتع بالحقوق القانونية، التي تضمنتها مبادئ العهد الأعظم سنة ١٢١٥م، وتشريعات حماية الفرد من إجراءات التعذيب سنة ١٦٧٩م، وإعلانات الحقوق المعترف بها للجميع، قانونًا بدأ من الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية والثورة البلشفية والدساتير الحديثة، وبصفة خاصة يمكن القول: «إن العصر الذي شهد معركة انتصار العقل والعلم وشيوع الدعوة إلى حرية الفكر في كافة مظاهرها بما فيها الحرية الدينية، وشهد انتشار النظريات الداعية إلى المساواة في الحقوق وتبوء الفرد مركزًا مستقلًا في علاقته

(١) بين التاريخ والواقع لراغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للطباعة والنشر، القاهرة، ط(١)، ٢٠٠٨م، (ص١٦٥).

(٢) المشترك الإنساني (ص٦٣٥).

بالدولة، هذا العصر استدعى تحديدًا واضحًا لحقوق الفرد في مواجهة الدولة وحماية هذه الحقوق عن طريق التشريع والقانون في إعلانات الحقوق والدساتير»[1].

والشائع في الكتابات السياسية والقانونية والدراسات الاجتماعية أن عهد الإنسان بالوثائق والشرائع -التي بلورت حقوقه الإنسانية أو تحدثت عنها مُقَنِّنَةً لها ومُحَدِّدَةً لأبعادها- قد بدأ بفكر الثورة الفرنسية الكبرى، التي بدأت أحداثها عام ١٧٨٩م، فإبان هذه الثورة وضع أمانويل جوزيف سييس (١٧٤٨-١٨٣٦م) وثيقة حقوق الإنسان، تلك التي أقرتها الجمعية التأسيسية، وأصدرتها كإعلان تاريخي ووثيقة سياسية واجتماعية ثورية في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م، ولقد كان المصدران الأساسيان لفكر هذه الوثيقة نظرياتِ المفكر الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) وإعلانَ حقوق الاستقلال الأمريكي الصادر في ٤ يوليو سنة ١٧٧٦م، ذلك الذي كتبه توماس جيفرسون (١٧٤٣- ١٨٢٦م).

ولقد نصت الوثيقة الفرنسية على حقوق الإنسان الطبيعية، مثل حقه في الحرية والأمن، وعلى سيادة الشعب كمصدر للسلطات في المجتمع، وعلى المساواة بين جميع المواطنين أمام الشرائع والقوانين... إلخ، وقد فعلت هذه الوثيقة فعل السحر في الحركات الثورية والإصلاحية، سواء في أوربا أو خارجها منذ ذلك التاريخ، حتى جاء دور تدويلها، فدخلت مضامينها في ميثاق عصبة الأمم سنة ١٩٢٠م، ثم في ميثاق الأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م[2].

لقد جاءت هذه المواثيق بعد أن اكتوت أوربا بنيران الحروب الدينية والقومية والتوسعية، فذاقت مرارات الحرب وآثارها المدمرة، فعقدت صلح (وستفاليا)

(١) موسوعة حقوق الإنسان للمستشار الدكتور عبد الفتاح مراد، شركة البهاء للبرمجيات والكمبيوتر والنشر الإلكتروني، الإسكندرية، (ص٢١).

(٢) الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق لمحمد عمارة، دار الشروق-مصر، ط(٣)، ٢٠١٥م، (ص١٥-١٦).

عام ١٦٤٨م، الذي أرسى مبدأ الدول القومية في القارة الأوربية، ونص على اعتماد التفاوض والحوار في حل المشاكل والقضايا الناشبة بين الدول الأوربية، وحل الأزمات بالطرق السلمية، والحفاظ على سيادة الدولة القومية باعتبارها كيانًا مقدسًا لا يجوز المساس به[١].

واعتبرت أوربا من الأحداث الدامية التي مرت بها، فتوصلت إلى ضرورة أن تتعايش شعوبها سلميًّا، وأن تستبدل بالحرب السلام، وبالقهر العدل، وبالتمييز التكامل، وبالإقصاء الاعتراف بالآخر، وضمنت المفاهيم الجديدة في دساتيرها، وأصدرت مواثيق حقوق الإنسان التي توجت بالميثاق العالمي لحقوق الإنسان الذي تبنته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨.

الفرع الثاني: موقف الإسلام من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان

يمثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان -الذي صدر في ١٩٤٨م في كنف الأمم المتحدة- والعهدان الدوليان الخاصان بالحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والثقافية -اللذان صدرا في ١٩٦٦م - أساسَ الشرعية الدولية لحقوق الإنسان.

وإذا أضفنا إلى هذه الوثائق الدولية الثلاث جملة الاتفاقات والمعاهدات الخاصة بحقوق الإنسان أو بجوانب محددة من هذه الحقوق يكون لدينا النظام القانوني الدولي لحماية حقوق الإنسان[٢].

يتألف الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من ديباجة وثلاثين مادة، تحدد حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وتتناول هذه المواد الحقوق المدنية والسياسية (المواد٣-٢١) وأحكامًا ختامية عامة.

(١) المشترك الإنساني (ص٦٣٠).

(٢) حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب.. النظرية والتطبيق، للدكتور نبيل لوقا بباوي، القاهرة، ٢٠١٠م، (ص٣٠).

وتحتوي المادة الأولى من الإعلان على المبدأ الفلسفي الشامل لحقوق الإنسان والركيزة الأساسية لهذه الحقوق، وفيها: «يولد جميع الناس أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق، قد وهبوا العقل والوجدان، وعليهم أن يعاملوا بعضهم بروح الإخاء».

وتنص المادة الثانية على المبدأ الأساسي الذي يمنع منعًا باتًّا كل صور التمييز في التمتع بالحقوق الأساسية، حيث تنص على أن «هذه الحقوق للجميع بلا تمييز بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين، وتتمتع بها جميع البلدان والأقاليم، بغض النظر عن مركزها القانوني». وتنص المادة الثالثة على ثلاثة حقوق أساسية ومتكاملة، تنبع مباشرة من الإقرار بالحرية والمساواة، وهي الحق في الحياة، وفي الحرية، وفي أمان الفرد على شخصه. وتنص المواد (٤-٢١) من الإعلان على الحقوق المدنية والسياسية، فتُحَرِّمُ العبودية والرق وتجارة العبيد وممارسة التعذيب أو المعاملة غير الإنسانية والعقوبات القاسية والمحطة بالكرامة، وتقرر حق كل إنسان في الاعتراف القانوني به والحق في الحماية المتساوية له من جانب القانون.

وتؤكد المادة (٢٢) على المبدأ العام الحاكم للحقوق الاقتصادية والاجتماعية وكيفية الوفاء بهذه الحقوق.

وتنص المواد (٢٣-٢٧) على أن لكل إنسان الحق في العمل والراحة وأوقات الفراغ، وله الحق في مستوى معيشة يكفي لضمان الصحة والرفاهية، وله الحق في التعليم.

وتعتبر الموادُّ الختامية الركائزَ الأساسية للوفاء بالحقوق، ومن بينها تقرير حق كل شخص في نظام اجتماعي ودولي يطبق كافة الحقوق بكل أمانة، وأن الأصل في الحقوق هو الإباحة، وأن التقييد يجب أن يكون بواسطة قانون وعلى نحو حصري وضيق، ومن هذه القيود ألا تشكل ممارسة الحقوق من جانب أي شخص هدمًا لحقوق وحريات الآخرين، وهو ما يشكل مضمون فكرة النظام العام الواجب

الاحترام[1].

تلك هي الصورة المثلى لحقوق الإنسان، التي توصل إليها المجتمع الغربي، وضمَّنها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ديسمبر ١٩٤٨م.

وهي -رغم شمولها، وأنها أقصى ما وصل إليه الفكر الغربي- ليست الصورة المثلى؛ لأنها تفتقد المرجعية العليا التي ترتكز عليها الحقوق، بحيث تكون لها قداسة، تكسبها حصانة من الافتيات، وتغرس فيها قوة ذاتية للدفاع عن نفسها إذا حدث هذا الافتيات.

ولكن ما كان يمكن لإعلان حقوق الإنسان أن يصل إلى أكثر مما وصل إليه، وما كان يمكن له أن يغير طبيعته ومصادره والآليات التي يعتمد عليها، فهذا أمر لا يمكن أن يقدمه إلا الدين وحده، وعلى وجه التحديد الإسلام[2].

ذلك أن للإسلام منهجه الخاص في تحديد وتقرير حقوق الإنسان وإيجاد المرجعية العليا لها والقوة الذاتية التي تمكن هذه الحقوق من الدفاع عن نفسها ضد كل صور الافتيات[3].

إن حقوق الإنسان في الإسلام لم تقرر نتيجة لما خلفته مآسي الصراع، ولا كانت استجابة لضغوط الواقع، وإنما جاءت منحة من الخالق ﷻ كما تبين في مبحث سابق، بل إن الحقوق في الإسلام ترتقي إلى سلم الضرورات التي هي من مقاصد الإسلام التي يحافظ عليها التشريع وتصونها أحكام الإسلام.

وموقف الإسلام من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومن كل ما يصدر من

(١) حقوق الوثائق العالمية والإقليمية لمحمود شريف بسيوني وسعيد الدقاق وعبد العظيم وزير، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م، (ص١٢٢وما بعدها).

(٢) منهج الإسلام في تقرير حقوق الإنسان، مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي، الكوثر/ دار الفكر الإسلامي، القاهرة، (ص٤).

(٣) السابق (ص٤-٥).

الآخر ليس موقف القبول المطلق ولا موقف الرفض المطلق، وإنما موقف الإسلام يقوم على منهج تلخصه المبادئ الآتية:

أولًا: مبدأ الموضوعية: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ثانيًا: مبدأ الإنصاف: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

ثالثًا: مبدأ التعاون على البر: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[3].

وبناءً على هذا المنهج فإن جوهر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يقره الإسلام، مع ملاحظة الاختلاف بين الإسلام والغرب في المرجعية والباعث والغاية.

الفرع الثالث: التطبيقات العملية لمواثيق حقوق الإنسان

لقد وضع الغرب آليات تضمن التطبيق الواقعي لمواثيق حقوق الإنسان، تمثلها الدساتير والنظم الديمقراطية التي تحكم التداول السلمي للسلطة، والبرلمان الذي يراقب أداء السلطة التنفيذية، والقضاء المستقل الذي يتيح للمظلوم حقَّ أن يرفع دعوى تطالب بإنصافه من أي جهة انتهكت حقوقه، سواء كان فردًا أو مؤسسة حكومية أو غير ذلك، فضلًا عن منظمات الأمم المتحدة العاملة في هذا المجال، إضافة لمحكمة العدل الدولية، التي تحاكم المتهمين بارتكاب الجرائم ضد الإنسانية.

إن أدوات وآليات المجتمع الدولي الغربي لحماية حقوق الإنسان تمثلت في العهود والمواثيق والأجهزة.

---

(١) سورة سبأ، الآية (٢٤).

(٢) سورة المائدة، الآية (٨).

(٣) سورة المائدة، الآية (٢).

أما المواثيق فأهمها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية -الذي تم التصديق عليه في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦م، وبدأ تنفيذه في ٢٣ مارس ١٩٧٦م- والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الصادر أيضًا في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦م، وهي تمثل الشرعة الدولية لحقوق الإنسان[١].

وأما الأجهزة الحارسة والوكالات المتخصصة في حقوق الإنسان فهي:

١- **مجلس الأمن**: وهو -بحكم الميثاق- الجهاز الذي يتحمل المسئولية الأساسية في صيانة السلام والأمن الدوليين واتخاذ الإجراءات المناسبة لهذا الغرض.

٢- **مجلس الوصاية**: وقد أنشئ لمساعدة الجمعية العامة في تنفيذ مهامها المتعلقة بنظام الوصاية الدولية المنصوص عليها في الفصل الثاني عشر من ميثاق الأمم المتحدة.

٣- **محكمة العدل الدولية**: فبموجب المادة ٩٣ يعتبر جميع أعضاء الأمم المتحدة أطرافًا في النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية[٢].

وأما الوكالات المتخصصة فهي أربع وكالات، يضمها نظام المنظمات في الأمم المتحدة، وهي خاصة بحماية حقوق الإنسان، وهي: **منظمة العمل الدولية، ومنظمة الأمم المتحدة التعليمية والعلمية والثقافية (اليونسيف)، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (الفاو)**[٣].

وبالرغم من التنظير الجيد لحقوق الإنسان في الغرب، وإنشاء آليات ومؤسسات لحماية هذه الحقوق، نجد في الواقع انتهاكات كبيرة لهذه الحقوق،

(١) حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب (ص٣٢-٣٣).
(٢)حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب (ص٢٦-٢٧).
(٣) السابق (ص٢٧).

تذكرنا بالمفاهيم الغربية لرؤية الآخر، حيث نجد في الفلسفات الأوربية -بدءًا من فلسفة أثينا حتى فلاسفة العصر الحديث- قصر حقوق الإنسان على الإنسان الأبيض وحده، أما الإنسان الأسود -في أدغال أفريقيا- أو المهجن -في أحراش البرازيل- أو الأصفر -في الهند والصين- أو الهنود الحمر -الأصحاب الأصليون للأرض الأمريكية- هؤلاء لا نجد اعترافًا بحقوقهم لدى أرسطو وفلاسفة أثينا وفلاسفة روما حتى مشارف العصر الحديث[1].

وثمة فقرة في كتاب مونتسيكو (روح القوانين)، تمثل الفكرة الأوربية نحو الإنسان الأسود، يقول فيها: «إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدًا، فإني أقول: إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بدًّا من أن تستعبد شعوب أفريقيا؛ لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة، والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، وأنفها أفطس فطسًا شنيعًا، بحيث يكاد يكون من المستحيل أن نرثي لها، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله -وهو ذو الحكمة السامية- قد وضع روحًا طيبة في جسمٍ حالك السواد»[2].

وبالرغم من أن العصر الحديث شهد وعيًا عالميًّا اخترق الأسوار الأوربية التقليدية، بحيث وُجِدت جموع تتعاطف مع الإنسان حيثما كان -في آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية- إلا أنه في مقابل هذا، فإن الرأسمالية لم تتوحش وتتوغل كما يحدث الآن، ووصل تركيز الثروات في أيدي عدد قليل من المؤسسات متعددة الجنسيات وعابرة القارات، دمر سيادة الحكومات على مرافقها وثرواتها، وأوجد عهدًا من العربدة الدولية، تتزعمه أمريكا يشبه عربدة روما في العهد القديم، وتهدف سياسة العولمة إلى جعل العالم كله سوقًا للمنتجات الأوربية الأمريكية، وتنحط بشعوبه إلى مرتبة تشبه مرتبة القن القديم في القرون الوسطى، وتهدم

(١) منهج الإسلام في تقرير حقوق الإنسان (ص٨٦).

(٢) منهج الإسلام في تقرير حقوق الإنسان (ص٨٦).

مقومات الشعوب وخصائص الحضارات؛ لكي تذوب الشعوب وتتكيف مع ما يراد لها من وضعية، يمكن فيها أن تتعامل مع حضارة السوق، ولكن تعامل الخدم للأسياد[1].

يتضح مما سبق أن التنظير الأوربي والنظم الأوربية -سواء كانت سياسية أم اقتصادية من أقدم العهود ولا تزال حتى الآن- تنظيم عنصري ونظم عنصرية، يضاد ما يذهب إليه إعلان حقوق الإنسان من مساواة وكفالة للحقوق الاقتصادية والسياسية.. الخ.

في مقابل ذلك نجد أن الفلسفة الإسلامية التي يعرضها القرآن وأقوال الرسول ﷺ وخطب الخلفاء الراشدين تقوم على المساواة بين البشر، وإنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ونجد النص على كل الحريات التي أوردها إعلان حقوق الإنسان بالتفصيل[2].

فالغرب وضع نصوصًا جيدة لحقوق الإنسان، وابتدع آليات لحماية هذه الحقوق، وكفلت هذه الحقوق في المجتمع الغربي، واستفاد منها حتى الذين هاجروا لهذه المجتمعات من الشعوب الأخرى، ولكنه في مقابل ذلك مارس نقيض ما ينادي به في تعامله مع الشعوب الأخرى، حيث قام بالاحتلال واستنزاف موارد الشعوب ودعم النظم المستبدة ما دامت تحافظ على مصالحه، كما أنه احتكر حق النقض في مجلس الأمن واستخدمه لحماية إسرائيل، التي قامت بأسوأ احتلال ضد الشعب الفلسطيني بدعم وتشجيع وحماية من الدول الغربية، وليس آخرها اعتراف إدارة ترامب بالقدس عاصمة أبدية لإسرائيل، والاعتراف بالسيادة الإسرائيلية على الأراضي السورية المحتلة في الجولان.

(١) السابق (ص٨٧-٨٨).

(٢)منهج الإسلام في تقرير حقوق الإنسان (ص٨٩).

المبحث الثاني

إدارة التنوع في واقع المسلمين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: العوامل التاريخية المؤثرة في العلاقة مع الآخر.

المطلب الثاني: العوامل الثقافية الرافضة للتعامل مع الآخر.

المطلب الثالث: عوامل تعميق الخلاف في مجتمعات المسلمين.

المطلب الأول

العوامل التاريخية المؤثرة في العلاقة مع الآخر

تمهيد

اتضح في الفصول السابقة أن الإسلام كفل كرامة الإنسان، وأقر حقوقه -بغض النظر عن عقيدته-، وأن هذه الحقوق طُبِّقت في أرض الواقع في عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة، غير أنه طرأت على مجتمعات المسلمين عدة عوامل أثرت على علاقة المسلم بالآخر، وعلى علاقات المسلمين فيما بينهم، تلك العوامل سيتناولها هذا المبحث.

الفرع الأول: الظلم الذي مارسه الآخر ضد المسلمين

منذ أن أعلن الرسول ﷺ دعوة التوحيد تصدى له المشركون من أهل مكة، وواجهوا دعوته بأساليبَ، اتسمت بالعنف اللفظي والبدني، وتجردت من الرحمة والإنسانية، وتمثلت تلك الأساليب في الآتي:

أولًا: إثارة الشبهات حول الدعوة الجديدة؛ لإبعاد الناس عنها، وقد وصفوا نبي الهدى بالسحر والجنون، فدافع عنه ربه قائلًا: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾[1].

ثانيًا: طلب إبعاد الأرقاء والفقراء: وأن يخصص يومًا لأشراف مكة، لا يحضره هؤلاء، فأنزل الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

(١) سورة القلم، الآيات (١-٦).

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1].

ثالثًا: المساومة: حين قالوا له : «تعبد معنا آلهتنا عامًا، ونعبد معك عامًا»، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[2].

رابعًا: التهديد: حين جاءوا عمه أبا طالب، فقالوا له: «إن ابن أخيك هذا سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا وسب آلهتنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن نقاطعك وإياه»، فتكلم أبو طالب مع رسول الله ﷺ، فظن رسول الله أن عمه أراد أن يسلمه إلى الكفار، فقال: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[3].

خامسًا: الإغراء:، فقد جاءه الوليد بن عتبة، فقال له: «يا ابن أخي، قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرضْ عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها»، فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع»، قال: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا؛ سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا؛ ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا؛ حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه»، فلما انتهى من كلامه قال له رسول الله: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ » قال: «نعم»، قال: «فاسمع مني» قال: «أفعل»، فتلا عليه هذه الآيات من سورة فصلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ

(١) سورة الكهف، الآية (٢٨).

(٢) سورة الكافرون،الآيات (١-٦).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٦).

﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾[1]، وظل يتلو إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[2]...»[3].

سادسًا: التعجيز:، لما ضاقوا ذرعًا بصبره ونجاح دعوته سألوه أسئلة تعجيزية، قالوا له: «قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا ولا أقل ماءً ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب[4]؛ فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولًا».

فقال لهم: «ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»[5].

كل هذه الأسئلة وغيرها ذكرها القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

(١) سورة فصلت، الآيات (١-٥).

(٢) سورة فصلت، الآية (١٣).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير، دار الريان للتراث، القاهرة، ط(١)، ١٩٨٨م، (٢/ ٦٠) وما بعدها.

(٤) قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ: سيد قريش في عصره، ورئيسهم. قيل: أول من كان له ملك من بني كنانة. وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي. مات أبوه وهو طفل فتزوجت أمه برجل من بني عذرة فانتقل بها إلى أطراف الشام، فشب في حجره، وسمي «قصيا» لبعده عن دار قومه. وأكثر المؤرخين على أن اسمه «زيد» أو «يزيد» ولما كبر عاد إلى الحجاز. وكان موصوفا بالدهاء. وكانت قريش تتيمن برأيه، فلا تبرم أمرا إلا في داره. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٥/ ١٩٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٣٢٨).

تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[1].

سابعًا: لم تنفع كل تلك الأساليب في إثناء الرسول عن دعوته، فبعد أن اضطهدوا المستضعفين من أصحابه وعذّبوهم، ومات بعضهم تحت التعذيب، وكانت أول من استشهدت تحت التعذيب سمية والدة عمار بن ياسر، وبعدها أبوه، ولم ينج عمار إلا بعد أن أكرهوه لينال من رسول الله ﷺ، فلما فشلت أساليبهم في إيقاف الدعوة قرّر أهل مكة -كما هو شأن الظالمين دائمًا أن يقتلوا رسول الله ﷺ غدرًا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[2].

هذا فيما يتعلق بالمشركين، أما اليهود فقد وقَّع رسول الله ﷺ معهم وثيقة المدينة، التي ضمنت لهم حقوقهم الدينية والمدنية والسياسية، ولكنهم نقضوا العهد، وغدروا بالمسلمين.

والغرب تحت راية المسيحية شن حروبًا استئصالية ضد المسلمين، بلغت قمتها في الحروب الصليبية، وحروب اجتثاث المسلمين من الأندلس، ثم جددها في الاستشراق وعدوانه الفكري، الذي مهد الطريق للاحتلال الأوربي للبلدان الإسلامية.

وما زال الغرب يمارس ظلمه ضد المسلمين بمداخل متعددة، فمجلس الأمن يحتكر فيه الخمسة الكبار المقاعد الدائمة وحق النقض، وليس من بينهم دولة مسلمة واحدة، وقرارات مجلس الأمن تطبق بانتقاء؛ فإسرائيل تسدر في غيها ولا تحاسب، بينما الدول الإسلامية تعاقب بلا تردد إذا خالفت.

(١) سورة الإسراء، الآيات (٩٠-٩٣).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٣٠).

والحضارة الغربية لا تعترف للحضارة الإسلامية بأي دور، بل تتعمد تشويهها، وتبرز أنشطة الحركات المتطرفة باعتبارها تمثل الإسلام، وتتجاهل الخطاب الإسلامي الوسطي المعتدل الذي عليه غالبية المسلمين، وتصنف حركات المقاومة التي تدافع عن بلدانها المحتلة بأنها إرهابية.. الخ.

هذه المظالم وغيرها بلورت مفهومًا عامًّا، مفاده أن الآخر بكل مسمياته معادٍ للإسلام والمسلمين، وتحولت هذه المواقف إلى ثقافة مجتمعية رافضة للآخر، فأصبح فقه الصراع حاكمًا لمعاملة الآخر بسبب تلك المظالم التي وقعت على المسلمين، دون تمييز بين المعاملة في السلم والمعاملة في الحرب، وهذا يتنافى مع ما جاء به الإسلام من دعوةٍ إلى السلم وحسن المعاملة إلا مع مَنْ ظَلَمَ.

الفرع الثاني: الصراع الداخلي بين المسلمين

بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى واجهت المسلمين عدة قضايا، أهمها قضية الخلافة وقضية المرتدين وقضية التعامل مع المستجدات.

أما الخلافة فلم يرد في القرآن الكريم نص يحدد للمسلمين كيفية اختيار الحاكم، وكذلك السنة التشريعية لم تحدد شكل الحكم ولا كيفية اختيار الخليفة، بل تُرِكَ الأمر للمسلمين يحددون ذلك وفق المبادئ العامة ومقاصد الحكم في الإسلام، ولذلك اختلف المسلمون حول الخلافة عقب وفاة رسول الله ﷺ وقبل أن يدفن جثمانه الشريف.

فالرسول ﷺ لم يرد عنه نص صريح في رواية موثوق بها أنه أوصى بهذا الأمر لأحد من أصحابه، لا لعلي -كما تزعم الشيعة-، ولا لأبي بكر -كما يدعي بعض أهل السنة-، وإنما يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ أومأ إلى هذا الأمر إيماءً بتقديم أبي بكر ليؤم المسلمين في الصلاة حينما اشتد مرضه، فكأنه ﷺ يقول لهم: «أرشح لكم أبا بكر للخلافة بعدي، فإن رأيتموه أهلًا لها وجديرًا بها وصالحًا

لتحقيق مصلحتكم في دينكم ودنياكم فأنتم وذاك، وإلا فلتروا لأنفسكم»[1].

يقول ابن كثير: «ومن تأمل ما ذكرناه ظهر له أن رسول الله ﷺ لم ينص على الخلافة عينًا لأحد من الناس، لا لأبي بكر -كما زعمه طائفة من أهل السنة-، ولا لعلي -كما يقول طائفة من الرافضة-، ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق»[2].

وروي عن الصديق نفسه أنه قال: ولقد سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: «يا أبا بكر، هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه، وهو لمن يتضاءل عنه لا لمن يشمخ إليه، وهو لمن يقال له (هو لك) لا لمن يقول (هو لي)»[3].

وهذا الحديث فيه دلالة قاطعة على أنه لا وصية من الرسول بهذا الأمر، لا لأبي بكر ولا لغيره؛ إذ لو كان هناك وصية لما كان هناك سؤال من أبي بكر، ولكانت إجابة الرسول صريحة في ذلك[4].

ومعظم الباحثين على هذا الرأي، يقول ابن خلدون: «والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي ﷺ، وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي، وهو أمر لم يصح، ولا نقله أئمة النقل، والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية... دليل واضح على أنه لم يقع، وكذا قول عمر ﷺ حين طعن وسئل في العهد، فقال: «إن أعهد فقد عهد من هو خير مني -يعني أبا بكر- وإن أترك فقد ترك من هو خير مني -يعني رسول الله ﷺ-» وكذلك قول علي للعباس حين دعاه للدخول إلى النبي ﷺ يسألانه عن شأنهما في العهد، فأبى علي من ذلك، وقال: «إنه إن منعنا منها فلا نطمع فيها آخر

(١) مؤتمر السقيفة وبيعة أبي بكر ﷺ دراسة نقدية للأستاذ الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة -مصر، ط(١) ٢٠٠٨م، (ص٥٤).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٥/ ٢٥٠).

(٣) صبح الأعشى لأبي العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤م، (٥/ ٢٤٠) ولم أجده في شيء من الروايات المسندة، ليعرف هل يصح أم لا؟

(٤) مؤتمر السقيفة وبيعة أبي بكر (ص٥٥).

الدهر»، وهذا دليل على أن عليًّا علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد... »[1].

ويقول أحمد أمين: «توفي رسول الله ﷺ، ولم يعين من يخلفه، ولم يبين كيف يكون اختياره»[2] ولم يرد عن رسول الله ﷺ بيان نظام خاص يتبعه المسلمون في انتخاب من يلي أمورهم[3]، ولم يوص النبي بزعامة المسلمين لأحد من أصحابه، بل ترك مسألة الخلافة شورى بينهم[4].

ويقول الدكتور إبراهيم شعوط والدكتور زيادة: «انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى دون أن يترك للمسلمين من بعده نصًّا صريحًا على نظام يلتزمونه في ولاية الأمر بعد وفاته، فليس في القرآن ما يشير إلى شيء من ذلك تفصيلًا أو إجمالًا، بالرغم من أهمية هذا الأمر وخطورته عند المسلمين»[5].

يتضح مما سبق أن الرسول ﷺ لم يرد عنه نص يبين كيفية الخلافة، ولذلك اختلف الصحابة في هذا الموضوع، وحسموه -عن طريق الشورى يوم السقيفة- ببيعة أبي بكر الصديق، وخلَّف أبو بكر عمر، وترك الخليفة عمر الأمر شورى بين الستة المبشرين بالجنة، وبعد مقتل عثمان بايع أهل المدينة عليًا ﷺ، ونازعه عليه معاوية ﷺ[6]، ثم تحولت الخلافة إلى ملك عضوض بعد مقتل علي ﷺ.

(١) المقدمة لابن خلدون (٢/ ٥٥٥).

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (ص١٥).

(٣) الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار، دار الكتاب العربي، (ص١٥).

(٤) تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم، مطبعة حجازي، (١/ ٢٤٨).

(٥) الحقيقة المثالية في الإسلام للدكتور إبراهيم شعوط والدكتور زيادة، مكتبة الجامعة الأزهرية، (ص٢١٤).

(٦) معاوية، هو معاوية بن ابى سفيان بن صقر بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموي مؤسس الدولة الاموية في الشام وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار كان فصيحا حليما وقورا، سلمه الحسن بن على الخلافة سنة ٤١ هجرية مات في دمشق سنة ٦٠ هجرية. أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، ٥/ ٢٤٩٦.

وقد اختلفت مواقف المسلمين حول الخلافة: بين قائل بالنص، وقائل بحصرها في قريش، وقائل بالشورى بين عامة المسلمين، ومن يجيزها بالتغلب، ومن أدرجها في باب العقائد.

وتطور الخلاف حولها، فأدى إلى صراع بين المسلمين، فتفرقوا طوائف، يكفر بعضها بعضًا، ويفسق بعضها بعضًا، ويرمي بعضها بعضًا بالابتداع والزندقة، وبهذا صار موضوع الخلافة عاملًا من عوامل رفض الآخر، فنشبت حروب حولها لم يشهد المسلمون لها مثيلًا ، ولخصها الشهرستاني بقوله: «ما سل سيف في الإسلام مثل ما سل في الإمامة العظمى»[(١)].

وأما الردة، فقد واجه المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ قضية خروج عدد من المسلمين من الإسلام، فمنهم من ترك الإسلام جملة وتفصيلًا ، ومنهم من ادعى النبوة، ومنهم من دعا إلى ترك الصلاة، ومنهم من امتنع عن أداء الزكاة، ومنهم من تحير وتردد.

وأسباب هذه الردة متعددة، منها: الصدمة بموت النبي ﷺ، ورِقَّة الدين، والسقم في فهم نصوصه، والحنين إلى الجاهلية ومقارفة موبقاتها، والتفلت من النظام والخروج على السلطة الشرعية، والعصبية القبلية، والطمع في الملك[(٢)].

فاستشار الخليفة أبو بكر الصديق الصحابة ﷺ كيف يتعامل مع المرتدين؟ فأشار عليه بعضهم أن يتركهم ويتألفهم؛ حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، فامتنع الصديق ﷺ عن ذلك وأباه[(٣)].

وكان من أهل الشورى عمرُ ﷺ، فقال: «يا خليفة رسول الله ﷺ، تألف الناس

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٢).

(٢) حركة الردة لعلي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط(٢)، ١٩٨٧م، (ص١١٠-١٣٧).

(٣) الجوانب السياسية في خطب الخلفاء الراشدين لمحمود عبد الهادي دسوقي علي، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر – القاهرة، ط(١) ٢٠١٣م، (ص٩٧).

وارفق بهم»، فقال الصديق: «أَجَبَّارٌ في الجاهلية خَوَّارٌ في الإسلام؟! قد انقطع الوحي وتم الدين، أينقص الدين وأنا حي؟! »[1].

فتصدى الخليفة أبو بكر لكل هؤلاء المرتدين بحزم، وأعلن عليهم الحرب؛ حتى يثوبوا إلى رشدهم، وسميت تلك الحروب حروب الردة، ومع تعمق الخلافات بين المسلمين توسع مفهوم الردة، فصار يطلق دون ضوابط على المخالفين في الرأي، فتوسع مفهوم الردة من التحول العقدي من الإسلام إلى سواه من الأديان أو إلى غير دين إلى ما يمكن تسميته بالردة الضمنية، وهى التي يعبر عنها البعض بأنها إنكار معلوم من الدين بالضرورة، فهذه العبارة أكثر سعة مما يجب؛ لأن البعض قد يرى أمرًا من الأمور معلومًا من الدين بالضرورة في حين لا يراه غيره كذلك، فهذا اجتهاد قد لا يلقى إجماعًا.

ولا ينبغي الحكم على إنسان لم تتجه إرادته إلى الانسلاخ عن الإسلام بأنه مرتد عنه لمجرد اختلافه مع غيره من المجتهدين أو لاتباعه رأيًا لأحد المجتهدين.

وقد اختلف المسلمون بعد وفاة النبي في كثير من أمور الدين، فاختلفوا في التحكيم بين على ومعاوية ، وكفر الخوارج عليًّا ومعاوية ومن انضم إليهما ممن قبلوا التحكيم.

واختلف المسلمون حول كبار الصحابة، فالشيعة يجرحون أبا بكر وعمر وعثمان ، ويتهمونهم بأنهم اغتصبوا الخلافة من على ، وكان أحق بها وأهلها، ويقدحون كذلك في تصرف السيدة عائشة؛ لأنها وقفت مع من نازعوا عليًّا في الخلافة، وانضمت إليهم في بعض معاركهم ضده، بل لقد اتهمها البعض في حياة الرسول إفكًا بما برأها الله منه، وقيل: إن الرسول أوقع عليهم حد القذف»، لكن المؤكد أنه لم يوقع عليهم حد الردة.

(١) مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، كتاب المناقب، باب مناقب قريش، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي-بيروت، ط(٣)، ١٤٠٥هـ، (٣/ ٣١٣)، رقم (٦٠٢٥).

ومن الفقهاء من يرى أن تقييم تصرفات كبار الصحابة ونقدها يدخل ضمن إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

واختلف المسلمون بعد ذلك في معنى الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة وخلق القرآن وفى رؤية الله يوم القيامة وفى عذاب القبر والشفاعة، وفى غير ذلك من الأمور، واتهم البعض مخالفيهم بإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة[1].

وهكذا توسع مفهوم الردة ليطلق على المخالفين في الرأي، مما أدى إلى تعميق الخلاف بين المسلمين.

وأما التعامل مع المستجدات؛ فمعلوم أن النصوص الدالة على الأحكام الشرعية متناهية، وأن القضايا التي تحتاج إلى أحكام شرعية غير متناهية، وقد اختلفت مناهج الفقهاء في استنباط الأحكام التي تتطلب اجتهادًا من الفقيه؛ بسبب تفاوت القدرات وتعدد زوايا النظر بين فقيه وآخر.

ومن الطبيعي أن يُؤثِّر تفاوت المستوى العلمي واختلاف البيئات الثقافية والاجتماعية وتنوع زوايا النظر ومنطلقات البحث، بل وحتى التكوين الذهني والنفسي لكل باحث، كل ذلك يؤثر في فهم المسائل وتحديد المواقف[2].

لكن دافع التنافس على الكسب الاجتماعي قد يحول الاختلاف في بعض المسائل الدينية إلى معركة صراع ونزاع، وهذا هو الداء الأخطر، حيث تحتدم المعارك المذهبية، وتشتد الصراعات بين المدارس والتيارات الفكرية وبين أتباع المرجعيات الدينية، وتستعمل فيها أسلحة فتاكة، مثل فتاوى التكفير والردة والتبديع والتفسيق والتضليل والزندقة، وكلها عند البحث العميق لا تعدو أن

(١) إشكالات الردة للدكتور عوض محمد عوض، ورقة مقدمة للندوة الرابعة عشرة المنعقدة في مسقط – سلطنة عمان في الفترة من ٥-٨ أبريل ٢٠١٥م تحت عنوان فقه العصر: مناهج التجديد الديني والفقهي.

(٢) الآحادية الفكرية في الساحة الدينية لحسن موسى الصفار، الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت، ط(١) ١٤٢٩هـ، (ص٨).

تكون اختلافات اجتهادية، يؤجر صاحبها إن أصاب أو أخطأ.

الفرع الثالث: تحول نظام الحكم من الخلافة الراشدة إلى الملك

أكبر علة أصابت الأمة هي تحول نظام الحكم من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض، فالخلافة الراشدة قامت على الشورى ورأي الجماعة، فبسطت العدل، وصانت الكرامة الإنسانية، وشجعت المجتمع على ممارسة حقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان المجتمع كله يمارس وظيفة الحسبة، يراقب تصرفات الحكام ومن بيدهم سلطة جباية المال وتوزيعه.

لقد كانت الخلافة الراشدة عاصمة من تمزق المجتمع، فالحكم تأسس على الرضا، والشورى ممارسة، وحرية الاجتهاد مكفولة، وولي الأمر يحسم النزاع دون تحيز، فالدولة حارسة للدين وحافظة لمصالح العباد الدنيوية.

وعندما تحولت الخلافة للملك صار الحكم يقوم على الوراثة والتغلب، فغُيِّبَت الشورى، وحل الاستبداد محلها، وفُتِح الباب لكثير من الموبقات أن تتسرب لمجتمعات المسلمين، كالغلو والتطرف والتكفير والتبديع والتفسيق والزندقة واحتكار معرفة الحق.

فبعد أن آلت الخلافة لمعاوية في عام الجماعة -بتنازل الحسن بن علي؛ مصداقًا لنبوءة جده رسول الله ﷺ- تحولت الخلافة إلى ملك يتوارثه بنو أمية من آل معاوية بن أبي سفيان ، ثم انتقلت إلى مروان بن الحكم، الذي عهد بها إلى ابنه عبد الملك، فوقف في المدينة المنورة قائلا: «أما بعد، فإني لست بالخليفة المستضعف -يعني عثمان- ولا بالخليفة المداهن -يعني معاوية- ولا بالخليفة المأفون -يعني يزيد-، ألا وإني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف؛ حتى تستقيم لي قناتكم، وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله، وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى

الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»، ثم نزل[1].

ومعنى ذلك الإعلان أن دولته لا مكان لتقوى الله فيها، وإلا ما كان ليأنف أن يؤمر بالتقوى، أين هذا الاستكبار والعلو من تواضع الفاروق ﷺ في قبوله لكلمة الحق؟ حيث قال: «لا خير فيكم إن لم تقولوا لنا، ولا خير فينا إذا لم نسمع منكم، رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه»[2].

وهي سيرة جميع الخلفاء الراشدين، الذين كانوا أطوع للحق وأشوق إلى أن يؤمروا به ويوجهوا إليه، وإنما هذه نعرة لا يقرها الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[3].

على أنه لم يقتصر على إبائه قبول الأمر بالتقوى، وإنما كان جزاء قائلها قتله؛ ليلجم الأفواه عن قولة الحق. وكان عبد الملك أول من قطع ألسنة الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4].

واستمر نهج الاستبداد، فغلب على تاريخ المسلمين، ووُجِدَ من الفقهاء من يسوغه، ويلتمس سندًا لمشروعيته، وقد تغلغل ذلك في حياة هذه الأمة الفكرية برسوخ الظلم في نظمها السياسية، ووجد المستبدون من يزين لهم الفساد ويسوغ لهم الظلم.

ولما توفي عمر بن عبد العزيز، وولي يزيد بن عبد الملك، قال: «سيروا بسيرة

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية –بيروت، ط(٢) ١٤١٥هـ، (٤/ ١٥٠).

(٢) أصول السرخسي لمحمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، دار المعرفة، بيروت، (١/ ٣٠٧)، وكشف الأسرار لعلاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤١٨هـ، (٣/ ٣٤٦).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٠٦).

(٤) أحكام القرآن، لأبي بكر الجصاص، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، (١/ ٨٧-٨٨).

عمر»، فأتي بأربعين شيخًا فشهدوا له: ما على الخلفاء حساب ولا عذاب[1].

وقد أشيعت هذه العقيدة الباطلة في عهد بني أمية في أوساط الناس، فكان عليها السواد الأعظم منهم، وقد نص على ذلك ابن تيمية -مع تأييده لبني أمية ودفاعه عنهم- فقال: «فكثير من أتباع بني أمية -أو أكثرهم- كانوا يعتقدون أن الإمام لا حساب عليه ولا عذاب، وأن الله لا يؤاخذهم على ما يطيعون فيه الإمام، بل تجب عليهم طاعة الإمام في كل شيء، والله أمرهم بذلك، وكلامهم في ذلك معروف كثير، وقد أراد يزيد بن عبد الملك أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز، فجاء إليه جماعة من شيوخهم، فحلفوا له بالله الذي لا إله إلا هو أنه إذا ولى الله على الناس إمامًا تقبل الله منه الحسنات وتجاوز عنه السيئات»[2].

ولعَمْر الحق، إن هذا الفكر هو أعظم خطرٍ رُزِئ به الإسلام، فقد كان أَعْمَل المعاول في دَكٍّ صرحه، وأَحَدّ الحراب في قطع أوصاله وتمزيق أديمه، وما أشبهه بما ذكره الله تعالى عن بني إسرائيل في قوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[3]! وما أبعده من فكر عن عقيدة الإيمان التي جاء بها القرآن وأكدها نبي الرحمة! فالله ﷻ يخاطب نبيه أنه إن خالف سيعاقب، فيقول: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[4].

فإذا كان النبي ﷺ -مع عِظَم قدره وقربه من الله- يخشى من المعصية وما أُعِدَّ لها من عذاب عظيم، فكيف بالظلمة المجرمين، الذين يعيثون في الأرض فسادًا

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: محب الدين العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، (٦٥/ ٣٠٤).

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط(١)، ١٤٠٦هـ، (٦/ ٤٣٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٦٩).

(٤) سورة الأنعام، الآية (١٥).

ويعبثون بحقوق الأمة، وينهبون خيراتها؟ بأي حجة وأي برهان يقال بأنهم في مأمن من الحساب والعقاب[1].

هذا النوع من الاستبداد أدى إلى الانحراف عن منهج الإسلام في إدارة التنوع وقبول الآخر.

(١) الاستبداد مظاهره ومواجهته، لأحمد بن حمد الخليلي، شركة فؤاد البعيو، بيروت، ط(١)، ١٤٣٤هـ، (ص٧٥-٧٨).

المطلب الثاني

العوامل الثقافية الرافضة للتعامل مع الآخر

الفرع الأول: عدم التمييز بين رفض العقائد الباطلة والتعامل مع أصحابها

من يدرس الإسلام بعمق يدرك أن موقفه من العقائد الباطلة والأفكار المنحرفة واضح، فهو يبين انحرافها وبطلانها ورفضه لها؛ لضلالها وخروجها عن الصراط المستقيم، ولكنه في نفس الوقت لا يحرم معتنقيها وأصحابها من حقوقهم الإنسانية.

لكن بسبب الصراع بين المسلمين والآخرين، وبسبب العدوان الذي واجه الإسلام من أعدائه، وبسبب الخلافات داخل الإسلام وظهور الفرق والعقائد انتشرت ثقافة عامة في أوساط المسلمين لا تميز بين الموقف من العقائد الباطلة والأفكار المنحرفة وبين معاملة أصحابها.

لقد كتب فقه العلاقة مع الآخر في أجواء الحروب، فقد اعتدى المشركون على المسلمين منذ بداية الدعوة، وغدر اليهود بالمسلمين في المدينة، بالرغم من توقيعهم على صحيفة المدينة التي حفظت لهم حقوقهم، والمنافقون أعلنوا إسلامهم، ولكنهم -في الواقع- كادوا للمسلمين، وكشفوا ظهرهم، وحرضوا عليهم أعداءهم، وجاءت الحروب الصليبية بنية الاستئصال، وكانت حروب التتار والمغول حروب إبادة، هذه الأجواء خيمت على الفقهاء، فجاءت اجتهاداتهم -في الغالب- تمثل فقه الحرب.

لخص هذا الفقه ابن القيم في كتابه (أحكام أهل الذمة)، حيث تحدث عن أحكامهم في الدنيا ومصيرهم في الآخرة، ومن الأحكام التي تناولها: حكم بناء الكنائس وإعادة تجديدها، وحكم أبنية أهل الذمة ودورهم، وأحكام ضرب

النواقيس وإظهار الصلبان، وأحكام ملابسهم وضيافتهم، ويكاد يغطي كل أنواع المعاملات.

ومن الأحكام التي ذكرها قوله: « كتب عمر بن عبد العزيز أن ينهوا النصارى أن يفرقوا رؤوسهم، وتجز نواصيهم، وأن تشد مناطقهم، ولا يركبوا على سرج، ولا يلبسوا عصبًا ولا خزًّا، وأن تمنع نساؤهم أن يركبن الرحائل، فإن قدر على أحد منهم فعل ذلك بعد التقدم إليه فإن سكنه لمن وجده»[1].

ومن الأحكام الذي ذكرها حكم علو بنيان أهل الذمة في السكن، فقال: «وثالثها: لو ملكوا دارًا عالية من مسلم، وأقررناهم على ملكها، فانهدمت، لم يكن لهم إعادتها كما كانت، هذا هو الصواب»[2].

وهكذا نجد الأحكام الواردة في أهل الذمة تغلب عليها صفة غلبة المسلمين، وقد صالحوا أهل الذمة وفرضوا عليهم شروطًا، وهي أحكام فرضتها ظروف تلك المرحلة، ولكنها رسخت ثقافة عامة في معاملة الآخر، وصنعت حواجز نفسية بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الملل الأخرى، وأثرت على التعايش السلمي.

وهذا يتناقض مع ما سبق بيانه من حسن المعاملة التي قررها الإسلام للمخالفين له وبأدلة واضحة من الكتاب والسنة ومعاملة الخلافة الراشدة.

الفرع الثاني: التعصب المذهبي

المذاهب الفقهية نشأت نتيجة لاجتهادات فقهية، قام بها أئمة الفقهاء، متأثرين بالبيئة التي عاشوا فيها، فجاءت اجتهاداتهم مختلفة في كثير من المسائل الفرعية، وتكونت من هذا الاختلاف مدارس فقهية، فكان بالعراق مدرسة فقهية لها منهاجها، وبالحجاز ثم بالشام، ثم صار بعد ذلك في كل مدرسة رجل بارز يلتف حوله تلاميذ، يمدهم بالرواية والدراية الفقهية، ويخرج المرويات ويبني عليها،

(١) أحكام أهل الذمة لابن القيم (٢/ ١٧٠).

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم (٢/ ١٧٠).

ويدرس الواقعات ويعطيها أحكامها.

فكان بالكوفة شيخ القياس والاستحسان أبو حنيفة، وكان بالمدينة مالك، وكان بالشام شيخه الأوزاعي، وكان بمصر الليث بن سعد، ثم جاءت الطبقة الثانية، فكان الشافعي وأحمد وداود، وتتابع من بعدهم الاجتهاد ثم الانحياز المذهبي، فأصبح المجتهد لا يجتهد اجتهادًا مطلقًا، بل يجتهد في دائرة مذهبه، ثم انتقل الاجتهاد في دائرة أصول المذهب إلى التقيد بآراء الإمام، مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نصَّ في المذاهب، ثم صار بعد ذلك إلى التقيد بآراء المجتهدين في المذاهب والتخريج عليها، ثم إلى الجمود والوقوف عند ما انتهى إليه السابقون، إذ وقفوا عندها لا يعدونها، وقد بدأ هذا التقليد من القرن الرابع الهجري، وكان تقليدًا كليًّا في آخر العصور، وقد صاحب هذا التقليد تعصب كل إنسان لآراء المذهب الذي ينتمي إليه وبغض ومحاربة المذاهب الأخرى، فاحتدمت المجادلات بين المذاهب الفقهية، وصرنا نعاني من فقهاء بغير فقه، حيث يتراشق المتعصبون بالنبال والسلاح من أجل وضع اليدين على الصدر وكيفية وضعهما.

وفي الوقت نفسه يرسم كل فريق في خياله صورة لجهنم وهي تحرق الفريق الآخر؛ لأنه خالف رأيه، ونسي الجميع قول الإمام سفيان الثوري: «إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشدد فيحسنه كل الناس»[1].

ومن ناحية أخرى فإن تفرق المسلمين إلى جماعات ومذاهب تحول إلى تعصب، مع مرور الزمن والابتعاد عن هدي الرسالة الخاتمة، فبعد أن كانت الفرقُ ناتجةً عن تأويلات للنصوص التي تحتمل التأويل، والمذاهبُ اجتهاداتٍ شرعية لأصحاب المذاهب حسب المنهج الذي قرره المجتهد، تحول أتباع الفرق والمذاهب إلى جماعات متعصبة تفرض رؤيتها على الآخرين.

إن التعصب لمذهب إمام والدفاع عنه -ولو كان مخالفًا للدليل- تعصب

(١) الفقه الإسلامي والتعصب المذهبي، لمحمد إبراهيم الحفناوي، دار الفاروق- مصر، ط(١) ١٤٣٨هـ، (ص٩١-٩٢).

مذموم، وهو قرين الجمود ورديفه؛ وذلك لأن العصمة عن الخطأ في الاجتهاد ليست مضمونة لأحد سوى رسول الله ﷺ أو مجموع الأمة؛ حيث إنها لا تجتمع على ضلالة، وعادة ما يصاحب التعصب حجْرٌ على العقول والأفكار، فتجمد وتأسن كما يأسن الماء الراكد[1].

يقول ابن تيمية: « لا يجوز لأحد أن يرجح قولًا على قول بغير دليل، ولا يتعصب لقول على قول ولا لقائل على قائل بغير حجة»[2].

والمتعصبون للمذاهب أبوا أن يكون الخلاف رحمة، وتشدد كل منهم في تحتيم تقليد مذهبه، وحرم على المنتمين إليه أن يقلدوا غيره، ولو لحاجة فيها مصلحتهم، وكان مِنْ طعن بعضهم في بعض ما هو معروف في كتب التاريخ وغيرها، حتى صار بعض المسلمين إذا وُجِد في بلد يتعصب أهله لمذهب غير مذهبه ينظرون إليه نظرتهم إلى البعير الأجرب[3].

وهذا التعصب سببه ما يقع من المقلدين للمذاهب الإسلامية، بحيث يحملهم ذلك على الاعتقاد بأن قول متبوعهم هو الحق، وأن ما يخالفه باطل قطعًا، ثم يرتبون على ذلك نتائج خطيرة مفرقة للكلمة ومشتتة للشمل، مثل عدم الصلاة خلف من يخالفهم في المذهب، وربما تجاوز الأمر إلى الخصومات والمشاجرات كما حدث في الماضي[4].

وقد يدفع التعصب بالمقلد إلى ترك ما جاءت به السنة؛ لأن مذهبه لم يقل به، فينكر عليه متبع السنة، فيشتد الخصام بينهما.

(١) السابق (ص٦٤-٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٥/ ٢٣٣).

(٣) الفقه الإسلامي والتعصب المذهبي (ص٦٥-٦٦).

(٤) الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان (ص٣٩٦).

وأسباب التعصب المذهبي كثيرة، منها:

١- التنازع في مسائل الفروع الفقهية التي بين المذاهب، كوضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة، وقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الأولى، وقراءة المأموم الفاتحة في الصلاة السرية والجهرية، فمثل هذه المسائل اختلف الفقهاء حولها، ولكل أدلته.

٢- استغلال بعض الوعاظ المتعصبين وظائفهم لنشر التعصب المذهبي والتشجيع على الفتن وزرع الأحقاد.

٣- اتباع الهوى والإعجاب بالرأي.

٤- التقليد.

٥- تنزيل الإمام المتبوع في أتباعه منزلة النبي ﷺ في أمته في وجوب اتباعه في كل ما يقول.

٦- أسلوب تعليم العوام، فالمعلم يقول للناس في ثقة: «هذا حكم الله في هذه القضية»، أو «هذا رأي الدين في هذه المسألة»، فيظن المستمع أن ما سمع هو حكم الله ورسوله[1].

ومن مظاهر التعصب المذهبي أن المتعصب لمذهب لا يعجبه علماء المذاهب الأخرى، حتى ولو نطقوا بالحق، وفي الوقت نفسه إذا تبين له خطأ علماء مذهبه التمس لهم العذر، وهوَّن من ضلالهم في القول والفتوى، فعلماؤه مبرؤون حتى لو ضلوا وأضلوا، وعلماء غيره مدانون حتى لو كان لهم الفضل في رفع كلمة الإسلام، وقد ترتب على التعصب المذهبي الآثار الآتية:

١- التفرق في الدين والخصومة والبغضاء.

٢- إظهار الإسلام بصورة منفرة.

(١) الفقه الإسلامي والتعصب المذهبي (ص١٠٧-١٢٦).

٣- الاهتمام بمسائل فرعية وإهمال القضايا الكلية الكبرى التي تتعلق بواقع الأمة ومستقبلها.

٤- طمع الأمم غير المسلمة في أمة الإسلام.

٥- كسب السيئات التي يجنيها المتعصب.

٦- الاستخفاف بمكانة العلماء ودورهم في المجتمع.

٧- قتل روح الإبداع والبحث العلمي في الأمة[١].

إن التعصب للمذاهب أثر على ثقافة المسلمين؛ حيث شَكَّلَ عقلية تحصر الحق في المذهب الذي يتبعه المتعصب، مما أسهم في ترسيخ ثقافة رفض الاجتهاد المخالف، فاعتبر الاختلاف الاجتهادي اختلاف تصادم وليس اختلاف تنوع.

الفرع الثالث: الفهم الخاطئ للجهاد

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وله أسباب وشروط ومقاصد، بَيَّنَهَا فقه الجهاد، غير أن هنالك ثقافة سادت في المجتمع وظفت مصطلح الجهاد في غير ما شرع من أجله، فالجماعات التي طغا على فكرها الغلو استندت إلى مفاهيم وآراء تجعل علة الجهاد الكفر وليس العدوان.

ويعتمد هذا الرأي مفهوم أن الأصل في العلاقات الخارجية للأمة الإسلامية هو الحرب وليس السلم، مع اختلاف في نسبة هذا الرأي، فمن الكتاب من نسبه لجمهور الفقهاء، ومنهم من نسبه إلى القلة من الفقهاء، وبعد الرجوع إلى المراجع المعتمدة تبين أنه رأي جمهور العلماء المجتهدين وفيهم أئمة المذاهب الأربعة وابن حزم الظاهري[٢].

(١) الفقه الإسلامي والتعصب المذهبي (ص١٣٠ -١٣٦)

(٢) التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم داخل دولة واحدة لسو رحمن هدايات (ص٨٢).

وترتب على هذا الرأي أن السلم لا يحدث إلا بسبب طارئ، ولا يلبث أن تعود العلاقة بمجرد انتهاء السبب إلى العداء والحرب، والسبب الطارئ على هذا الأصل هو الإيمان والأمان، أي دخول الكافر في الإسلام أو حصوله على أمان سواء أكان مؤقتًا أم مؤبدًا[1].

واستدل هذا الرأي بأدلة من القرآن والسنة والعقل:

أولًا: القرآن:

١- مجموعة من الآيات التي تفيد الأمر بقتال الكفار والمشركين مطلقًا، سواء قام الاعتداء من قِبَلِهم أم لا. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

وجه الدلالة أن هذه الآيات لم تذكر سببًا مقيدًا لوجوب قتال المشركين والكفار مطلقًا، وهذا يدل على استمرار هذا الوجوب ما دام القوم مشركين وكافرين، ولا يوقف من استمراره إلا الضرورة واعتبار مصلحة المسلمين.

٢- مجموعة الآيات التي تفيد النهي عن موالاة الكفار وإلقاء المودة إليهم، كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ

(١) السابق (ص٨٣).
(٢) سورة التوبة، الآية (٥).
(٣) سورة التوبة، الآية (٢٩).
(٤) سورة التوبة، الآية (٣٦).

﴿ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ (٢)، وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٣).

وجه الدلالة أن الآيات المذكورة نهت نهيًا صريحًا عن اتخاذ الكفار أولياء وإلقاء المودة إليهم؛ لكفرهم برسالة محمد ﷺ ولكون بعضهم أولياء بعض، فكان ينبغي اتخاذ موقف العداوة والحرب منهم (٤).

ثانيًا: السنة:

١- قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» (٥).

وجه الدلالة أن الحديث نص على أن غاية القتال دخول الناس في الإسلام؛ لأن (حتى) تفيد الغاية، فقبل أن يتم ذلك فالقتال ماض ومستمر.

٢- قوله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف

(١) سورة آل عمران، الآية (٢٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (٥١).

(٣) سورة الممتحنة، الآية (١).

(٤) التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم (ص٨٣-٨٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٥)، كتاب الإيمان، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة، (١/ ١٤)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٢)، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، (١/ ٥٣).

أمري»[1].

وجه الدلالة أن الحديث بين أن السيف وسيلة من وسائل الدعوة، ولا تنتهي مهمته حتى يعبد الله وحده لا شريك له[2].

ثالثًا: العقل:

إن الله قد بين الإسلام للكافرين بيانًا شافيًا في كتابه، وعن طريق توضيحات رسوله ﷺ وبعده عن طريق الدعاة وعلماء الإسلام، فلم يبق لهم عذر في البقاء على الكفر، اللهم إلا لعنادهم، وإذا لم تجد دعوتهم إلى الدين الإسلامي الذي يصلحهم باللسان فلا ضير في دعوتهم إلى ما يسعدهم بالسنان، كحق الطبيب في إرغام المريض على تناول الدواء إذا رفض تناوله طواعية[3].

إن هذا الرأي استند عليه الغلاة، الذين مارسوا العدوان على الأبرياء والآمنين من المدنيين، بحجة الجهاد في سبيل الله، ومن ناحية أخرى سادت في مجتمعات المسلمين ثقافة تُحَرِّم التعامل مع المخالف في العقيدة دون تمييز، وهي ثقافة تغذيها مفاهيم الولاء والبراء وعدم موالاة الكفار، وهي مفاهيم وضعت في غير سياقها، ودعمت بنصوص تخص نوعًا معينًا من الكفار، وليس عامة المخالفين في العقيدة، كما سيتضح في مبحث لاحق.

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (٥١١٤)، مسند المكثرين، مسند عبد الله بن عمر، (٩/ ١٢٣)، وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف، على نكارة في بعض ألفاظه».

(٢) التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم (ص٨٤).

(٣) السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧م، (ص٦٧).

المطلب الثالث

عوامل تعميق الخلاف في مجتمعات المسلمين

الفرع الأول: انتشار ظاهرة الغلو والتطرف

المسلم مطالَب بالاعتدال في مواقفه والوسطية في أفكاره؛ لينجو من انحراف العقيدة وضلال الفكر وتعصب الموقف، وليكون قادرًا على التعاطي مع الآخر بموضوعية، غير أن الغلو في الدين والتشدد في المواقف والتطرف في السلوك عوامل شوهت صورة الإسلام، وأسهمت في نشر ثقافة عدم قبول الآخر.

إن ظاهرة الغلو والتشدد والتطرف وراءها عدة أسباب، أهمها الآتي:

١- **الفهم الخاطئ للدين**: فالإسلام دين الرحمة والسماحة والاعتدال، غير أن هنالك بعض الناس -لعوامل نفسية ولفهم خاطئ للدين- يغلبون العذاب على الرحمة، والعقوبة على العفو، والمظهر على الجوهر، ومنهم من لا ينظر إلا إلى الجانب العقابي في الإسلام، ويغض الطرف عن المغفرة، مع أن الله ﷻ يقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [(١)]، وبعض الناس يتشددون في النوافل، حتى وإن أدى ذلك لضياع الواجبات، وما ذلك إلا لفهمهم المنحرف للدين ولقلة فقههم، فالفهم الصحيح للدين الإسلامي من مصادره الصحيحة هو العاصم من هذا الانحراف.

٢- **النزعة التسلطية**: من عوامل التشدد ادعاء معرفة الحق المطلق وحصره في الذات، وهو نهج فرعوني، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا

(١) سورة النساء، الآية (١٤٧).

سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [1]، فبعض الناس غير مستعدين لقبول الرأي الآخر، بل يعتبرون كل من خالفهم عدوًّا، ومرجع ذلك نزعة نفسية تسلطية تتحكم عليهم، ولإعطاء شرعية لمواقفهم يبحثون عن تسويغ، فيلجئون إلى الدين، لا لمعرفة الحق فيتبعوه، وإنما تصيدًا للآيات والأحاديث التي توافق هواهم، وهؤلاء ضلوا وأضلوا، فلو أراد الله لأحد من البشر أن يتسلط لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ غير أن الله ﷻ قال له: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [2]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [3]، وقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [4]، فهذه النصوص تؤكد حرية الإنسان، وتنفي أية وصاية عليه، وتبين أن العقيدة لا تكون بالإكراه، وإنما بالاقتناع، فاختيار الإنسان الحر هو ما تقتضيه عدالة المحاسبة.

٣- **عبء أثقال الماضي**: بعض الناس يطاردهم الماضي الذي ارتكبوا فيه الموبقات التي تسبب لهم عُقَدًا نفسية، تلاحقهم من وقت لآخر، فعندما يذكرون ماضيهم يشعرون بالصَّغار، ولكي يصرفوا الناس عن ماضيهم يتشددون في مواقفهم، ويغالون في عبادتهم، ويتطرفون في أفكارهم، ودافِعُهم في كل ذلك أن يُنسوا الناس ماضيهم المنحرف، وهؤلاء سيظل ماضيهم يطاردهم، ويكونون أسرى للهواجس، ولو فهم هؤلاء الإسلام فهمًا صحيحًا لأدركوا أن التوبة تجُب ما قبلها.

قال النبي ﷺ: «إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[5]، وربما يكون

(١) سورة غافر، الآية (٢٩).

(٢) سورة الغاشية، الآية (٢٢).

(٣) سورة الكهف، الآية (٢٩).

(٤) سورة يونس، الآية (٩٩).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، برقم (٢٧٥٩)، (٤/ ٢١١٣).

التائبون توبة نصوحًا أفضل -عند الله- من الذين لم يقعوا في المعصية؛ لأن هؤلاء عرضة للإعجاب المُبْطِر، وهو محبط للعمل، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وأولئك أقرب إلى الانكسار والتفانى واتهام النفس بالتقصير في جنب الله، فيجتهدون لإرضاء خالقهم، ويتواضعون أمام خلقه.

٤- **العيش في ظل الاستبداد السياسي**: فمناخ الكبت والقهر والخوف والإرهاب، من شأنه أن يولد الإحباط والتطرف والهروب من الواقع والخوف من المجهول، والضغط النفسي الناشئ عن تلك الأسباب يمكن أن ينفجر في شكل ممارسات عنيفة موجهة ضد الأبرياء والضعفاء، كما هو مشاهد.

قال عبد الرحمن الكواكبي: «ومن غريب الأحوال أن الأسرى المقهورين يبغضون المستبد، ولا يقوون على استعمالهم معه البأس الطبيعي الموجود في الإنسان إذا غضب، فيصرفون بأسهم في وجهة أخرى ظلمًا، فيعادون من بينهم فئة مستضعفة أو الغرباء، أو يظلمون نساءهم، ونحو ذلك، ومثلهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية، إذا أريد منها الحراسة والشراسة ربطها أصحابها نهارًا، وأطلقوها ليلًا ، فتصير شرسة عقورة، وبهذا التعليل تعلل جسارة الأسرى أحيانًا في محارباتهم، لا أنها جسارة عن شجاعة، وأحيانًا تكون جسارة الأسرى عن التناهي في الجبانة أمام المستبد الذي يسوقهم إلى الموت، فيطيعونه خوفًا، كما تطيع الغنمة الذئب، فتهرول بين يديه إلى حيث يأكلها»[1].

لقد شخص هذ العالم الحالة أبلغ تشخيص، وهو ما يفسر قسوة المتطرفين تجاه مخالفيهم، فنراهم يبتسمون وهم ينظرون إلى ضحاياهم الذين يتأوهون من الألم، بل ربما يتناولون طعامهم وهم يجلسون على جثث ضحاياهم.

لذلك حرص الإسلام على توفير مناخ الحرية والأمان والتفاؤل؛ لأن المناخ السليم في ظله يولد الإبداع والتفاؤل والاعتدال في المواقف والوسطية في الأفكار،

(١) الأعمال الكاملة للكواكبي، سلسلة التراث القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، (ص٥٠٣).

فمناخ الاستبداد والخوف أسوأ عدو للإنسان؛ لأنه يفسد الأمزجة ويشوه الطباع ويشوش التفكير، يقول الكواكبي: «وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل، بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت، كما يتألم الأجهر من النور، وإذا ألزمت بالحرية تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها، وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق[1] يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها»[2].

فكأنه يقرأ حال أمتنا في عصرها الحاضر، لقد قتل الاستبداد فيها روح الإبداع والمقاومة، وأفسد مزاجها، وانفرط عقدها، وهزمت في كل المعارك التي خاضتها مع عدو احتل ثالث مقدساتها.

إنه الهوان الذي تنبأ به رسول الله ﷺ حين قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: «ومن قلّة نحن يومئذ؟ » قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السّيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: «يا رسول الله، وما الوهن؟» قال: «حبّ الدنيا وكراهية الموت»[3].

فالاستبداد -مع قتله لروح المقاومة- يغرس عوامل الخوف والإحباط في نفوس المقهورين، وإذا فقد الإنسان الأمل أصبح عرضة للتطرف وأقرب للعنف.

إن التطرف والغلو والتشدد ظواهر غير طبيعية لا يمكن أن تكون دينًا يتعبد به

(١) دود أسود يمتص الدم، يكون في الماء الآسن إذا شربته الدابة علق بحلقها.
ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق رمزي منير، دار العلم للملايين، بيروت، ط(١) ١٩٨٧م، (٢/ ٩٤٠).

(٢) الأعمال الكاملة للكواكبى (ص٥٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٢٩٧)، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، (٤/ ١١١)، وأحمد في المسند برقم (٢٢٣٩٧)، تتمة مسند الأنصار، من حديث ثوبان، (٣٧/ ٨٢)، وقال محققو المسند: «إسناده حسن».

الناس ولا تصلح مناهج لرسالة هي خاتمة الرسالات جاءت لكل العالمين.

الفرع الثاني: عدم التمييز بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد

لقد هيمنت على أمتنا مفاهيم تضخم الخلافات داخل الأمة الإسلامية، وتُخرجها من مجال الاجتهاد المأجور صاحبه في الحالتين -إن أخطأ وإن أصاب- إلى مجال الخلاف بين حق وباطل وبين هدى وضلال، وأُوِّلت نصوص كثيرة تأويلًا يعمق الخلاف بين الأمة ويغير طبيعته.

أولًا: أنواع الاختلاف.

الخلاف والاختلاف معناهما واحد، هو المغايرة وترادفاتها، وهنالك نوعان من الاختلاف: اختلاف التنوع واختلاف التصادم.

فاختلاف التنوع محمود؛ لأنه يقوم على التخصص والتكامل، منطلقًا من مرجعية واحدة، هادفًا لتحقيق غاية واحدة، وأقرب مثال لاختلاف التنوع نجده في اختلاف وظائف الأعضاء في الجسد الواحد، فالعينان للنظر والأذنان للسمع والأنف للشم واللسان للتذوق واليدان للبطش والرجلان للسعي، وكلها تعمل في تكامل لخدمة صاحبها وتحقيق مصلحته، فإذا تعطلت وظيفة أي عضو اختل البناء الإنساني.

ومن أمثلة اختلاف التنوع في الإسلام اختلاف أبي بكر وعمر في التعامل مع أسرى بدر، فأبو بكر دعا للعفو، وعمر دعا لقتلهم.

أما اختلاف التصادم فهو مذموم؛ لأنه يتحول إلى نزعة اقصائية متعصبة وحاقدة، لا يرى صاحبها الحقَّ إلا ما وافق هواه، ويحصل النزاع والشقاق، مما يؤدى إلى إضعاف الأمة وذهاب ريحها، كما أوضح القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [1].

(١) سورة الأنفال، الآية (٤٦).

ثانيًا: العوامل الموضوعية للاختلاف.

خُلِق الإنسان حرًّا ذا إرادة، وهذه الحرية تعطيه القدرة على الاختيار بين البدائل، فالقرآن يشير إلى أن الاختلاف بين الناس وراءه حكمة إلهية؛ لأن الله ﷻ منزه عن العبث في أفعاله، قال -تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

والاختلاف الذي حدث -ويحدث- داخل ملة الإسلام له أسباب واقعية تجعله سائغًا، بل وضروريًا في بعض الأحيان؛ لأن الشعوب التي يخاطبها دين الإسلام شعوبٌ مختلفة العادات والطباع والأعراف والتقاليد، وعالمية الإسلام تعني مخاطبته لكل العالمين، وهم يعيشون في بيئات مختلفة وأحوال مختلفة وأزمان متعاقبة، فلا بد للدين الخاتم أن يستجيب لهذا الاختلاف وهذا التنوع، فهذه الاستجابة من شروط عالمية الدين وخلوده.

والعوامل التي تجعل الاختلاف الاجتهادي في داخل الملة واقعًا حتميًّا ومشروعًا كثيرة، أذكر منها الآتي:

١ - اللغة:

مصدر التشريع الأول في الإسلام هو القرآن الكريم، وقد نزل باللغة العربية، والعربية حُبلَى بالمعاني، فقد تحمل الكلمة الواحدة أكثر من معنى، وتعددُ المعاني يؤدى لاختلاف الأحكام.

وردت في القرآن الكريم عدة المطلقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ

(١) سورة هود، الآيات (١١٨-١٢٣).

﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [1]، والقروء جمع قَرْء -بالفتح-، كفلوس جمع فَلْس، وأما القُـرء -بالضم- فجمعه أقراء، كقفل وأقفال، ويطلق -سواء أكان بالفتح أم بالضم- على الطهر وعلى الحيض، لا خلاف في ذلك بين أئمة اللغة والفقهاء، فهو لفـظ مشـترك بينهما، وقد استعمل في كل منهما على الحقيقة.

وقد اختلف الفقهاء في بيان المراد بـالقَرء في الآيـة؛ فـذهب مالـك والشـافعي وأحمد في رواية إلى أنه الطهر، وهو قول عائشة وفقهاء المدينة السبعة.

وذهب أبو حنيفة إلى أنه الحيض، وهو رواية عن أحمد وقول الخلفاء الراشدين وعبد الله بن عمر وعبد الله بـن مسـعود وكثيـر مـن الصـحابة والتـابعين ومـذهب العترة[2]، فهنا نجد أن اختلاف الحكم راجع إلى تعدد المعنى في اللغة.

٢- اختلاف القراءات:

القرآن نزل على سبعة أحرف، أي أن صيغ المفردات اللغوية واللهجات داخل اللغة العربية التي نزل بها القرآن سبع، وعلى هذا الأساس جاء اختلاف القراءات.

فمثلًا جاء في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [3]، قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص (وأرجلَكم) بفتح اللام عطفًا على الأيـدي، فالأيدي تغسل والأرجل تغسل على هذه القـراءة، وقرأ أبو عمـرو وحمـزة وشـعبة (وأرجلِكم) بجر اللام عطفًا على الرؤوس، فالرأس يمسح والأرجـل تمسـح عـلى هذه القراءة، وقال الجمهـور: «إن جر (أرجلكم) جاء على الجوار والإتباع».

وحمـزة والكسـائي في قولـه تعـالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (لَـمَسْتُمُ)، فـالحكم يختلف من اللمس إلى الملامسة.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٢٨).

(٢) أسباب اختلاف الفقهاء، لعلي الخفيف (ص١٠٧-١٠٨).

(٣) سورة المائدة، الآية (٦).

كذلك قرأ حمزة والكسائي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [1] (فتثبتوا)، وهنالك فرق في الحكم بين التثبت والتبين؛ فاللفظة الأولى تطلب الانتظار حتى تتضح الحقيقة، والثانية توجب البحث لمعرفة الحقيقة.

٣- التعامل مع السنة النبوية:

السنة من حيث طرق وصولها إلينا -من حيث روايتها، وهو ما يعبر عنه بسند السنة- تنقسم إلى ثلاثة أقسام: سنة متواترة، وسنة مشهورة، وسنة آحاد، وهذا التقسيم عند الحنفية.

أما عند الجمهور، فالسنة قسمان: سنة متواترة، وسنة آحاد، أما السنة المشهورة فهي عندهم قسم من أقسام سنة الآحاد، ولا يجعلونها قسمًا قائمًا بنفسه، كما يفعل الحنفية[٢].

والسنة مصدر تستنبط منه الأحكام التشريعية، وهي من حيث ورودها قد تكون قطعية -كما في السنة المتواترة- وقد تكون ظنية -كما في سنة الآحاد والسنة المشهورة-، ومن جهة دلالتها على الأحكام فقد تكون ظنية أو قطعية، فهي كالقرآن من هذه الجهة، وتكون الدلالة ظنية إذا كان اللفظ يحتمل أكثر من معنى، أي يحتمل التأويل.

فمن القطعية قوله ﷺ: «في خمس من الإبل شاة»[٣]، فلفظ (خمس) يدل دلالة قطعية على معناه، ولا يحتمل غيره، فيثبت الحكم لمدلول هذا اللفظ، وهو وجوب إخراج شاة زكاة عن هذا المال، ومن الظنية قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة

(١) سورة الحجرات، الآية (٦).

(٢) الوجيز في أصول الفقه (ص١٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه برقم (١٥٦٨)، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، (٢/ ٩٨)، والترمذي في سننه برقم (٦٢١)، أبواب الزكاة، باب ما جاء في زكاة الإبل والبقر، (٣/ ٨)، وقال: «حديث ابن عمر حديث حسن، وقد رواه غير واحد، ولم يرفعوه».

الكتاب»[1]، فهذا الحديث يحتمل التأويل، فيجوز أن يحمل على أن الصلاة لا تكون صحيحة مجزئة إلا بفاتحة الكتاب، ويحتمل أن يكون المراد أن الصلاة الكاملة لا تكون إلا بفاتحة الكتاب، وبالتأويل الأول أخذ الجمهور، وبالتأويل التاني أخذ الحنفية[2].

وهكذا وقع الاختلاف حول السنة الظنية؛ لأسباب ترجع بعضها إلى الرواية، من حيث الجرح والتعديل، فقد يكون الراوي ثقة عند بعض علماء الحديث، ويجرحه عالم آخر لعلة ظهرت له، وقد يصح السند عند بعضهم فيُقبل، ولا يصح عند آخرين فيُرَدّ، ومن حيث الدِّراية قد يُقبل الحديث من حيث الرواية ويرد دراية؛ لأنه يناقض أصلًا أقوى منه.

وهكذا توجد أسباب كثيرة في هذا المجال، تعرض لها الأصوليون في مظانها، كما أن السنة لم تُدَوَّنْ بصفة رسمية إلا في القرن الثاني الهجري، في عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز.

والأحاديث جاء تصنيفها من حيث الصحة والحسن والضعف والدرجة وفقًا لمناهج علماء الحديث، وهي مناهج من اجتهاد المجتهدين، والأحاديث جاءت متفرقة حسب الحوادث على مدى ثلاثة وعشرين عامًا ولم ترتب ترتيبًا زمنيًّا، بل حسب موضوعاتها، وبعض الناس سمعوا حديثًا في زمن ما، وتفرقوا في الأمصار، وربما أتى حديث لاحق ناسخ للسابق ولم يسمعوا به.

والسنة أنواع: سنة تشريعية، وأخرى تصنف ضمن العادات البشرية، وأخرى تعد من الخصوصيات النبوية.

وهي تنقسم إلى أربعة أقسام: وحي، وفتيا، وقضاء، وسياسة شرعية؛ فالوحي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٥٦)، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، (١/ ١٥١)، ومسلم في صحيحه برقم (٣٩٤)، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، (١/ ٢٩٥).

(٢) الوجيز في أصول الفقه (ص١٦٦).

والفتيا ملزمان للأمة؛ لأنهما دين، والقضاء أصدره الرسول بحسب حيثيات القضية والبينات التي ظهرت له، ولذلك قال ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[(١)]، والسياسة الشرعية تتغير بتغير الأحوال والبلدان والبيئات.

وقد لخص هذا الأمر الإمام المهدي بقوله: «لكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال»[(٢)].

ورسول الله ﷺ هو الامام الأعظم والقاضى الأحكم والمفتى الأعلم، فما من منصب دينى إلا وهو متصف به في أعلى رتبة، غير أن غالب تصرفه ﷺ بالتبليغ؛ لأن وصف الرسالة غالب عليه، ثم تقع تصرفاته ﷺ، منها ما يكون بالتبليغ والفتوى إجماعًا، ومنها ما يُجمِع الناس على أنه بالقضاء، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالإمامة، ومنها ما يختلف العلماء فيه؛ لتردده بين رتبتين فصاعدًا، فمنهم من يغلب عليه رتبة، ومنهم من يغلب عليه أخرى، ثم تصرفاته ﷺ بهذه الأوصاف تختلف آثارها في الشريعة، فكل ما قاله ﷺ أو فعله على سبيل التبليغ كان ذلك حكمًا عامًّا على الثقلين إلى يوم القيامة، فإن كان مأمورًا به أقدم عليه كل أحد بنفسه، وكذلك المباح، وإن كان منهيًّا عنه اجتنبه كل أحد بنفسه، وكل ما تصرف فيه ﷺ بوصف الإمامة لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الإمام؛ اقتداء به ﷺ، ولأن سبب تصرفه فيه بوصف الإمامة دون التبليغ يقتضى ذلك، وما تصرف فيه ﷺ بوصف القضاء لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم حاكم؛ اقتداء به ﷺ، ولأن السبب الذى لأجله تصرف فيه ﷺ بوصف القضاء يقتضى ذلك»[(٣)].

(١) أخرجه البخارى في صحيحه برقم (٧١٦٨)، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، (٩/ ٦٩).

(٢) أبو سليم : الآثار الكاملة للإمام المهدي : الجزء الأول دار النشر جامعة الخرطوم.

(٣) الفروق للقرافى، المكتبة العصرية للطباعة والنشر-بيروت، ط(١)، ٢٠٠٢م، (١/ ٢٢١).

هذا التمييز له أهمية كبيرة؛ لأنه يوضح الفرق بين السنة التشريعية وغيرها، وعدم التمييز هو أحد أسباب الأخطاء التى وقع فيها كثير من الناس، حيث ينزلون الحكم في غير موضعه، فتكون النتيجة سلبية، وبعضهم يُقدم على فعل الشيء مستندًا على السنة، مع أن الفعل قد يكون خاصًّا بالقضاء أو بالإمامة، ولا يجوز تنفيذه بواسطة الأفراد.

٤- مصادر التشريع:

أجمع المسلمون على أن الكتاب وسنة النبي ﷺ هما المصدران الأساسيان للتشريع في الإسلام، واستنبطوا منهما المصادر الأخرى كالإجماع والقياس، وهذه المصادر تعتبر مصادر أصلية عند أهل السنة، وهنالك مصادر فرعية كالاستحسان والمصالح المرسلة وعمل أهل المدينة والاستصحاب وشرع من قبلنا وغيرها من المصادر الفرعية المعروفة.

هذه المصادر الفرعية اختلف الفقهاء حولها بين مضيق وموسع ومقدم ومؤخر، وهنالك أصول منسوبة لأئمة الفقه هي في الواقع مخرجة على أقوالهم تخريجًا قام به المتأخرون، وهذا الاختلاف حول مصادر التشريع أدى إلى الاختلاف في الفتاوى والأفكار.

٥- مشروعية الاجتهاد:

لقد أقر الإسلام الاجتهاد، وحث عليه، وورد في الفصل السابق أن رسول الله ﷺ أقر اجتهاد صحابته في حياته في مواضع شتى، وقد طبق المسلمون الاجتهاد في مراحل متعددة من تاريخهم، ذكر الشعبي عن شريح أنه قال: قال لي عمر: «اقض بما استبان لك من كتاب الله، فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ﷺ فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك

واستشر أهل العلم والصلاح»[1].

ففي كلام عمر مرونة شديدة، حيث طلب من شريح أن يقضي بما استبان له، ومعلوم أن الاستبانة نسبية؛ فقد يستبين الأمر للإنسان في وقت ولا يستبين له في وقت آخر، وأوضح نص على مشروعية الاجتهاد قوله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[2].

كذلك يُفهم معنى الاجتهاد من قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[3]، فمن الطبيعي أن تختلف اجتهادات الفقهاء وفقًا لظروف كل فقيه وقدرته على الاستنباط والبيئة التي عاش فيها، خاصة وأن الإسلام أعطى المجتهد أجرين إن أصاب، وأجرًا واحدًا إن أخطأ ما دام ملتزمًا بشروط الاجتهاد.

٦- إقرار الرسول للاختلاف النوعي والمحافظة عليه في إطاره:

فقد كان كثير من الصحابة فقهاء مجتهدين، واختلفوا حتى في حياته ﷺ في مواقف كثيرة، أقرهم عليها، وأشهر تلك المواقف اختلاف أبي بكر وعمر حول التعامل مع أسرى بدر، واختلافهم في صلح الحديبية، واختلافهم في الخروج من المدينة في غزوة أحد، واختلافهم في صلاة العصر عندما أُمِروا ألا يصلوا إلا في بني قريظة، كما أن كل واحد منهم تميز بصفة دون غيره حتى اشتهر بها، ومع مرور الزمن صارت الصفات الفردية والاهتمامات الشخصية مدارس داخل الأمة، قال ﷺ: «أرحم هذه الأمة بها أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأصدقهم حياء عثمان بن عفان، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأبو هريرة وعاء

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه برقم (٧٣٥٢)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، (٩/ ١٠٨)، ومسلم في صحيحه برقم (١٧١٦)، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، (٣/ ١٣٤٢).

(٣) سورة الحشر، الآية (٢).

من العلـم، وسلمان عالم لا يدرك، ومعاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»[1].

واشتهر عند الفقهاء تشدد ابن عمر ووسطية ابن مسعود ورخص ابن عباس.

هذا الاختلاف الاجتهادي يجعله بعض الناس اختلاف تضاد، وقد دار صـراع كثير بين المسلمين بسبب سوء الفهم وضيق الأفـق، ممـا عـزز ثقافـة عـدم قبـول الرأي المخالف.

الفرع الثالث: الاختلاف حول التعامل مع المستجدات

كما هو معروف، فإن النصوص متناهية والحوادث غير متناهية، والممارسة العملية تبرز تحديات تحتاج إلى معالجة، وقد واجه هذا التحدي الصحابة يوم وفاة الرسول ﷺ، فاختلفوا: هل مات الرسول أم لم يمت، وكان عمر بن الخطاب ﷺ من أشهر رافضي القول بموت الرسول، وجرد سيفه قائلًا : «إنه سيضرب كل من يقول إن الرسول قد مات»، حتى جاء أبو بكر ﷺ، وتلا الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[2]، ويشرح عمر موقفه ذلك بقوله لابن عباس في خلافته: «يا بن عباس، هل تدري ما حملني على مقالتي التي قلت حين توفي رسول الله؟ » قـال ابن عباس: «لا أدري يا أمير المؤمنين، أنت أعلم»، قال: «فإنه -والله- ما كان الذي حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾[3]، فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنه

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير ترجمة رقم (٦٦٤)، ترجمة سلام بن سـلم المـدائني، (٢/ ١٥٨)، وقال: «لا يتابع على أحاديثه، والغالب على حديثه الوهم»والله أعلم.

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٤٤).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٤٣).

الذي حملني على أن قلت ما قلت»[1].

إذًا فهو لم يقف موقفه ذاك لأنه صُدِم فحسب، ولكنه قاله عن فهم واجتهاد، فلما ظهرت له الحقيقة امتثل لأمر الله.

كذلك اختلفوا في مكان دفن الرسول ﷺ، حتى حسم ذلك أبو بكر بقوله: «سمعت الرسول يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، فحفروا له تحته»[2].

كذلك اختلفوا في أمر خلافته، فرأت الأنصار أنهم أحق بالخلافة؛ لأنهم آووه ونصروه، وقبض عندهم، ورأى المهاجرون أنهم أحق بها؛ لأنهم أهل السبق في الإسلام، ولأنهم هاجروا معه وتركوا أموالهم وديارهم؛ نصرة للدين، ولأن العرب لا تدين إلا لقريش، وغضب بنو هاشم لأنهم غُيِّبوا عن الشورى لانشغالهم بتجهيز جثمانه ﷺ.

واختلفوا حول مانعي الزكاة، هل يحاربونهم أم لا؟ واختلفوا في تقسيم الخراج، وهكذا فرضت المستجدات واقعًا جديدًا اقتضى اجتهادًا لمواجهة تحدياته وقضاياه التي لم تكن موجودة في حياة النبي ﷺ.

وخلاصة القول أن هنالك أسبابًا موضوعية تجعل الاختلاف أمرًا حتميًّا وضروريًّا، ولهذا الاختلاف فوائد -كما يقول الدكتور طه العلواني-، منها:

أولًا: أنه يتيح التعرف على جميع الاحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل قد رمى إليها بوجه من وجوه الأدلة.

ثانيًا: أنه يتيح رياضة للأذهان وتلاقحًا للآراء، ويفتح مجالات التفكير للوصول إلى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول إليها.

(١) السيرة النبوية (٢/ ٦٦١ -٦٦٦).

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٣٣)، والحديث أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٠١٨)، أبواب الجنائز، باب ما جاء في دفنه ﷺ، (٣/ ٣٢٩)، وقال: «حديث غريب».

ثالثًا: إنه يتيح تعدد الحلول أمام صاحب كل واقعة؛ ليهتدي إلى الحل المناسب للوضع الذي هو فيه، بما يتناسب مع يسر هذا الدين الذي يتعامل معه الناس من واقع حياتهم[1].

إنها فوائد يؤكدها الإنتاج الفكري والعلمي، الذي تذخر به الساحة الإسلامية، ويصدقها الواقع الذي أفرز قضايا معقدة تمكن الفقهاء من التعامل معها.

إن الاختلاف بهذا الفهم ضرورة، ولكنه يصبح وبالًا عندما يتحول إلى شقاق وفجور في الخصومة، وهذا ما حدث في عصر الخوارج وعصرنا هذا، حيث تصدى للفتوى من لا فقه له، ففرض على الناس فهمًا قاصرًا، وحاكمهم على أساسه، وحمل لواءَ الإسلام الغلاةُ، فضلوا وأضلوا.

وقد اختلف الناس حول الحوادث المعاصرة، مثل الأخذ بوسائل العصر، والاستفادة من تجارب الآخرين، والتعامل مع غير المسلمين، والأخذ بالنظم الحديثة التي انتجها العقل البشري -كالديمقراطية والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني-، وكذلك الموقف من المرأة والفن والرياضة والنظم الاقتصادية، وأخيرًا الاختلاف حول الجهاد، وكل هذه الاختلافات وغيرها ترجع أسبابها إلى منهج كل جماعة وطريقة تفكيرها ورؤيتها للخلاف، فمنهم من يضعه في إطاره النوعي، ومنهم من يغالي فيرفع سقفه إلى خلاف بين حق وباطل.

فالغلاة احتكروا الحق لأنفسهم، واعتبروا من خالفهم خارجًا من الملة، وهذا المنهج ابتدعه الخوارج. أما منهج الربانيين من علماء الأمة فمختلف، سأل بعضهم علي بن أبي طالب عن أهل الجمل الذين حاربوه: «أمشركون هم؟ » فقال: «من الشرك فروا»، فقال: «أمنافقون هم؟ » قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا »، فقال له: «من هم إذًا؟ » قال: «إخواننا بغوا علينا»[2].

(١) أدب الاختلاف في الإسلام، للعلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (ص٢٥).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن برقم (١٦٧٣٠)، كتاب قتال أهل البغي، باب الدليل على أن الفئة الباغية منهما لا تخرج بالبغي عن تسمية الإسلام، (٨/ ٣٠٠).

فبالرغم من أنه الخليفة المبايَع من جمهور الأمة، وقد خرج عليه أهل الجمل، فشقوا عصا الطاعة، وفرقوا كلمة الأمة، وسالت دماء ودموع، إلا أن أمير المؤمنين لم يغب عن ذهنه أنه حامي رسالة وليس منتصرًا للذات، ولا منتقمًا يجرد خصمه من أية فضيلة. وهذه الروح لم تغب عن عظماء الأمة في عصورها المتعاقبة، فأبو حنيفة يقول: «هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحدًا عليه، ولا نوجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده أحسن منه فليأت به»[1].

فالمؤمن طالب حق، لا يتعصب لرأيه إن ظهر الصواب عند غيره، ومعلوم أنه في عصر التابعين ظهرت مدرستان: مدرسة أهل الحديث -التي قامت على فقه الصحابة وآثارهم، وكان على قمتها سعيد بن المسيب، وعليها اعتمد المالكية والشافعية والحنابلة-، ومدرسة أهل الرأي -التي تعتمد على الرأي إن غاب الأثر، وكان على قمتها إبراهيم النخعي، وعليها سار الأحناف دون أن يكفر بعضهم بعضًا-، بل في عصور لاحقة عندما احتك كل فريق ببيئة الفريق الآخر أدرك أسباب هذا الاختلاف بينه وبين نظيره، وما آفة الفتوى إلا عدم الإحاطة بالموضوع محل الحكم والواقع الذي تتنزل عليه، فعدم الربط بين النص والواقع وعدم ربط كل ذلك بالمقاصد يؤدي إلى إصدار أحكام متعسفة.

إن كثيرًا ممن تصدوا للفتوى -في عصرنا هذا- يمكن وصفهم بحفظة النصوص، ولكنهم ليسوا فقهاء، فالفقيه من يمتلك القدرة على استنباط الأحكام من النصوص مع اعتبار الواقع ومراعاة المقاصد.

فاستخراج الحكم مجردًا دون مراعاة الواقع وتعقيداته يوقع الأمة في الحرج، ومن المنكرات في هذا العصر إطلاق التهم والأحكام جزافًا؛ فهذا كافر لأنه أدلى بتصريح يخالف هوى المفتي، وذاك زنديق لأنه تبنى فكرة لا يعرف المفتي كنهها، وآخر مرتد لأنه اتخذ موقفًا يتعارض مع موقف المفتى. هذه الفتاوى التكفيرية تدخل في إطار البدعة؛ لأنه لم يعرف عن الرسول ﷺ أنه أطلق مثل هذه الأحكام

(١) الانتقاء في مناقب الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، (ص١٤٠).

بهذه الصورة، بل كان نهجه النهي عن التكفير، قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[1].

إن دراسة سيرة الرسول القدوة بعيون باصرة ستعطي نبراسًا يضيء الطريق للسالكين، وتبين سماحة الإسلام بترجمتها لأحكامه ومقاصده لواقع ملموس، وتجعل المسلمين يصرفون أنظارهم عن نهج التشدد والتكفير والتضييق على الناس، فالإسلام دين الرحمة والتيسير ورفع الإصر والحرج عن الناس، وهو لا يتصادم مع الفطرة مطلقًا، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

إن فهم الرأي الآخر والفكر الآخر والاجتهاد المخالف في إطار التنوع يعد أول خطوة في منهج الإصلاح الداخلي وتوفيرِ الطاقات المهدرة في الصراعات لتوظيفها للنهضة في كافة مجالاتها، فعلينا أن نسقط من قاموسنا عبارات (كافر وملحد وزنديق وخائن وعميل ومهزوم.. الخ) في مجال خلافاتنا الفكرية والسياسية، ومطلوب منا أن نجد مساحة في داخلنا لقبول الاجتهاد المخالف أو تفهمه على أقل تقدير.

(١) أخرجه البخارى في صحيحه برقم (٤٨)، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، (١/ ١٩)، ومسلم في صحيحه برقم (١١٦)، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق»، (١/ ٨١).

(٢) سورة الروم، الآية (٣٠).

المبحث الثالث

مطلوبات فقه التنوع في الواقع المعاصر

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إدراك الواقع والتحولات التي طرأت عليه.

المطلب الثاني: فقه معاملة الآخر من خلال المقاصد.

المطلب الثالث: فقه الأصل والعصر.

المطلب الأول

إدراك الواقع والتحولات التي طرأت عليه

الفرع الأول: محددات الواقع

بعد مدة قليلة من انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى تبدل الحال، فقالت السيدة عائشة في خروج النساء إلى المساجد: «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن»[(١)].

ويبدو أنها أصدرت هذا الرأي لتبدل الحال الذي رأته بين العهدين، ومثل هذا جوابُ ربيعة بن أبي عبد الرحمن لما رجع مستعفيًا من منصبه، فقيل له: «كيف رأيت العراق وأهلها؟ » فقال: «رأيت قومًا حلالنا حرامهم وحرامنا حلالهم، وتركت بها أكثر من أربعين ألفًا يكيدون هذا الدين»، وقال: «كأن النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم»[(٢)].

فإذا كان الواقع قد تبدل بعد وفاة الرسول ﷺ بفترة وجيزة، جعلت الصحابة والتابعين يستغربون للمظاهر التي حدثت في المجتمع، بل ويستنكرونها لمخالفتها لما اعتادوا عليه، فكيف يكون الحال بعد مرور قرون على عصر النبوة؟

لا شك أن تَغَيُّرَاتٍ كثيرة قد حدثت في الواقع، وهذا ما دفع الفقهاء إلى القول بأن الفتوى تتغير بتغير الأحوال، وقد خصص ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٨٦٩)، كتاب الأذان، باب خروج النساء إلى المساجد، (١/ ١٧٣)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٤٥)، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد، (١/ ٣٢٨).

(٢) العقل الفقهي معالم وضوابط لأبي أمامة نوار بن الشلي، دار السلام- القاهرة، ط(١)، ١٤٢٩هـ، (ص٢٩).

فصلًا كاملًا بعنوان: «فصل في تغيُّر الفتوى واختلافها بحسب تغيُّر الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد»[1]، ذكر فيه أمثلة متعددة لتغير الفتوى، منها قوله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: «إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تَصُدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعهم»[2].

فابن تيمية هنا طبق فقه التنزيل الذي يراعي فقه النص وفقه المقاصد وفقه المآلات وفقه الواقع.

إن فقه الواقع يتطلب وعيًا مدركًا للتحولات التي حدثت في مظاهر الحياة عمومًا، وفي علاقات المسلمين بغيرهم على وجه الخصوص، ولتحقيق ذلك لا بد من معرفة أن الواقع تشكله عدة عوامل، لخصها الشيخ علي جمعة مفتي الديار المصرية السابق خمسة عوالم هي: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأحداث، وعالم الأفكار، وعالم النظم؛ وذلك كالآتي:

١ - **عالم الأشياء**: له واقع مدرك بالحس المعتاد، وله حقيقة يدركها الإنسان بالمجهر، ويبني عليها أحكامه، ومنهجه هو المنهج التجريبي، الذي ارتضاه المسلمون، ثم انتقل إلى العالم كله دون نكير من العقلاء الذين تحرروا من عقلية الخرافة وتمسكوا بالعلم والواقع، إلا أن بعضهم قد اقتصر عليه، ولم يربطه بالله -سبحانه-، فصار فكره عميقًا، ولكنه ليس مستنيرًا.

ويمكن تعريف الواقع بأنه ما أدركه الإنسان بحسه المعتاد، وهو بهذا المعنى قدر مشترك بين آدم والإنسان المعاصر.

٢-**عالم الأشخاص**: لقد تطور عالم الأشخاص، فأصبح هناك الشخصية

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٥).

(٢) السابق (٢/ ٦-٧).

الطبيعية والشخصية الاعتبارية، التي تنفصل وتستقل عن الشخصية الطبيعية، حتى كمل استقلالها، وأصبحت كائنًا قائمًا بذاته، له أحكام تختلف عن أحكام الشخصية الطبيعية، حيث لا يوجد فيها نفس ناطقة تحتاج إلى شعور وحب ويخشى عليها من سوء الخلق ودناءة الطبع، وأصبح التعامل مع الشخصية الاعتبارية يكاد يكون موضوعيًّا بعيدًا عن الذاتية التي أثرت في مسائل كثيرة في التعامل مع الشخصية الطبيعية.

٣- **عالم الأحداث**: تتكون الأحداث من تفاعل الأشياء مع الأشخاص، وهي تحتاج إلى تحليل للمضمون، وإلى توقعات للمستقبل، وإلى سيطرة وتوجيه في بعض الأحيان، وإلى حسابات المآلات وتحقيق المصالح وترتيب الأولويات والقيام إزاءها بواجب الوقت.

٤- **عالم الأفكار**: يتطلب وجود معيار للتقويم، يقبل الصالح ويرفض الطالح، وهذا المعيار مرتبط -عند المسلمين- بالنموذج المعرفي الذي يتبنونه، والذي أخذوه من الكتاب والسنة وفهم الصحابة والتجربة التاريخية والعقيدة والرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة، والمبادئ القرآنية والسنن الإلهية ومنظومة القيم ومقاصد الشرع في التشريع والتكليف، وكل عنصر من هذه العناصر له معانيه ومبانيه ومكانه في المعيار الذي به تقويم الأفكار[1].

٥- **عالم النظم**: لقد طورت عقلية الإنسان أساليبها لتنظيم حياتها ورعاية مصالحها، فابتكرت النظم التي تحقق مصالحها في كافة المجالات، فللتربية نظمها، وللتعليم نظمه، وللإدارة نظمها، وللاقتصاد نظمه، وللحكم نظمه، كما أن التجربة أوصلت العالم إلى ضرورة تأسيس نظم ومؤسسات ترعى المصالح الدولية في المحافظة على الأمن والسلم الدوليين، وإنشاء منظمات عالمية متخصصة في الغذاء والصحة والثقافة وغيرها.

(١) سمات العصر.

هذه العوامل تشكل الواقع المعاصر، فلا بد لمن يتصدى للفتوى أن يدرك طبيعة الواقع المعاصر بتعقيداته وعلاقاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية؛ حتى لا يغرد خارج السرب، والفتوى الفردية غير مجدية في القضايا الكبرى التي لها امتدادات عالمية، وفي هذا العصر توفرت المعلومة وتدفقت بصورة غير مسبوقة، فهناك ضرورة إلى قيام مؤسسات للفتوى، تضم أهل الاختصاص في الشرع والسياسة والاقتصاد والطب والاجتماع والفلسفة والعلاقات الدولية والقانون؛ لتتمكن من إصدار فتاوى، تقل فيها نسبة الخطأ، وتكون جامعة مانعة، والمجامع الفقهية تعد إنجازًا مهمًّا، إذا عولجت أوجه القصور فيها.

الفرع الثاني: التطورات التي حدثت في العلاقات الإنسانية

شهدت العلاقات الإنسانية تطورًا كبيرًا بفضل وسائل المواصلات والاتصالات، التي يسرت التواصل بين الشعوب والدول، وبطبيعة الحال فإن المسلمين تأثروا بذلك، وعن طريق التداخل والتواصل وتبادل المصالح تطورت علاقاتهم بأصحاب الديانات والحضارات المختلفة، وتعرفوا عن قرب على غيرهم، وتعرف عليهم الآخرون، كما أن انفتاح الشعوب على بعضها عزز من أهمية العمل المشترك؛ لتنمية الموارد وتبادل المنافع والتصدي للمخاطر التي تواجه سكان الكرة الأرضية، مهما كان موقعهم.

لقد اتفقت الكثير من العلوم الإنسانية على أن وصول الإنسان إلى المدنية والتقدم الحالي لم يأت إلا من خلال التقارب والتعارف، فانتقال الشعوب من مكان لآخر له أثر كبير في التقارب والتعارف، وترتبت على ذلك إيجابيات كثيرة، كازدهار الحضارة وقيام الدولة والتنوع العرقي واتحاد اللغة والسعي نحو القوة والتقدم على الآخرين، وكل ذلك -بلا ريب- يندرج تحت مفهوم المصلحة المشتركة[1].

(١) المشترك الإنساني (ص١٦) وما بعدها.

إن عالم اليوم يقوم على التكتلات والتحالفات المبنية على قاعدة المصلحة المشتركة، فلقد سعى كل قوم تجمع بينهم نوعُ مصلحة إلى إنشاء رابطة أو حلف أو عقد معاهدة أو اتفاقية مشتركة لرعايتها، ولذا تعددت الروابط والهيئات والمنظمات وكثرت أسماؤها، فلدينا الاتحاد الأوربي وحلف شمال الأطلسي وحلف وارسو والكومنولث ومجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأفريقي وجامعة الدول العربية ومنظمة الفرانكفونية ومنظمة دول حوض النيل[1].

وفي معظم هذه الروابط يوجد أصحاب ديانات مختلفة وثقافات مختلفة، ولكن تجمع بينهم مصالح مشتركة، والأصل أن أعضاء مثل هذه النظم يكونون عائلة واحدة، تتفق مصالحها وتسعى فيما بينها إلى الأمن المتبادل، وفي مثل هذه الأنظمة يتحرك الأعضاء بإرادات ناقصة؛ ليحققوا معظم أغراضهم، ويوزعون فيما بينهم الأدوار، ويعملون كجبهة واحدة؛ لمواجهة التهديدات الخارجية أو التحديات الداخلية[2].

إن العلاقات بين المسلمين وغيرهم تطورت إلى علاقات تقوم على المواطنة في الدولة الواحدة، وصارت هنالك علاقات جوار في السكن ودور العبادة، بل قامت بينهم شراكات في مجال التجارة وكل ضروب الشراكة في المصالح الإنسانية، وفي الغرب تداخلت العلاقة بين المسلمين وغيرهم إلى أبعد الحدود.

ذكر لي صديق مقيم في الولايات المتحدة أن مسجدهم -الذي يصلون فيه- احتاج إلى تجديد وتوسعة، فقاموا بهدمه ليقوموا بتجديده، واستغرق ذلك وقتًا طويلًا ، فاتصلت بهم قيادة الكنيسة التي بجوار المسجد، وخصصت لهم جزءًا من الكنيسة ليتخذوه مسجدًا، حتى اكتمال بناء مسجدهم.

هذا التطور في العلاقات بين المسلمين وغيرهم يحتاج إلى فقه التعايش

(١) السابق (ص٥٦).

(٢) أزمة الخليج أزمة الأمن القومي العربي لأمين هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط(١)، ١٩٩١م، (ص١٣-١٤).

السلمي الإيجابي، وليس إلى الفقه الموروث في معاملة أهل الذمة.

الفرع الثالث: الدولة الإسلامية.. الواقع والمأمول

لقد اختلف المسلمون قديمًا حول الدولة في الإسلام بين سنة وشيعة وخوارج، «ومع اتفاقهم على ضرورتها ووجوبها فإنهم اتفقوا -عدا الشيعة- على أنها من الفروع، وليست من أصول العقائد ولا من أركان الدين.. فهي واجب مدني اقتضاه -ويقتضيه- الواجب الديني المشتمل على تحقيق الخير للإنسان في هذه الحياة»[1].

فالدولة في الإسلام ليست ركنًا دينيًّا، وإنما هي واجب مدني وضرورة مدنية، إن نظرية الإمامة ليست من المهمات، وليست من فن المعقولات، بل من الفقهيات، وإن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد، والامامة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين، والإمامة ليست من أصول الاعتقاد».

أما ابن خلدون فإنه يرفض قول الشيعة بأن الإمامة من أركان الدين، ويقول: «وشبهة الشيعة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الدين، وليست كذلك، إنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق»[2].

وفي الواقع العملي استمرت الخلافة الراشدة ثلاثة عقود، ثم تحول النظام إلى وراثة ملكية وسلطنة -وإن تَسَمَّت بالخلافة الإسلامية-.

لقد برزت قضية الدولة الإسلامية في الفكر الإسلامي بصورة قوية في العصر الحديث، خاصة بعد أن أُسقطت الخلافة العثمانية ووقعت البلاد الإسلامية تحت سلطة الاستعمار الأوربي، وواجهت الأمة تحديات الحداثة وتعقيدات الدولة الحديثة، عندها انبرى العلماء والمفكرون يبشرون بالحل الإسلامي المتمثل في

(١) الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية للدكتور محمد عمارة (ص٢٣٦).
(٢) السابق (ص٢٣٧).

تطبيق الشريعة في ظل دولة إسلامية، تعالج كل المشاكل الإنسانية من داخل الإسلام، فالدولة الإسلامية الـمُبَشَّرُ بها تكفل الشورى، وتحترم حقوق الإنسان، وتطبق فريضة الزكاة بأخذها من الأغنياء لتنفق على الفقراء، واجتهد المفكرون والعلماء في التنظير للدولة الإسلامية؛ ليقدموا بديلًا نظريًّا للنظم الوضعية، واستطاعوا -قدر الإمكان- أن يستقطبوا عددًا لا بأس به للالتفاف حول مشروع الدولة الإسلامية الموعودة، وقامت حركات إسلامية تبشر بالمشروع الإسلامي، ووصل بعضها إلى السلطة، فهل استطاعت أن تحقق ما وعدت به على أرض الواقع؟ إن هنالك عوامل -فضلًا عن الاستعجال في التطبيق- أعاقت -وستعيق- تحقيق الآمال المتعلقة بإقامة الدولة الإسلامية.

تتمثل تلك العوامل في غياب نظرية متكاملة عن الدولة في الإسلام، فاختلفت مفاهيم المسلمين حولها، وكذلك التسرع في إقامة دولة باسم الإسلام قبل الاتفاق على أسسها ومبادئها، مع غياب البرامج المفصلة لمعالجة أزمات المجتمعات الإسلامية والاستجابة لمطالب الشعوب، ثم إن المسلم المعاصر لا يفكر ولا يتصرف بوحي من القرآن والسنة وحدهما، وإنما -كذلك- بوحي من حساباته الشخصية وخبراته الذاتية، التي تتطلب التفاعل معه باعتباره إنسانًا حاضرًا وفاعلًا ومفكرًا وصاحب رأي فيما يحدث حوله[1].

إن التجارب التي أغفلت هذا الواقع وجدت نفسها عاجزة عن المحافظة على بلدانها، ناهيك عن تقديم نموذج لدولة إسلامية يقتدى بها.

مطلوب من الدولة الإسلامية مخاطبة تحديات الواقع والتصدي لقضاياه، ولا يتم ذلك إلا بصياغة بديل حضاري ونظام اجتماعي يقوم على الركائز الآتية:

الركيزة الأولى: صياغة خطاب يستصحب الخبرة النبوية في إحداث التحول من المجتمع الجاهلي الظالم إلى مجتمع الإسلام العادل الذي في ظله تحققت

(١) المسلمون والديمقراطية دراسة ميدانية، للمعتز بالله عبد الفتاح، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٨م، (ص١٢٢).

المساواة للجميع، والنظام العالمي الآن أشبه بمجتمع الجاهلية في تواطئه على الظلم والاستعلاء واستنزاف مقدرات الشعوب، فكما استطاعت الدعوة الإسلامية في فجر الإسلام أن تتصدي للنظام الجاهلي في مكة، والمكر اليهودي في المدينة، والتآمر الدولي في فارس والروم، بحكمة وحنكة، ولم تلجأ للعنف إلا ردًّا للعدوان، فنحن مطالبون بالتعامل مع هذا الأمر بحكمة وَسَعَةِ أفق بعيدًا عن الانفعال وتضخيم الذات.

الركيزة الثانية: تحديد واضح لمعالم الدولة الإسلامية، من حيث اختيار الحاكم واختصاصاته وخضوعه لمراقبة الأمة عبر البرلمان المنتخب انتخابًا حرًّا نزيهًا، ومن حيث طبيعة الدولة الإسلامية المدنية وعلاقتها بالشعب وكفالة حقوق الإنسان وحرياته الأساسية وكفالة حقوق غير المسلمين والمساواة بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات، على أساس التوجيه الوارد في سورة النساء، والذي فيه دفاع عن اليهودي وإدانة للمسلم، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1].

الركيزة الثالثة: صياغة مبادئ عامة من التعاليم النبوية وتجربة الخلافة الراشدة، خاصة الفترة العمرية؛ إذ تعد مرحلة استنباط وتطبيق عملي للأحكام والمبادئ الإسلامية، بصورة أبرزت معالم الدولة الإسلامية، مثل ما ورد في رسالته

(١) سورة النساء، الآيات (١٠٥-١١٣).

لأبي موسى الأشعري المتعلقة بالقضاء، وموقفه من ابن واليه على مصر عمرو بن العاص، وتقسيمه للأعطيات، ومحافظته على المال العام، إلى غير ذلك مما هو مُدَّون. بل موقف الرسول ﷺ الواضح من الحرص على رد المظالم وعدم إهدار حقوق الناس، كما ورد في الحديث الشريف: «أيها الناس، من كنت قد جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه -يأخذ منه القصاص-، ومن كنت قد شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت قد أخذت له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقًا كان له، أو استعفاني حتى ألقى ربي وأنا طيب النفس»[1].

الركيزة الرابعة: المرونة في الأخذ من التجارب الإنسانية المتفقة مع مقاصد الإسلام والـمُحَقِّقَة للمصلحة، فالتجربة الإسلامية استفادت من الفرس في حفر الخندق، واستفادت من الروم في تدوين الدواوين، فما أنتجه العقل الإنساني من وسائل ونظم نافعة يجوز استصحابه في الدولة الإسلامية.

الركيزة الخامسة: إدراك التطور الذي حدث في النظام السياسي، فقد انتهى العهد الذي يتصرف فيه الحاكم كما يريد، وأصبح الحاكم يخضع للدستور، وهو مراقب بمؤسسات ومقيد ببرنامج مجاز من أجهزة الدولة، فالتعامل الآن يكون في نظام له مؤسسات وقوانين ونظم، وليس مع شخص يحكم بأمره.

والمرونة سمة من سمات التشريع في الإسلام، فالمؤسسات والنظم التي وصلت إليها الإنسانية عبر مسيرتها الطويلة في مجال الحكم، واستطاعت أن تحقق بها التداول السلمي للسلطة، وتُخْضِع القوات المسلحة للسلطة المدنية المنتخبة، وتبتكر مؤسسات تشريعية وقضائية وتنفيذية، هذه النظم تتكامل في المحافظة على الدستور، وهذا الإنجاز مطلوب استصحابه؛ لتطبيق مبادئ الإسلام المتعلقة بالدولة.

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير ترجمة رقم (١٥٤١)، ترجمة القاسم بن يزيد بن عبد الله بن قسيط، وأعله به.

المطلب الثاني

فقه معاملة الآخر من خلال المقاصد

الفرع الأول: المقاصد الشرعية لفقه التواصل

انطلاقًا من مبدأ (التنوع والاختلاف منطق الحياة) أكد الإسلام أن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف حقيقة يقتضيها منطق الحياة، وأنه طبيعة الخلق في مختلف الأعصار والأمصار، وهي تعددية وتنوع في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله ﷻ، فالإنسان مخلوق لخالق واحد ومن نفس واحدة، ثم تكاثر أزواجًا وألوانًا وألسنة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[1].

وكما يتعدد الناس ويتمايزون في الألسنة والألوان يختلفون -كذلك- إلى شرائع ومناهج، أي ثقافات وحضارات، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

كما تتنوع عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ومدركاتهم وعقولهم داخل الحضارة الواحدة والثقافة الواحدة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ

(١) سورة الروم، الآية (٢٢).

(٢) سورة المائدة، الآية (٤٨).

﴿أَجْمَعِينَ﴾[1]، أي: لو شاء لَخَلَقَ الناس كلهم على نسق واحد وباستعداد واحد، نسخًا مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنويع فيها[2].

إن فقه التواصل مع الآخر ينظر إلى الاختلاف من زاوية التمايز في إطار التعارف الذي دعا إليه الوحي، إنه اختلاف تكامل وتفاعل وتقسيم للعمل، كلٌّ بما يُحسِن، ضمن منظومة تراعي حقائق المساواة وسنن الاختلاف، ووفق معايير تُراعى في حق الغير قبل مراعاتها في حق الذات، من دون تفرقة أو محاباة أو فخر بلون أو عرق أو جنس، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، لينتهينَّ أقوام فخرهم برجال، أو ليكونُنَّ أهون عن الله من عدتهم من الجِعْلَان التي تدفع بأنفها النتن»[3].

وهو ما يجعل الواحد من أبناء الأمة الإسلامية لا همَّ له إلا الأدب مع من سواه، على مقتضى المعروف، الذي هو الأصل في تخلق المسلم، كما أمره الله[4].

فَفِقْهُ التواصل والتفاعل الحضاري يُفَعِّل مبادئ العدل والإحسان والتراحم والمجاهدة، بحيث تُقدَّم كرؤية تؤصل لعناصر حركة حضارية واعية ونظرية عامة ضابطة للعلاقة بين الحضارات، بعيدًا عن وقاحة الاستنكار ووقاحة الاستعلاء ووقاحة الاجتثاث، التي انتهت إليها القيم الكونية المزعومة، التي تمثل عولمة الاستئثار والهيمنة لحركة التعامل الدولي.

وفقه التفاعل يعزز مبدأ التزكية -بمظهريه: مراعاة حق النفس ومراعاة حق الغير- في ضبط حركة الحياة، وفق منهج الله في أمره ونهيه تعاملًا مع النفس

(١) سورة هود، الآيتان (١١٨، ١١٩).

(٢) القيم الحضارية في الإسلام (ص٢٠٧) وما بعدها.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٨٧٣٦)، مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، (١٤/ ٣٤٩)، وقال محققو المسند: «إسناده حسن».

(٤) القيم الحضارية في الإسلام (ص٢٠٨).

بالاتصاف بتمام التخلق وتمام التعقل وتمام التعبد، وتعاملًا مع الغير وفق معايير العدل والإحسان والتراحم والمجاهدة، مما يجعل الأمة الإسلامية أمة القيم، التي تمثل عالمية الاستخلاف والتعارف ووحدة الانتماء العالمي إلى الله، وبالتالي تسهم بفعالية في بناء النسق القيمي الحاكم والضابط للعلاقة بين الحضارات؛ ليرشد المسيرة الحضارية[1]، هذا الاسهام أحد مستويات الشهود الحضاري لأمتنا.

الفرع الثاني: مقاصد الشرع في التفاعل مع الآخر

إن عالمية الإسلام تحتم على المسلمين التواصل والتفاعل مع سائر الحضارات، بحيث يصبح التفاعل وتوسيع دائرة المشترك الإنساني والتصاهر الحضاري وممارسة عملية العطاء والأخذ تكليفًا شرعيًّا واستجابة لأمر الله وطاعة له، ذلك أن من أخص خصائص الحضارة الإسلامية الاضطلاع بعملية البلاغ المبين وإيصال قيمها للآخر.

هذا التبليغ أو هذا البلاغ والدعوة والحركة والهجرة صوب الآخر هي من لوازم الدور الرسالي والنزوع الحضاري الإنساني، فالناس -كل الناس- هم محل خطاب القيم الإسلامية، وإخراجهم من الظلمات إلى النور الغاية، وإلحاق الرحمة بهم من مقاصد الدين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾[3]، وقال: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[4]، وقال: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[5]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

(١) السابق (ص٢١٠) وما بعدها.

(٢) سورة سبأ، الآية (٢٨).

(٣) سورة المائدة، الآية (٦٧).

(٤) سورة الحجر، الآية (٩٤).

(٥) سورة آل عمران، الآية (١١٠).

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

هذه الركائز والمنطلقات والمرجعيات التي يقوم عليها الدور الرسالي واستحقاقاته هي الأساس في إحداث التفاعل والتعارف والتبادل المعرفي والتكامل وتبادل المنافع والتجارب، وهي سبيل النمو والتحضر؛ فالحضارة الإسلامية -في المحصلة النهائية- جهدٌ عالمي وبناء إنساني تاريخي مشترك ومتراكم، لكل حضارة وأمة ومجتمع منه نصيب[2].

وباستقراء النصوص الإسلامية واستصحاب الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية يتضح أن التواصل مع الآخر يهدف إلى تعزيز الكرامة الإنسانية، وتأكيد الوحدة الإنسانية، وترسيخ ثقافة التعارف والتسامح، والمحافظة على الحرية والعدل، وقبول المعاملة بالمثل، والوفاء بالعهود والمواثيق بين الشعوب والأمم، وهي مقاصد تعزز مبدأ التعارف الذي سبق بيانه، وتشيع مناخًا تتسع فيه دائرة التفاعل الحضاري، باستصحاب كل ما هو مفيد من تجارب الإنسان.

وضبطًا لمسار التعارف والتواصل نرصد أهم الأهداف والغايات التي يمكن تحقيقها من خلال التفاعل:

١- **التقارب والتسامح**: فالتعارف الإيجابي هو الذي يبذل فيه كل طرف أقصى جهوده للتعرف على ما يقربه من الأطراف الأخرى التي تشاركه التطلع نفسه، فيبحث القائمون بالتفاعل في ثقافاتهم وحضاراتهم عما يقرب بينهم من الأشواق والآمال والانجذاب نحو كل ما هو إنساني معبر عن جوهر الإنسان وفطرته، فمن شأن البحث المخلص عن هذه الأسباب أن تمتد أرض الوفاق بين الحضارات، وتتشبع الإرادات بقابلية التجاوز والتسامح، وقد ضرب الإسلام المثل الرائع في تجسيد هذا الهدف النبيل، وبفضل الروح العالية من التسامح

(١) سورة البقرة، الآية (١٤٣).

(٢) ضوابط التفاعل الحضاري ورسائله وآثاره التربوية (ص١٦) وما بعدها.

تجاوز عتبة التقارب إلى احتضان أكثر ما هو مفيد في الثقافات الأخرى، مثلته بعدئذ حضارة خالدة، أنارت العالم في قرون ظلامه.

٢- **التعايش السلمي**: فمن شأن الهدف السابق توفير الأجواء المناسبة لتعايش الحضارات في سلام وأمن، وهذا الهدف يتطلب تعميقًا بالغًا لفلسفة السلام وأفكاره، وتفكيرًا جادًّا للخروج بالمسألة من حسابات ومصالح السياسيين والعسكريين وأصحاب المنفعة من صناعة التسليح وخدام نظريات الحرب وتفجير بؤر التوتر في العالم، إلى ساحات التوعية العامة واصطناع جماعات الضغط من دعاة السلام العالمي العادل في كل حضارة بل في كل مجتمع، فتسود المجتمع الدولي ثقافة حضارية تمنح فكرة السلام صورتها الحقيقية، بأن تضمن وضعها في ذمة المبادئ، لا لمصالح مروجي الدمار وحساباتهم ليثروا ويطغوا.

٣- **فك عقدة الهيمنة وتجاوز عقيدة الصراع**: وهما أمران أنتجا كل أشكال الإذلال والاستعباد والحركة الاستعمارية وترسنة الأرض والبحر والفضاء بالأسلحة المهلكة للحياة والأحياء والجشع، وخلقا أسوأ معادلة في الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية الدولية، أعني معادلة العالم الغني غنىً فاحشًا والعالم الفقير المتخلف، بل وتزويد المبادئ والآليات والتوجهات والممارسات الاقتصادية العالمية بما يحافظ على استقرار هذه المعادلة[1].

إن التفاعل مع الآخر في منهج الإسلام يُلْزِم أفراده ومؤسساته بِحَشْدٍ من القِيَم والمعايير والضوابط، التي تمثل مدونة أخلاقية، تُعَرِّف المعروف الذي يشمل كل المنافع التي من شأنها أن ترتقي بإنسانية الإنسان، وتنكر المنكر الذي يُقصَد به كل المضار التي من شأنها أن تنحط بهذه الإنسانية، وحتى الأحكام الشرعية التي تضبط حركة المسلم التعبدية لا تنفك عن القيم الأخلاقية، فالحكم الشرعي يقوم على بنيتين متكاملتين: إحداهما فقهية، والأخرى قيمية أخلاقية، تضبط من سلوك الفرد باطن الأعمال التي تعود بالصلاح أو الفساد عليه أو على غيره، مما يورث

(١) تعارف الحضارات (ص٩٢) وما بعدها.

المسلم أكمل تخلق[1]، وهذا ما يؤكده الإمام الشاطبي بقوله: «والشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق»[2]، ولهذا قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[3].

الفرع الثالث: فوائد التواصل مع الآخر

إن حركة المسلم في تعمير الحياة ينبغي أن تكون واعية، وذلك بالسعي بما يحقق إشباع حاجيات الأمة الأساسية بدرجة من الكفاية، بحسب ظروف الزمان والمكان وبحسب المقاصد الشرعية: حفظ الدين -الذي هو الإطار المرجعي التأسيسي للأمة-، وحفظ النفس الفردية والجماعية وحفظ الكيان واستمراره في إطار العمارة الإنسانية وتنمية الموارد البشرية، وحفظ المال وما يقوم عليه من عمليات التنمية والعمران، وحفظ العقل وما يحمله من عناصر التكوين الثقافي وترسيخ عناصر القيم المتعلقة به.

إن السعي في الكون -انتفاعًا واستثمارًا- يحافظ على أصل وجود الأمة، ويحافظ على فعلها وحركتها، ويحافظ على إحسانها وإبداعها، ولا شك أن التواصل يحقق فوائد كثيرة، أهمها:

١- التعرف على الآخر عن قرب وإزالة الشبهات التي يعتقدها كل طرف تجاه مخالفه، مما يقرب الشقة، ويحول العداوة إلى صداقة، ويتعزز التعاون في المشتركات، وهو مقصد حث عليه الإسلام، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[4]، وقال تعالى: ﴿**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[5].

(١) القيم الحضارية في الإسلام (ص٨٨).
(٢) الموافقات (٢/ ٧٧).
(٣) سبق تخريجه (ص١١١).
(٤) سورة فصلت، الآية (٣٤).
(٥) سورة الممتحنة، الآية (٧).

٢- إقامة تحالف عريض، يدعم المحافظة على حقوق الإنسان وكرامته، ويحافظ على سلامة البيئة، ويتصدى لمظاهر الفساد التي يمارسها الإنسان في الكون، على غرار ما حدث في حلف الفضول الذي أشاد به رسول الله ﷺ، وأكد - مُشَرِّعًا- أنه لو دعي إلى مثله في الإسلام لأجاب، وهي فائدة يؤصلها مبدأ التعاون على البر والتقوى، بل سيقف الآخر على تعاليم الإسلام الداعية للرحمة بجميع العالمين، فيجد في حضارتنا (وقف الكلاب الضالة)، وهو وقف في عدة جهات، ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب؛ استنقاذًا لها من عذاب الجوع؛ حتى تستريح بالموت أو الاقتناء[١].

٣- يسهم التواصل في إضعاف مؤامرات الأعداء الذين يسعون إلى تنفيذ مخططاتهم المعادية للمسلمين من خلال المنظمات والمؤسسات الدولية، فنتيجةً للتواصل والتعارف بين المسلمين وغيرهم تتضح الحقائق أمام الآخرين، مما يتوقع أن يدفعهم ذلك للوقوف في صف المسلمين، إذا حاول خصومهم استغلال المؤسسات الدولية لإلحاق الضرر بالمسلمين، أو على الأقل تحييدهم.

٤- استفادة المسلمين من خبرات الآخرين في مجالات العلوم والنظم وكل التخصصات التي لا تتوفر للمسلمين، وهو مقصد حث عليه الإسلام، بدعوته لطلب العلم والسعي لتوسيع مدارك المعرفة، وهو ما أجمله القرآن الكريم بوضوح في قوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

إنه مفهوم يتسع؛ ليشمل كل أصحاب الخبرات والتجارب في مجال تخصصاتهم.

(١) تاريخنا المفترى عليه ليوسف القرضاوي، دار الشروق – مصر، ط(٢)، ٢٠٠٦م، (ص١٤٢).
(٢) سورة النحل، الآية (٤٣).

إن الفائدة الكبرى للتواصل بين المسلمين وغيرهم تتمثل في التعامل مع الكون كله باعتباره فضاءً متاحًا لتقديم الهداية للإنسانية جمعاء، ومجالًا للسير في الإرض للاعتبار والتعلم ومعرفة سنن الله في خلقه والوقوف على ما أنتجته التجارب البشرية من فوائد تسهم في تحقيق العمران.

المطلب الثالث

فقه الأصل والعصر

الفرع الأول: مفهوم الأصل والعصر

إن عقائد الإسلام وقيمه ومبادئه وتعاليمه تمثل الأصل المرجعي للمسلم في حركته بكل أبعادها، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وقد سبقت الإشارة إلى المفاهيم الموجهة لحركة المسلم في الحياة، وهي الاستخلاف والتزكية والاستعمار الإيماني للأرض، فالقيم والمبادئ والتعاليم والأحكام والمفاهيم الإسلامية هي الأصل الذي تستند إليه الأمة وتنطلق لتنظيم حركة حياتها.

والعصر هو الواقع الذي تعيشه الأمة بكل علاقاته وتعقيداته والعوامل المؤثرة فيه، ويمثل الساحة التي تتنزل فيها تلك العناصر التي يتكون منها الأصل.

إن مشكلة المسلمين اليوم ليست في الأصل، فهو متوفر وأدلته معلومة، وإنما تكمن الإشكالية في فقه التنزيل الذي يعني النظر في ملاءمته للواقع والمستقبل[2].

ولعل هذه المسافة بين الأصل والواقع هي التي جعلت ابن القيم يشير إلى ضرورة إلمام الفقيه بالواجب (الأصل) والواقع (العصر)؛ ليتمكن من المزاوجة بينهما، يقول ابن القيم: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم

(١) سورة الأنعام، الآيات (١٦١-١٦٣).

(٢) فقه التنزيل (ص٥٠) وما بعدها.

بالحق إلا بنوعين من الفهم: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يحيط به علمًا، وفهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر»[1].

فمن ناحية الأصل -ولكي تخرج الأمة من كلالتها الحضارية وعطالتها وانحسارها الحضاري- الأمة محتاجة إلى قراءة قيم دينها من خلال أبجدية صحيحة مرتبطة بالوحي؛ لأن إخراج الأمة من حالتها الراهنة مرتبط بتوفير ظروف وشروط ميلادها الأول، فالأمم لا يعاد إخراجها إلا من خلال قيمها، ولا تنمو إلا من تطوير ذاتها، ولا تقوم إلا على أصولها، وفي ضوء معادلتها الاجتماعية الثقافية والحضارية وإعادة تصميم ثقافتها واختبارها في ضوء قيم الوحي.

ومن ناحية العصر هنالك ضرورة لتفعيل قيم الإسلام في حياة المسلم (الإيمان الحي)، بمعنى تحويل النظرية إلى ممارسة، والفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج، وتقديم المعيار العملي لتحكيم قيم الإسلام في الواقع، وتقويم سلوك المجتمع الإسلامي بها، وتحقيق مقاصد الدين من خلال أصولها ومتطلباتها، فيكون إيمان المسلم -وكذلك الأمة المسلمة بقيم الوحي- إيمانًا حيًّا يصدقه العمل، وقولًا يصدقه الفعل[2].

إن الإشكالية الكبرى في حياة الأمة الإسلامية اليوم هي غياب -أو تغييب- قيم الوحي المعصومة عن سعيها في تحريك الحياة، وتهميشها -إن تهوينًا وإن تشويهًا- تارة، ووسمها بالمثالية وعدم الواقعية تارة أخرى، حتى أصبحت الأمة عاجزة عن تَمَثُّل قيم الإسلام ومعطياتها في البناء والعمران، وتزداد الإشكالية خطورة حينما يصار إلى تقرير أن واقع المسلمين الراهن -عجزًا وتخاذلًا وجمودًا وتقليدًا- إنما هو نتيجة ارتباطهم بالإسلام، مع أن المتأمل يدرك بيقين أن ليس

(١) إعلام الموقعين (١/ ٧٧).

(٢) القيم الحضارية في الإسلام (ص٣٥٧) وما بعدها.

ثمة شك في أن المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم اليوم ليست مشكلة قيم أو أزمة قيم، وإنما المشكلة -كل المشكلة- في العجز عن التعامل مع القيم والإنتاج الفكري الذي يجسد العلاقة بين القيم وبين العصر، أو يساهم بتعدية الرؤية القيمية المحفوظة بالكتاب والسنة.

إن الخلط بين الأزمة الفكرية -التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، والتي أورثته العجز عن التعامل مع القيم- وبين التوهم بأن الأزمة في القيم نفسها كان وراء الكثير من المغالطات والتراجعات التي ما تزال تُكَرِّسُ التخلف باسم التدين[1].

إن واجب الوقت المعاصر هو تنزيل القيم في أرض الواقع وتفعيلها في الحياة، فليس الخلل في الأصول والقواعد والقيم، وإنما في التوظيف والاستخدام السيء والتنزيل الخاطئ لهذه الأصول والقواعد، إن واجب الوقت يتطلب التزاوج بين الواجب الشرعي والواقع؛ ليكون الفقه عمليًّا يتحرك بحركة الحياة[2].

الفرع الثاني: منهج التعامل مع الأصل والعصر

إن المتأمل لما أصاب الأمة -من خلل في الفكر أو انحراف في السلوك أو تخلف في قيم الحضارة- يجد أكثره من عند أنفسهم، بسبب فساد المناهج والمشارب واستشراء العجز والكسل والتقاعس عن تحقيق أسباب الاستقامة والرقي، وهي سنة الله في خلقه؛ إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج.

وليس المنهاج مجموعة نصوص يقرؤها المرء ويطير بها كل مطار دون فقه أو دراية، بل المنهاج قواعد علمية مستفادة من ثمرات العلم بالنصوص وتفاعل العقل مع الوحي وامتزاج النظر بالأثر[3].

(١) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة لعمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط(١) ١٩٩١م، (ص٥).

(٢) فقه التنزيل (ص١٥) وما بعدها.

(٣) منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين لأبي جميل الحسن العلمي، دار الكلمة-القاهرة، ط(١) ١٤٣٣هـ، (ص١٣).

إن المنهج المتبع في التعامل مع أصول ديننا ومع التراث ومع العصر هو الذي يحدد نوع الممارسة العملية على أرض الواقع، ففي الساحة الإسلامية توجد مناهج متعددة للتعامل مع أصول ديننا، ومع ما وصل إلينا من تراث السلف، ومع ما نعيشه من منتجات العصر، فهنالك مناهج لا تميز بين الثوابت والمتغيرات من الأحكام، ولا تربط بين الأصول والمقاصد، ولا تراعي العلل والأعراف التي بنيت عليها الأحكام، كما أنها تعطي اجتهادات الفقهاء قدسية الأحكام المنزلة في الكتاب والمبينة في السنة، وفي الجانب الآخر تتعامل مع كل ما أنتجه العقل البشري ووصلت إليه التجربة الإنسانية بالرفض، وهنالك مناهج تقوم على القطيعة مع التراث، وتتبنى ما أنتجه العصر دون تمييز، وكلا المنهجين حَادَ عن قصد السبيل.

تكمن علة المقلدين في الجمود، وتكمن علة الداعين إلى القطيعة في الانبهار بالوافد، وبيان ذلك في الآتي:

١ - **الجمود والتقليد وتقديس آراء الرجال**: أصيب كثير من المتأخرين بِدَاءِ الغلو في تمجيد التراث والجمود على القديم، واقتنعوا بمقولة (ما ترك الأول للآخر شيئًا)، وهي مقولة باطلة؛ لأن عطاء الله غير محصور، فالفضائل والعلوم لا تختص بزمان أو مكان، ولئن كان زمان السلف أسعد الأزمان بغايات العلم والفضل فإن الله لم يُـخْلِ عصرًا من منه، التي لا تنقضي ولا تختص بقوم دون آخرين.

يقول الشاطبي: «المُقَلِّدَة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة، حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد وتكلم في المسائل ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير، ووجهوا إليه سهام النقد، وعدوه من الخارجين عن الجادة المفارقين للجماعة»[1].

(١) الموافقات (٢/ ٥٠٦).

والصحيح أن كل من قامت به ملكة الاجتهاد -أي القدرة على استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية- يجوز له الاجتهاد، وقد حدد الأصوليون شروطًا للاجتهاد، أهمها: معرفة اللغة العربية على وجه يتمكن به من فهم خطاب العرب، ومعرفة الكتاب -على الوجه الذي سبق بيانه في تعريف المجتهد- وكذلك معرفة السنة، ومعرفة أصول الفقه، ومعرفة مواضع الإجماع، ومعرفة مقاصد الشريعة، مع الاستعداد الفطري للاجتهاد، بأن تكون له عقلية فقهية مع لطافة إدراك وصفاء ذهن ونفاذ بصيرة وحسن فهم وحدة ذكاء[1].

٢- **الانبهار بالحداثة**: على الطرف الآخر ابتُلِيَ المسلمون بقوم تنكروا لكل القديم دون تمييز، وانبهروا بالوافد دون تنقيح، وتخلقت في واقعنا دعوات تتبنى منهاج التقليد للنموذج الغربي، فهو براق وجاهز، يغري بالمحاكاة، وإلى هذه المدرسة انضم سلامة موسى، الذي أعلن أن مذهبه هو الكفر بالشرق والكراهة له والإيمان بالغرب والحب له، فالتفرنج هو عين الفضيلة.

وسار على الدرب طه حسين في حقبة تغربه وانبهاره بالغرب، فبعد أن أنكر مصادر ومبررات ومنطلقات تميزنا الحضاري -الدين واللغة-، زاعمًا أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول، أعلن أن طريق النهضة هي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم في الحكم والإدارة والتشريع[2].

إن منهجي التقليد للموروث دون تنقيح والتقليد للغرب دون تمييز أورثا الأمة خللًا في التعامل مع الأصل والعصر، فالتقليد للموروث دون فقه عطل طاقات الأمة، مما جعلها عاجزة عن تفعيل هدي الإسلام لمواجهة التحديات المعاصرة، ونتيجة لذلك سرت الروح الانهزامية في جسد الأمة.

---

(١) الوجيز في أصول الفقه (ص٣٧٦) وما بعدها.

(٢) الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية، لمحمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة، ط(١)، ١٤١٨هـ، (ص٧١-٧٣).

والتقليد للغرب دون وعي جعل الأمة عرضة للاستلاب والانبهار بالوافد، فأحدث انفصامًا مع هوية الأمة وأَصَالَتِها، وارتفعت الأصوات الداعية لقطيعةٍ معرفية مع الماضي واتباع المناهج الغربية، فهي وحدها القادرة على استنهاض الأمة.

الفرع الثالث: منهج الالتزام بالعصر والتعايش مع العصر

إن المنهج الصحيح هو الذي جاء به القرآن وبَيَّنَتْه السنة النبوية وجَسَّده الرسول ﷺ بسيرته العملية وسار على هديه الخلفاء الراشدون، إنه منهج يجعل حقائق العقل تتكامل مع حقائق الوحي، إنه منهج صرح به النبي ﷺ في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، وأكدته سيرة الخلفاء الراشدين، التي تعاملت مع كل المستجدات بقاعدة (استصحاب النافع وترك الضار)، وبلورته القواعد الشرعية الفقهية: (لا ضرر ولا ضرار) و(المشقة تجلب التيسير) و(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) و(الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها)، وغيرها من القواعد التي تبين أن الإسلام دين الفطرة، وأنه جاء لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة. إنه منهج ينظم علاقة الذات الحضارية بالآخر الحضاري، في إطار التمايز الذي يوفق بين المشترك الإنساني العام والخصوصية الحضارية، فيبرئ الموقف من تبعية الذوبان ومن عزلة الانغلاق، ويوفق بين العصر الحاضر والزمن السالف، فيتبرأ من القطيعة المعرفية مع الموروث الفكري بَرَاءَتَهُ من الاكتفاء بهذا الموروث.

وإذا كانت الحداثة الغربية هي داعيةُ القطيعة المعرفية مع الموروث -لأنها تتغيا إحلال عصرها الغربي محل موروثنا الإسلامي- فإن الجمود والتقليد لدى البعض منا هو الغلو المقابل لغلو هذه الحداثة الغربية، وبين هذين الغلوين يقف المنهاج الوسطي في علاقة العصر بالماضي، وعلاقة المعاصرين بالأسلاف. فكما يميز منهاج التفاعل الحضاري في علاقة الذات بالآخر بين المشترك الإنساني العام

(١) سبق تخريجه (ص١١١).

والخصوصيات الحضارية، كذلك فإن منهاج التجديد -وهو وسط بين حداثة القطيعة المعرفية مع الموروث وبين التقليد لكل الموروث- يميز في الموروث بين المقدس الإلهي المتمثل في البلاغ الإلهي وفي بيانه النبوي -الكتاب والسنة- وبين الفكر البشري والتجارب الإنسانية -ثمرة الاجتهاد-، فيلتزم بالأول -مع فقهه- ويحتضن الثاني -مع النقد له والاختيار منه والبناء عليه والتجديد فيه-، كذلك يميز منهاج التجديد بين ثوابت الموروث وبين المتغيرات فيه، فالمنهاج غير التطبيقات[1].

فالتجديد تطور، لكنه يتم داخل النسق الفكري، وينطلق من ثوابته، ويلتزم بالمقدس الذي تخلق من حوله ذلك النسق الفكري، وبهذا يفترق عن كلٍّ من الحداثة والتقليد، ففيه اتباع في الثوابت وتجديد في المتغيرات، على حين تقيم الحداثة قطيعة معرفية مع الكل الموروث، ويحاكي المقلدون كل الموروث، وإذا كانت الحداثة لا تثمر إبداعًا -لأنها تُحِلُّ عصر الآخر الحضاري محل ماضينا- فإن التقليد الجامد لا يحدث فعالية مبدعة؛ لأنه يكتفي بمحاكاة الموروث، بينما التجديد هو الذي يحرك في الأمة طاقات الفعل الإبداعي لبلورة معاصرة متميزة محكوم تميزها بتميز الأصالة المتمثلة في مقدسنا وفي ثوابتنا التراثية[2].

إننا نعيش في عالم متغير، لا يشبه العالم القديم لا في نظمه ولا في علاقاته وابتكاراته؛ فالدولة ليست الدولة، والنظم ليست النظم، والمفاهيم ليست المفاهيم، هذا العالم -بتعقيداته والتغيرات التي حدثت فيه- يحتاج إلى منهج جديد في التعامل، يخاطب المستجدات التي حدثت فيه، ودين الإسلام -بمبادئه الإنسانية وبمفاهيمه العدلية- قادر على تحقيق هذا التطلع، ومطلوب منا أن نطور خطابنا ليلبي هذه الضروريات.

إن أطروحات المدارس المنكفئة غير قادرة على مواجهة المتغيرات؛ لأنها

(١) الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية (ص٢٦) وما بعدها.

(٢)الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية (ص٢٨).

تخاطب مفاهيم غير موجودة في عصر العولمة، وأطروحات الاستلاب تتجاهل القيم والمبادئ التي تشكل هوية المجتمع، فتجد نفسها في تصادم مع الواقع، مما يؤدى إلى هزيمة مشروعها، كما شاهدنا في كثير من البلدان التي سلكت سبيل الغلاة.

إن عالم اليوم ينشد التسامح والموضوعية والتعاون وكفالة الحريات والحوار، فالخطاب الوسطي هو القادر على مخاطبة هذا العصر، وذلك لما يتميز به منهجه من مرونة وإحاطة وتجديد، فهو مؤهل للتعامل مع كافة الأشكال والنظم والبيئات، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

(١) سورة يوسف، الآية (١٠٨).

خـــــــاتمة

وفيها:

النتائج .

التوصيات.

النتائج

تناول هذا البحث موضوع فقه التعايش تحت عنوان «فقه التنوع»؛ تماهيًا مع مصطلح التنوع، الذي صار مثارَ اهتمام كبير في هذا العصر، وعقدت مؤتمرات وندوات وصدرت مواثيق تهتم بإدارة التنوع ونشر ثقافة قبول الآخر، وبعد جهد متواضع قاد البحث إلى النتائج:

أولًا: في مجال المفاهيم، خلص البحث إلى النتائج الآتية:

١- مفهوم التنوع يشمل التعدد والاختلاف والتباين والتفرق وكل الألفاظ الدالة على المغايرة، ولا يقتصر على اختلاف التنوع الذي ذكره الفقهاء عند تمييزهم بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد.

٢- في هذا العصر صار للتنوع معنًى أوسعَ، بحيث يشمل الأديان والثقافات والأفكار والأعراق والمناهج والحضارات وكل مظاهر النشاط الإنساني.

٣- مفهوم التعدد مشترك إنساني عام، تعرفه كل الثقافات والحضارات والشعوب، أما منهج التعامل مع التعدد والتنوع فيختلف بحسب مرجعيات الأديان والحضارات والثقافات، فهنالك منهج الحضارة الغربية للتعامل مع التنوع، وهنالك منهج الحضارة الشرقية، ومنهج الحضارة الصينية والهندية واليابانية، وهنالك منهج الحضارة الإسلامية.

٤- التعددية في الغرب جاءت لمعالجة أزمات نشأت من سوء إدارة التنوع في الغرب، فالتعددية في الغرب وليدة التجربة بعد صراع دام بين الطوائف الدينية وتمرد على سلطان الكنيسة، الذي فرض تصورًا معيَّنًا للحياة وللعلاقات الاجتماعية وللنظام السياسي.

٥- عرف المجتمع المسلم الديانات المتعددة في مكة وفي المدينة، بل إن مجتمع المدينة قام على التعددية الدينية التي نصت على حقوقها صحيفة المدينة، فالتعددية الدينية التي تختص بالتعدد في الدين والعقائد والشرائع والمناهج

المتصلة به عرفتها مجتمعات المسلمين منذ عصر التنزيل، كذلك عرفت التشريعات الإسلامية الاعتراف بوجود تنوع في الانتماء الديني في مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعًا أو أكثر، مع احترام هذا التنوع وقبول ما يترتب عليه من اختلاف أو خلاف في العقائد، وإيجاد صيغ ملائمة للتعبير عن ذلك في إطار مناسب، وبالحسنى دون نشوب صراع ديني يهدد سلامة المجتمع.

٦- فقه التنوع في الإسلام هو الإدراك الكامل لفقه الحكم المتعلق بمعرفة المخالف وأسباب الاختلاف وطبيعة الخلاف والحكم الشرعي في معاملة المختلف داخل الإسلام ومعاملة المخالف خارج ملة الإسلام ولفقه المحل، ومن ثم تنزيل الحكم على الواقع البشري الملائم للحكم الشرعي.

٧- التعارف مفهوم دعا إليه الإسلام، وهو علة اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل، والتعارف لا يقف عند الأمور الشكلية في الأسماء والألوان واللهجات، وإنما يتعداه إلى كل مظاهر وأسرار الإنسان الذي جعله الله مستخلفًا في الأرض، وللتعارف في الإسلام مقاصد ومجالات وبواعث، باستقرائها وتحديدها وتمثلها نستطيع أن نقدم نظرية تعارف الحضارات لمعالجة أزمات الإنسانية في هذا المجال.

٨- التواصل الحضاري والتلاقح الفكري والاستفادة من التجارب الإنسانية مفاهيم تدخل في مجال التعارف الذي دعا إليه الإسلام، فالمقصود العام من الشعوب والقبائل والتجمعات والمجتمعات الصغيرة والكبيرة سهولة التعارف، ويدخل في هذا المعنى الأممُ والحضاراتُ بحسب اصطلاحاتنا الحديثة، فالمقصود بالتعارف هنا ليس الأفراد، وإنما التجمعات والمجتمعات، ولهذا جاز لنا استعمال هذا المفهوم على مستوى الحضارات.

ثانيًا: في مجال التأصيل، خلص البحث إلى أن إدارة الإسلام للتنوع تقوم على مبادئ وقواعد وأحكام مبثوثة في مرجعية المسلمين (الكتاب والسنة)، وبيانها كالآتي:

١- لقد أرسى الإسلام قواعد وأسسًا للتعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن، بحيث يصبح المسلمون في تناسق واندماج مع العالم الذي يعيشون فيه، بما يضمن تفاعلهم مع الآخر وتواصلهم معه، دون تفريط في الثوابت الإسلامية، وعلى نهج تلك الأسس ووفق تلك الثوابت يمضي المسلمون قدمًا في رسم الحضارة الإسلامية؛ لمعايشة المستجدات التي تطرأ عبر التاريخ.

٢- لقد بيَّن الإسلام مجموعةً من الأسس الفكرية والنظرية والعقلية والدينية للمشاركة والاتفاق بين المسلم وغير المسلم وقبول الآخر، وأصَّلها تأصيلًا رائدًا ورائعًا، وهي: وحدة الأصل الإنساني، والكرامة الإنسانية، والمساواة، وحرية الإعتقاد، والعدل، والوفاء بالعهود.

٣- عالمية الإسلام تجعل التعايش السلمي مبدءًا مركزيًّا في علاقته مع الآخرين، ولجوؤه إلى الحرب يكون اضطرارًا لرد العدوان، وإن كان فقهاؤنا قد كتبوا فقه العلاقات الدولية في ظل مناخ العدوان الذي مارسه الآخر ضد الإسلام، فالواجب الشرعي أن نتعامل بالأصل في عالم اليوم، فالكرامة الإنسانية مقررة في الإسلام للإنسان لذاته، بغضّ النظر عن عقيدته أو مواقف الذين يشاركونه في المعتقد ضد الإسلام والمسلمين.

ثالثًا: في مجال المشتركات، توصل البحث إلى أن هناك -رغم الاختلاف الواقع بين الناس- مشتركات تعزز التعاون والتعايش بين بني آدم، وذلك على النحو التالي:

١- الإنسان فُطِر على التَّدَيُّن والاعتقاد، فمن اتبع الرسل استجاب لنداء الفطرة السليم، ومن اتبع ديانة وضعية استجاب لنداء الفطرة، ولكنه وجهه وجهة غير صحيحة، ولذلك لا يُستغرب وجود بعض القيم في الديانات الوضعية، تتفق مع قيم الديانات المنزلة، ويؤكد ذلك ما بينه الرسول ﷺ بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٢- القيم من مكارم الأخلاق، وقد وجدت حتى في مجتمع المشركين، فقد

ورد في السنة النبوية أن الرسول ﷺ أشاد بكثير من القيم التي كانت سائدة في عصر الجاهلية، وقد شارك في بعضها، وأعلن أنه لو دُعِيَ إلى مثلها في الإسلام لأجاب.

٣- تبادل المنافع، فقد استفادت كل حضارة من الحضارة التي سبقتها أو عاصرتها، بحكم التواصل الجغرافي والاحتكاك والتبادل، والحضارة الإسلامية أسهمت إسهامًا كبيرًا في نقل منجزات الحضارات التي سبقتها بعد تنقيحها وتهذيبها، وأضافت إلى الإنسانية منجزات الحضارة الإسلامية في مجالات متعددة، منها: ترسيخ مفهوم التسامح والتعايش مع الآخر، وصيانة كرامة الإنسان، بغض النظر عن معتقده أو لونه أو ثقافته.

٤- إن تواصل المسلمين مع الآخر أثمر حضارة إسلامية إنسانية، استصحبت النافع من عطاء الإنسان، وحتى ذلك التواصل الخشن فإن فيه مظاهر إيجابية، فالحروب الصليبية أتاحت للغربيين الوقوف على تجارب المسلمين، وعرفوا منها أن الإسلام لا توجهه سلطة دينية بابوية، كذلك نقلوا المعارف اليونانية التي ترجمها المسلمون ونقحوها، والمغول -بالرغم من تفوقهم العسكري ونزعتهم المتوحشة وانتصاراتهم على المسلمين- ما لبثوا أن اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من حماته.

٥- إن عالمية الإسلام تؤكدها تعاليمه وتصدقها وقائع التاريخ، واليوم نعيش عالمًا جديدًا تديره حكومة عالمية، وتعولمت كل مظاهر نشاطه، فتزداد أهمية التواصل بين الإسلام وبين الديانات والحضارات والثقافات المنتشرة في ربوع الدنيا؛ وذلك لاعتبارات كثيرة: فإضافة لموقف الإسلام المبدئي من الدعوة للتعاون بين بني البشر فإن هنالك مصلحة حقيقية للمسلمين من التواصل الإيجابي مع الأديان والحضارات والثقافات، فالعالم الإسلامي محتاج لنقل التكنولوجيا وتوطينها في بيئته، ومحتاج للخبرات العلمية والمعرفية في معظم مجالات النشاط الإنساني، كما أن هنالك عددًا لا يستهان به من المسلمين يقيمون في هذه العوالم الحضارية، فإن أحسنا التعامل فيمكن أن يتحول هؤلاء المسلمون إلى سفراء، يبرزون الجانب الإيجابي المُغيَّب من الإسلام للغربيين.

رابعًا: في مجال إدارة التنوع داخل ملة الإسلام، توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١- اختلاف المسلمين إلى فرق لا يسقط عنهم صفة الإسلام، ومستند ذلك ما صح عن رسول الله من أن من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ووردت بذلك أحاديث صحيحة كثيرة، بلغت مبلغ التواتر المعنوي.

٢- المسلمون -كأمة- لم يختلفوا في أصول الدين ولا في أمهات الاعتقادات، فلقد كانت حقائق الدين وأركانه وثوابت الشريعة وحدودها هي الجامع المُوحِّد للأمة في الاعتقاد الديني، وفي إطار هذا الجامع كانت التعدّديةُ، وكان التنوّعُ، وكان الاختلاف في فروع الفقه -عبادات ومعاملات-، وهو ما أنتج المذاهب الفقهية المشهورة وغير المشهورة، بما مثلت من ثراء في الاجتهادات وغنى في التنوّع في إطار الأصول الفقهية ومصادر الاستنباط.

٣- الدعوة إلى التقريب بين المذاهب أدت إلى نتائج إيجابية في المستوى الأكاديمي والعملي، فإن كليات الشريعة اعتمدت منهج الفقه المقارن في كثير من البلدان الإسلامية، وقد وقفت بنفسي على منهج معهد العلوم الشرعية في سلطنة عمان -والذي تطور لاحقًا إلى كلية العلوم الشرعية- فوجدته يعتمد على تدريس كل المذاهب الإسلامية بحيادية، دون أن يُلزم الطلاب بالمذهب الإباضي، مما أدى إلى معرفة طرق استنباط المذاهب الفقهية المختلفة وتقريب الشقة بين أتباعها، وأيضًا فإنَّ قوانين كثيرٍ من الدول الإسلامية لم تتقيد بمذهب واحد، وإنما أخذت ما يلائمها من مختلف المذاهب، خاصة في قانون الأحوال الشخصية، مما ساعد على ترسيخ التيسير في الأحكام والفتاوى وإبراز ثراء الشريعة الإسلامية.

٤- ظاهرة التعدّدية في المذاهب الفقهية واحدة من سمات الغنى والثراء الفكري في الفروع الإسلامية، وهي التطبيق الخلَّاق والثمرة الطيبة لتعدّدية الاجتهادات، خاصة وأنّ فقه الفقهاء في الإسلام لم يقف عند ميدان فقه الأحكام -بما يقتضيه من تعدّدية مناهج النظر والاستنباط-، وإنما كان هناك فقه الواقع أيضًا، وكذلك مناهج تنزيل الأحكام على الواقع، أو التوفيق بينها، وجميعها ميادين

لتعدّد الأفهام واختلاف الأولويات في ترتيب مصادر الاستنباط وتنوّع المواقف من المرويات والمأثورات، ناهيك عن تنوّع واختلاف الوقائع والعادات والأعراف، ومن ثم المصالح التي قارنت وصاحبت اجتهادات الفقهاء.

خامسًا: في مجال المقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في إدارة التنوع، خلص البحث إلى الآتي:

١- الحضارة الغربية -رغم خلفيات مكوناتها النافية للآخر- صارت اليوم حضارة جاذبة لكثير من الناس مقارنة مع الواقع الذي تعيشه الشعوب الأخرى، وذلك نتيجة للظروف التي مرت بها والتطورات التي واكبتها، وصارت تشكل تحديًا للمسلمين، فلا بد من استنباط فقه إسلامي يعالج القضايا التي تشكل تحديًا للمسلمين، وعلى رأسها موضوع التعايش السلمي والحرية الدينية واحترام حقوق الإنسان.

٢- دعاة العلمانية في العالم الإسلامي ظنوا أن كل الأديان تدعو إلى مفاهيم تشبه مفاهيم الكنيسة في الغرب قبل ظهور العلمانية، وأسقطوا مفاهيم الكنيسة على الإسلام؛ ظنًّا منهم أن الإسلام مثله مثل المسيحية التي عرفتها الكنيسة الغربية، وبالنظر الموضوعي إلى مطالبهم فهم لا يرفضون الإسلام، بل أغلبهم مسلمون، ولكنهم تبنوا الدعوة للعلمانية بسبب اللبس الذي حدث لهم مع بعض تصرفات ومفاهيم بعض الدعاة.

٣- القيم الإسلامية قيم حضارية، يلتزم بها المسلم مع المسلم ومع غير المسلم، فهي لا تتعلق برؤية عنصرية، ولا بحدود حضارية تراعي داخلها بينما تستباح من خارجها، بل إنها قيم مطلقة لا تعرف التمييز، ولا تعترف به، طابعها إنساني يرفض العصبية.

الإسلام لديه نظرية متكاملة لإدارة التنوع وكفالة العيش المشترك، وتكمن المشكلة في التطبيق وفي فقه التنزيل على أرض الواقع، ويعود ذلك لقصور في المسلمين، وليس في المبادئ التي جاء بها الإسلام.

التوصيات

بعد هذه الدراسة أوصي بالآتي:

١- ادراج فقه التنوع والتعايش ضمن مواد التدريس في المؤسسات التعليمية -خاصة المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية-.

٢- تشجيع الباحثين على الاهتمام بالدراسات التي تعنى بتطور العلاقة مع الآخر.

٣- الاهتمام بدراسة الواقع لمعرفة التحولات التي حدثت في العالم خاصة في مجال العلاقات الإنسانية.

٤- عقد اللقاءات والمؤتمرات المتخصصة في المقاصد والأهداف المحددة.

٥- الإهتمام بالدراسات الفقهية والقانونية على المستويات القضائية والأمنية والدولية المعززة لفقه التنوع والتعايش.

٦- إحداث مراجعة في بعض المسلمات التراثية الموصولة بقضايا التنوع وإخضاعها للبحث والتدقيق في ضوء المقاصد العامة للشريعة الإسلامية.

٧- الإهتمام بفقه الواقع وتطوير الدراسات المقارنة للاستفادة مما أنتجته التجارب الإنسانية في هذا المجال.

٨- المشاركة بفعالية في قضايا البناء الحضاري والتراث الإنساني من منطلقات الأصالة والمعاصرة.

٩- إصدار ميثاق إسلامي لتعزيز قضايا التنوع والتعايش على المستويين الإسلامي والعالمي.

١٠- أوصي بإقامة كرسي لدراسات التنوع والتعايش بجامعة أم درمان الإسلامية ويطرح على الجهات المعنية بذلك.

الفهارس

خامسًا: فهرس المصادر والمراجع.
سادسًا: فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

١. الإباضية في موكب التاريخ لعلي يحيى يعمر، مكتبة الضامري للنشر، ط(٣) ٢٠٠٨م.

٢. الإباضية في ميزان الحق لناصر بن مطر المسقري، سلطنة عمان - مسقط، ط(٤) ١٤٣٢ه.

٣. الإباضية مذهب معتدل لعلي بن يحيى معمر، مطابع النهضة- مسقط.

٤. الإباضية ومنهجية البحث لعلي بن محمد بن عامر الحجري، مكتبة الجيل الواعد، ط(١) ١٤٢٠ه.

٥. أبجديات الصراع الديني-المسيحية والإسلام لجمال عمر، ط(١) ١٤٢٩هـ.

٦. الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية للدكتور محمد عمارة، دار الرشاد-القاهرة، ط(١) ١٩٩٨م.

٧. ابن العماد، شذرات الذهب: ٦/ ٢٢٣-٢٢٤، الحسيني، طبقات الشافعية، وفيه كنيته بأبي عبد الله: ٢٣٦-٢٣٧].

٨. الإبهاج في شرح المنهاج للسبكي تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٠٤هـ.

٩. أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، ٥/ ٢٤٩٦.

١٠. الآثار الكاملة للإمام المهدي جمع وتحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم، دار جامعة الخرطوم للنشر- السودان، ط(١) ١٩٩١م.

١١. أثر الحضارة الغربية على المجتمعات الإسلامية لجاد محمد عبد العزيز، دار السلام-القاهرة، ط(١) ١٤٣١هـ.

١٢. الاجتهاد المقاصدي: حقيقته وتأريخه وحجيته وضوابطه ومستلزماته ومجالاته ومعالمه وتطبيقاته المعاصرة لنور الدين مختار الخادمي، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط(١)١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

١٣. اجتهادات ابن تيمية في فقه العلاقات الدولية وأثرها على الواقع المعاصر، بحث قدمه: عبد المحمود أبّو، في الندوة التكميلية الرابعة التي نظمها مركز الإمام بالجمهورية اليمنية- تحت عنوان: إصلاحات ابن تيمية وأثرها في بناء الدولة بتاريخ: ٢٩ - ٣٠ / ٠٤/ ٢٠١٤م.

١٤. الآحادية الفكرية في الساحة الدينية لحسن موسى الصفار، الدار العربية للعلوم ناشرون -بيروت، ط(١) ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٥. احترام المذاهب، تحرير وإعداد غازي بن محمد بن طلال، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي -الأردن، ط(١) ٢٠٠٦م.

١٦. أحكام أهل الذمة لابن القيم، دار الكتب العلمية-لبنان، ط(٢) ١٤٢٣ه.

١٧. الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي- بيروت.

١٨. إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة-بيروت.

١٩. اختلاف الاجتهاد وتغيره وأثر ذلك في الفتيا للدكتور محمد عبد الرحمن المرعشلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط(١) ١٤٢٤.

٢٠. الاختلاف وأدبه وتدبيره لفاطمة الزهراء، www. Startimes. com.

٢١. أخلاقنا للدكتور محمد ربيع محمد جوهري، مكتبة دار الفجر-المدينة المنورة، ط(٤) ١٤٢٠هـ.

٢٢. أدب الاختلاف في الإسلام لطه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي-فرجينيا، ١٩٩١م.

٢٣. أديان الهند الكبرى (الهندوسية- الجينية - البوذية) مع ملحق عن قضية الألوهية كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، ط(١١) ٢٠٠٠م.

٢٤. الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة لعبد القادر بن شيبة الحمد، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع-المدينة المنورة، ط(٥) ١٤٣٢هـ.

٢٥. الآراء والمعتقدات نشوؤها وتطورها، غوستاف لوبون، ترجمة نبيل أبو صعب، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية-دمشق، ط(٢) ٢٠١٦م.

٢٦. إرشاد الفحول للشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط(١) ١٤١٩هـ.

٢٧. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، مكتبة الثقافة الدينية- مصر، ط(١) ٢٠٠٩م.

٢٨. إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات للدكتور محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة، ط(١) ١٤٣١هـ.

٢٩. أزمة الخليج أزمة الأمن القومي العربي لأمين هويدي، دار الشروق - القاهرة، ط(١) ١٩٩١م.

٣٠. أسباب اختلاف الفقهاء للشيخ علي الخفيف، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، بدون تاريخ.

٣١. الاستبداد مظاهره ومواجهته لأحمد بن حمد الخليلي، شركة فؤاد البعيو للتجليد، بيروت - لبنان، ط(١) ١٤٣٤هـ.

٣٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبي عمرو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

٣٣. إسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية- القاهرة، ط(٢) ١٤٣٨هـ.

٣٤. الإسلام والثقافة العربية في عالمنا المعاصر للشيخ محمد الغزالي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد السابع السنة الثانية رمضان ١٤١٧هـ -١٩٩٧م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي-واشنطن.

٣٥. الإسلام والحضارات الأخرى لمحمد عمارة، دار السلام-القاهرة، ط(١) ٢٠١٢م.

٣٦. الإسلام والمدنية.. حوارات حول الفكر الإسلامي قضاياه ومسائله وإشكالياته لزكي الميلاد، الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت، ط(١) ٢٠٠٧م.

٣٧. الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق لمحمد عمارة، دار الشروق-القاهرة، ط(٣) ٢٠١٥م.

٣٨. إشكالات الردة للدكتور عوض محمد عوض، ورقة مقدمة للندوة الرابعة عشرة المنعقدة في مسقط - سلطنة عمان في الفترة من ٥-٨ أبريل ٢٠١٥م تحت عنوان فقه العصر: مناهج التجديد الديني والفقهي.

٣٩. أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج لسالم بن حمد السيابي، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٧٩م.

٤٠. أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، دار الأضواء - بيروت، ط(٢) ١٤١٣هـ.

٤١. أصول الشيعة الاثنى عشرية لناصر الفقاري، بدون دار نشر، ط(١) ١٤١٤هـ.

٤٢. الأصول العقائدية والثوابت الثقافية لرؤية الآخر لمرسي الأسيوطي، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.

٤٣. الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة للشريف أنس بن يعقوب الكتبي الحسني، منشورات الخزانة الحسنية الخاصة، المدينة المنورة، ط(١) ١٤٣٧هـ.

٤٤. أصول مذهب الشيعة الاثني عشرية وموقف أهل السنة منهم - دراسة مقارنة لمحمد الأنور محمد جمعة، مكتبة جزيرة الورد - القاهرة.

٤٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار ابن الجوزي، جمهورية مصر العربية - القاهرة، ط(١) ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٤٦. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي، تحقيق: سامي النشار، دار الكتب العلمية-بيروت.

٤٧. إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث-القاهرة، ١٤٢٥هـ.

٤٨. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ج٢، ص ٢٧٩.

٤٩. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٥/ ١٩٨.

٥٠. الأعمال الكاملة للكواكبى: سلسلة التراث القومي، مركز دراسات الوحدة العربية.

٥١. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد-مكة، ط(١) ١٤٣٢.

٥٢. الانتقاء في مناقب الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر، دار الكتب العلمية-بيروت.

٥٣. البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، دار الكتبي، ط(١) ١٤١٤هـ.

٥٤. البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الريان للتراث -القاهرة، ط(١) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥٥. بدائع الفوائد لابن القيم، دار الكتاب العربي - بيروت.

٥٦. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، محمد بن علي الشوكاني المتوفي سنة (١٢٥٠هـ)، وضع حواشيه خليل المنصور، ج١، ط١، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٩٨٩، ص٢٣٥.

٥٧. البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير لابن الملقن، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وآخرين، دار الهجرة-الرياض، ط(١) ٢٠٠٤م.

٥٨. البيان الختامي لندوة تطور العلوم الفقهية في نسختها الثالثة عشرة تحت عنوان (الفقه الإسلامي... المشترك الإنساني والمصالح) والتي عقدت في مسقط عاصمة سلطنة عمان، في الفترة من السادس وحتى التاسع من جمادى الآخرة لعام ١٤٣٥ هـ الموافق السادس وحتى التاسع من إبريل لعام ٢٠١٤.

٥٩. البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة لجوليت حداد، إصدار معهد االدراسات الإسلامية المسيحية-بيروت ط(١) ١٩٩٥.

٦٠. بين التاريخ والواقع لراغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للطباعة والنشر- القاهرة، ط(١) ٢٠٠٨م.

٦١. تاريخ الجدل لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٦٢. تاريخ الرسل والملوك للطبري،، دار التراث-بيروت، ط(٢) ١٣٨٧هـ.

٦٣. التاريخ الكبير للبخاري، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر-بيروت.

٦٤. تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي-القاهرة، ١٤٣٠هـ.

٦٥. تاريخ أوربا في العصر الحديث للمستشرق فيشر، ترجمة: أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، دار المعارف-القاهرة، ط(٩) ١٩٩٣م.

٦٦. تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث لعبدالعظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

٦٧. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبوبكر البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤، ص٤١٢.

٦٨. تاريخنا المفترى عليه للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق - مصر، ط(٢) ٢٠٠٦م.

٦٩. تجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط(٥) ٢٠٠٧م.

٧٠. التجديد والمجددون في أصول الفقه لأبي الفضل عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم، المكتبة الإسلامية، القاهرة- مصر، ط(٣) ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٧١. تحديات التسعينات للصادق المهدي، شركة النيل للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة-مصر، ط(١) ١٩٩٠م.

٧٢. تخريج أحاديث كتاب (إحياء علوم الدين للغزالي) لأبي الفضل العراقي، دار ابن حزم-بيروت، ط(١) ٢٠٠٥م.

٧٣. تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م: ١/ ١١٥.

٧٤. التذكير القويم في تفسير القرآن الحكيم للعلامة وحيد الدين خان، دار الوفاء- جمهورية مصر العربية، ط(١) ١٤٢٩هـ.

٧٥. تطور الأديان.. نظرية جديدة في منطق التحولات لمحمد عثمان الخشت، نيوبوك للنشر والتوزيع- القاهرة، ط(١) ٢٠١٨م.

٧٦. تعارف الحضارات لزكي الميلاد، ط(١) ٢٠٠٦، دار الفكر- دمشق.

٧٧. التعاريف للمناوي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق - سوريا، ط(١) ١٤١٠هـ.

٧٨. التعايش الإنساني والتسامح الديني في الإسلام لعبد الفتاح صالح قديش، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-سوريا، ط(١) ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٧٩. التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم داخل دولة واحدة، إعداد سُو رَحْمَن هدايات؛ إشراف أ. د/ محمد عبد الرحمن مندور، رسالة ماجستير، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط(٢) ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٨٠. التعددية الحزبية في ظل الدولة الإسلامية لعلي جابر العبد الشارود، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة-جمهورية مصر العربية، ط(١) ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

٨١. التعددية السياسية من منظور إسلامي للدكتور محمد سليم العوا، مجلة العربي-الكويت، العدد(٣٩٥) أكتوبر ١٩٩١م.

٨٢. التعددية المذهبية في الإسلام وآراء العلماء فيها لسيد جلال الدين مير آقابي، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية-طهران، ط(١) ١٤٢٨هـ.

٨٣. التعددية رؤية مقارنة في المنظور الغربي والمنظور الإسلامي لوفاء لطفي عبد الواحد، بحث منشور في موقع الشبكة العربية العالمية: http: //www. globalarabnetwork. com/studies

٨٤. التعريفات للجرجاني، صححه وضبطه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط(١) ١٩٨٣.

٨٥. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام لمحمد الغزالي، دار نهضة مصر للنشر- مصر، ط(١٣).

٨٦. تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط(٢) ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٨٧. التفسير الكبير للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط(٣) ١٤٢٠هـ.

٨٨. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب-بيروت، ط(١) ١٩٩٨م.

٨٩. التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازي، دار التفسير للطبع والنشر، الزقازيق-مصر، ط(١٠)، ١٩٩٢م-١٤١٢هـ.

٩٠. تقارب الشعوب (موعد الحضارات.. دعوة المفكر الإسلامي التركي فتح الله جولن نموذجًا) للدكتورة هدى درويش، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة-مصر، ط(١) ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٩١. التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للأسنوي، تحقيق: د. محمد حسن هيت، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٠٠هـ.

٩٢. تهذيب الأسماء واللغات للنووي، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية-بيروت.

٩٣. تهذيب الأسماء واللغات، أبي زكريا يحي بن شرف النووي، المتوفي ٦٧٦هـ، ط، دار الطباعة المصرية، القاهرة

٩٤. تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري تحقيق محمد عوض مرعب، دار التراث العربي، بيروت- لبنان، ط(١) ٢٠٠١م.

٩٥. التوراة والإنجيل والقرآن، بين الشهادات التاريخية والمعطيات العلمية للشيخ جعفر حسن عتريسي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع-لبنان، ط(١) ١٤٢٤هـ.

٩٦. تيارات الفكر الإسلامي للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط(٤) ٢٠١١م.

٩٧. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، راقبه د.محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، ج٣، ط١، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند١٩٧٣، ص٥١.

٩٨. جامع البيان (تفسير الطبري)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط(١) ١٤٢٠هـ.

٩٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط(٢) ١٩٦٤م.

١٠٠. الجذور الشرقية للحضارة الغربية لجون إم. هوبسون، ترجمة: منال قابيل، مكتبة الشروق الدولية- القاهرة، ط(١) ٢٠٠٦م.

١٠١. جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق: رمزي منير، دار العلم للملايين-لبنان، ط(١) ١٩٨٧م.

١٠٢. الجوانب السياسية في خطب الخلفاء الراشدين لمحمود عبد الهادي دسوقي علي، دار الكلمة للنشر والتوزيع-القاهرة، ط(١) ٢٠١٣م.

١٠٣. حجة الله البالغة للإمام الدهلوي، تحقيق السيد سابق، دار الجيل - بيروت، ط(١) ٢٠٠٥م.

١٠٤. الحداثة وموقفها من السنة، للدكتور الحارث فخري عيسى عبد الله، دار السلام، القاهرة، ط(١) ١٤٣٤هـ.

١٠٥. الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية أوراق في النقد الذاتي لعبد الله النفيسي، مكتبة آفاق-الكويت، ط(١) ٢٠١٢م.

١٠٦. الحضارات الإنسانية تصارع أم تحاور للصادق المهدي، بحث مقدم لمؤتمر حوار الحضارات بجامعة النيلين بتاريخ: ٣-٦ فبراير ٢٠٠٣م.

١٠٧. الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف -مصر، ١٩٩٧م.

١٠٨. الحضارة المدنية: اختلاف الدلالات باختلاف الحضارات للدكتور نصر محمد عارف إسلام أون لاين: www. Islamonline. net.

١٠٩. الحق الإسلامي في الاختلاف لطه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط(٤) ٢٠١٧م.

١١٠. الحق الدامغ للشيخ أحمد بن حمد الخليلي، مكتبة مسقط، ط(١) ١٤٠٩هـ.

١١١. حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب.. النظرية والتطبيق للدكتور نبيل لوقا بباوي، القاهرة، ٢٠١٠م.

١١٢. حقوق الوثائق العالمية والإقليمية لمحمود شريف بسيوني وسعيد الدقاق وعبد العظيم وزير، دار العلم للملايين -بيروت، ١٩٨٨م.

١١٣. الحقيقة الكونية للحضارات للدكتور محمود الزهار، روابي القدس للطباعة والنشر والتوزيع - لبنان، ط(١) ٢٠١١.

١١٤. الحقيقة المثالية في الإسلام للدكتورين شعوط وزيادة، مكتبة الجامعة الأزهرية.

١١٥. الحكم الشرعي بين النظرية والتطبيق: دراسة أصولية على ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الرقيب صالح محسن، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت - لبنان، ط(١) ٢٠١٦م.

١١٦. حكمة الأديان الحية لجوزيف كاير، ترجمة المحامي حسين الكيلاني، مراجعة الأستاذ محمود الملاح، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، بدون تاريخ.

١١٧. الحوار آدابه وضوابطه ليحيى بن محمد حسن الزمزمي، دار التربية والتراث، ١٩٩٤م.

١١٨. الحوار في الإسلام لعبد المحمود أبو، الرافدين-لبنان، ط(٢) ٢٠١٦م.

١١٩. حول منهج النظر في التعدد والحرية للدكتور وهبة رؤوف عز الدين (ص١١)، مجلة رؤى- باريس، العدد(١٤) ٢٠٠٢م.

١٢٠. الخوارج والحقيقة الغائبة لناصر بن سليمان السابعي، مجلة البيان- السعودية، ط(١) ١٩٩٩م.

١٢١. دراسات إسلامية في أصول الإباضية لبكير بن سعيد أعوشت، ط(٤) ١٤٠٩هـ.

١٢٢. دراسات في الأخلاق لأحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع- القاهرة، ط(١) ٢٠١٦م.

١٢٣. دراسات في النصرانية للدكتور محمد محمود مزروعة، دار اليسر- القاهرة، ط(١) ٢٠١٥م.

١٢٤. دراسات في اليهودية للدكتور محمد محمود مزروعة، دار اليسر-القاهرة، ط(١) ٢٠١٦م.

١٢٥. دعوة إلى كلمة سواء بين المذاهب الإسلامية؛ - محاولة في التقريب والتعاون بين مذاهب الأمة الإسلامية؛ محاضرة قدمها الأستاذ الدكتور عبداللطيف الشيخ توفيق الشيرازي الصباغ؛ في كلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة في ١٤ ربيع الثاني ١٤٢٨ هـ الموافق ١ مايو ٢٠٠٧م منشورات مجمع الفقه الإسلامي الدولي؛ منتدى الفكر الإسلامي - جدة.

١٢٦. الدفاع عن فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية في زمن المحنة؛ ورقة مقدمة لمؤتمر التقريب في الفكر والوحدة في العمل، عقد في إسطنبول ما بين الفترة ١٤ـ ١٥ أبريل ٢٠٠٧م. تقديم زكي الميلاد.

١٢٧. الدليل الأساسي لهيئة شؤون الأنصار للدعوة والارشاد - السودان. إصدار المركز العام لهيئة شؤون الأنصار ٢٠٠٣م - أم درمان - السودان.

١٢٨. الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية للدكتور محمد عمارة، دار الشروق-القاهرة، ط(٢) ٢٠٠٧م.

١٢٩. الديمقراطية والأحزاب في البلدان العربية، المواقف والمخاوف المتبادلة لبرهان غليون وآخرين، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط(١) ١٩٩٩م.

١٣٠. الدين-بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان لمحمد عبدالله دراز، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة-القاهرة، ٢٠١٤.

١٣١. ديوان لبيد بن ربيعة، دار المعرفة-بيروت، ٢٠٠٤م.

١٣٢. الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أبواليزيد أبوزيد العجمي، دار السلام للطباعة والنشر-القاهرة، ط(١) ٢٠٠٧م.

١٣٣. رحابة الإنسانية والإيمان- دراسات في أعمال مفكرين علمانيين وإسلاميين من الشرق والغرب لعبد الوهاب المسيري، دار الشروق- القاهرة، ط(١) ٢٠١٢م.

١٣٤. رسائل الجاحظ، تحقيق: الدكتور طه محمد الحاجري، دار النهضة- بيروت، ١٩٨٢م.

١٣٥. روح التشريع بين الإسلام والغرب لعوض صلاح علي القوني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط(١) ١٤٣٤هـ.

١٣٦. رؤية إسلامية لمشكلة التعددية للدكتور بسطامي سعيد (ص٨)، مجلة البيان، لندن المنتدى الإسلامي العدد (٢١٦)، شعبان ١٣٢٦هـ.

١٣٧. زكاة الأنعام لأحمد بن حمد الخليلي، مكتبة الاستقامة-سلطنة عمان.

١٣٨. سمات العصر.. رؤية مهتم للدكتور علي جمعة، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية-مصر، ط(١)٢٠٠٦م.

١٣٩. السنة والإباضية مجالات التقاطع وأوجه الاتفاق، بحث قدمه الباحث: إبراهيم صديق آدم علي، في الورشة التأسيسية التي نظمتها هيئة شؤون الأنصار للدعوة والارشاد في أبريل ٢٠١٨م بالمركز العام - أم درمان.

١٤٠. سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

١٤١. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-صيدا.

١٤٢. سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط(٢) ١٩٧٥م.

١٤٣. سنن الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط(١) ٢٠٠٤م.

١٤٤. السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط(٣) ٢٠٠٣م.

١٤٥. سنن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية-حلب، ط(٢) ١٩٨٦هـ.

١٤٦. سؤال الأخلاق لطه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي-المغرب، ط(١) ٢٠٠٠م.

١٤٧. السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف، دار الأنصار-القاهرة، ١٩٧٧م.

١٤٨. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبوعبدالله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة التاسعة، تحقيق شعيب الأرناؤوط محمد نعيم المرقسوسي.

١٤٩. السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط(٢) ١٩٥٥م.

١٥٠. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

١٥١. شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط(١) ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١٥٢. الشرح الصغير لأحمد بن محمد الدردير، دار الفضيلة-القاهرة.

١٥٣. شرح المقاصد للتفتازاني، دار المعارف العثمانية-باكستان، ١٩٨١م.

١٥٤. شرعية الاختلاف بين المسلمين لعمران سميح نزال، دار القراء للطباعة والنشر، دمشق - سوريا، ط(١) ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٥٥. الشرق الأوسط جريدة العرب الدولية العدد (٩٤٦٨) بتاريخ: ٣٠ أكتوبر٢٠٠٤م .

١٥٦. الشريعة الإسلامية كمال في الدين وتمام للنعمة للدكتور محمد رياض، دار الكلمة -القاهرة، ط(١) ٢٠١٤م.

١٥٧. صبح الأعشى للقلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩١٤م.

١٥٨. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط(١) ١٤٢٢هـ.

١٥٩. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦٠. صراع القيم بين الإسلام والغرب للدكتور رضوان زيادة والدكتور كيفن جيه أوتول، دار الفكر-دمشق، ط(١) ١٤٣١ه-٢٠١٠م.

١٦١. صفوة التفاسير لمحمد على الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر-القاهرة، ط(٩).

١٦٢. صناعة الفقيه لرأفت فريد سويلم، مكتبة الرضا، الزقازيق-مصر، ط(١)١٤٣٠هـ.

١٦٣. الصين والعرب عبر التاريخ لمحمد محمود زيتون، كتاب اقرأ سلسلة ثقافية شهرية، دار المعارف-مصر، ٢٠١٦م.

١٦٤. ضحى الإسلام لأحمد أمين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة-مصر، ط(١) ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

١٦٥. الضعفاء الكبير للعقيلي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط(١) ١٩٨٤م.

١٦٦. ضوابط التفاعل الحضاري وسائله وآثاره التربوية، تأليف أ/ عبد الولي محمد يوسف؛ كتاب الأمة، العدد (١٦٥) سلسلة دورية تصدر كل

شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر، ط(١) المحرم ١٤٣٦هـ - تشرين أول (أكتوبر) - تشرين ثاني (نوفمبر) ٢٠١٤م.

١٦٧. طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٦٨. طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناجي، دار هجر، ط(٢) ١٤١٣هـ.

١٦٩. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبدالوهاب بن على السبكي، ط دار المعارف، بيروت، لبنان.

١٧٠. طبقات الشافعية، عبدالرحيم الأسنوي جمال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د:ط) (د:ت).

١٧١. الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط(١) ١٩٩٠م.

١٧٢. طبقات المفسرين، الداودي، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مطبعة الاستغلال الكبرى، القاهرة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

١٧٣. طبقات المفسرين، محمد بن علي بن أحمد الداودي تحقيق علي محمد عمر ط ١ مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م .

١٧٤. عبد الله بن سبأ.. دراسة للروايات التاريخية عن دوره في الفتنة للدكتور عبد العزيز صالح الهلابي، صحاري للطباعة والنشر، لندن، ط(٢) ١٩٨٩م.

١٧٥. العقائد والديانات لابن الجوزي، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ٢٠٠٦م.

١٧٦. العقل الفقهي معالم وضوابط لأبي أمامة نوار بن الشلي، دار السلام - القاهرة، ط(١) ٢٠٠٨م.

١٧٧. العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الاجتماعي الإسلامي للإمام الصادق المهدي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة-مصر، ط(١) ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٧٨. العلاقات الدولية في الإسلام لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي-القاهرة، ١٤٣٨هـ.

١٧٩. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية-باكستان، ط(٢) ١٩٨١م.

١٨٠. العلمانية والدولة المدنية تواريخ الفكرة وسياقاتها وتطبيقاته لعبد الرحيم العلام، مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث-لبنان، ط(١) ٢٠١٦م.

١٨١. العمل الديني وتجديد العقل لطه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي-بيروت، ط(٤) ٢٠٠٦م.

١٨٢. الغرب والإسلام، أين الخطأ وأين الصواب لمحمد عمارة، مكتبة الشروق، ط(١) ٢٠٠٤.

١٨٣. فتاوى في الصلاة والزكاة والصيام لأحمد بن حمد الخليلي، دار الأجيال-عمان.

١٨٤. فتح الباري لابن حجر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩.

١٨٥. فتوح البلدان للبلاذري، مكتبة الهلال-بيروت، ١٩٨٨م.

١٨٦. فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ.

١٨٧. فجر الإسلام لأحمد أمين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة-القاهرة، ط(١) ٢٠١٤م.

١٨٨. الفرق بين الفرق للبغدادي، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ١٩٧٧م.

١٨٩. الفروق للقرافي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، ط(١) ٢٠٠٢م.

١٩٠. الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي- القاهرة..

١٩١. الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر -دمشق، ط(٣٣) ١٤٣٣هـ.

١٩٢. الفقه الإسلامي والتعصب المذهبي لمحمد إبراهيم الحفناوي، دار الفاروق-مصر، ط(١) ١٤٣٨هـ.

١٩٣. فقه التدين فهمًا وتنزيلًا لعبد المجيد النجار، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، ١٩٨٨م.

١٩٤. فقه التنزيل-دراسة أصولية تطبيقية، لأحمد مرعي حسن أحمد المعماري، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت-لبنان، المملكة العربية السعودية-الرياض، ط(١) ٢٠١٥م.

١٩٥. فقه السنة للسيد سابق، مكتبة دار التراث- القاهرة، ٢٠٠٥م.

١٩٦. فقه السيرة لزيد بن عبد الكريم الزيد، دار التدمرية-الرياض، ط(١٠) ١٤٣٧هـ.

١٩٧. فقه الواقع وأثره في الاجتهاد لماهر حسين حصوة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، مكتب التوزيع في العالم العربي (بيروت - لبنان)، ط(١) ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

١٩٨. الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

١٩٩. فلسفة الهند القديمة للرامبوري، بحث منشور ضمن مجلة ثقافة الهند،

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية، المجلد الخمس، العدد الثاني، يونيو سنة ١٩٥٤.

٢٠٠. فن الحوار لفيصل الحاشدي، مكتبة الإيمان- الأسكندرية، طبعة ٢٠٠٣م.

٢٠١. الفهرست لابن النديم، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة- بيروت، ط(٢) ١٤١٧هـ.

٢٠٢. في التصوف الإسلامي للدكتور حسن الشافعي والدكتور أبو اليزيد العجمي، دار السلام-القاهرة، ط(١) ١٤٢٨هـ.

٢٠٣. في ظلال القرآن لسيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط(٥)، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م.

٢٠٤. القاموس المحيط للفيروز آبادي دار الفكر- بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٢٠٥. قضايا الفقه والفكر الإسلامي المعاصر للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر- دمشق، ط(٣)، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٢٠٦. قلائد العقيان في قوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» للعلامة الشيخ مرعي المقدسي، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث-دبي، ط(١)، ١٤٣٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٠٧. قواعد الأحكام في مصالح الأنام «التعريف بالمؤلف عزالدين بن عبدالسلام قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م

٢٠٨. قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٩١م.

٢٠٩. القيم الحضارية في الإسلام لمحمد عبدالفتاح الخطيب، دار البصائر- القاهرة، ط(١) ٢٠١١م.

٢١٠. الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط(٢) ١٤١٥هـ.

٢١١. الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، الكتب العلمية-بيروت، ط(١) ١٤١٨هـ.

٢١٢. كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط(١) ١٣٩٩هـ.

٢١٣. الكليات للكفوي، تحقيق: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٢١٤. لسان العرب لجمال الدين محمد بن منظور، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٢١٥. لقاءات سماحة الشيخ في الفكر والدعوة لفهد بن علي السعدي (ص٢١٠)، مكتبة الأنفال، سلطنة عمان.

٢١٦. الله لعباس محمود العقاد، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط(١) ٢٠١٤م.

٢١٧. الله ليس كذلك لسيجريد هونكة، ترجمة: غريب محمد غريب، دار الشروق، ١٩٩٥م.

٢١٨. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي-القاهرة، ١٩٩٤م.

٢١٩. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط(٧) ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢٢٠. محاضرات في النصرانية للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي- القاهرة، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٢٢١. المحصول للرازي، تحقيق الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط(٢) ١٤١٨هـ.

٢٢٢. مختار الصحاح للشيخ للرازي، عني بترتيبه: محمود خاطر، طبعة دار الفكر العربي.

٢٢٣. مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد كريم راجح، دار المعرفة - بيروت، ط(٥) ٢٠١٥م.

٢٢٤. مدارج السالكين لابن القيم، تحقيق الشيخ حامد الفقي، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢٢٥. المدارس الفكرية الإسلامية من الخوارج إلى الإخوان المسلمين لمحمد سليم العوا، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط(١) ٢٠١٨م.

٢٢٦. مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، ط(٥)، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٢٧. المدرسة القرآنية لمحمد باقر الصدر، دار المعارف-بيروت.

٢٢٨. المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر- دمشق، ط(٦) ١٤٣٨هـ.

٢٢٩. مراجعات في الفكر والدعوة والحركة لعمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي-فرجينيا، ط(١) ١٩٩١م.

٢٣٠. مراكز الحضارة الإسلامية (مواطنها-أطوارها-روادها) للدكتور حامد غنيم أبو سعيد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، جمهورية مصر العربية-القاهرة-الإسكندرية، ط(١) ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٣١. المرجع الكامل في الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية منذ سقيفة بني ساعدة إلى اليوم لصلاح أبو السعود، مكتبة النافذة، مصر، ط(١)

٢٠٠٥م.

٢٣٢. المستجدات الفقهية في العلاقات الدولية.. دراسة تأصيلية مقارنة ومسائل تطبيقية معاصرة؛ الدكتور: دايرو يوسف صديقي الصديق، دار النفائس-الأردن، ط(١) ٢٠١٢م.

٢٣٣. المستصفى في الأصول للغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط(١) ١٩٩٣م.

٢٣٤. المسلمون والديمقراطية دراسة ميدانية للمعتز بالله عبد الفتاح، دار الشروق-القاهرة، ٢٠٠٨م.

٢٣٥. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط(١) ٢٠٠١م.

٢٣٦. مشاهير علماء الأمصار، محمد بن حبان البُستي مصححه م. فلا يشهر، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة (٣٧٩هـ-١٩٥٩م) ص١٦.

٢٣٧. المشترك الإنساني-نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب لراغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، ط(١) ٢٠١١م.

٢٣٨. مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي-بيروت، ط(٣) ١٤٠٥هـ.

٢٣٩. المصباح المنير للفيومي، دار الكتب العلمية-بيروت.

٢٤٠. مع الأنبياء في القرآن الكريم، قصص ودروس وعبر من حياتهم لعفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان.

٢٤١. معجم المقاييس في اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: شهاب الدين بن عمرو، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط(١) ١٤٣٣هـ-

٢٠١١م.

٢٤٢. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، مكتبة المثنى، بيروت، د.ط، د.ت

٢٤٣. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية-الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول-تركيا.

٢٤٤. معجم لغة الفقهاء للدكتور محمد رواس قلعة جي، دار النفائس، ط(١) ١٤١٦هـ.

٢٤٥. معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، ط(١) ٢٠١٣م.

٢٤٦. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم - دمشق، ط(١) ١٤١٢هـ.

٢٤٧. مقارنة الأديان- اليهودية للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ط(١٢) ١٩٩٧م.

٢٤٨. المقارنة بين الإسلام واليهودية والنصرانية والاختيار بينهم لمحمد السيد محمد، بحث منشور على موقع بيت الإسلام.

٢٤٩. المقاصد الحسنة للسخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي-بيروت، ط(١) ١٩٨٥م.

٢٥٠. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الطلائع- القاهرة.

٢٥١. مقدمة الى الحوار الإسلامي المسيحي لمحمد السماك، دار النفائس، ط(١) ١٩٩٨م.

٢٥٢. المقدمة لابن خلدون، دار ابن خلدون- الإسكندرية.

٢٥٣. الملل والنحل للشهرستاني، طبعة مؤسسة الحلبي، بدون تاريخ.

٢٥٤. من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف للدكتور طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن- فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية، ط(١) ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م.

٢٥٥. مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه للذهبي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، لجنة إحياء المعارف النعمانية، ط(٣) ١٤٠٨هـ.

٢٥٦. المنثور في القواعد للزركشي، تحقيق: د. تيسير فائق أحمد محمود، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية-الكويت، ط(١) ١٤٠٥هـ.

٢٥٧. منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، ط(١) ١٤٠٦.

٢٥٨. المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، دار إحياء التراث العربي، ط(٢) ١٣٩٢هـ.

٢٥٩. منهج استنباط أحكام النوازل الفقهية المعاصرة - دراسة تأصيلية تطبيقية؛ الدكتور مسفر بن علي بن محمد القحطاني، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م) دار الأندلس الخضراء، جدة- المملكة العربية السعودية.

٢٦٠. منهج الإسلام في تقرير حقوق الإنسان، مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي، الكوثر- دار الفكر الإسلامي -القاهرة.

٢٦١. منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين لأبي جميل الحسن العلمي، دار الكلمة -القاهرة، ط(١) ١٤٣٤هـ.

٢٦٢. الموافقات للشاطبي تحقيق: مشهور حسن سليمان، دار ابن عفان- الأردن، ط(١) ١٤١٧هـ.

٢٦٣. المواقف للإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل-بيروت، ط(١) ١٩٩٧م.

٢٦٤. مؤتمر السقيفة وبيعة أبي بكر ﷺ (دراسة نقدية) للدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة-القاهرة، ط(١) ١٤٢٩هـ.

٢٦٥. المؤتمر القومي - الإسلامي في سطور بيروت - لبنان (١٤١٠هـ - ١٩٩٩م).

٢٦٦. موسوعة الأديان الميسرة، حررها عدد من العلماء، دار النفائس للطباعة، بيروت-لبنان، ط(٤) ١٤٢٨هـ.

٢٦٧. موسوعة الأديان للدكتور مهدي البصري، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن-عمان، ط(٢) ٢٠٠٣م.

٢٦٨. موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات لمحمد عبد الحليم عبد الفتاح، كنوز للنشر والتوزيع -القاهرة، ط(٤) ٢٠١٣م.

٢٦٩. موسوعة الفقه الإسلامي الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة -ط(١٩٩١م).

٢٧٠. الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، ط(٢) ١٤٠٦هـ.

٢٧١. الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، إشراف علمي: حسن عبد الحفيظ أبو الخير، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - جمهورية مصر العربية، ط(١) ٢٠١١م.

٢٧٢. موسوعة حقوق الإنسان للمستشار عبد الفتاح مراد، شركة البهاء - الإسكندرية.

٢٧٣. موسوعة مصطلحات الحضارة الإسلامية- مصطلحات علوم القرآن الجزء الأول: رئيس التحرير أ. د. عبدالحليم عويس، دار الوفاء للطباعة - مصر، ط(١) ١٤٢٨هـ.

٢٧٤. الموقع الرسمي لجماعة أنصار السنة المحمدية في السودان على النت: http: //ansar-alsuna. net

٢٧٥. الموقع الرئيسي للاتحاد الأوربي على الشبكة العالمية، الرابط: http: //europe. eu//index_en. htm.

٢٧٦. نحن والآخر دراسة فقهية تأصيلية للدكتور علي محيي الدين القره داغي، الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين - لجنة التأليف والترجمة.

٢٧٧. نشأة الحركة الإباضية لعوض محمد خليفات، دار الحكمة- لندن.

٢٧٨. النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف- دراسة تأصيلية تحليلية لمحماد بن محمد رفيع، دار السلام -القاهرة، ط(١) ١٤٣٣هـ.

٢٧٩. النماذج الأربعة من هدي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر: الأسس والمقاصد للدكتور علي جمعة، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، الجيزة - مصر، ط(١) ٢٠١٣م.

٢٨٠. نهاية السول شرح منهاج الأصول للأسنوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط(١) ١٤٢٠هـ.

٢٨١. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (المتوفى: ١٣٩٩هـ)، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١/ أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان .

٢٨٢. الوجيز في أصول الفقه للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة - ناشرون، دمشق-سوريا، ط(١) ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.

٢٨٣. وزاد المعاد في هدي خير العباد، البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت-لبنان، ط/ ٢، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م، ج/ ١٣، ص٢٣٤.

٢٨٤. الوسائل الاقتصادية في التعايش مع غير المسلمين في الفقه الإسلامي لصبحي أفندي الكبيسي وعبد الله حسن الحديثي، مجلة مداد الآداب، العدد (٣).

٢٨٥. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، المحقق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، طبعة ١٩٩٤هـ، ٤/ ٢١٦.

٢٨٦. يسألونك عن الأنصارية لعبد المحمود أبُّو، مطبعة المصابيح-أم درمان، ط(١) ٢٠١٨م.

٢٨٧. يسألونك عن المهدية للصادق المهدي، مكتبة جزيرة الورد-القاهرة، ط(٣) ٢٠١٥م.

٢٨٨. اليهودية واليهودية المسيحية للدكتور فؤاد حسنين علي، دار العالم العربي، ط(١) ٢٠١٦م.

نبذة عن المؤلف

الاسم: عبد المحمود أبّو إبراهيم عبد المحمود
abduelmahmodabou@gmail.com

الميـــــلاد: غبـيش – غـرب كردفـان- السـودان: ١٩٦٤م

❖ **المؤهلات العلمية:**

- **دكتوراة في الفقه المقارن (فقه التنوع – تأصيل التعايش) جامعة أم درمان الإسلامية ٢٠١٩م**

- ماجستير في الفقه المقارن – التنوع في المجتمعات الإسـلامية المعاصـرة ودور الشورى في إدارته – جامعة أم درمان الإسلامية ٢٠١٣م

- بكالوريوس [شريعة وقانون] جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٩٣م.

- الشهادة الأهلية [قراءات] معهد شروني للقرآن الكريم وعلومه ـ الخرطوم ١٩٨٩م.

❖ **المؤهلات التدريبية:**

- دور القيادات الدينية في مكافحة التطرف العنيف -كينيا ٢٠٢١م

- التعايش الديني في السودان نظمـه معهـد الـدين والدبلوماسـية بواشـنطن بالاشتراك مع مجلس الصداقة الشعبية العالمية.

- دور المنظمات الأهلية في المجتمع - جمهورية مصر العربية.

- دورة مضامين رسالة عمان في الأردن.

- ملتقى الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي في القاهرة (دورتين).
- أشرف على عدد من ورش التدريب والتأهيل في مجالات مختلفة.

❖ **الأنشطة الدعوية والادارية:**

- خطيب يؤم الناس لصلاة الجمعة من عام ١٩٨٣ وحتى الآن:٢٠٢٣م.
- أمين الدعوة والإرشاد – هيئة شؤون الأنصار: ١٩٩٣ – ١٩٩٥م.
- الأمين العام لهيئة شئون الأنصار: ١٩٩٥ – ٢٠٠٢م.
- أعيد انتخابه أمينًا عامًا لهيئة شئون الأنصار: ٢٠٠٢ – وحتى الآن
- رئيس المنتدى العالمي للوسطية – فرع السودان منذ٢٠١٢م
- رئيس مجلس إدارة مؤسسة المقاصد الخيرية.

❖ **المشاركات الخارجية:**

شارك في مؤتمرات دولية في كل من مصر والسعودية، والأردن، وتركيا، وإيران، والجزائر، ولبنان، وبريطانيا، وقطر، والبحرين، وسلطنة عمان، والعراق، وكينيا، ونيجيريا.

❖ **أنشطة أخرى:**

- عضو مجمع الفقه الإسلامي – السودان
- عضو المكتب التنفيذي لمجلس التعايش الديني.
- عضو مجلس جامعة أم درمان الإسلامية.

❖ **مؤلفات:**

١- يسألونك عن الأنصارية

٢- منهج الإسلام في إدارة التنوع

٣- الحوار في الإسلام حقائق ونتائج

٤- الوسطية في فكر الإمام الصادق المهدي.

٥- «قراءات وخوتطر في الفكر الإسلامي».

٦- الإسلام والدولة المدنية – جدل الدين والدولة.

❖ **أبحاث منشورة:**

١- الوحدة الإسلامية التحديات والفرص.

٢- التنوع الثقافي والحضاري ودور الفكر التنويري.

٣- مسارات الإصلاح في الفقه والأصول.

٤- إصلاحات ابن تيمية وأثرها في فقه العلاقات الدولية.

٥- منهج الوسطية في مواجهة التطرف.

٦- مقاومة الظلم – المشروعية والوسائل.

٧- النظام القضائي السوداني وتطوره.

٨- المسلمون والنهوض الحضاري.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
استهلال	٣
إهداء	٤
شكر وتقدير	٥
تقريظ	٦
مستخلص البحث	٩
Abstract	١١
مقدمة	١٢
الفصل الأول: تعريف الفقه، والتنوع، والخلاف، والتعدد، وأسس العيش المشترك ومبادئه	٢٥
المبحث الأول: في التعريف بالفقه، والتنوع، والخلاف، والتعدد	٢٦
المطلب الأول: في حقيقة الفقه لغة واصطلاحًا	٢٧
المطلب الثاني: تعريف التنوع والخلاف والتعدد.	٤٠
المطلب الثالث: التنوع والتعدد والاختلاف: المصطلح والمفهوم، والعلاقة بينها	٤٩
المبحث الثاني: فقه التنوع وعناصره	٥٧
المطلب الأول: فقه التنوع.	٥٩
المطلب الثاني: عناصر فقه التنوع.	٦٣
المطلب الثالث: مجالات فقه التنوع.	٧٦

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث: أسس العيش المشترك ومبادئه	٨٥
المطلب الأول: تعريف التعايش، وأسس العيش المشترك ومبادئه.	٨٧
المطلب الثاني: تأصيل مفهوم العيش المشترك في الإسلام.	٩٣
المطلب الثالث: مبادئ العيش المشترك.	١٠١
الفصل الثاني: التنوع الديني والحضاري	١١٣
المبحث الأول: التنوع الديني	١١٤
المطلب الأول: الإنسان والعقائد.	١١٥
المطلب الثاني: أهل الكتاب.	١٢٦
المطلب الثالث: موقف الإسلام الإيجابي من اليهودية والنصرانية	١٤٦
المبحث الثاني: الأديان الوضعية والحضارات التفصيلية	١٥٣
المطلب الأول: طبيعة الأديان الوضعية.	١٥٥
المطلب الثاني: الحضارات.	١٧٣
الفصل الثالث: تنوع الفرق والمذاهب في الإسلام	١٩١
المبحث الأول: الفرق الإسلامية	١٩٢
المطلب الأول: نشأة الفرق الإسلامية.	١٩٣
المطلب الثاني: المبادئ التي اختلفت فيها الفرق الإسلامية.	٢٠٦
المطلب الثالث: تطور العلاقة بين الفرق الإسلامية.	٢١٩
المبحث الثاني: التنوع الفقهي والفكري	٢٣٣

الموضوع	الصفحة
المطلب الأول: المذاهب الفقهية.	٢٣٥
المطلب الثاني: التيارات والجماعات الإسلامية.....	٢٤٨
المطلب الثالث: التيارات السياسية.	٢٧٢
الفصل الرابع: التأصيل الشرعي لفقه التنوع	٢٨٧
المبحث الأول: الأصول المؤسِّسة لفقه التنوع	٢٨٨
المطلب الأول: الأصول العقدية.	٢٨٩
المطلب الثاني: الأصول الفقهية.....	٢٩٧
المطلب الثالث: الأصول الأخلاقية.	٣٠٦
المبحث الثاني: المقاصد الشرعية للتنوع.....	٣١٩
المطلب الأول: التعارف.	٣٢١
المطلب الثاني: التعاون.	٣٣٥
المبحث الثالث: القيم الضابطة للتعامل مع الآخر في الإسلام.....	٣٤٧
المطلب الأول: مفهوم القيم الحضارية في الإسلام وخصائصها.	٣٤٩
المطلب الثاني: القيم والعلاقات الإنسانية.....	٣٥٨
الفصل الخامس: إدارة التنوع بين الإسلام والغرب	٣٧١
المبحث الأول: إدارة التنوع في الغرب	٣٧٢
المطلب الأول: المفاهيم المؤسسة للتعامل مع الآخر في الحضارة الغربية.	٣٧٣
المطلب الثاني: المواثيق الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان.	٣٨٠
المبحث الثاني: إدارة التنوع في واقع المسلمين	٣٩٣

الموضوع	الصفحة
المطلب الأول: العوامل التاريخية المؤثرة في العلاقة مع الآخر..	٣٩٥
المطلب الثاني: العوامل الثقافية الرافضة للتعامل مع الآخر.....	٤٠٩
المطلب الثالث: عوامل تعميق الخلاف في مجتمعات المسلمين.	٤١٨
المبحث الثالث: مطلوبات فقه التنوع في الواقع المعاصر	٤٣٥
المطلب الأول: إدراك الواقع والتحولات التي طرأت عليه.....	٤٣٧
المطلب الثاني: فقه معاملة الآخر من خلال المقاصد.....	٤٤٦
المطلب الثالث: فقه الأصل والعصر.....	٤٥٤
خاتمة	٤٦٣
النتائج.....	٤٦٥
التوصيات	٤٧١
الفهارس	٤٧٣
فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم	٤٧٤
نبذة عن المؤلف.....	٥٠٢
فهرس الموضوعات.....	٥٠٥